سيرة الرسول ﷺ

صور مقتبسة من القرآن الكريم

تأليف الأستاذ

محمد عزة دروزة

الجزء الثاني

عني بهذه الطبعة ونظم صورها

خادم العلم

عبد الله بن ابراهيم الانصاري

منشورات المكتبة العصرية

صيدا - بيروت

عَهد السّيرة النبويّة المَدني

محتويات هذا القسم

تمهيد

عهد الإسلام في المدينة سابق للهجرة ـ ظروف نشأته ـ مواكب المهاجرين تسبق النبي ـ بدء العهد المدني من السيرة النبوية ـ ماذا يعني القرآن المدني ـ حيزه بالنسبة لمجموع القرآن وميزاته البارزة ـ أسلوبه ومغزاه ـ القرآن المكي يحتوي مبادئ الإسلام والقرآن المدني يثبتها ويوسعها ـ استعراض أحداث العهد المدني حسب مواضيعه بسبب تداخل المواضيع القرآنية ـ ثبت في أسماء وترتيب نزول السور المدنية ـ تنبيه في صدد ترتيب السور المدنية ـ فصول العهد المدني .

الصورة الأولى

إن عهد الإسلام في المدينة قد بدأ في الحقيقة قبل الهجرة النبوية ؛ إذ ثبت من الروايات التي لا يكاد يكون خلاف في جوهرها[1] أن النبي صلى الله عليه وسلم اتصل قبل سنتين من هجرته بجماعة من الخزرج فدعاهم إلى الإسلام كما كان يفعل مع وفود العرب في موسم الحج ، وكانوا يسمعون من اليهود في المدينة بشارات عن النبي العربي الذي أظلّ وقت بعثته ، وزهواً بأنه سيكون معهم على غيرهم ؛ فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله أنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه ! فأجابوه إلى ما دعاهم ، وقبلوا الإسلام . وقالوا له إننا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى الله أن يجمعهم بك ؛ وإلى هذا انطوت الإشارة في بعض آيات سورتي آل عمران والأنفال هذه :

١ — وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا . . .

آل عمران ١٠٣

---

(١) انظر ابن هشام ج ٢ ص ٣١ وبعدها وابن سعد ج ١ ص ٢٠٠ وبعدها وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٨٢ وبعدها . والمصادر الثلاثة متطابقة إجمالا فيما أوردته في صدد اتصالات النبي صلى الله عليه وسلم بأهل المدينة وهجرته وهجرة أصحابه إليها .

٢ — وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . . .

الأنفال ٦٢ ـ ٦٣

ثم انصرفوا إلى بلدهم ، وعرضوا الأمر على قومهم فارتاحوا ووافقوا ؛ فلما كان العام التالي وافى الموسم جماعة من الأوس والخزرج معاً ، فاجتمعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم في مكان يعرف بالعقبة ، وبايعوه على الإسلام ومبادئه ؛ وقد أرسل معهم قارئاً يعلمهم القرآن وأركان الصلاة ويؤمهم فيها ، فأخذ الإسلام يفشو في المدينة ؛ وفي الموسم التالي جاء وفد كبير من الأوس والخزرج فاجتمع النبي به وطلب منه البيعة على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم إذا هو خرج إليهم ، فبايعوه ، وتسمى هذه البيعة بيعة العقبة الثانية الكبرى ، وطلب بعضهم منه عهداً بألا يدعهم إذا أظهره الله فيرجع إلى قومه بعد أن يكونوا قد قطعوا حبالهم مع حلفائهم ؛ فهتف بهم قائلا : بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . ثم اختار منهم اثني عشر زعيما فسماهم بالنقباء على بطون قبائلهم ، منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، وقد أخذت مواكب المهاجرين من مكة تتحرك إلى المدينة بعد ذلك تاركين وطنهم وأموالهم في سبيل الله ـ على ما ذكرناه في مبحث محنة الأذى والفتنة في الجزء الأول ـ فاستقبلهم أهل المدينة بالترحاب العظيم . ولقد احتوت إحدى آيات سورة الحشر إشارة إلى ما كان من تقدم عهد الإسلام في المدينة على الهجرة ، وما كان من ترحاب أهلها بالمهاجرين السابقين كما ترى فيها :

« وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . . . »

إذ احتوت صراحة خبر إيمان أهل المدينة وعدهم بلدهم دار هجرة للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين قبل أن يأتوا من مكة ، مع احتوائها الثناء العظيم على ما كان من إقبالهم على الإسلام بالرضا والطمأنينة ، ومن جعلهم مدينتهم التي نورها الله بالهجرة النبوية وجعلها مشرق شمس الدعوة الإسلامية ـ دار هجرة للنبي والمسلمين ، ومن ترحيبهم بالمهاجرين هذا الترحيب المادي والمعنوي الرائع .

وقد سماهم الله في القرآن بالاسم المحبب الكريم وهو « الأنصار » كما جاء في الآية التالية :

« وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ . » التوبة ١٠٠

ويُلفت النظر إلى جملة « والسابقون الأولون » إذ احتوت تنويهاً بالرعيل الأول منهم الذين أقبلوا على الإسلام واندمجوا فيه ، وبايعوا النبي على نصرته والدفاع عنه في ظرف كان النبي والمسلمون فيه في حالة ضعف وضيق ، وكان أعداؤهم أقوياء ألداء ، دون أن يبالوا ما يجره عليهم عملهم من مشاكل وإحن ؛ وهو عمل يستحق كل إكبار وإجلال .

أما عهد السيرة النبوية المدني فقد بدأ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد سنتين من اتصاله بأهلها ، وفشو الإسلام فيهم ، وهجرة من تمكن من الهجرة من أصحابه إليها ، بالظروف والكيفية التي شرحناها في مبحث محنة الفتنة والأذى مما لا حاجة إلى إعادته .

الصّورة الثانيَة

وكما يمثل القرآن المكي العهد المكي ؛ فإن القرآن المدني يمثل العهد المدني بطبيعة الحال . وننبه في هذا الصدد إلى أن هذه الصفة تشمل كل ما جرى من أحداث نبوية بعد الهجرة ولو لم تقع في نفس المدينة ، كما تشمل كل ما نزل من قرآن بعدها ؛

إذ نزلت آيات في طريق الهجرة ، وفصول وآيات في أثناء الغزوات خارج المدينة ، وفصول وآيات في مكة أو في جوارها حين خرج النبي إليها معتمراً مرة وفاتحاً مرة وحاجًّا مرة .

والقرآن المدني هو نحو ثلث القرآن عدد آيات ، وأكثر من ثلثه حيزاً وعدد أجزاء ، ونحو ربعه أو أكثر قليلا عدد سور ، على اختلاف في مكية ومدنية بعض هذه السور .

وله هو أيضا مميزات بارزة تختلف اختلافاً غير يسير عن القرآن المكي :

١ ـ فآيات القرآن المدني في الجملة أطول من آيات القرآن المكي ، كما أن السجع فيها يقل بل يندر .

٢ ـ وليس فيه ذلك الإسهاب في القصص ، ووصف الجنة والنار ، ومشاهد القيامة ، إذ اقتصر الأمر في هذا وذاك على الإشارة إليها والتذكير والوعد والوعيد بها .

٣ ـ وقد احتوى حملات شديدة على اليهود المعاصرين ، وأخلاقهم ومواقفهم الماكرة الجاحدة وحجاجهم ، كما احتوى شيئاً من الحملة على النصارى وانحرافاتهم .

٤ ـ وكذلك احتوى حملات شديدة على المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر ، ووقفوا من النبي والحركة الإسلامية مواقف ماكرة مزعجة .

٥ ـ وفيه فصول عدة في الدعوة إلى الجهاد ووقائعه .

٦ ـ وقد احتوى فصولا تشريعية وتقنينية وتعليمية وتأديبية في مختلف النواحي . وتبدل أسلوب الحث والتشجيع في الشؤون الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الذي هو الغالب في القرآن المكي ، إلى أسلوب الأمر والفرض في الإجمال .

٧ ـ ومما احتواه القرآن المدني فصول عدة عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيتية ، مما لم يرد شيء عنه تقريباً في القرآن المكي .

٨ ـ ومع أنه لم يخل من فصول جدلية ، أو حملات على الكفار فإن أسلوب هذه الفصول والحملات ، وكذلك أسلوب الفصول والحملات على اليهود والمنافقين ومرضى القلوب ، يصطبغ في الإجمال بأسلوب القوي العزيز ، الذي أمكنته الفرصة من نفسها ليطهر البيئة من الأدران والانحرافات والمكر والدسائس ، وضمانة الحرية الدينية ، وإعلاء كلمة الله ، وتقرير ماينبغي أن يكون عليه الكيان الإسلامي سياسيا واجتماعيا مما هو متسق مع تطور الدعوة وانتشارها ورسوخها ، وتطور مركز النبي والمسلمين بالتبعية من الضعف إلى القوة ، ومن القلة إلى الكثرة ، ومن القلق إلى الاستقرار ، ومن الخوف إلى الأمن ، مصداقا لوعد الله في هذه الآية :

« وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ... » النور ٥٥

وإلى هذا التطور يرجع كذلك ماذكرناه من تبدل الأسلوب في البند السادس كما هو المتبادر .

وننبه إلى أمر مهم : وهو أن ما كان من تطور تشريعي وتعليمي وتأديبي فى مختلف النواحي ، وما كان من تطور في موقف النبي والمسلمين ، وما كان لهذا التطور من نتائج، ثم ما كان من تطور أسلوبي في القرآن ـ لم يكن ليخرج فى جوهره ومداه وخطوطه الأساسية عن مبادئ وأهداف الدعوة المتنوعة التي رسمت في القرآن المكي ، مما سوف نعود إليه بشيء من الإسهاب في فصل التشريع .

الصورة الثالثة

والفصول القرآنية المدنية في المواضيع المتنوعة متداخلة بحيث يوجد شيء من كل موضوع في مختلف أدوار التنزيل المدني ، شأنها في ذلك شأن الفصول المكية

ومواضيعها ؛ ولذلك جرينا في استعراض صور العهد المدني وأحداثه على الطريقة التي جرينا عليها في عرض صور وأحداث العهد المكي ، أي على حسب المواضيع مع ملاحظة ظروف وأدوار صور المواضيع الزمنية بقدر مايمكن أن تلهم الآيات ويستأنس به من الروايات أولا ، ومن ترتيب نزول السور ثانياً ؛ كما فعلنا في صور ومشاهد العهد المكي .

وقد رأينا أن نضع هنا أيضاً ثبتاً بأسماء السور المدنية على حسب ترتيب نزولها في مختلف الروايات والتراتيب كما فعلنا في السور المكية ، ليستعين به القارئ على ملاحظة أدوار الصور والمشاهد ، وهذا هو الثبت :

تراتيب النزول

أسماء السور	جابر بن زيد	ابن عباس	الحسين وعكرمة	السيوطي	مجمع البيان	الخازن	مصحف فؤاد	المصحف	أسماء السور	جابر بن زيد	ابن عباس	الحسين وعكرمة	السيوطي	مجمع البيان	الخازن	مصحف فؤاد	المصحف
البقرة	١	١	٢	١	١	١	١	٢	الحشر	؟	١٥	١٧	١٥	١٥	١٥	١٥	٥٩
الأنفال	٣	٢	٤	٢	٢	٢	٢	٨	النور	٨	١٧	١٩	١٧	١٧	١٩	١٦	٢٤
آل عمران	٢	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	الحج	٩	١٨	٢٠	١٨	١٨	٢٠	١٧	٢١
الأحزاب	٤	٤	٥	٤	٤	٤	٤	٣٣	المنافقون	١٠	١٩	٢١	١٩	١٩	٢١	١٨	٦٣
الممتحنة	٦	٥	٧	٥	٥	٥	٥	٦٠	المجادلة	١١	٢٠	٢٢	٢٠	٢٠	٢٢	١٩	٥٨
النساء	؟	٦	٨	٦	٦	٦	٦	٤	الحجرات	١٢	٢١	٢٣	٢١	٢١	٢٣	٢٠	٤٩
الزلزلة	؟	٧	٩	٧	٧	٧	٧	٩٩	التحريم	١٣	٢٢	٢٤	٢٦	٢٦	٢٤	٢١	٦٦
الحديد	؟	٨	١٠	٨	٨	٨	٨	٥٧	التغابن	١٥	٢٤	٢٧	٢٤	٢٤	٢٧	٢٢	٦٤
محمد	؟	٩	١١	٩	١٠	٩	٩	٤٧	الصف	١٦	٢٥	٢٥	٢٥	٩	٢٥	٢٣	٦١
الرعد	؟	١٠	١٢	١٠	١٠	١٠	١٠	١٣	الجمعة	١٤	٢٣	٢٦	٢٣	٢٣	٢٦	٢٤	٦٢
الرحمن	؟	١١	١٣	١١	١٢	١١	١١	٥٥	الفتح	١٥	٢٦	٢٨	٢٢	٢٢	٢٤	٢٥	٤٨
الإنسان	؟	١٢	١٤	١٢	؟	١٢	١٢	٧٦	المائدة	٥	٢٧	٦	٢٧	٢٥	٣٠	٢٦	٥
الطلاق	؟	١٣	١٥	١٣	١٣	١٣	١٣	٦٥	التوبة	٦	٢٨	٢٩	٢٨	٢٧	٢٩	٢٧	٩
البينة	؟	١٤	١٦	١٤	١٤	١٤	١٤	٩٨	النصر	٧	١٦	١٨	١٦	١٦	١٨	٢٨	١١٠

١ ـ الإشارة «؟» تعني عدم ورود اسم السورة في الترتيب .

٢ ـ سورة الإنسان في مجمع البيان مكية ورقمها ٦٤ .

٣ ـ سورة المطففين في عكرمة والحسين مدنية ورقمها ١ .

٤ ـ البينة والزلزلة والإنسان والتغابن والصف والرحمن والحج والرعد والحديد مما ورد زوايات بمكيتها ، والصف والحديدلاتتحملان هذا البتة ، والزلزلة والإنسان والرحمن والحج تتحمله مع الرجحان ، والبينة والتغابن يمكن أن تتحملاه ولكن مدنيتها تبدو هي الراجحة .

الصّورة الرابعة

ونبه إلى نقطة مهمة ، وهي أن التجوز في ترتيب نزول السور المدنية أكثر منه في ترتيب نزول السور المكية ؛ والراجح أن روايات الترتيب مستمدة من روايات نزول الفصل الأول أو الفصول الأولى من السور ؛ وخاصة بالنسبة للطويلة منها . فوحدة الموضوع في السور المكية ، وتناسب فصولها ، واتساق الأكثر في النظم ـ يسوغ القول أن السور التي يحتمل ألّا تكون قد نزلت مرة واحدة قد تلاحقت فصولها بحيث يصح الترجيح بأنه لم ينزل فصول من سورة أخرى قبل أن تكون فصول السورة السابقة قد تلاحقت وكملت ، في حين أن هذا لا يطرد بالنسبة لكثير من السور المدنية ، فالسور الطويلة منها قد تعددت فيها المواضيع وتنوعت ، وفي بعضها دلالات على أن بعض فصول وآيات سورة متقدمة في ترتيب النزول قد نزلت بعد فصول وآيات سورة متأخرة ، وبالعكس ؛ ومع أن هذا يبرز في السور الطويلة أكثر فإنه يلاحظ في بعض السور المتوسطة ، بل القصيرة أيضاً .

ومع ذلك فإنه ليس من العسير تمييز ذلك ، كما أن هذا لا يعطل إمكان الانتفاع من تراتيب نزول السور المدنية بالمرة ، ولا يجرحها بالمرة من حيث الإجمال .

الصّورة الخامسة

أما فصول العهد المدني فهي هذه :

١ ـ سير وأدوار انتشار الدعوة الإسلامية .

٢ ـ اليهود في العهد المدني .

٣ ـ النصارى في العهد المدني .

٤ ـ المنافقون في العهد المدني .

٥ ـ الجهاد وسيره ونتائجه .

٦ ـ التشريع القرآني المدني ومداه .

وواضح من هذا أن هذه الفصول هي أبرز موضوعية من فصول العهد المكي ؛ مما هو متسق مع طبيعة هذا العهد التي أشرنا إليها قبل ، والتي سنزيدها إيضاحا في سياق كل فصل.

فصـــل

في أدوار وسير انتشار الدعوة الإسلامية
في العهد المـــدني

تمهيد

قد لا يكون في القرآن المدني ـ باستثناء سورة النصر التي نزلت بعد الفتح ونصت بصراحة على دخول الناس في دين الله أفواجا ـ ما فيه صراحة تساعد على تجلية سير وأدوار انتشار الدعوة الإسلامية في العهد المدني ، غير أن من الممكن تبين ذلك إلى درجة غير يسيرة من الآيات والفصول القرآنية التي نزلت في مختلف أدوار التنزيل المدني ، في صدد أحداث ذلك العهد ووقائعه التي سوف نستعرضها في فصولها الخاصة . أما حالة المسلمين الخاصة والعامة في هذا العهد ، ففي القرآن المدني من الآيات ما يمكن اقتباس جملة صالحة من الصور لها .

وستكون مباحث هذا الفصل مقصورة من ناحية على سير وأدوار انتشار الدعوة الإسلامية بين العرب دون الكتابيين ، ومن ناحية على صور المسلمين دون المنافقين أولا ، وعلى الصور التي لاتتصل بحركة الجهاد وسير التشريع ثانياً ؛ لأن كل هذا سيأتي في فصوله الخاصة . وهكذا تكون مباحث الفصل كما يلي :

١ — سير وأدوار انتشار الدعوة في منطقة مكة وما وراءها .

٢ — » » » » » منطقة المدينة

٣ — » » » » » المناطق الأخرى .

٤ — صور متنوعة للمسلمين في العهد المدني .

....

المبحث الأول

سير انتشار الدعوة في منطقة مكة وما وراءها

استمرار موقف الجحود في منطقة مكة بوجه عام إلى صلح الحديبية ـ احتمال انضمام بعض قبائل هذه المنطقة للاسلام نتيجة لهذا الصلح ـ حوادث التحاق وإسلام فردية قبل هذا الصلح ـ انضمام الأشعريين إلى الإسلام بعد هذا الصلح ومغزاه ـ فتح مكة وتدين أهلها بالإسلام ونتائجه الحاسمة في انتشار الدعوة في منطقتها وما وراءها .

الصورة الأولى

يمكن أن يقال استدلالا من أحداث العهد المدني وما كان من عداء ونضال مستمرين بين النبي والمسلمين من جهة وأهل مكة من جهة أخرى مما احتوى القرآن المدني إشارات عدة إليه ، إن أهل مكة ومن ظل متأثراً بموقفهم الجحودي والعدائي ـ وخاصة من كان في منطقتهم من قرى وقبائل ـ قد ظلت أكثريتهم الساحقة جاحدة منقبضة عن الاستجابة إلى الدعوة إلى أن فتحت مكة ودانت للإسلام ، أي إلى السنة الثامنة بعد الهجرة .

يدل على هذا ما كان من تجمع قريش وحلفائها من القبائل العربية ، وزحفهم على المدينة في السنة الهجرية الخامسة ، وهو الزحف العظيم الذي عرف بوقعة الخندق أو الأحزاب ، والذي كان امتداداً لحالة الحرب القائمة بين أهل مكة والنبي صلى الله عليه وسلم ، والتي وقع بسببها اشتباكات يسيرة وكبيرة أهمها وقعتا بدر وأحد . ولقد كان المكيون في وقعة أحد في موقف المنتصر ، فرأوا على ما يبدو أن يدعوا إلى حركة زحف كبرى يشترك فيها معهم كل من والاهم وتآمر معهم من حلفاء وأحزاب ليضربوا الضربة القاضية؛ ودخل في المؤامرة يهود المدينة أيضاً ؛ وقد كان عدد الجيوش الزاحفة نحو عشرة آلاف في حين كان عدد المدافعين عن المدينة نحو ثلاثة آلاف ، فيهم عدد غير قليل من المنافقين الذين اشتركوا في الدفاع والتهيؤ له بسائق العصبية والمصلحة الوطنية والقبلية المشتركة.

ولم يتبدل الموقف إجمالا بعد ارتداد الأحزاب عن المدينة بغيظهم دون أن ينالوا خيراً كما ذكرت ذلك إحدى آيات الأحزاب ؛ لأن حالة الحرب والعداء ظلت قائمة إلى مابعد سنتين تقريبا ، أي إلى أن انعقدصلح الحديبية في أواخر السنة السادسة ؛ وهو الصلح الذي نزلت فيه سورة الفتح .

ومما يجدر التنبيه إليه أنه لم يرد في الروايات مايفيد أن جماعة من الناس ممن كان وراء مكة من أهل المناطق الساحلية والجنوبية والشرقية في الجزيرة قد التحقت بالإسلام وبدار الهجرة قبل هذا الصلح ، غير أن الروايات ذكرت أن هذا الصلح انتهى ـ فوق وقف حالة الحرب ـ إلى تخيير بعض القبائل الساكنة في منطقة مكة في الانضمام إلى الفريق الذي يرغبون ، وقد انضمت خزاعة إلى النبي ودخلت في عهده وصلحه ، في حين انضم بنو بكر إلى أهل مكة لما كان بين القبيلتين من عداء . وليس من المستبعد إن لم نقل إنه من المرجح أن تكون قبيلة خزاعة قد انضمت إلى النبي عهداً وإسلاماً .

الصُّورَة الثانيَة

إذا كان هذا هو حال الغالبية إلى وقت ذلك الصلح ، والذي استمر على الأرجح إلى فتح مكة ، فإن هناك آيات تدل على أنه كان يلتحق بعض الأفراد بالمدينة ؛ وينضم إلى الإسلام ، ففي سورة الأنفال مثلا الآية التالية :

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُو۟لُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ . . . » ٧٥

إذ تضمنت صراحة أن بعض العرب ـ والفقرة الأخيرة تلهم أنهم مكيون يمتّون بالقربى إلى المهاجرين السابقين ـ قد التحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم مهاجرين مؤمنين ، وأخذوا يشتركون في الجهاد تحت لوائه . وسورة الأنفال قد نزلت عقب غزوة بدر التي وقعت في

أواخر النصف الأول من السنة الهجرية الثانية ، مما يسوغ القول إن هذه الحركة الفردية قد بدأت مبكرة من العهد المدني .

وفي سورة الحشر التي نزلت عقب جلاء بني النضير الذي كان في أواخر السنة الثالثة وبعد قليل من وقعة أحد ، الآية التالية :

« وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . . . »

١٠

وهذه الآية جاءت بعد آيتين ذكر في أولاهما مهاجرو قريش السابقون ، وفي ثانيتهما مسلمو المدينة السابقون أيضاً ؛ وهي وإن كانت مطلقة فإنها تحتمل أن يكون المقصود فيها أناسا من أهل المدينة وأناسا من أهل مكة أيضاً .

الصورة الثالثة

ولقد أعقب صلح الحديبية زحف النبي على خيبر ، وهو الزحف الذي أشير إليه إشارة غامضة في سورة الفتح ، أجمع المفسرون على أنه هو المقصود بها في هذه الآيات :

١ — سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ...

١٥

٢ — وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيماً . وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً . . .

٢٠ — ٢١

وقد ذكرت روايات معتبرة[1] أن وفداً من الأشعريين اليمانيين جاء إلى المدينة بطريق

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١١١

البحر وأسلم في ظروف هذا الزحف ؛ وهذا يدل على أن صلح الحديبية قد يسر لهـذه الجماعـة من أبناء الأنحاء القاصية طريق السير والالتحاق بالإسلام ، وليس من المستبعد إذا لم نقل إنه من المرجح أن تـكون جماعات أخرى من منطقة مكة وما وراءها قد اغتنمت الفرصة وحذت هذا الحذو . وفي الروايات(١) أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهما قد التحقا بالمدينة وأسلما عقب هذا الصلح . والروايات تذكر كذلك أن وفداً من بني عبيد بن عدي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم قبل فتح مكة فقالوا له (نحن أهل الحرم وساكنه . وأعز من به . ولا نريد قتالك . ونحبك . ونريد أن نقاتل معك غير قريش . ولـكنا لا نقاتل قريشاً . فقبل منهم شرطهم فأسلموا)(٢) والراجح أن وفادة هذا الوفد كانت بعد صلح الحديبية . وبعد سنتين من هذا الصلح غزا النبي صلى الله عليه وسلم مكة وفتحها . ودان أهلها بالإسلام مما سوف نشرح خبره في سلسة الوقائع الجهادية فـكان هذا خاتمة سعيدة لموقف الجحود والعداء الشديد المديد الذي وقفه أهل مكة . وانهـدم بها السور الـكثيف الذي كان يتمثل بذلك الموقف ويحول دون انضمام العرب من منطقة مكة وماوراءها إلى الراية الإسلامية . فلم يلبث أهل هذه المنطقة من قرى وقبائل أن تابعوهم ودانوا بالإسلام . منهم من فعل ذلك بيسر . ومنهم من فعله بعد تلـكؤ بل وبعد مصاولات حربية مثل ثقيف وهوازن على ماسوف نشرح خبره في فصل آخر . ولم يلبث الجنوب العربي من وراء مكة أن تحرك استجابة لداعي الإسلام فأخذت وفوده تفد على النبي صلى الله عليه وسلم وتبايعه على الإسلام في العامين التاسع والعاشر . ويمثل هذه الحركة قرآناً مافي سورة النصر من شمول كما ترى فيها .

« إِذَا جَـآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا . »

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٣١٩ . (٢) ابن سعد ج ٢ ص ٧٠ .

المبحث الثاني

انتشار الدعوة في منطقة المدينة

مدى انتشار الإسلام في المدينة قبل الهجرة النبوية ـ المنافقون منضمون إلى الإسلام من الوجهة النظرية والمظهرية ـ موقف قبائل منطقة المدينة الجحودي والعدائي إلى مابعد وقعة الخندق ـ انضمام بعض القبائل بعدها إلى الإسلام ـ تكاثر المنضمين من القبائل قبل الفتح المكي ـ تزايد الانضمام بعد الفتح وشمول الإسلام

الصورة الأولى

لقد ذكرت الروايات المعتبرة[1] أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يهاجر إلى المدينة إلاّ والإسلام قد فشا فيها حتى ما يكاد يخلو بيت منه، نتيجة لمبايعة فريق كبير من زعماء الأوس والخزرج معاً للنبي، وإرسال النبي معلماً وقارئاً وداعياً قبله، وهجرة أكثر المسلمين قبل كذلك.

ولعل آية سورة الحشر (٩) التي أوردناها في التمهيد تدعم تلك الروايات بوجه الإجمال.

ومن تحصيل الحاصل أن يقال إن نطاق انتشار الإسلام بين عرب المدينة الذين كانت كثرتهم العظمى من الأوس والخزرج قد اتسع بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم حتى شملتهم في زمن يسير. وهو ما عرف يقيناً من وقائع السيرة ورواياتها.

وإذا كان حقاً أنه كان في المدينة فئة من المنافقين وأنه كان مندمجاً فيها فريق غير قليل من الخزرج والأوس بل وفيها بعض الزعماء الأقوياء أيضاً منهم. وأن حركة النفاق فيها كانت قوية مزعجة في مبادئ العهد المدني وظلت كذلك إلى أوائل النصف الثاني منه. وأن القرآن كثيراً ماوصفهم بالكفر وحكى مواقفهم الكيدية والساخرة والكافرة مما سوف نشرحه في فصلهم الخاص؛ فإن هذه الفئة من الوجهة النظرية والمظهرية تعتبر

---

(١) ابن هشام ج ٢ ج ٣١ وبعدها.

منضوية إلى الإسلام أيضاً . لأنها كانت تعلن الإسلام . وتؤكد إيمانها بالله والرسول وتنكر كفرها وتصلي وتصوم وتؤدي الزكاة وتشترك في الحركات الجهادية على ما حكاه القرآن عنها ولو في معرض التنديد والتكذيب .

ولقد كان في المدينة جماعات كبيرة من اليهود على اليقين . ونفر من النصارى على الاحتمال . وموقف هؤلاء من الدعوة الإسلامية سيكون موضوع فصل خاص .

الصُّورَة الثانيَة

أما من حول المدينة من القبائل فإن عدم ذكر الروايات خبر اشتراك أحد منهم في الوقائع الحربية التي وقعت في السنوات الخمس الأولى من الهجرة النبوية إلى جانب المسلمين ، يدل على أنه لم يكن قد انضوى إلى الإسلام منهم أحد إلى السنة المذكورة . وإذا لاحظنا أن وقعة الخندق خاصه كانت زحفا عظيما متحالفاً ، وأن خبره قد وصل قبل قدومه بمدة ما تمكن المسلمون فيها من حفر الخندق حول المدينة ، لم يعد ثمة محل لورود أي احتمال آخر ، لأنه لو كان هناك مسلمون بمقياس واسع في القبائل المجاورة لكان النبي صلى الله عليه وسلم استنفرهم إلى شد أزر المدينة في دفع الكارثة التي كادت تعصف بها وبالإسلام ، والتي وصفتها ووصفت أثرها الشديد بعض آيات الأحزاب وصفاً قوياً كما ترى فيما يلي :

« إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا . هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيداً . » ١٠ – ١١

هذا إلى ما احتوته روايات السيرة المعتبرة من أخبار عدد غير يسير من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه ضد قبائل العرب النازلة حول المدينة أو في منطقة حدودها ، مما يدل على وقوف هذه القبائل موقف البغي والعداء من المسلمين والحركة الإسلامية .

وكلامنا منصب على الالتحاق الجمعي بالإسلام ، ولا ننفي الالتحاق الفردي به من القبائل والقرى المجاورة للمدينة ، بل نحن نرجح أن مثل هذا الالتحاق قد أخذ يقع منذ الهجرة النبوية ، أما بعد وقعة الخندق فالقرآن يلهمنا أن الحال قد تبدل ؛ ففي سورة الفتح التي نزلت كما قلنا عقب صلح الحديبية واحتوت بعض وقائع الرحلة والصلح ، وردت الآيات التالية :

١ — سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ١١ — ١٢

٢ — سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . . .

١٥ — ١٦

فهذه الآيات تدل بصراحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد دعا أعراباً لمرافقته في زيارة الكعبة التي اعتزمها والتي انتهت بعقد صلح الحديبية ، وأنهم تخوفوا أن تكون مثار كل واشتباكات بينه وبين أهل مكة ، وأن تدور الدائرة على المسلمين ، فتهربوا وتخلفوا ثم جاؤوا يعتذرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد عودته موفقاً وقد اعترف به أهل مكة وتفادوا الاشتباك معه .

وقد قال بعض كتاب السيرة الحديثين[١] إن هؤلاء الأعراب المتخلفين لم يكونوا مسلمين ، وإنما كانوا مسالمين أو موالين ، دعاهم النبي ليشهد على براءة قصده في الزيارة ، وعدم تبييته أي نية للقتال ، وقدومه في زيارة دينية موسمية عامة يشترك فيها عادة جميع العرب على اختلاف أديانهم ومنازلهم .. ولكن الكاتب لم ينتبه على ما يبدو إلى القرائن الحاسمة في الآيات ؛ إذ تضمنت الآية (١١) طلب الأعراب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم لهم ، مما لا يمكن أن يكون إلا من مسلمين ، وإذ تضمنت الآية (١٦) أن الله يريد أن يختبرهم في موقف آخر يقاتلون فيه أعداء أقوياء حتى يدينوا بالإسلام ، ولا يمكن أن يدعى إلى مثل ذلك الموقف الا مسلمون[٢] .

وقد قلنا إن رحلة النبي صلى الله عليه وسلم إلى زيارة الكعبة قد كانت في أواخر السنة السادسة للهجرة . ومعنى هذا أن هؤلاء الأعراب الذين ذكرتهم آيات سورة الفتح قد دانوا بالإسلام قبل صلح الحديبية .

الصورة الثالثة

وليس في القرآن ما يمكن استلهامه عن الحالة في المدة بين صلح الحديبية والفتح المكي

---

(١) الدكتور هيكل في كتابه « حياة محمد » .

(٢) في روايات السيرة المعتبرة بيانات مؤيدة لذلك نوجزها فيما يلي :

١ ـ في السنة الخامسة الهجرية قدم إلى المدينة وفد كبير من مزينة فبايعوا النبي ﷺ على الإسلام . وأمرهم بالعودة إلى منازلهم إلى أن يدعوهم . ابن سعد ج ٢ ص ٧٠

٢ ـ وفد رهط من بني عبس في وقت مبكر بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة فأسلموا . وأرسلهم النبي ﷺ يعترضون عيراً لقريش أقبلت من بلاد الشام . نفس المصدر ص ٥٧

٣ ـ وفد ضمام بن ثعلبة بن سعد بن بكر على النبي ﷺ في السنة الخامسة فسأله مسائل كثيرة ثم أسلم وعاد إلى قومه فدعاهم فأسلموا وبنوا المساجد . نفس المصدر ص ٦٤

٤ ـ وفد وفد كبير من أشجع على النبي صلى الله عليه وسلم عام الخندق رأس السنة الخامسة ـ فقالوا له لا نعلم أحداً من قومنا أقرب داراً منك منا ولا أقل عدداً . وقد ضقنا بحربك وحرب قومك فجئنا نوادعك فوادعهم ثم لم يلبثوا أن أسلموا . نفس المصدر ص ٧١

٥ ـ غزا النبي صلى الله عليه وسلم بني المصطلق في المريسيع في السنة الخامسة وانتصر عليهم وأسر وغنم منهم . ثم تزوج بنت زعيمهم جويرية بنت الحارث رضي الله عنها فأدى ذلك إلى إسلامهم . ابن سعد ج ٣ ص ١٠٤ ـ ١٠٧ وابن هشام ج ٣ ص ٣٣٩

الذي كان في أواخر السنة الثامنة للهجرة . غير أن فيه آيات ذات مغزى كبير . وهي الآيات التي جاءت في سورة التوبة في صدد وقعة حنين على سبيل التذكير وهي هذه :

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ... » ٢٥ — ٢٦

وواضح من النص أن عدد المسلمين كان كبيراً في ذلك اليوم حتى اغتروا بكثرتهم. ويوم حنين كان عقب الفتح المكي بين المسلمين من ناحية وهوازن من ناحية ثانية والروايات المعتبرة[1] تذكر أن جيش الفتح الذي زحف النبي ﷺ على رأسه نحو مكة وشهد بعد فتحها يوم حنين قد بلغ نحو عشرة آلاف . والمتبادر أن هذه الكثرة إنما كانت نتيجة انضمام كثير من القبائل العربية في منطقة المدينة إلى الإسلام في المدة الواقعة التي مرت بين صلح الحديبية والفتح المكي ويوم حنين[2] بحيث يمكن أن يقال إن كثيراً من القبائل

---

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٣ وبعدها وابن سعد ج ٣ ص ١٨١ وبعدها .

(٢) في روايات السيرة بيانات مؤيدة نوجزها فيما يلي :

١ — قدم عميرة بن أفصى في عصابة من أسلم فقالوا قد آمنا بالله والرسول واتبعنا منهجك فاجعل لنا عندك منزلة تعرف العرب فضيلتها فإنا أخوة الأنصار ولك علينا الوفاء والنصر في الشدة والرخاء فقال رسول الله ﷺ (أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها وكتب لأسلم ومن أسلم من قبائل العرب ممن يسكن السيف أي ساحل الوادي والسهل كتابا : فيه ذكر الصدقة والفرائض في المواشي .

ابن سعد ج ٢ ص ١١٦ — ١١ .

وابن سعد ذكر أن كتائب من أسلم وغفار اشتركت في جيش الفتح المكي (ج ٣) حيث يفيد هذا أن إسلامهم كان سابقاً للفتح .

٢ — قدم وفد من جهينة على النبي ﷺ قبل الفتح وأسلموا وأقاموا في ضواحي المدينة وأرسلوا إلى قومهم فتابعوهم على الإسلام . ابن سعد ج ٢

والمؤلف . روى أن جهينة اشتركت كذلك في جيش الفتح .

٣ — وفد من بني سليم على النبي ﷺ وافد واسمه قيس قبل الفتح فاسلم ثم عاد إلى قومه فأخبرهم بأثر النبي في نفسه وصدقه وحضهم على الإسلام فلما كان عام الفتح خرجوا إلى رسول الله فأدركوه في قديد في طريقه إلى مكة فأسلموا وشهدوا فتح مكة ويوم حنين . ابن سعد =

التي كانت في منطقة المدينة قد دانت بالإسلام قبل الفتح المكي . وقد احتطنا في التعميم لأن هناك آيات تلهم أنه كان بين النبي ﷺ وبعض القبائل مواثيق صلح مما لا يكون إلا مع غير المسلمين ، وأنه كان منهم أناس حياديون ، إلى آخرين كانوا أعداء محاربين ولأننا لم نستطع أن نجزم بوقت معين لهذا الموقف الذي ذكرته الآيات ؛ وهذه هي :

« إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا . سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ... » النساء ٩٠ ـ ٩١

وقد قال الرواة إن المعنيين في الآية الأولى هم بنو أسلم وفريق من بني مدلج ، وفي الآية الثانية هم أسد وغطفان أو فريق منهم ؛ كذلك ذكرت الروايات أن غطفان كانوا غير مسلمين ، وأنهم حاولوا أن ينصروا أهل خيبر حلفاءهم حينما زحف النبي صلى الله عليه وسلم على خيبر .

وفي سورة التوبة آيات قد تلهم ما تلهم آيات النساء هذه مع إيضاح للوقت أكثر ، وهذه هي :

= ٤ ـ كان ممن أعطاهم النبي ﷺ من غنائم هوازن يوم حنين تألفاً لقلوبهم : نوفل بن عبد مناة من زعماء بني بكر بن عبد مناة من كنانة . وعلقمة بن علاثة ولبيد بن رفاعة من زعماء بني عامر بن صعصعة . وخالد بن هوذة وحرملة بن هوذة من زعماء بني عامر بن ربيعة . وعيينة بن حصن بن حذيفة زعيم بني فزارة والأقرع بن زعيم بني تميم (انظر ابن هشام ج ٤ ص ١٣٨ وبعدها) والمتبادر أن هؤلاء الزعماء كانوا على رأس جماعات من قبائلهم وأنهم مع جماعاتهم كانوا قد دانوا بالإسلام قبل الزحف على مكة . وفي سياق ابن هشام ما يؤيد ذلك .

« بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ . وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .. إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ... » ١ — ٤

إذ تلهم بصراحة أنه كان هناك مشركون معاهدون إلى ما بعد الفتح المكي ، منهم من ظل وفيا لعهده ، ومنهم من بدا منه الغدر فاستحق إعلان البراءة منه مع إعطائه مهلة أربعة أشهر هي الأشهر الحرم ؛ لأن البراءة قد أعلنت من قبل أمير الحج أو رسول النبي الخاص — على اختلاف الروايات — يوم الحج الأكبر ، وهو ما تلهمه الآيات نفسها ، والاستثناء تابع للكلام السابق كما هو ظاهر ، وكل ما في الأمر أنه ليس من الممكن بالإلهام القرآني تعيين هوية هؤلاء المعاهدين الغادرين والموفين ، وإن كنا نرجح أنهم من قبائل منطقة المدينة ، لأن القبيلة المشركة التي دخلت في عهد أهل مكة في صلح الحديبية وهي بنو بكر قد نقضت العهد مع بني خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم مما كان سبباً مباشرا لغزو مكة وفتحها ؛ فلا يحتمل أن تدخل في شمول الآيات ، كما أنه لم يرو فيما نعرف أنه كان بين النبي ومشركي مكة ومنطقتها وقبائلها عهد غير عهد الحديبية .

الصّورة الرابعة

وفي سورة التوبة آيات مما نزل في ظروف غزوة تبوك — التي كانت بعد الفتح المكي بنحو سنة — تذكر الأعراب المسلمين الذين هم في منطقة المدينة في صيغة التعميم كما ترى فيها :

١ — وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . . . ٩٠

٢ — وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ٩٨ — ٩٩

٣ — وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ . . . ١٠١

٤ — مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ... ١٢٠

وأسلوب الآيات يلهم أن الإسلام قبيل هذه الغزوة كان قد عم جميع الأعراب في منطقة المدينة ، بغض النظر عن نفاق بعضهم في إسلامه .

المبحث الثالث

مدى انتشار الدعوة الإسلامية في المناطق الأخرى

إن سورة النصر هذه :

« إِذَا جَـآءَ نَصْرُ ٱللهِ وَٱلْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجاً . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً . »

التي نزلت في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم تتضمن من دون ريب دلالة على ما كان من إقبال الناس على اعتناق الإسلام بمقياس واسع مما يمكن أن يدخل فيه سكان المناطق الأخرى بطبيعة الحال .

ولقد سجلت روايات السيرة وقائع كثيرة مؤيدة لهذا الشمول . منها ما كان قبل الفتح المكي . ومنها ما كان بعده . نوجزها كما يلي :

١ ـ أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك وأمراء البلاد العربية والمجاورة لجزيرة العرب في السنة السادسة للهجرة كتباً ورسلا . ومن جملة من أرسل إليهم من العرب غير الكتابيين جيفر وعبد ابنا الجلندي ملكا عُمان . والمنذر بن ساوي ملك البحرين . وثمامة بن أثال ملك اليمامة . وقد أسلم الثلاثة الأولون حالا . وأسلم الرابع بعد مدة . وتابعهم معظم أهل بلادهم[١] .

٢ ـ أرسل النبي ﷺ عمرو بن العاص في السنة الثامنة إلى ذات السلاسل الواقعة على بعد عشر ليال من المدنية نحو الشام سرية لما بلغه من تجمع جماعة من قضاعة للهجوم على المدينة وقال له استعن بمن تمر به من بُلَيّ وعذرة وبلقين[٢] والمتبادر أنه لا بد من أن تكون هذه القبائل قد دانت بالإسلام قبل ذلك حتى يصح أن يأمره بالاستعانة بها .

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٢٧ ـ ٢٨ وابن هشام ج ٤ ص ٣١٥ .
(٢) ابن سعد ج ٣ ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

٣ – ولقد تدفقت وفود القبائل العربية من مختلف أنحاء الجزيرة على النبي ﷺ تبايعه على الإسلام وتتلقى نصحه وأمره في العام التاسع الذي تلا عام الفتح وبعده . وممن ذكرت أسماؤهم وفود بني تميم وفزارة ومرة وثعلبة ومحارب وكلاب وعقيل وجعدة وقشير والبكاء وكنانة وباهلة وعامر وثقيف وربيعة وبكر بن وائل وتغلب وحنيفة وشيبان وطيئ وتجيب وخولان وجعفي وصداء ومراد وزبيد وكندة والصدق وخشين وسعدهذيم وبلي وبهراء وعذرة وسلامات وكلب وجرم والأزد وعنان وبنو الحارث وهمدان وسعد العشيرة وعنس والداريين والمذحجيين وغامدو النخع وجبيلة وخثعم وحضرموت وأزد عمان وغافق وبارق ودوس وثمالة والحدان ومهرة وحمير وجيشان والسباع (١) .

٤ – وفي كتاب ابن سعد نصوص كتب كثيرة كتبها النبي ﷺ إلى عدد كبير من الزعماء اليمنيين وغير اليمنيين دون ذكر تاريخ إرسالها . منها ما يفيد يقيناً أنه كتب بعد الفتح ومنها ما لا يفيد شيئاً غير أننا نرجح من أسلوبها . أنها هي الأخرى كتبت بعد الفتح . وبعضها يدل على أنه مرسل إلى أناس كانوا أسلموا قبل ذلك حيث يعطيهم النبي ﷺ ذمته وجواره ويقرهم على ما في أيديهم وعلى ما لهم من رسوم وعوائد وأمارات ومراكز وأرض (ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) ويعلنهم براءة ذمتـه ممن يرجع عن دينه . وذكر ابن سعد الذي يروي النصوص في سياق رواياته خبر إسلام بعض من أرسلت إليه الكتب مع قومهم أو جماعة من قومهم وخبر إرسال النبي ﷺ إليهم من يعلمهم القرآن ويجبي منهم الزكاة . وفي بعضها تعليمات وأوامر نبوية في شؤون متنوعة بحيث يسوغ القول إن النبي ﷺ اعتبرهم داخلين في حكمه وسلطانه وعاملهم على هذا الاعتبار (٢) .

وممن ذكر ابن سعد أسماءهم : الحارث بن عبد كلال وشريح بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال . ونعمان قيل ذي يزن . وقيل همدان . وقيل معافر . وزرعة ذو رعين .

---

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٥٩ – ١٢١ وابن هشام ج ٤ س ٢٢١ – ٢٧١ .

(٢) ج ٢ ص ٣٠ – ٥٦ .

وبنو معاوية من كندة . وبنو عمرو من حمير . وذو الكلاع التبعي . ومعدي كرب ابن أبرهة . وربيعة بن ذي مرحب الحضرمي وإخوته وأعمامه . ومن أسلم من حدس ومن لخم . وخالد بن ضمار الأزدي . وبنو قرة بن عبد الله التيهانيون . وبنو الضباب من بني الحارث. ويزيد بن الطفيل الحارثي . وبنو قنان بن ثعلبة . وبنو زياد الحارثيون . ويزيد بن المحجل. وقيس بن الحصين ذو القصة . وبنو قنان بن يزيد الحارثيون . وعاصم بن الحارث . وبنو معاوية بن جرول الطائيون . وعامر بن الأسود الطائي وقومه . وبنو جوين الطائيون . وبنو معن الطائيون . وبنو أسد . وجفاده الأزدي وقومه . وقبيلة سعد هذيم من قضاعة . وجذام . وبنو زرعة . وبنو الربعة من جهينة . وبنو جعيل من بلى . وخزاعة . وعوسجة بن حرملة الجهني . وبنو شنج من جهينة . وبنو الجرمز بن ربيعة من جهينة . وبنو الحرقة من جهينة . وبلال بن الحارث المازني . وبديل وبسر وسروات بني عمرو . والعداء بن خالد بن هوذة . وسلمة بن مالك السلمي وحرام بن عبد عوف من بني سليم والعباس بن مرداس السلمي . ونعيم بن مسعود الأشجعي . وجميل بن رزام العدوي . وحسين بن فضلة الأسدي . وبنو غفار . وبنو صخرة . وأهل هجر . وقبيلة جماح في تهامة . وبنو زهير بن أقيش من عكل . وأبو ظبيان الأزدي وقومه . والحبيب بن عمرو وقومه . وبنو بحتر من طي . وسمعان بن عمرو العرني . والسعير بن عداء . والحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير وبنو عبد القيس في عمان . وأقيال حضرموت وعظماؤهم زرعة وفهد والبسي والبحيري وعبد كلال وربيعة . والمطرف بن الكاهن الباهلي . ونهشل بن مالك الوائلي وبنو جناب من كلب . ومهري بن الأبيض وقومه . وقبيلة خثعم . وبطن بارق من الأزد . ووائل بن حجر قيل حضرموت [١] .

وهكذا يمكن أن يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت إلاّ وقد وصل الإسلام إلى كل ناحية من أنحاء جزيرة العرب ووجد فيها جماعات دانت به . وهذا غير الذين

---

(١) المصدر نفسه

دانوا به من أهل الكتاب في الجزيرة وخارجها مما سوف يكون موضوع فصل خاص. بل وإنه ليمكن أن يستدل من آية سورة التوبة هذه:

« وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.. » ٣

ثم من هذه الآية في السورة نفسها:

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ... » ٢٨

على أن الإسلام صار هو الدين العام في جزيرة العرب بوجه عام. وأن الشرك أصبح محصور النطاق مشدود الخناق. وأن المشركين أصبحوا منبوذين تعلن نجاستهم ويحظر عليهم دخول المسجد الحرام بعد العام التاسع للهجرة بإعلان يعلن على ملأ الناس يوم الحج الأكبر.

ولقد كان حج هذا العام بإشراف وأمارة مندوب رسمي من قبل النبي صلى الله عليه وسلم وهو أبو بكر رضي الله عنه على ماروته الروايات بدون خلاف. وهذا مظهر سلطاني يعني أن السلطان كان قد استتب للنبي ﷺ. وهذا المعنى منطو بقوة أكثر في إعلان البراءة من المشركين على ملأ الناس وحظر دخول المسجد الحرام عليهم [1]. وهذا وذاك

(١) اختلفت الروايات في أمر الممثل النبوي الذي أعلن البراءة. حيث ذكر بعضها أن الآيات نزلت بعد سفر أبي بكر منتدبا من قبل النبي صلى الله عليه وسلم لأمارة الحج فقيل له لو بعثت بها لأبي بكر فقال لا يبلغ عني إلا واحد من أهل بيتي ثم بعث عليا بن أبي طالب رضي الله عنه لإعلانها على أن يكون في غير ذلك مأموراً لأبي بكر. وحيث ذكر بعضها أن أبا بكر هو الذي أمر بإعلان ذلك يوم الحج الأكبر (انظر ابن سعد ج ٣ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ و ابن هشام ج ٤ ص ٢٠١ وبعدها) والرواية الأولى تثير العجب والشبهة. فليس في الإعلان مايخص النبي صلى الله عليه وسلم شخصياً أو أسروياً. وحاشاه ثم حاشاه أن يكون اعتبر النبوة وتبليغات الله تعالى للناس بطريقها مسألة أسروية. ولقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم رسلا وكتباً كثيرة إلى الملوك والأمراء والزعماء والقبائل ليبلغوا عنه رسالة ربه ولم يرو شيء من ذلك قط في مناسباته.

في بيئة كبيئة الجزيرة لا يمكن أن يكون إلا بالاستناد على القوة والعصبية المؤيدة بالغالبية العظمى .

وفي سورة التوبة آية فيها دلالة قوية أخرى على ذلك وهي :

«وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ... » ٦

حيث تفيد أنه لم يعد للمشركين أمان ولا طمأنينة ، وسط المسلمين وبيئاتهم إلا بجوار النبي صلى الله عليه وسلم وحمايته . وإذا لاحظنا أن الإسلام قد صار منتشراً بمقياس واسع في جميع مناطق الجزيرة ازدادت الدلالة التي انطوت في الآية قوة .

ولقد حج النبي صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة حجته الشريفة التي عرفت بحجة الوداع فكانت حجة إسلامية خالصة برئت من الشرك والمشركين . وقد هتف صلوات الله عليه بجموع المسلمين الغفيرة التي شهدت معه الحج بلسان الله عز وجل القرآني .

« ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا . . . »

٣

فكان في هذا إيذان آخر بعموم الدين الإسلامي لمختلف أنحاء الجزيرة العربية .

ولقد كان الذين استجابوا للدعوة في العهد المكي يمثلون البشرية من حيث الأقطار والأجناس والألوان والأديان والطبقات على ما شرحناه في الجزء الأول . ولقد استمر هذا المظهر في العهد المدني بالمقياس الواسع المتناسب مع ظروف هذا العهد . وكان من المضافات إليه استجابة ملوك وأمراء وأقيال العرب في مختلف أنحاء الجزيرة وأطرافها ثم بدء استجابة غيرهم متمثلا في إسلام نجاشي الحبشة على ما سوف نشرحه بعد .

المبحث الرابع

صور متنوعة للمسلمين في العهد المدني

تفاوت صور المسلمين في العهد المدني وتعليله — تصنيف القرآن للمسلمين وطبقاتهم — تقسيمهم إلى صنفين — صور للصنف الأول : من صور البقرة وآل عمران والمائدة والتوبة والأحزاب والفتح والحديد والمزمل — صور للصنف الثاني : من سور البقرة وآل عمران والنساء والتوبة ومحمد والحجرات والحديد والمجادلة والممتحنة والجمعة والتغابن — غنى المسلمين وفقرهم في العهد المدني — إشارات تذكيرية إلى صور متنوعة أخرى في المباحث الأخرى .

الصورة الأولى

إن الصور التي يمكن اقتباسها من الآيات المدنية للمسلمين في العهد المدني متفاوتة أيضا كالصور المقتبسة لهم في العهد المكي ، وهو تفاوت متسق مع طبائع البشر ، غير أن الصور المدنية أكثر عدداً وتفاوتاً وتنوعاً ، وهذا متصل بطبيعة العهد المدني الذي اتسع فيه نطاق الإسلام مساحة وعدداً ، وتنوعت فيه الفئات والطبقات من جهة ، والأحداث والمشاكل والرغبات من جهة أخرى .

ولقد صنف القرآن المسلمين في آيات من سورة التوبة نزلت في سياق غزوة تبوك ، أي في السنة الهجرية التاسعة ، تصنيفاً يعبر من دون ريب عن حالة المسلمين وتفاوتهم في الإيمان والأخلاق في أواخر العهد النبوي ؛ وهذه هي :

١ — وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . . . ١٠٠

٢ — وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى

ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ...

١٠١

٣ — وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...

١٠٢

٤ — وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ...

١٠٦

٥ — وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ . أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ . لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ...

١٠٧ – ١١٠

إذ يستفاد منها أن المسلمين كانوا مؤلفين من هذه الطبقات :

١ ـ المهاجرين الأولين ·

٢ ـ الأنصار الأولين .

وهاتان الطبقتان كانتا وظلتا مخلصتين كل الإخلاص لله والرسول والإسلام ، وفانية فيهم كل الفناء ، وقائمة بواجباتها كل القيام ، فاستحقوا الوصف العظيم المندمج في جملة « رضي الله عنهم ورضوا عنه » .

٣ ـ الذين أسلموا بعد الهجرة النبوية ، وحسن إسلامهم وساروا على قدم السابقين

المهاجرين والأنصار في الإخلاص والفناء والقيام بالواجب ، ودخلوا في شمول ذلك الوصف العظيم أيضاً .

٤ ـ منافقين من أهل المدينة والأعراب متكتمين غير ظاهري الأمر كما هو شأن المنافقين المشهور أمرهم . والآية تلهم أن النبي لم يكن يجهل سيرة هذا الفريق وسريرته ، ولعل آيات سورة محمد هذه :

« أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ . وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ . . . » ٢٩ ـ ٣٠

مما يمكن أن يكون وصفاً لهذه الفئة وقرينة على أن النبي كان يعرفهم من أقوالهم وتصرفهم .

٥ ـ فريق كانوا يخلطون عملا صالحاً وآخر سيئاً مع إخلاصهم للإسلام .

٦ ـ فريق كان أمرهم غامضا في نظر الجمهور ، ولعل أعمالهم وأقوالهم ومظاهرهم كانت متناقضة تدعو إلى الحيرة والتساهل ، ويبدو أنهم كانوا يتظاهرون بالإخلاص ، كما يبدو أن أمرهم لم يكن خافيا على النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه كان يؤمل غلبة النية الحسنة على السيئة عندهم أو كان لا يريد أن يجبههم لأنه لم يكن يرى فيهم ضرراً وبأساً وأذى كبيرا .

٧ ـ فريق منافق صريح غير خاف أمرهم على رسول الله والمخلصين . يحلفون على أن نواياهم حسنة . ولكنهم لا يتورعون عن الكيد والتآمر ضد دين الله ورسوله والمؤمنين . وقد سلكنا الفريق الأخير في السلك لأنه كان على كل حال يتسم بالإسلام ويقوم بمظاهره وواجباته . ويكرر الإيمان في كل مناسبة على صدق إيمانه بالله ورسوله وعلى إخلاصه . غير أن مواقفه المتنوعة كانت تكذبه وتفضحه .

وسنعرض في هذا المبحث مجموعتين من الآيات . واحدة تحتوي صوراً للصنف الأول أو الطبقات الثلاث الأولى وثانية تحتوي صوراً للصنف الثاني أو الطبقات الثلاث الأخرى أما الطبقة السابعة أي المنافقون الصرحاء فسنعرض ما ورد فيها من آيات ونشرح ما كان لها من مواقف وأدوار في مبحث خاص .

الصّورة الثانية

فأولا صور عن الصنف الأول .

١ ـ في سورة البقرة الآيات التالية :

« الٓمٓ . ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ . وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ... » ١ ـ ٥

فقد احتوت صورة مشرقة للمؤمنين المخلصين ، وعمق إيمانهم ، وشعورهم بواجباتهم ؛ وهذه الصورة من الصور الواردة في القرآن المكي ، ومع أنها وصف عام محبب لمن يتصف بهذه الصفات فإننا نعتقد أنها صورة واقعية للصنف الأول من المسلمين في العهد النبوي المدني .

٢ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ . ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ... »

١٥٥ ـ ١٥٧

وقد تضمنت وصفاً محبباً وثناء عظيما على الفئة المؤمنة المخلصة التي تلقى ما يحل بها في سبيل الله بالرضاء والصبر والتسليم ؛ ومع أنها وصف عام فإننا نعتقد كذلك أنها صورة واقعية للصنف الأول من المسلمين في ذلك العهد .

٣ ـ وفي السورة نفسها الآية التالية :

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِٱلْعِبَادِ ... » ٢٠٧

وقد تضمنت صورة واقعية لفئة مخلصة تبيع نفسها في سبيل مرضاة الله ؛ وهي كذلك بطبيعة الحال من الصنف الأول للمسلمين في ذلك العهد .

٤ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ . ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . » .

٢٧٣ ـ ٢٧٤

٥ ـ وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ . ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ . ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ... » ١٥ ـ ١٧

والآيات وإن تكن في مقام البشرى للمتقين الذين يقولون ويفعلون ما ذكرته والتنويه بهم فإن روحها مما يلهم بقوة أنها في صدد وصف فريق من المؤمنين والتنويه

بهم وتبشيرهم . وهــذه الأوصاف هي أوصاف الصنف الأول من المسلمين . كما هو المتبـادر .

ولقد جاءت هذه الآيات بعد هذه الآية :

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ... » ١٤

حيث يلهم هذا أن الآيات جاءت في الوقت نفسه بسبيل تسلية ذلك الفريق من المسلمين الذين كانوا على الأغلب فقراء ومنصرفين عن زينة الحياة الدنيا ومباهجها ومستغرقين في الله ودينه وعبادته .

وقد احتوت الآية الأولى صورة لفريق من المسلمين وهبوا كل أوقاتهم وأنفسهم لله : عبادة وجهاداً ومرابطة ، وشغلهم هذا عن طلب الرزق والسعي إليه ، ومع فقرهم وشدة حاجتهم لم يطلبوا من أحد معونة ، وتعففوا حتى ليظنهم الجاهل أغنياء ؛ واحتوت الآية الثانية صورة أخرى لفريق من المسلمين أغنياء ينفقون أموالهم في الليل والنهار ، في السر والعلانية .

وكلتا الصورتين مشرقتان باهرتا السناء ، تدلان على قوة إيمان وشدة ورغبة فيما عند الله ؛ فهما من صور الصنف الأول في ذلك العهد .

٦ ـ وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ . وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ . أُوْلَـٰئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ... » ١٣٣ – ١٣٦

٧ – وفي السورة نفسها هذه الآيات :

« ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ . ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ . فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ... » ١٧٢ – ١٧٤

وفي الآيات وصف لموقف متفانٍ رائع وقفته الفئة المخلصة عقب وقعة أحد رغم ما كان ألم بها من تعب وجروح وحزن ومضض . وما رواه المفسرون من صور في سياق هذه الآية أن رجلين من الأنصار كانا جريحين فلما دعا داعي النبي صلى الله عليه وسلم للخروج إلى العدو الذي قيل : إنه يريد أن يكر على المسلمين قالا لبعضهما : أتفوتنا غزوة مع رسول الله . ولم يكن لهما دابة يركبانها نخرجا مع ذلك . وكان أحدهما أشد جراحاً من الآخر فكان أخوه يحمله من حين إلى آخر حتى بلغا ركب النبي صلى الله عليه وسلم .

ومع أن الآيات بسبيل بيان أجر المتقين وصفاتهم وأخلاقهم فإن روحها تلهم أنها تنطوي على صورة واقعية للفئة المخلصة ؛ وقد احتوت وصفاً باهراً لأخلاقهم وصفاتهم وتفانيهم في الله رغبة ورهبة .

٨ – وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ . ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ . رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . رَّبَّنَآ إِنَّنَآ سَمِعْنَا مُنَادِيًا

يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَاوَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ . فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ... » ١٩٠ ـ ١٩٥

والآية الآخيرة قرينة حاسمة على أن هــذه المناجاة الخاشعة الدالة على عمق الإيمان والخشية من الله ، ممـا كان يصدر مثله من الفئة المخلصة التي تحملت عظيم التضحيات ، وصبرت أجمل الصبر على ما نالهـا من أذى ، وقاتلت في سبيل الله ؛ والصورة مشرقة كل الإشراق ، سنية كل السناء كما هو واضح . وفي الآية في الوقت نفسه قرينة حاسمة على أن المرأة المسلمة كانت تشارك الرجل في هذه الصورة المشرقة .

٩ ـ وفي سورة المـائده الآيات التالية :

« إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ... » ٥٥ ـ ٥٦

والآيتان في صدد فريقين من المسلمين . فريق شديد الإخلاص والاستغراق في الله ودينه ورسوله وواجباته . وهذه صفات الصنف الأول من المسلمين كما هو واضح . وقد نبهت الآيتان الفريق الثاني إلى أن هــذا الفريق هو الذي يجب أن يتولوه دون غــيره ووصفتاه بأنه حزب الله المضمون له الغلبة والتأييد من الله . وفي هــذا مافيه من تنويه عظيم. وفي الآيتين تدعيم للتصنيف الذي صنفناه . ويتضح هذا أكثر بالآيات التي سبقت الآيتين حيث احتوت نهياً للمؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء أي نصراء وحلفاء

وندّدت بمرضى القلوب الذين يسعون فيهم متذرعين بالخوف من العواقب وأنذرتهم كما ترى فيها :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ . فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٍ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَـٰدِمِينَ . وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَـٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ حَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَـٰسِرِينَ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ... » ٥١ ـ ٥٤

١٠ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ . وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ . لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَـٰنِكُمۡ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيۡمَـٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَـٰنَكُمۡ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ... » ٨٧ ـ ٨٩

وقد جاءت هذه الآيات ٨٢ ـ ٨٦ التي نقلناها في مناسبة سابقة والتي فيها وصف أخاذ لخشوع فريق من النصارى وإيمانهم وتصديقهم وثناء عليهم ومنهم القسيسون والرهبان.

١١ ـ في سورة الأنفال الآيات التالية :

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ... » ٢ ـ ٤

والآيات وإن تكن في مقام التقرير والتنويه والبشرى فإن روحها تلهم أنها بسبيل وصف الصنف الأول من المسلمين كما هو المتبادر .

وقد روى المفسرون والرواة أن الآيات نزلت بمناسبة اتفاق فريق من كبار الصحابة على الزهد والتنسك وتحريم الاستمتاع بطيب المآكل والمشارب واللذائذ الأخرى ، والسياحة في الأرض والانقطاع للعبادة ، وأن النبيّ قد بلغه ذلك فكرهه ولم تلبث أن نزلت الآيات . وورود الآيات عقب الآيات التي فيها وصف مشهد القسيسين والرهبان والثناء عليهم يدعم صحة الرواية ؛ إذ يتبادر أن الذين عزموا العزيمة التي ذكرتها الرواية قد تأثروا بذلك الثناء على تلك الطبقة التي كان أفرادها أو كثيرون منهم منقطعين للعبادة في الصوامع والأديار المنعزلة ، زاهدين في لذائذ الحياة ، وأطايب المتع ؛ ولما لم يكن مما استهدفه الإسلام إيجاد طبقة مثلها في مجتمعه الذي أحلت له الطيبات وحرمت عليه الخبائث ورفع عنه الإصر والتكاليف السابقة اتساقاً مع طبيعة الحياة ونواميسها ـ حظرت الآيات ذلك .

وعلى كل حال فالصورة التي تضمنتها الآيات والرواية الواردة في سبب نزولها طريفة حقا ، وتدل على ما كان من استعداد الفئة المخلصة للانصراف عن الطيبات واللذائذ ابتغاء مرضاة الله ، وبالتالي تدل على تفانيها في الله ومرضاته ودينه .

١٢ ـ في سورة التوبة الآية التالية :

« وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... » ٧١

وقد جاءت مقابلة لوصف ما كان من تعاون المنافقين والمنافقات على الإثم والعدوان ؛ وفيها على كل حال صورة قوية لما كان عليه المؤمنون المخلصون من أخلاق حميدة ، وتضامن قوي ، وقيام بالواجبات الإسلامية من تعبدية ومالية واجتماعية . ويُلفت النظر خاصة إلى ذكر المؤمنات إلى جانب المؤمنين في الآية ، فإن ذلك يلهم قصد التنويه بالمؤمنات خاصة ، وما كان لهن من أثر ودور إيجابيين في الدعوة والسيرة النبويتين في العهد المدني كما كان الحال في العهد المكي أيضاً وهذا فضلاً عن قصد تقرير التكافؤ بين رجال المسلمين ونسائهم في التعاون والتناصر .

١٣ ـ وفي السورة نفسها الآية التالية :

« لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ... » ٨٨

وهذه الآية جاءت كتلك : مقابلة لوصف ما كان من تخلف المنافقين عن الجهاد وختالهم وتثبيطهم ؛ وفيها على كل حال صورة قوية لما كان من إقبال المؤمنين المخلصين على الجهاد بالمال والنفس .

١٤ ـ وفي السورة نفسها الآية التالية .

« وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ . . . » ٩٢

وفي الآية مشهد رائع لفريق من فقراء الأعراب المخلصين الذين كانوا شديدي الرغبة في الاشتراك في غزوة تبوك فبكوا وحزنوا لأنهم لم يكونوا يملكون وسائل الاشتراك ولم يكن لدي النبي مايساعده على مساعدتهم .

١٥ ـ وفي السورة نفسها الآية التالية :

« وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ . . . » ١١٨

وفي الآية مشهد رائع آخر لفريق من المخلصين تخلفوا بدون عذر عن غزوة تبوك فداخلهم الندم والجزع من الله حتى لم تعد الدنيا تسعهم فلجأوا إلى الله يسألونه العفو والتوبة .

١٦ ـ وفي سورة التوبة الآيات التالية :

« إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . . » ١١١ ـ ١١٢

والآيات وإن تكن في مقام التقرير والتبشير فإن روحها بل ونصها يلهمان أنها في صدد وصف فريق من المؤمنين كانوا متفانين في دين الله والجهاد في سبيله والتقرب إليه بالعبادة والتزام أوامره ونواهيه .

١٧ ـ وفي السورة نفسها الآية التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ . . . » ١١٩

وقد وردت في سلسلة تعقيبية على وقائع غزوة تبوك احتوت إشارات إلى ما كان

من صعوبة الحال حيث كاد يزيغ قلوب فريق من المؤمنين ، وجاء بعدها آيات تنبه المسلمين من أهل المدينة والأعراب إلى أنه لايصح أن يتخلف أحد منهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهذا وذاك يلهمان أن الآية موجهة إلى عامة المسلمين ، وأن القصد من الصادقين هو السابقون الأولون من الأنصار والمهاجرين والذين اتبعوهم بإحسان ؛ وهكذا تصف الآية الصنف الأول بهـذا الوصف الذي يندمج فيـه معان عدة كالصدق والإخلاص والتفاني في الواجب من جهة ؛ وتدعو عامة المسلمين ، وبالأحرى الصنف الثاني ، إلى اتخاذهم أسوة وقدوة ؛ وفي ذلك إقرار لمكانتهم عند الله ورسوله ، وتوكيد لمعنى التصنيف الذي احتوته الآيات التي نقلناها في مطلع المبحث .

١٨ ــ في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا . مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا . . . »

٢٢ ــ ٢٣

وفي الآيات صورة رائعة لموقف المؤمنين المخلصين إزاء زحف الأحزاب على المدينة وما كان لذلك من أثر في ازدياد تمسكهم بدين الله وتفانيهم في سبيله وتنويه بهم على قوة عقيدتهم وثباتهم سواء منهم الذين استشهدوا وقضوا نحبهم أم الذين بقوا .

ونص الآية الثانية قد يدعم صحة التصنيف من حيث أن المؤمنين كانوا طبقات منهم الفريق المخلص الثابت الموصوف فيها .

ولقد روى الترمذي حديثا عن أبي عبد الله بن مغفل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (الله الله في أصحابي الله الله في أصحابي . لا تتخذوهم غرضاً بعدي . فمن أحبهم فبحبي أحبهم . ومن أبغضهم فيبغضي أبغضهم من آذاهم فقد آذاني . ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه) وقد روى البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود

حديثا : عن أبي سعيد قال (كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبّه خالد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لاتسبوا أحداً من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه) والخطاب موجه إلى المسلمين السامعين . وهذا يعني أن المقصود من أصحاب رسول الله في الأحاديث هو المقصود من الصادقين في الآية . وهم الصنف الأول أو بتدقيق أكثرهم الرعيل الأول السابقون من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم .

١٩ ـ وفي سورة الأحزاب الآية التالية :

« إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً . . . »

٣٥

وقد احتوت تنويهاً عظيما بالمخلصين من المسلمين رجالا ونساء ؛ وهي وإن كانت تنوه بكل من يتصف بهذه الصفات فما لاشك فيه أنها تنطوي على تنويه بطبقة كانت متصفة بها من المسلمين فعلا حين نزولها ، وهي الصنف الأول منهم على ماهو المتبادر .

ويلفت النظر خاصة إلى ذكر النساء إلى جانب الرجال في جميع الصفات ، وما في ذلك من قصد تنويهي صريح بالمسلمات المخلصات ، ثم مافي هذا من دلالة على أن من المسلمات من كن من الصنف الأول ، وعلى ما كان للمرأة المسلمة المخلصة من دور إيجابي استحق هذا التنويه الصريح أيضاً .

٢٠ ـ وفي سورة الفتح الآية التالية :

« مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ

ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا . . . »

٢٩

وقوة الثناء والتنويه ملموسة في الآية ، كما أن الصفات التي وصف بها النبي والذين معه قوية في صدد تفانيهم في الله ورضائه وطاعته ، وفي صدد رأفتهم ورحمتهم بالمؤمنين وشدتهم على الكفار ؛ ونعتقد أن المقصود منهم الصنف الأول من المسلمين ، وقد احتوت الآية صورة وضاءة لهم كما هو ظاهر .

٢١ ـ وفي سورة الحديد الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ . . . » ١٨ ـ ١٩

والآيات وإن كانت بسبيل التنويه بالمتصفين بالصفات المذكورة فيها ، فإن روحها تلهم أن فيها صورة مشرقة لفئة كانت متصفة فعلا بها استحقت بسبب ذلك هذه المرتبة العالية ، وهي من الصنف الأول على ماهو المتبادر . وفي عبارة (المصدقات) هنا تنويه بالمرأة المسلمة وتقرير لدورها الإيجابي في الإسلام وفي الدور الأول منه كما هو شأن دلالة ذكرها في المقامات الأخرى .

٢٢ ـ في سورة المزمل الآية التالية :

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟

مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ . . . » ٢٠

والآية مدنية على ماعليه جمهور الرواة والمفسرين ، وطابعها المدني بارز ؛ وقد احتوت صورة مشرقة لما كان من استغراق النبي صلى الله عليه وسلم والطبقة الملازمة له الفانية فيه ـ في عبادتهم وتهجدهم مهما نالهم في ذلك من المشقة ، حتى لقد شاءت حكمة الله أن يخفف عنهم بهذا الأسلوب المحبب الذي انطوى على تنويه عظيم أيضاً

الصُّورة الثالثة

وثانياً : صور للصنف الثاني .

١ — في سورة البقرة الآيات التالية :

« أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ . وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ . . . » ١٠٨ — ١٠٩

وتلهم أن بعض المسلمين كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم أحياناً أسئلة تعجيز ، أو نامّة على شيء من التشكيك في بعض الأمور الغيبية ؛ والآيات من سلسلة في حق اليهود ودسائسهم ، وفي هذا دلالة على أن هذه الدسائس كانت تجد أذناً في بعض المسلمين فتدفعهم إلى بعض المواقف التي تستوجب العتاب ؛ وطبيعي أن هـذا إنما يكون من الصنف الثاني من المسلمين ؛ لأن الصنف الأول قد وصف بصفات تدل على إيمانهم القوي التام بالغيب ، وخشيتهم الشديدة من الله ، وتوقيرهم العظيم للنبي ، ومعرفتهم حدودهم ..

٢ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ . . . ٢٦٤

٢ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ . ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . . .

٢٦٧ ـ ٢٦٨

فهذه الآيات وإن كانت في معرض وعظ وتعليم عامين فإن روحها تلهم أن بعض المسلمين كانوا يمنون على الذين يتصدقون عليهم ويسمعونهم مايؤذي ، كما أن بعضهم كان يتصدق بالرديء من الغلة الذي لايكاد ينفع أحداً ؛ وقد ذكرت الروايات في سياقها مايدل على صحة هذا الاستلهام .

٣ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية :

٣ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ . . . ٢٧٨ ـ ٢٧٩

وهذه مثل تلك بسبيل الوعظ والتعليم ، وتلهم في الوقت نفسه بقوة ووضوح أكثر، أن بعض المسلمين كانوا يتعاطون الربا وكانوا متمسكين به إلى درجة أن اقتضت الحكمة إنذارهم هذا الإنذار القاصم .

وإذا لوحظ أنه قد تقدم هذه الآيات آيات حمل فيها على الربا حملة شديدة ، وسفه

فيها قول القائلين إنه كالبيع ، وضحت الصورة أكثر ، ودلت على أن بعض المسلمين ظلوا مستمسكين برباهم على رغم الحملة التي يرجح أنها جاءت متقدمة فترة ما على هذه الآيات :

ولقد جاء في سورة آل عمران نهي مشدد آخر عن الربا كما ترى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ . وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ... » ١٣٠ ـ ١٣٢

وأكثر الروايات على أن هذه الآيات سبقت آيات البقرة في النزول وأن آيات البقرة كانت من أواخر ما نزل من القرآن . وهذا يفيد أن الذين كانوا يتعاطون الربا من المسلمين لم يقلعوا عن العادة كما يدل على شدة رسوخها فاقتضت حكمة التنزيل إنذارهم الإنذار القاصم في آية البقرة . وهذا الموقف لا يمكن أن يكون من الصنف الأول كما هو المتبادر .

٤ ـ وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ . قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ . قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... » ٢٨ ـ ٣١

في الآيات نهي للمؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء ونصراء دون المؤمنين . وإنذار

شديد لمن يفعل ذلك . وحض على اتباع رسول الله لنيل رضوان الله . وهي وإن كانت تعليمية وتشريعية عامة فإن نصها وروحها يلهمان بقوة أنها موجهة إلى فريق من المسلمين كانوا يتخذون بعض الكفار أولياء ونصراء . وهو ماروته روايات التفسير حيث ذكرت خبر استمرار الموالاة بين بعض المسلمين واليهود في المدينة . وهذا لايمكن أن يكون من الصنف الأول .

٥ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ... » ١١٨ ـ ١٢٠

وفي الآيات نهي آخر عن اتخاذ اليهود أولياء وبطانة واطلاعهم على أسرار المسلمين، مما يلهم أن من المسلمين من كان شديد الصلة والاندماج فيهم ؛ وتفصيل ماعليه اليهود من عداء كامن للمسلمين وبغضاء شديدة وتربص سوء بهم ، يدل على تلك الشدة في الصلة والاندماج ؛ إذ توخى به حملهم على الارعواء عما هم متورطون فيه من خطة ضارة كل الضرر ، مناقضة لواجب كرامة النفس وحفظ الكيان . والراجح أن اليهود كانوا يستغلون هذا الاندماج والصلة في الدس والتشكيك . وتكرار النهي بهذا الأسلوب يدل على عدم الارعواء والاستجابة للنهي الأول؛ ولايمكن أن يصدر كل هذا من الصنف الأول كما هو المتبادر .

٦ ـ في السورة نفسها هذه الآيات :

« ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ... » ١٥٤

وهذه الآية من جملة ما نزل من آيات السورة تعقيباً على حوادث وقعة أحد التي دارت الدائرة فيها على المسلمين . وبعض المفسرين قالوا إن الكلام الذي حكته الآية هو كلام المنافقين . وهذا القول محل توقف لأن المنافقين لم يشهدوا الوقعة على ماجاء صراحة في آية أخرى من السورة وهي :

« وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ... » ١٦٧

فيكون الكلام صادراً في ظرف حزن وألم من فريق من المسلمين غير منافق والمتبادر أنه لابد من أن يكون من الصنف الثاني دون الأول .

٧ – وفي سورة النساء الآية التالية أيضا :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰناً مُّبِيناً ... » ١٤٤

والآية من سلسلة فيها حملة على المنافقين باسمهم الصريح لاتخاذهم الكافرين أولياء ، وروح السلسلة تلهم أن المقصود مباشرة هم اليهود ؛ وروح الآية تلهم أنه كان من المسلمين غير المنافقين من ظل يتمسك بولائه لليهود مع ما كان من نهي متكرر ،

وهـذا مما يدعم ماقلناه آنفا . وفي ذلك صورة من الصـور الممثـلة للصنف الثاني دون الأول .

٨ – وفي سورة النساء الآية التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً ... » ٩٧

وتدل على أنه كان هناك فريق من المسلمين استكانوا وبقوا في مكة ولم يهاجروا وانتحلوا الأعذار الواهية : وننبه إلى أن الآية التي تلت هذه الآية أشارت إلى فريق آخر مستضعف حقا ، وعذرته ، وفي سورة الأنفال آية أخرى تذكر طبقة المتخلفين عن الهجرة بأسلوب فيه شيء من الملامة ، وإن لم يبلغ من القوة في ذلك مبلغ آية النساء ؛ وهي هذه :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ... » ٧٢

وسورة الأنفال نزلت قبل النساء ؛ وعلى هذا تكون آية الأنفال إنذارا أوليا للمتخلفين، فلما ظل بعضهم متخلفا استحق اللوم والإنذار العنيفين . وفي صورة ممثلة للصنف الثاني دون الأول .

٩ – وفي سورة النساء الآيات التالية :

١ – إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً . وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً . وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً . يَسْتَخْفُونَ مِنَ

ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا . هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ... ١٠٥ ـ ١٠٩

٢ — وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا . وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ... ١١٢ ـ ١١٣

وهذه الآيات تضمنت إشارة إلى حادثة أكملت الروايات صورتها ؛ إذ روي أنها نزلت في قصة درع لمسلم سرقها مسلم آخر اسمه طعمة وأودعها عند يهودي ، وأن أصحاب الدرع تعقبوا الأثر وسألوا طعمة فأنكرها ، ثم وجدوها عند اليهودي فأخبرهم أنها وديعة طعمة ، فرفعوا الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء طعمة مع أهله يؤكدون بسائق العصبية العائلية عدم سرقة صاحبهم وأن اليهودي هو السارق حتى كادوا يقنعون النبي ﷺ ويجعلونه يحكم بقطع يد اليهودي ، ثم لم تلبث أن ظهرت براءة اليهودي وذنب طعمة وتضليل أهله . وهكذا تكون الآيات مع الروايات قد انطوت على شيء مما كان يقع من بعض المسلمين الذين لا شك في أنهم من الصنف الثاني .

١٠ — وفي سورة النساء أيضا الآية التالية :

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ... » ١٤٠

والآية تلهم أن بعض المسلمين كانوا يترددون على مجالس وحلقات المنافقين ، ويغضون عما يسمعونه من هزء بآيات الله ونقد لها ؛ ويبدو أن صلة المسلمين غير المنافقين بالمنافقين كانت مما لا مناص منه ، لأنها ناشئة عن أوشاج القربى وضرورات المصلحة ،

بدليل أن الآية إنما نبهت على عدم الاندماج في جلسة فيها هزؤ وكفر ، وطبيعي أن هذا الاتصال ظل مستمرا طيلة العهد المدني ، وذلك ماتلهمه الآيات القرآنية العدة في مختلف أدوار التنزيل ، وفي هذا وذاك صور لما كانت عليه الحال ولبعض المسلمين كما هو واضح وكل هذا لا يمكن أن يقع من الصنف الأول

١١ — وفي سورة الأنفال الآيات التالية :

« كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ . يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ . . . »

٥ — ٦

حيث تضمنت إشارة إلى كراهية فريق من المؤمنين لخروج النبي صلى الله عليه وسلم للجهاد ومجادلته في ذلك مع ما كان من الحق والمصلحة في الخروج كراهية الموت

وواضح أن هذه الصورة تمثل فريقاً من الصنف الثاني .

١٢ — وفي نفس السورة الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ . وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ

أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ. يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ... » ٢٠ ـ ٢٩

والآيات وإن تكن في مقام التعليم والتأديب والتنبيه والتحذير فإن روحها بل ونصها يلهمان أنها موجهة إلى فريق من المؤمنين كانوا يترددون في إطاعة أوامر النبي صلى الله عليه وسلم ويقفون مواقف غير مستحبة فيها ضرر بمصلحة المسلمين العامة وإثارة للفتنة متأثرين في ذلك بحرصهم على مصالحهم الخاصة أو شدة تعلقهم بأموالهم وأولادهم حيث ينطوي في كل هذا صور لفريق من المؤمنين من الصنف الثاني دون الأول .

١٣ ـ وفي سورة التوبة الآيات التالية .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ. قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ... » ٢٣ ـ ٢٤

وروح الآيات تلهم أن أثر العصبية العائلية ظل قوياً في نفوس بعض المسلمين إزاء ذوي قرباهم من الكفار حتى وقت متأخر من العهد المدني ، لأن هذه الآيات نزلت على الراجح بين يدي الفتح المكي ، وأن هذا كان يؤثر أثراً سلبياً وضارًّا في مواقف المسلمين والحركة الإسلامية ؛ وفي هذا صورة لما كانت عليه حال بعض المسلمين . وهذا التحذير مسبوق بتحذير آخر بأسلوب آخر في آية في سورة المجادلة التي نزلت قبل هذه الآيات ، مما يدل على أن الأثر السلبي الضار المذكور كان محسوساً منذ العهد الباكر ؛ وهذه آية المجادلة :

« لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ... » ٢٢

والآية إلى ما قلناه تدل على أن النهي الوارد في آيات التوبة موجه إلى الصنف الثاني من المسلمين كما هو واضح ؛ إذ تنكر أن يواد المخلصون الكفار بأي حال ؛ هذا إلى ما فيها من صورة مشرقة للصنف الأول في موضوع كان راسخاً عميق الجذور في نفسية المجتمع العربي وحياته ، إذ استطاعت هذه الفئة أن تتفلت من أثر ذلك وأن تفنى في الله ورسوله ودينه فناء تاما .

ولقد كانت صلات القربى وعصبيتها القائمة بين المسلمين والكفار والمنافقين مما يثير أزمات نفسية شديدة في كثير من المسلمين الذين كان يتألف منهم الصنف الثاني ، وخاصة في ظروف الحرب ، مما تلهمه آيات عدة سنشرحها في فصل الجهاد .

١٤ — في سورة التوبة الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . » ٣٨ — ٣٩

والمتبادر أن الذين يوجه إليهم الخطاب والتنديد في الآيات إنما يمثلون فريقاً من الصنف الثاني .

١٥ — في سورة محمد الآيات التالية :

« إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ . إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ .

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم . . . » ٣٦ — ٣٨

وفي الآيات صورة لما كان عليه بعض المسلمين من شح حينما يدعون للإنفاق في سبيل الله ، وقد احتوت حكمة سامية في عدم تكليف المسلمين تكاليف مالية عظيمة لئلا يبدو منهم مالا يتفق مع خلق الإسلام الصحيح من الطاعة والسخاء . والصورة لا تقع كما هو ظاهر إلا من الصنف الثاني .

١٦ — في سورة الحجرات الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ. يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ . . . » ١١ — ١٢

وهذه الآيات وإن كانت في معرض التعليم والتأديب فالمتبادر أن ما نهت عنه مما كان يصدر من بعض فئات المسلمين تجاه بعض ، وفي الفقرة الأخيرة من الآية الأولى قرينة على ذلك ، ولقد روي أن الآية نزلت بسبب سخرية بعض الأغنياء من بعض الفقراء ، وبسبب غمز بعض زوجات النبي بعضا ، وبسبب نبذ بعض المسلمين مسلمي اليهود والنصارى بالنصراني واليهودي بعد إسلامهم ، وأن الآية الثانية نزلت بمناسبة إساءة الظن بخازن للنبي صلى الله عليه وسلم وتجسس بعض المسلمين عليه ، وواضح أن كل هذا إنما يحتمل صدوره من الصنف الثاني في الأغلب .

١٧ — في سورة الحجرات أيضاً الآيات التالية :

١ — قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . . . ١٤

٢ — يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَـٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ... ١٧

وفي الآيات صورة لإيمان بعض الأعراب وزهوهم ، بل منّهم به ، مع أنه إسلام ظاهري أكثر مما هو إيمان قلبي ، ولعلهم كانوا يرمون بذلك إلى الحصول على مساعدات ومنافع ؛ ويبدو من روح الآيات أن قبول إسلام الأعراب على هذا الوجه أيضاً مما كانت تسوغه الظروف مع شرط الانقياد والطاعة للرسول على اعتبار أن الأعراب لايستطيعون أن يبلغوا أكثر من ذلك في باديءِ الأمر ، وأن الاستمرار كفيل ببلوغه إلى مداه . على أن في سورة التوبة بعد آيات فيها حملة على الأعراب المنافقين والمتخلفين عن الجهاد جاءت هذه الآية :

« وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَـٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ . . » ٩٩

وقد احتوت مصداق الحكمة التي ألمعنا إليها ، وصورة مشرقة لبعض الأعراب الذين نفذ الإسلام إلى أعماقهم واستشعروا واجبهم ، وإذا لاحظنا أن آية التوبة من أواخر ما نزل بدت لنا الحكمة السامية لذلك ، كما بدت لنا صورة تطورية لإسلام الأعراب في مدى العهد المدني أيضاً .

١٨ ـ في سورة الحديد الآيات التالية :

« وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ [1] وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ

---

(١) الراجح المستلهم من روح الآية أن القصد من «تؤمنون، ولتؤمنوا» التصديق بما يؤمرون به والانقياد له.

لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ . وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ . وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . . . » ٨ ـ ١٠

والآيات موجهة للمسلمين ،وروحها تلهم أن بعضهم لم يكن عميق الإيمان والتصديق والطاعة لله ورسوله ، كما أن بعضهم لم يكن يقابل الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله مقابلة حسنة ؛ فهل كان يظن أن قليل الإنفاق يجزي كما كان الأمر قبل الفتح وفي أيام الشدة ؟ وفي ذلك على كل حال صورة ممثلة للصنف الثاني .

١٩ ـ وفي السورة نفسها الآية التالية :

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ . . . » ١٦

الآية احتوت كما تلهمه روحها تنديداً بأولئك الذين لم يكونوا مندمجين كل الاندماج في الإسلام وواجباته ـ وخاصة الإنفاق في سبيل الله ـ من المسلمين ، والذين كانوا موضوع الآيتين السابقتين . وقد حذرتهم من أن تقسو قلوبهم كما قست قلوب الكتابيين .

ومن الجدير بالتنبيه أن الآيات ١٨ ـ ١٩ وقد نقلناها في القسم الأول من هذا المبحث ـ قد احتوت تنويهاً بالمتصدقين والمتصدقات والمخلصين في الإيمان ، كما أن الآيات التالية لهذه أيضاً احتوت تهويناً لشأن الحياة والاستغراق فيها ، ودعوة إلى التسابق إلى ما عند الله من عظيم الأجر والمغفرة ، وتنديداً بالبخلاء الذين يأمرون الناس بالبخل كما ترى :

« ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا

ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ . سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ... »

٢٠ — ٢٤

مما يدل على أن موقف بعض المسلمين السلبي من الإنفاق في سبيل الله كان موقفاً استحق ذلك . وفي ذلك صورة ممثلة للصنف الثاني كما هو المتبادر .

٢٠ — في سورة المجادلة الآية التالية .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ... »

٩

وقد سبقها آية فيها تنديد بالمنافقين الذين كانوا يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ولم ينتهوا عن ذلك على رغم نهيهم عنه ؛ غير أنها تلهم أن من المسلمين من كان يعقد أيضاً مجالس خاصة يتسارون فيها في الأمور العامة ، وكانت أخبارها تصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويبدو أنه كان يجري فيها من الأحاديث مايضر الخوض فيه ، فجاءت الآية محذرة منبهة . وقد روي أن هذه المجالس كانت تعقد على الأكثر في أزمات الحروب ؛ فلعله كان يجري فيها من الحديث مايفت في أعضاد المسلمين ويثير هواجسهم

٢١ — في سورة الممتحنة الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ . إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ . لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . . . »

١ — ٣

وقد روى المفسرون أن الآيات نزلت في رجل من المهاجرين اسمه حاطب في مناسبة إرساله رسالة إلى أهل مكة يخبرهم فيها بعزم رسول الله ﷺ على غزوهم . والرواية تذكر أن الرجل اعترف وتذرع بأن له في مكة عشيرة ليس لها عصبية تحميها لأنها غريبة عن مكة فأراد أن يتخذ عندهم يداً وهو موقن بأنه لن يضر مصلحة المسلمين لأن الله سوف ينصرهم على كل حال وأقسم أنه لم يكن كافراً ولا منافقاً . وكان ممن شهد بدراً . فصدقه النبي وعفا عنه . وقال لعمر بن الخطاب الذي استأذنه بقتله (وما يدريك ياعمر . لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم)[1] .

وعلى كل حال ففي ماانطوى في الآيات صورة مما يحدثه تأثير المصالح الشخصية أو الأسروية في نفوس بعض المسلمين فيجعلهم يحرصون على اصطناع اليد واستبقاء الروابط بينهم وبين الكفار على رغم ما كان واستمر من هؤلاء من مواقف العداء والكيد والأذى ضد المسلمين .

٢٢ — وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ

(١) انظر تفسير الآيات في تفسير الطبري والبغوي والطبرسي والزمخشري .

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ...»

٧ ـ ٩

وروح الآية الأولى تلهم صورة لما كان يعتلج في نفوس بعض المسلمين ، وبتعبير أدق : المهاجرين ؛من أمنية ملحة أن تنتهي حالة العداء والتشاد القائمة بين المسلمين ومشركي مكة ، كما أن الآية الثانية تبيح لهم أن يبروا ويقسطوا إلى ذوي النيات الحسنة والمواقف السلمية من غير المسلمين ، والآية الثالثة تشدد الحظر على الولاء لذوي النيات السيئة والمواقف العدوانية ، وتصف من يخالف ذلك بالظلم ، مما يمكن أن يستلهم منه ومما قبله أن ذلك الحكم كان الصورة السابقة في أن هذه الفتوى كانت نتيجة لاستفتاء واقعي،وأمنية ملحة أيضاً؛ ولقد روي في صدد الآيات أن إحدى قريبات زوجة من زوجات النبي جاءت لزيارتها فلم تشأ البر بها قبل استئذان النبي وإذنه ؛ غير أننا نرى الآيات أبعد مدى من هذه الحادثة الفردية في روحها ومضمونها ، وخاصة بسبب مجيئها بعد آيات السورة الأولى التي احتوت الصورة التي ذكرناها . وعلى كل حال ففي الآيات صور لما كان يشعر به بعض المهاجرين نحو أقاربهم وأصدقائهم في مكة من شعور أليم بسبب حالة العداء ، وما كانت تدفعهم رابطتهم وعاطفتهم إليه من مواقف محرجة تستوجب العتاب والتحذير .

٢٣ ـ في سورة الصف الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ...»

٢ ـ ٤

والخطاب كما هو واضح موجه للمؤمنين . حيث يفيد هذا أن فريقاً منهم كان يتخاذل عن الجهادأو في أثناء القتال . ويدعى أو يقول أو يعد شيئاً ثم ينكل عنه ولا يفعله. وهذا لا يمكن أن يكون من صفات الصنف الأول كما هو المتبادر .

٢٤ – في سورة الجمعة الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْواً ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِماً قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ... » ٩ – ١١

وفي هـذه الآيات صورة لفريق من المسلمين كانوا لا يبالون أن يتركوا المسجد وقت صلاة الجمعـة والنبي قائم فيهم ، ليسارعوا إلى تجارة وصل إليهم خبرها ، أو لهو بدت لهم أسبابه ؛ وقد روي أنهم كانوا يفعلون ذلك حينما ترد قوافل التجارة من الخارج ، أو حينما تسير مواكب الغناء والزمر ؛ وظاهر أن هـذا إنما يـكون من الصنف الثاني .

٢٥ – في سورة التغابن الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ . فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ... » ١٤ – ١٦

وقد روي أن الآيات نزلت في مسلم كان أولاده وزوجته يثبطونه عن الغزو والإنفاق خشية الموت والفقر ، كما روي أنها نزلت في جماعة أخرتهم أموالهم وعيالهم

عن الهجرة ، فلما وجدوا إخوانهم السابقين قد سبقوهم فقهاً في الدين وبلاء في الجهاد هموا بمعاقبة أولادهم وأزواجهم ؛ ومما يلاحظ أن الآية الأخيرة تحث على الإنفاق ، ويستلهم من ذلك أن للإمساك عن الإنفاق دخلا في هذا الموقف متصلا بتثبيط الأولاد والزوجات، وعلى كل حال ففي الآيات صورة لما كان يقع أحياناً من تقاعس بعض المسلمين وتقصيرهم في واجباتهم بسبب الأزواج والأولاد وحب المال .

ولقد ورد في سورة الأنفال آية تنبيهية في هذا المعنى وهي :

« وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ . . . »

٢٨

وقد جاءت بعد آية فيها نهي للمسلمين عن خيانة الله ورسوله والأمانات ، مما يدل على حدوث واقعة اقترف فيها بعض المسلمين خيانة ما بسبب الأموال والأولاد . ولقد كانت الأموال والأولاد مدار اعتذار حتى عن الجهاد في بعض الأحيان كما جاء في آية سورة الفتح (١١) التي شرحناها في المبحث الأول .

صور متنوعة أخرى لا تقوم على مظاهر التفاوت في الإخلاص

الصورة الرابعة

بالإضافة إلى تلك الصور التي تتضمن مواقف وحالات المسلمين حسب تفاوتهم في الإخلاص فإن هناك صورا عديدة أخرى عامة وخاصة لا تقوم على مظاهر التفاوت في الإخلاص نعرضها فيما يلي :

١ ـ في سورة آل عمران الآيات التالية .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ

ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . . . »

١٠٢ ـ ١٠٣

وفي سورة الأنفال هذه الآيات :

« وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » . ٦٢ ـ ٦٣

حيث انطوى في المجموعتين إشارة إلى ما كان من حالة العداء بين طوائف العرب المسلمين قبل إسلامهم وكيف انقلبت هذه الحالة بفضل الله تعالى ودينه إلى أخوة قوية متينة .

ورواة التفسير والمؤرخون يذكرون أن ذلك كان حالة قبيلتي الخزرج والأوس اللتين تتألف منهما غالبية حرب المدينة حيث كانت حالة الحروب والعداء قائمة بينهما قبل الإسلام .

وفي سورة الأنفال آية تقرر التناصر التام بين طوائف المهاجرين والأنصار أيضاً وهي :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ... » ٧٢

وفي سورة التوبة آية تقرر التناصر التام بين المؤمنين على اختلاف طوائفهم وهي هذه :

« وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... » ٧١

وبذلك تمت مظاهر فضل الله ودينه ونعمته بالأخوة الإسلاميـة المتينة التي كانت تشمل الجمهور الإسلامي في العهد المدني .

وما كان من بعض المظاهر التي فيها شذوذ عن ذلك إنما كان في نطاق ضيق ثم تضاءل مع تقدم العهد .

٢ ـ في سورة النساء الآية التالية :

« وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيـلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً ... » ٧٥

حيث ينطوي فيها صورة لفريق من المسلمين من رجال ونساء وولدان ظلوا في مكة على الأرجح مستضعفين مغلوبين على أمرهم يسألون الله أن يجعل لهم من أمرهم فرجاً .

وإلى هذه الصورة في هذه السورة آيات تفيد أنه كان هناك فريق آخر رضوا بالبقاء في أرض الـكفر والظلم ولم يحاولوا النجاة منها مع أنهم لم يكونوا فاقدين كل حيلة ووسيلة إلى ذلك فاستحقوا التثريب والإنذار كما ترى فيها :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَـكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً . إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً . فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً ... » ٩٧ ـ ٩٩

٣ ـ في سورة النساء الآية التالية :

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّـكُمْ

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ... » ٩٢

وفي الآية ما يفيد أنه كان من المؤمنين من كان أهله وعصبته القريبة أعداء كافرين ومنهم من كان بين أهله وعصبته القريبة وبين المؤمنين عهد وميثاق أيضاً .

٤ ـ في هذه السورة كذلك الآيات التالية :

« لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ... ٩٥ ـ ٩٦

وفي الآيات ما يفيد أنه كان من المؤمنين من يقعد عن الاشتراك في الجهاد وأن ذلك لم يكن أمراً ملزماً لجميع المسلمين . (ولعل ذلك كان في ظرف من ظروف العهد المدني) .

٥ ـ في سورة الأنفال الآية التالية :

« وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... »

٢٦

وقد انطوى في الآية تذكير للمؤمنين بما كانوا عليه في العهد المكي من قلة وضعف وخوف . وصورة لما صاروا إليه في العهد المدني من قوة ونصر ورخاء رزق .

٦ ـ في سورة الممتحنة الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ

وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ... » ١٠ ـ ١١

وقد احتوت الآيات صوراً متنوعة عن العهد المدني . منها :

(١) أن بعض المؤمنات لم يستطعن الهجرة من المدينة في مراحلها الأولى فظللن في مكة تحت حفظ ومراقبة ذويهن وكن يترقبن الفرصة للنجاة ولما واتهن فررن من مكة مهاجرات إلى المدينة فضربن بذلك مثلا رائعاً للمرأة المسلمة في الصدر الإسلامي الأول على الجرأة والإقدام على التضحية والخطر في سبيل الدين الحق والحرية .

(٢) إن نساء بعض المهاجرين ظللن في مكة متمسكات بدين الآباء وظللن مع ذلك في عصمة أزواجهن المؤمنين المهاجرين .

(٣) إن نساء بعض المهاجرين هربن من المدينة أو أغرين على الهروب منها وعدن إلى حيث ذويهن الكفار .

٧ ـ وهناك آيات عديدة بعضها يفيد أن من المسلمين من كان غنياً واسع الرزق . ومنهم من كان فقيراً معوزاً . كما ترى في ما يلي :

(١) لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ... ٢٧٣ البقرة

(٢) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ... ٢٧٤ البقرة

(٣) وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ... ٢٠ النساء

(٤) وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّامَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ... ٢٥ النساء

(٥) وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ... ٢٢ النور

(٦) وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... ٣٢ النور

(٧) مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ . . .
٧ الحشر

٨ — وهناك آيات تفيد أن الله عز وجل منّ على المؤمنين فبدل عسرهم يسراً وفقرهم غنى وضيقهم سعة فمنهم من شكر ومنهم جحد كما ترى في الأمثلة التالية :

(١) وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . . .
٢٦ الأنفال

(٢) يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَاقَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ . . .
٧٤ ـ ٧٦ التوبة

(٣) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ... ٢٧ الأحزاب

٩ ـ ولقد احتوى القرآن حكاية أسئلة واستفتاءات كثيرة كان المسلمون يوردونها على النبي صلى الله عليه وسلم فينزل الله جواباً عليها للتشريع والتأديب . مما فيه صور متنوعة للمسلمين وشؤونهم ومشاكلهم في هذا العهد . وما كان من شعورهم بالطمأنينة والاستقرار وبالحاجة إلى التفقه في الدين وإقامة أمورهم وحل مشاكلهم على أسس مستلهمة من أوامر الله تعالى وإرشاد من رسوله صلى الله عليه وسلم . وهذه جملة من ذلك :

(١) يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ... البقرة ١٨٩

(٢) يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ...

البقرة ٢١٥

(٣) يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ . إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...

البقرة ٢١٧ ـ ٢١٨

(٤) يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ

قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... البقرة ٢١٩ ـ ٢٢٠

(٥) وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ... ٢٢٢ البقرة

(٦) وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ الَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً ... النساء ١٢٧

(٧) يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ... ١٧٦ النساء

(٨) يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ... المائدة ٤

(٩) « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ . وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ . . . » ١ ـ ٤ المجادلة

والصورة التي انطوت في آيات المجادلة بخاصة خطيرة ورائعة معاً حيث تضمنت حكاية جدال امرأة مسلمة في أمر زوجها الذي ظاهرها (أي قال لها أنت عليّ محرمة كظهر أمّي) وكان الظهار يجعل الزوجة محرمة فعلاً على زوجها . فلما رفعت أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم شاكية قال لها ما أراك إلا حرمت عليه فجأرت بالشكوى إلى الله مما سوف ينالها من مصيبة من جراء ذلك فلم تلبث الآيات أن نزلت مندّدة بتقليد الظهار الجاهلي ومشرعة تشريعاً لتفادي أثره في الإسلام .

١٠ ـ وهناك صورة طريفة تستفاد من آيات سورة المائدة هذه :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللهُ عَنْهَا وَٱللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ . قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَٰفِرِينَ . . . » ١٠١ – ١٠٢

وقد تعددت الروايات المروية في صدد هذه الآيات . ومنها أن بعضهم سأل عما إذا كان الحج سنوياً . وأن النبي صلى الله عليه وسلم سكت فألح السائل فقال لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم فاتركوني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه .

ومنها أن بعضهم سأل عن صحة ما كان عليه العرب في الجاهلية من عقائدهم في البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي[1] وهي التي ذكرت بعد الآيات وهذه تقاليد جاهلية كان العرب

---

(١) البحيرة : هي المشقوقة الأذن . والسائبة : هي التي يتركونها دون تحميل ولا تشغيل . والوصيلة : هي أنثى الغنم التي تأتي بعد ذكر فيقال لها وصلت أخاها . والحامي : هو الفحل الذي ينتج عشرة فيحمي ظهره من التحميل والركوب .

يسيرون عليها في حق الأنعام في بعض الظروف على ما شرحناه في كتابنا عصر النبي عليه السلام و بيئته قبل البعثة . وعلى كل حال فالآيات تفيد أن بعض المسلمين كانوا يلحون في الأسئلة عمـا هو ضروري وعما هو غير ضروري وكان في بعض أسئلتهم إحراج أو إثارة للحرج فاقتضت الحـكمة الإيحاء بالآيات .

١١ ـ وهناك صورة طريقة أخرى تستفاد من آيات سورة المجادلة هذه :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . . .

١٢ ـ ١٣

وعبارة (ناجيتم الرسول) بمعنى ساررتموه في مجلس خاص والمقصود من ذلك على ما هو المتبادر الاجتماعات الخاصة التي كان بعض المسلمين يرغبون في عقدها مع النبي صلى الله عليه وسلم لاستشارته أو استفتائه في بعض أمورهم . وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وسيلة إلى أخذ رسم من الأغنياء منهم لينفق على مصلحة المسلمين . وفـكر في أن يكون ديناراً فاستشار علياً بن أبي طالب رضي الله عنه فاستكثر ذلك واقترح أن يكون حبة أو شعيرة أي جزءاً صغيراً من الدينار . غير أن بعض المسلمين استثقلوا ذلك وقالوا إن مايدفعونه باسم الزكاة كاف فاقتضت حكمة الله إلغاءه في الآية الثانية .

١٢ ـ وفي سورة الممتحنة هذه الآية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . . . »

١٢

والآية صريحة بأن النساء المؤمنات جئن إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبايعنه أسوة بالرجال فأمر بأخذ البيعة منهن بالنص الوارد فيها . وينطوي في هذه الواقعة صورة خطرة من صور المسلمين في العهد المدني تتمثل في طموح المرأة المسلمة إلى تقرير شخصيتها المستقلة في دولة الإسلام إزاء السلطان الإسلامي الذي كان يمثله النبي صلى الله عليه وسلم . وفي أمر القرآن للنبي بمبايعة المؤمنات إقرار لذلك الطموح وتقرير لتلك الشخصية إقراراً وتقريراً خالدين عظيمي المدى كما هو المتبادر .

وهذه الصور ليست كل ما كان من المسلمين في صدد مشاكلهم وأسئلتهم واستفتاءاتهم. فإن كثيراً من التشريعات القرآنية المتصلة بشؤون الزواج والطلاق والرضاع والعدة والدين والوصية والارث ودخول الناس على بيوت بعضهم ومكاتبة الرقيق . والحج والقتال والجهاد والزكاة والصدقات الخ وإن كانت تبدو في أسلوبها تنزيلات مباشرة فإن روحها والروايات الواردة في صددها تلهم أنها نزلت في مناسبات ووقائع واستفتاءات ومنازعات بين بعض المسلمين مما ينطوي فيه صور كثيرة متنوعة عن المسلمين في العهد المدني كذلك . ويصح أن يشار هنا إلى ماأوردناه في المبحث السادس من فصل شخصية النبي صلى الله عليه وسلم في الجزء الأول من صور سلوكية للمسلمين نحو النبي التي احتوتها آيات مدنية مثل آيات سورة الحجر ١ ـ ٣ و ٤ ـ ٥ وآيات سورة النور ٤٧ ـ ٥٢ و ٦٢ ـ ٦٣ وآيات سورة الأحزاب ٦٩ ـ ٧١ لأن لها صلة بهذا المبحث من حيث هي صور للمسلمين في العهد المدني كما هو المتبادر .

وهناك صور متنوعة أخرى أرجأنا عرضها إلى فصول المنافقين والجهاد والكتابيين لأنها أكثر ارتباطاً بها .

فصــــــل
في المنافقـين في العهـد المـدني
تـمـهـيـد

علة ظهور الحركة في المدينة دون مكة ـ مدى نفاق المنافقين في العهد المدني أثر مواقفهم وخطورتهـا ـ أثر اليهود في حركتهم ـ مباحث الفصل على حسب تصنيف الآيات ـ مدى ما في القرآن من ملهمات بأن المنافقين طبقات ـ عدم اعتبار النبي المنافقين أعداء محاربين وقتلهم أو قتالهم ومدى ذلك ـ ملهمات القرآن بأن معظم المنافقين أفراد بارزون .

الصّورة الأولى

في سورة العنكبوت آيات احتوت كلمة (المنافقين) ونددت بهم وهي هذه :

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ . . . »

١٠ ـ ١١

ولقد روى المفسرون أن هذه الآيات مدنية . غير أننا شككنا في ذلك استلهاماً مما سبقها وما لحق بها من الآيات . وسواء أصح استلهامنا أم لم يصح فإن حركة النفاق التي نجحت لمناوأة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين والإسلام هي في الحقيقة من حركات العهد المدني وأحداثه .

وعلة ظهور تلك الحركة في المدينة واضحة ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون الأولون في مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ في حالة تستدعي وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم ، فتتملقهم وتتزلف إليهم في الظاهر ، وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم في الخفاء ، كما كان شأن المنافقين بوجه عام ؛ ولقد كان أهل مكة وزعماؤها خاصة

يناوئون النبي جهاراً ، ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالأذى الشديد ، ويقاومون الدعوة بكل وسيلة دون ماتحرز أو تحفظ ، وكانت القوة لهم حتى اضطر المسلمون إلى الهجرة فراراً بدينهم ودمهم إلى الحبشة ، أولا ثم إلى يثرب ؛ وحتى فتن بعضهم عن دينه بالعنف والإكراه ، أو بالإغراء والتهويش ، وحتى تزلزل بعضهم وتبرم ونافق المشركين ، وحتى مات بعض من ناله الأذى ممن ثبت على دينه نتيجة للتعذيب ، كما مر تفصيله في مباحث العهد المكي .

أما في المدينة فقد كان الأمر مختلفاً جدا . فالنبي صلى الله عليه وسلم استطاع قبل أن يهاجر إليها أن يكسب أنصاراً أقوياء من الأوس والخزرج ، ولم يهاجر إلا بعد أن استوثق من موقفه ، ولم يبق تقريبا بيت عربي فيها لم يدخله الإسلام [١] ففي هذه الحالة لم يكن من الهين أن يقف الذين لم يؤمنوا به ـ إما عن جهالة وغباء ، وإما عن غيظ وحقد وعناد لأنهم رأوا في قدوم النبي حدا لنفوذهم وسلطانهم ـ [٢] موقف الجحود والعداء العلني للنبي والمسلمين من المهاجرين والأنصار ؛ وكان للعصبية في الوقت نفسه أثر غير قليل في عدم الوقوف هذا الموقف ، لأن سواد الأوس والخزرج أصبحوا أنصار النبي ، ومرتبطين به بمواثيق الدفاع والنصر ، إلى أن جلهم قد حسن إسلامهم ، وغدوا يرون في النبي رسول الله وقائدهم الأعلى الواجب الطاعة ، ومرشدهم الأعظم الواجب الاتباع ؛ فلم يكن يسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك ، ويتحكم فيهم مرض القلب والمكابرة والحقد ويحملهم ذلك على مناوأة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته ونفوذه ـ أن يظهروا علنا في نزعتهم وعدائهم ، ولم يكن أمامهم إلا التظاهر بالإسلام والقيام بأركانه ، والتضامن مع قبائلهم ، وجعل مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والمواربة والخداع والتمويه ؛ وإذا كانوا وقفوا أحياناً مواقف علنية فيها كيد ودس وعليها طابع من النفاق

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣١ .

(٢) في سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٣٥ أن الخزرج كانوا مزمعين المناداة بعبد الله بن أبي زعيم المنافقين ملكا عليهم قبيل الهجرة ، وأنه حقد على النبي لأن قدومه حال دون ذلك .

بارز ؛ فإنما كان هذا منهم في بعض الظروف والأزمات الحادّة التي كانت تحدق بالنبي والمسلمين ، والتي كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعي المصلحة والمنطق والاحتياط ، ولم يكونوا على كل حال يعترفون بالكفر أو بالنفاق ، غير أن نفاقهم وكفرهم ومواقفهم في الكيد والدس والتآمر لم تكن لتخفى على النبي صلى الله عليه وسلم والمخلصين من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، كما أن تلك المواقف العلنية التي كانوا يقفونها في فرص الأزمات كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقتاً ؛ وقد كانت الآيات القرآنية توجه إليهم كذلك الفضائح المرة بعد المرة ، وتدل عليهم بما يفعلون أو يمكرون ، وتدمغهم بشرورهم وخبثهم ومكايدهم ، وتحذر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين منهم في كل ظرف ومناسبة .

الصّورة الثانية

ولقد كانت مواقف المنافقين ومكايدهم بعيدة المدى والأثر على ماتلهم الآيات المدنية، حتى لكأنه نضال قوي يذكر بما كان من نضال بين النبي صلى الله عليه وسلم وزعماء مكة وإن اختلفت الأدوار والنتائج ؛ إذ أن النبي لم يلبث أن أخذ مركزه يتوطد ، وقوته تزداد ، ودائرة الإسلام تتسع ، وصار صاحب سلطان وأمر نافذ وجانب عزيز ؛ وإذ لم يكن المنافقون كتلة متضامنة ذات شخصية خاصة بارزة ؛ وكان ضعفهم وضآلة عددهم وشأنهم يسيران سيراً متناسباً عكسيا مع ما كان من تزايد قوة النبي صلى الله عليه وسلم واتساع دائرة الإسلام ، وتوطد عزته وسلطانه .

ويكفيك لأجل أن تشعر بخطورة الدور الذي قام به المنافقون ، وخاصة في أوائل العهد ، أن تلاحظ أن المنافقين كانوا أقوياء نسبيا بعصبياتهم التي كانت ما تزال قوية الأثر في نفوس سواد قبائلهم ، كما أنهم لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة ، ولم يكن الإسلام قد رسخ في هذا السواد رسوخاً كافيا ؛ وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان محوطا بالمشركين الجاحدين من كل جانب ؛ وأهل مكة خصومه الألداء ، وهم قبلة الجزيرة ، يتربصون به الدوائر ، ويتحينون كل فرصة ووسيلة للقضاء عليه ؛ واليهود في المدينة

وحولها قد تنكروا له منذ عهد مبكر وتطيروا به ، ثم جاهروه بالكفر والعداء والمكر والكيد ؛ ولم يلبث أن انعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعي على توحيد المسعى ، والتضامن في موقف المعارضة والكيد ، حتى ليمكن القول إن المنافقين لم يقووا ويثبتوا ويكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار في الكيد والدس إلا بسبب ما لقوه من اليهود من تعضيد ، وما انعقد بينهم من تضامن وتواثق ؛ ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد أن مكن الله للنبي من هؤلاء وأظهره عليهم وكفاه شرهم .

الصورة الثالثة

والآيات التي تتضمن أوصاف وأخبار ومواقف المنافقين والحملات عليهم كثيرة جدا، حتى لا تكاد تخلو سورة مدنية منها وخاصة الطويلة والمتوسطة ؛ وهذا يعني أن هذه الحركة ظلت طيلة العهد المدني تقريباً ، وإن كانت أخذت تضعف من بعد نصفه الأول ، وهي متنوعة المدى والدلالات ، ويمكن تصنيفها كما يلي :

١ ـ ما جاء في صفاتهم وأحوالهم .

٢ ـ « « مواقفهم الكيدية والساخرة وتآمرهم ضد المسلمين والإسلام .

٣ ـ « « مواقفهم من الجهاد ووقائعه .

الصورة الرابعة

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى ثلاث نقط في صدد هذا الفصل :

أولاها ما جاء في الآيات التي سنوردها من وصف «الذين في قلوبهم مرض» بدل وصف « المنافقين » ومن اجتماع الوصفين معاً في آية واحدة ، ومن تفاوت الشدة في الحملات وتنوع الصور ؛ مما يسوغ القول إن هذه الفئة كانت فريقين أو طبقتين ، واحدة كافرة كل الكفر ، عدوة كل العداوة ، ماكرة كل المكر ؛ وأخرى ضعيفة النفس ، مريضة القلب ، تميل مع المنفعة ، وترغب بنفسها عن ما تسميه مخاطر ومجازفات ومشاكل ، ويأخذها شيء من الشك والتردد في طاعة الله ورسوله طاعة تامة ، وتنجرّ أحياناً إلى الفئة الأولى فتحذو حذوها ، أو تقع في شباكها وتندمج معها .

ومما يجدر التنبيه إليه‌مع ذلك أن الحملات القرآنية العنيفة ، ووصف الكفر والنفاق، والأمر بالمجاهدة والشدة ، قد تناول هذه الطبقة في آيات عدة كما تناول تلك مما يمكن الاستدلال به على أن القرآن وإن تضمن إلهام كونهم طبقتين أو طبقات ـ إذا أردنا أن نصنفهم على حسب تنوع مواقفهم ـ فإنه تضمن إلهام أنهم فئة واحدة ، وتضمن بالتالي إلهام أن أي ختل أو شك أو تردد أو تهرب أو سخرية أو تقصير في الواجبات العظمى كالإيمان التام بما يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم من قرآن أو يأمر به من أوامر أو يحكم به من أحكام ، وكالطاعة التامة له ، وكاحترامه كل الاحترام ، وكالقيام بواجب الجهاد بالنفس والمال لتوطيد حرية الإسلام ، ودفع الخطر والبغي والكيد عن الإسلام والمسلمين ومصالحهم ، والتضامن القوي التام في كل هذا مع سائر المسلمين باطناً وظاهراً ؛ أو الاندماج مع أعداء الإسلام والمسلمين في مؤامرة أو مكايدة ، أو مسايرتهم في أي موقف أو قول مهما كان نوعه ومهما كان ناتجاً عن أوشاج الرحم والقربى والعصبية والمصلحة نفاقاً ـ يعتبر داخلا في شمول صفات النفاق التي وردت في الآيات القرآنية وفي شمول ماورد بحق المتصفين بها من تنديد قارع ، وإنذار قاصم ، وإن كان فريق أقل شدة أو أكثر تحفظا من فريق آخر ، وننبه إلى ما في هذا من تلقين قرآني جليل مستمر المدى .

والثانية ولها أهمية عظمى فيما نعتقد من ناحية السيرة النبوية : هي عدم ورود روايات موثقة تتضمن أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتبر المنافقين أعداء محاربين أو عاملهم كذلك ، أو أمر بقتلهم ، أو قتل بارزيهم ، بسبب صفة النفاق ، أو بسبب موقف منبعث عنه من تلك المواقف الكثيرة المتنوعة التي حكتها الآيات التي نزلت في مختلف أدوار التنزيل عنهم ، والتي احتوت صوراً كثيرة من الأذى والكيد والسخرية بالله ورسوله وآياته ، والتناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، والتثبيط عن الجهاد والختل فيه ، ودس الدسائس وإثارة الفتن والأحقاد ، وإشاعة الفاحشة والإرجاف بين المسلمين بما يثير قلقهم وفزعهم ، والتعرض لنساء المسلمين ، بل لنساء النبي بالأذى والكيد ، والتضامن

مع أعداء الإسلام وموالاتهم وتقرير كونهم قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إيمانهم الخ ، وفي حين أن القرآن أمر بمجاهدتهم مع الكافرين ، والإغلاظ لهم واعتبارهم أعداء ، وأمر بقتل من لم ينته منهم عن مواقف الأذى والإرجاف ، وبنفيه ، وبتقتيله أينما ثقف ، فضلا عما أنذروا به من عذاب دنيوي وأخروي شديدين ، وفي حين أن القرآن حكى مواقف لهم مثل هذه المواقف ، وبعد هذه الأوامر والإنذارات والتقريرات الحاسمة ؛ كما أن القرآن لم يتضمن إشارة ما إلى ذلك .

فإزاء هذا لانعدو الصواب إذا قلنا :

(١) إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعتبر المنافقين أعداء محاربين ، فلم يقاتلهم فعلا كما كان شأنه مع الكفار، لاسيما أن حرب النبي لهؤلاء إنما كان لبدئهم بالعدوان واستقرارهم فيه ، وحربه لليهود إنما كان لمثل ذلك ،وغزوته لتبوك بسبيل التنكيل بسكان المشارف الذين كان غالبهم نصارى ، وتسييره السرايا على هذه المشارف واشتباكها بحرب مع النصارى فيها إنما كان كذلك لعدوان سابق ؛ ولم يكن حال المنافقين على كل حال يشبه حال كفار العرب أو اليهود أو النصارى المحاربين .

(٢) إن النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتبر ماجاء في الآيات القرآنية بمثابة توجيهات متروك إليه أمر تقدير ظروف تنفيذها والسير فيها بما يوافق مصلحة الإسلام والمسلمين ؛ لاسيما أن بعض الآيات الواردة في هذا الصدد قد تخللتها جمل تلهم معنى التعليق على شرط مثل جمل « فإن يتوبوا يك خيراً لهم » و « لئن لم ينته المنافقون » و « فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم » و « إن نعف عن طائفة منهم نعذب طائفة » إلخ كما تخلل الآيات الواردة في شأنهم إشارات إلى أنهم كانوا يصلون مع الجماعة وكان يؤدون الزكاة ــ مع وصف ذلك بأنه وقع كرها ورياء ــ وكانوا يحلفون الأيمان على حسن نيتهم وصدق إسلامهم ؛ فرأى أن يعاملهم بسعة صدر وحلم وصبر إلى النهاية ، لما كان بينهم وبين كثير من المخلصين من روابط القربى والرحم ، ورأى أن خلاف هذه الخطة قد يفتح في صفوف الإسلام

ثغرات واسعة ، ويثير أزمات داخلية حادة [1] ؛ لاسيما أنه كان مطمئن القلب بوعد الله بالنصر النهائي ، وإظهار دينه على الدين كله ؛ وقد أخذ يرى منذ أوائل النصف الثاني من العهد المدني وبعد ما خضدت شوكة اليهود — وهو الوقت الذي صار في إمكانه من جهة مادية شن حرب عملية عليهم مأمونة عواقبها بعض الأمان — أن صوتهم بدأ يخفت ، ونشاطهم يخمد ، وعددهم يقل ، وتزلفهم يشتد ، ومداراتهم تزداد ، وخوفهم يبدو واضحاً ؛ وربما ندم منهم كثيرون فعادوا إلى حظيرة الحق والإسلام الصحيح ، فكانت هذه الظواهر مما ثبته في خطته ورأى فيها الصواب والمصلحة .

أما الثالثة فهي أن الآيات الواردة في حق المنافقين ومرضى القلوب ، تلهم روحاً أو مضمونا ، أو روحا ومضمونا في آن واحد ، أن حركة النفاق إنما قام بها وتولى كبرها أفراد من البارزين في قومهم وعشائرهم قليلا أو كثيرا ، بل إننا لنكاد نقول استلهاما من روح الآيات ومضمونها إن معظم أفراد هذه الفئة من تلك الطبقة ، وإنه إذا كان اندمج فيها أناس من طبقة السواد أو العامة فإنهم لم يكونوا كثيرين وإنما انساقوا فيها بتأثير أولئك ، من ناحية زعامتهم وعصبية الأرحام التي تربط بينهم ، أو من ناحية الإغراء والمنفعة .

وهذا طبيعي كما هو المتبادر ؛ لأنه ليس لأفراد من السواد مصلحة في مناوأة حركة اندمج فيها غالب قومهم ، إيمانا وتصديقا وإخلاصا وجهادا ثم مصلحة وكيانا ، كما أنه قلما يكون في هؤلاء من يظن أنه أعقل من أن يندمج في حركة اندمجت فيها الكثرة

(١) في روايات السيرة أن عبد الله بن أبي هو الذي قال : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » و « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » ، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استأذن النبي صلى الله عليه وسلم بقتله فأبى قائلا ما مفاده : لا أريد أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، وأن كعب بن عبد الله رضي الله — وكان مخلصاً — جاء إلى النبي صلى الله وسلم فقال له يارسول الله إن كنت قاتل أبي فأمرني أنا أقتله ولا تأمر غيري لأني لا أطيق أن أرى قاتلا لأبي ، فأقتله فأكفر ! فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم قائلا بل نعفو ونصبر عنه .. وفي هذا مصداق ماقررناه آنفا .

الـكبرى ؛ وإن الذين اندفعوا في مناوأتها واغتاظوا منها وحقدوا عليها لايمكن أن يـكونوا إلا أفرادا من البارزين الذين يمكن أن يتوهموا فيها ضررا وخطرا على مركزهم ومصلحتهم ، وأن يأنفوا لـكرامتهم ولما يتوهمونه في أنفسهم من عقل من الاندماج فيها ؛ ولقد كان لليهود يد قوية في هذه الحركة كما ذكرنا ؛ فالذين أخذوا على عاتقهم مهمة تغذية هذه الحركة وتنميتها لايمكن أن يتصلوا بشأنها إلا مع أمثال هؤلاء كما لايخفى .

الصُّورة الخامسة

كذلك نريد أن نشير إلى ما كان من انقسام المسلمين في الرأى فيهم ؛ فقـد جاء في سورة النساء الآيات التالية :

« فَمَا لَـكُمْ فِي ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلاً . وَدُّواْ لَوْ تَـكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَـكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَـآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرا . . »

٨٨ ـ ٨٩

إذ تلهم الآية الأولى أن المسلمين كانوا منقسمين في الرأى في المنافقين ، منهم من يحسن الظن بهم ويعتذر عنهم ويأمل في ارعوائهم ، ومنهم من لا يرى ذلك . ولقد ذكرت الروايات أنها بحق منافقي المدينة الذين خذلوا المسلمين في وقعة أحد ؛ كما ذكرت أنها بحق فريق من البدو أعلنوا إسلامهم ولـكنهم لم يتضامنوا مع المسلمين في الجهاد والهجرة ؛ وبعض الروايات قال إنها بحق الفريق الذي تخلف في مكة ولم يهاجر ؛ والرواية الأولى قد تصح إذا دلت كلمة « يهاجروا » بمعنى يجاهدوا أو يخلصوا ، وقد أولها غير واحد من المفسرين هذا التأويل .

ومع احتمال وجاهة الروايتين الأخريين فإننا نرى الرواية الأولى ـ بقطع النظر عن

ظرف وقعة أحد ـ بهذا التأويل أوجه ، لأن اختلاف المسلمين في الرأى في المنافقين أكثر احتمالا بالنسبة لمنافقي المدينة ؛ وقد يكون في الآية الثانية تدعيم لهذا أيضاً ، إذ تذكر كفرهم، وتذكر تمنيهم أن يكفر المسلمون مثلهم ؛ وهذه صفات وصف بها منافقو المدينة على ما ورد في آيات التوبة وغيرها مما سنورده في هذا الفصل ؛ لاسيما أن الروايتين الأخريين لا تذكران بصراحة اتصاف البدو أو المتخلفين عن الهجرة في مكة بصفة النفاق والكفر ، ولا تتحمل حالتهم المروية هذه الصفة .

والأمر بقتلهم حيث وجدوا إذا تولوا ولم يخلصوا ليس من شأنه أن يضعف توجيهنا بأن المقصودين هم منافقو المدينة ، فقد ورد في آيتي الأحزاب ٦٠ ـ ٦١ اللتين سنوردهما في أحد مباحث هذا الفصل صراحة أن المقصودين هم منافقو المدينة إذا لم ينتهوا .

وقد احتوت الآية الثانية حكم الله في هذا الخلاف ، وفيه تأييد للمتشددين في أمرهم وبيان لمواقع حالهم من الارتكاس في الفتنة والكفر والضلال .

والذي نرجحه أنه كان للعصبية الاجتماعية والمصالح المشتركة الوثيقة أثر فيما كان من رأى التسامح الذي أبداه الفريق الأول ، كما نرجح أن المنافقين كانوا يستغلون هذه الروابط القوية المؤثرة فيما كان منهم من مواقف دس وكيد وتشكيك وسخرية وعدم تضامن إلخ مما احتوت صوره آيات كثيرة سنوردها في مباحث الفصل ، ثم في الاطمئنان من عدم الوقوف منهم موقف الشدة والغلظة رغم ما كان منهم من مواقف شديدة الأذى والكيد ، فاقتضت الحكمة نزول الآيات بالحكم الحاسم والأمر الشديد حتى يسد الباب أمام هذا الاستغلال ويقف المسلمون موقفاً واحداً ورأيا واحداً منهم ، وهو موقف الشدة والتكفير إذا لم يتوبوا ويخلصوا .

ولقد احتوت إحدى آيات سورة النساء وهي هذه :

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا

وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا . . .»

١٤٠

شيئاً من التدعيم لما قررناه من هذا الأثر ، إذ تلهم أن بعض المسلمين لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من التردد على مجالس الزعماء المنافقين ، والإغضاء عما يدور فيها من كفر وهزء بآيات الله ونبيه ، فأمروا بعدم مجالستهم أثناء الخوض في مثل ذلك على الأقل ؛ كأنما رأت الحكمة حرجاً في منعهم بالمرة .

ومن هنا تبدو لنا ناحية من حكمة الخطة النبوية في المنافقين التي شرحناها في الفقرة السابقة . ولما كانت الخطة المذكورة قد استمرت إلى آخر العهد النبوي أو أواخره ، فإن هذا يسوغ القول إن فريقاً من المسلمين ظل على رأيه في العطف على ذوي قرباه منهم ، والاعتذار عنهم وأمله في ارعوائهم ، وظل متأثراً بالعصبية والقرابة والمصلحة ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم رأى من الحكمة أن يستمر في خطته تلك .

ولقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم في آية التوبة هذه :

«وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ... »

٨٤

التي نزلت في أواخر العهد المدني ، أي في ظروف غزوة تبوك ، بعدم الصلاة على من يموت منهم وهو ثابت على نفاقه وكفره ، مما يلهم أن النبي كان يستجيب إلى طلب ذوي قربى المنافق فيصلي عليهم إذا ماتوا ويدعو لهم ، وأن هذا قد استمر إلى أواخر العهد المدني ؛ وفي هذا تدعيم لما نحن بسبيل تقريره .

المبحث الأول

في صفات المنافقين وأحوالهم

وصف شامل للمنافقين في سورة البقرة ومداه ـ وصف آخر لهم في نفس السورة ـ صور وأوصاف وحالات متنوعة لهم من سورة النساء ـ من سورة التوبة ـ ما تلهم آيات التوبة من تبدل حالهم إلى القلة والضعف ـ النفاق في الأعراب ـ منافقون متكتمون ـ صور وحالات من سورة الحديد ـ من سورة محمد ـ من سورة « المنافقون » .

الصورة الأولى

(١) في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ . يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ . ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ . أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ . . . » ٨ ـ ١٦

وقد احتوت الآيات وصفا قويا شاملاً للمنافقين ، فهم يدعون الإسلام كذبا ، ويدسون ويفسدون ثم يزعمون أن فيما يبدو منهم إصلاحا ومصلحة ، ويأنفون أن يكونوا كالمخلصين فناء في الإسلام وواجباته وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويعتبرون ذلك سفها ، وقد عقدوا الصلات الوثيقة باليهود فكلما خلوا إليهم أكدوا لهم أنهم معهم ،

وأنهم إذا تظاهروا بالإسلام فليس إلا خداعا واستهزاء ؛ وكل هذا منبعث عن مرض قلبي ونية خبيثة فيهم .

والآيات لا تحتوي كلمة « المنافقين » ولـكنها لا تدع أي شك في أنها تعنيهم . والآية (١٣) التي تحـكي وصفهم المؤمنين المخلصين بالسفهاء ، تلهم أن القائلين من الزعماء البارزين الذين تدفعهم عنجهيتهم إلى الترفع ، والذين كانوا يرون في التفاني في النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته غلوا لا محل له والراجح مع هذا أن ما حكي عنهم إنما كان يصدر منهم حينما يكون مخاطبهم أو معاتبهم من طبقتهم ، أو من ذوي رحمهم ، بحيث يأمنون النميمة والعصبية ؛ ومثل هذا ما حكته عنهم الآية (١٢) أيضا إذ نرجح أن الذين كانوا يعاتبونهم على دسهم وإفسادهم هم من طبقتهم أو ذوي رحمهم ؛ ولعل في جملة « وإذا قيل لهم » في كلتا الآيتين قرينة ما على ذلك . ويبدو أن تفاني المخلصين في النبي والإسلام مما كان يزيد في لهيب حقد هذه الفئة ، لأن ذلك كان مما يحبط مكايدهم ، ويبعدعنهم ذوي أرحامهم ولعل فيما حكي عنهم في الآيتين من الاعتذار الواهي المـكابر قرينة ما على ذلك أيضا .

ومهما كان احتمال ألّا تـكون هذه الآيات من أول ما نزل من القرآن المدني . فإننا لا نشك في أنها ممـا نزل في عهد مبكر ، ويستلهم هذا من أنها إنمـا تحتوي وصفا عاما . وتبكير نزولها يلهم أن هذه الحركة قد ظهرت مبكرة جدا ،[1] وأن التواثق بين القائمين بها واليهود قد توطد كذلك في عهد مبكر جدا .

٢ ـ وفي سورة البقرة الآيات التالية أيضاً :

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ... » ٢٠٤ ـ ٢٠٦

(١) ورد في روايات السيرة أن غيظ بعض زعماء المدينة الذين صاروا زعماء المنافقين قد بدأ قبل الهجرة النبوية ، وفي عهد القارئ أو الإمام الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم مع وفود المدينة ليعلمهم القرآن ويؤمهم في الصلاة .

وفي هذه الآيات صورة أخرى للمنافقين ، وإن لم يرد فيها كذلك كلمة «المنافقين» وهي صورة قوية الملامح للناس الذين يستثيرون الإعجاب بأقوالهم المنمقة ، وأيمانهم المغلظة ، ولكنهم لا يتورعون عن أفظع الآثام ؛ ثم يغضبون إذا ما عوتبوا وطولبوا بتقوى الله وخوفه مما يقترفونه ، ويعتبرون ذلك إهانة لكرامتهم ، ووسيلة للإيغال في الشر والفساد والفتنة . والصورة وإن كانت مطلقة تعبر عن فئة من الناس قد توجد في كل زمن ومكان لأنها متصلة بطبائع البشر المختلفة ، فلا شك في أن الآيات قد نزلت في صدد أناس من المتظاهرين بالإسلام كانوا يبطنون الكفر ، ويوغلون في الإثم والعداء والفتنة ؛ ولقد ذكرت الروايات أنها نزلت في زعيم بدوي اسمه شريق بن الأخنس ، غدر وأثم بعد توكيد الإيمان ، وعهده على عدم الخيانة والغدر .

الصورة الثانية

٣ ـ في سورة النساء الآيات التالية :

١ — إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا. بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ...

١٣٧ ـ ١٣٨

٢ — إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا . مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا . . .

١٤٢ ـ ١٤٣

وقد ذكر المنافقون في الآيات بصراحة ، وفي الآيات الأولى صورة نفاق وتذبذب عجيبة لهم ، إذ كانوا يعلنون إيمانهم ثم يكفرون ثم يعلنون إيمانهم ثانية ثم يكفرون ، على حسب ما توحيه إليهم ظروف الأمن والخوف والمصلحة ؛ وفي الآيات الأخرى صورة ثانية ، فقد كانوا يظنون أنهم ناجحون في دور خداعهم مع أنهم مفضوحون فيه ، وقد كانوا إذا حضرت الصلاة قاموا إليها كسالى مراءاة للناس فحسب ،

وقلما ذكروا الله ذكر المؤمل في رحمته الخائف من نقمته ؛ وهكذا كانوا مذبذبين في حالتهم ، تبعاً للظروف ، غير صادرين على أي حال عن نية حسنة ، ورغبة صالحة ؛ وروح الآيات تلهم أن موضوع الكلام أفراد معدودون وغير مجهولين كما هو واضح فيها ؛ ولقد تقرر التنديد بهم لقيامهم إلى الصلاة كسالى في الآية ٥٤ مما يلهم :

(١) أنهم كانوا يمارسون الصلاة مع الجماعة و (٢) أن حالتهم هذه كانت من الأمارات العامة على نفاقهم وعدم إخلاصهم في إسلامهم .

٤ ـ وفي السورة نفسها هذه الآيات أيضاً :

« إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً . إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً . . . » ١٤٥ ـ ١٤٦

فالمنزلة التي يتوعد الله بها المنافقين في النار تلهم كما هو المتبادر شدة نكايتهم ، وسوء أثر مواقفهم حتى لكأنهم من شر الكفار الصريحين ـ أما الآية الثانية فإنها بسبيل بث الأمل فيهم بعد بيان تلك المنزلة الرهيبة ، ودعوة لهم إلى الكف والارعواء حتى لا يتحقق وعيد الله فيهم . ومع أن فتح باب الإنابة والتوبة للجاحدين والآثمين هو مما تكرر في القرآن تقريره من المبادئ العامة ، فإن الآية مما يمكن أن تلهم أن المنافقين أو أن فريقاً منهم ، وخاصة المخدوعين بزعمائهم ، لم ينقطع الرجاء من ارعوائهم وإخلاصهم ؛ ولقد احتوت سورة التوبة آيات فيها ما يدل على تناقص عددهم وضعف شأنهم سوف نوردها بعد ؛ فلعل في هذا التطور ما يدعم ما يمكن أن تلهمه الآية ونذبه إلى أن في الآية وما تلهمه تأييداً لما استنتجناه من حكمة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيهم على ما قررناه في الفقرة الأخيرة من التمهيد .

الصّورة الثالثة

٥ ـ في سورة التوبة الآيات التالية :

١ ـ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ...

٥٦ ـ ٥٧

٢ ـ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ . أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ...

٦٢ ـ ٦٣

٣ ـ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ . وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ...

٦٧ ـ ٦٨

٤ ـ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ . يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ . وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ...

٧٣ ـ ٧٧

وسورة التوبة من أواخر ما نزل من القرآن، وهذه المقاطع قد نزلت ـ على مايستلهم

من سياقها ومضامين المقاطع الأخرى المتصلة بها ـ في ظروف الاستنفار إلى غزوة تبوك ، وبسبب ما كان من مواقف المنافقين يومئذ ؛ مع التنبيه إلى أنها قد جاءت بقصد التنديد والتذكير بمواقفهم وأخلاقهم وحالتهم بصورة عامة .

والمقطع الأول احتوى صورة لما وصل إليه شأنهم من خوف وضعف وقلة وتزلف؛ وهذه الصورة تمثلهم في أواخر العهد المدني ، لأنهم كانوا يستشعرون القوة والعزة شيئا ما قبل ذلك ، كما تلهمه آيات أخرى سوف نوردها بعد .

والمقطع الثاني احتوى صورة من صور تزلفهم للمخلصين وحلفهم الأيمان على إخلاصهم بقصد إرضائهم ؛ وينطوي في هذا صورة الضعف والخوف والتزلف أيضا كما هو واضح ؛ وبهذا يمكن أن ينسحب عليها ما قلناه آنفا من تمثيلها لهم في أواخر العهد المدني .

والمقطع الثالث يحتوي وصفا لسوء أخلاقهم وتضامنهم في النهي عن المعروف والخير، والأمر بالمنكر والشر ؛ويسوي في ذلك الرجال والنساء منهم ، والراجح أن هذا التضامن إنما كان منهم في صدد الدعوة الإسلامية ، وتعليمات النبي صلى الله عليه وسلم وتبليغاته إذ كانوا يأمرون بمخالفة أوامر النبي ومبادئ الإسلام ،وينهون عن الانقياد للنبي والتزام تلك المبادئ التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر أما المقطع الرابع فقد احتوى أمراً بمجاهدتهم هم والكفار سواء وبالإغلاظ عليهم ، وتتبع الأمر ببيان عن بعض حالاتهم وأخلاقهم ، فهم ينكرون أنهم كفروا بعد إيمانهم ويحلفون على ذلك مع أنهم كاذبون ، لأن الكفر صدر منهم قولا وعملا ، وحاولوا تقويض الإسلام جهدهم فخابوا وفشلوا ؛ ولم يكن لموقفهم هذا من سبب إلا الحقد والغيظ من النبي واشتداد أمره ، مع أنه قد عاد عليهم من ذلك بسطة العيش والغنى ، ولقد كان منهم من ينذر بأن يتصدق في سبيل الله ويخلص له إذا أنعم عليه ، فلما آتاه الله من فضله بخل وتولى ، فنمّ عن خبث نيته وسوء طويته ، ودمغ إلى الأبد دمغة النفاق .

وفي المقطع مايدل على ماعاد على أهل المدينة ، من الهجرة النبوية والحركة

الإسـلامية ، من الخـيرات والبركات ، وفي هـذا مشهد من مشاهد هــذا العهد كما هو واضح .

ويلفت النظر خاصة إلى الآية (٧٣) التي تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بمجاهدة المنافقين والكفار ، ومايتضمنه هذا من اعتبار الفريقين في موقف واحد من العداء للإسلام والكيد له ؛ ومما لاريب فيه أن هذا قد كان بسبب مابدا منهم من بغى ودس وكيد ، وينطوي فيه الإشارة إلى خطورة مواقفهم وشدة نكاية حركتهم ، كذلك يلفت النظر إلى الفقرة الأخيرة من الآية (٧٤) ففيها إنذار لهم بالتوبة ، وتنبيه إلى أن في ذلك خيرهم ، وبالتالي إبقاء باب التوبة مفتوحا أمامهم ، مما هو متسق مع التقريرات القرآنية ، وماعللنا به صبر النبي صلى الله عليه وسلم عليهم وعدم معاملتهم معاملة الأعداء المحاربين ؛ ومما ينطوي فيه أمل ارعوائهم . على أن فيهـا صورة أخرى لما وصلوا إليـه من ضعف وازورار عن المسلمين وفيهم ذوو رحمهم ، وذلك في جملة « ومالهم في الأرض من ولي ولا نصير » ، كما يتبادر لنا .

والمقاطع الأول والثاني والرابع تلهم أن موضوع الكلام أفراد بارزون كما هو واضح ، وفي ذلك مصداق لما ذكرناه في التمهيد .

(٦) وفي سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ . وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ . . . »

٨٤ ـ ٨٥

وهي من سلسلة تضمنت حملة على المنافقين لتخلفهم عن غزوة تبوك بأنفسهم وتثبيطهم غيرهم مما سوف نورده في مبحث آخر ؛ والمتصل بهذا المبحث منها هو ماتدل عليه (١) من افتضاح أمرهم أو أمر بعضهم بأعيانهم ، وتقرير كفرهم ونفاقهم بأسلوب حاسم ؛ بحيث

نهت النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على من يموت منهم والدعاء له والقيام على قبره .
(٢) من غناهم أو غنى بعضهم وكثرة أولادهم ، واعتدادهم بذلك ؛ وقد تلهم الآية الثانية إلى هذا ما كان لهم من تأثير بسبب ذلك، وما كان يعتلج في نفس النبي والمسلمين من رغبة في ارعوائهم ، وغيظ مما حازوه من ذلك لما كان لهم بسببه من قوة التأثير في غيرهم ؛ وواضح من هذا أن موضوع الكلام أفراد بارزون أيضا. ولقد ورد في السورة نفسها آية مقاربة النص لهذه الآية وهي الآية ٥٥ ؛ وتكرار ذلك في سلسلة واحدة تقريباً ، قد يدل على صحة ما استلهمناه ، واستهداف القرآن إضعاف ماقام في نفوس المسلمين من رغبة أو ثأر من عاطفة .

الصورة الرابعة

(٧) وفي سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . . . »

٩٧ — ٩٨

وقد جاءت هذه الآيات في سياق التنديد بالمتخلفين من الأعراب عن غزوة تبوك ، وهي صريحة الدلالة على أن النفاق لم ينحصر في منافقي المدينة ، بل كان في الأعراب منافقون أيضا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، ويتملقون المسلمين حينا مع تربصهم الدوائر بهم ، ولايرون فيما يدفعون من زكاة ونفقات جهاد إلا مغرما ، لأنهم لايؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولايرجون وجه الله وثوابه فيما يفعلون .

ولعل من الجائز أن يقال إن منافقي الأعراب لم يكن منهم ذلك الدور الخطير المؤذي الذي كان من منافقي المدينة ، وإن مواقفهم النفاقية إنما كانت تظهر في

المناسبات وعند الاختبار ، وخاصة في ظروف الاستنفار إلى الجهاد ، واستيفاء زكاة الأموال ، كما كان أحيانا يظهر من أعراب لم ينعتوا بنعت النفاق كاجرى في الاستنفار إلى زيارة الكعبة التي انتهت بصلح الحديبية على ماجاء في آيات سورة الفتح ١١ ـ ١٢ التي نقلناها في مناسبة سابقة . ولعل عدم الإشارة إليهم إلا في هذه السورة وبمناسبة غزوة تبوك قرينة ما على ذلك ؛ وقد يكون هذا طبيعيا ، لأن منافقي المدينة في حالة مواجهة واتصال واحتكاك دائمة مع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين وذوي قرباهم واليهود؛ هذا إلى مافي الآية الأولى من تعليل متصل بطبيعة البدو والبادية ومايلهم هذا التعليل من الفرق بين منافقي الأعراب ومنافقي المدينة .

٨ ـ وفي السورة نفسها الآية التالية :

« وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ... »

١٠١

وهي تقرر أنه كان هناك طبقة من المنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب استطاعت أن تتقن كتم نفاقها عن المسلمين أو جهلهم ؛ ويبدو أنه كان لهؤلاء أذى بليغ ، لأن الآية توعدتهم بالعذاب مرتين في الدنيا فوق ما ينتظرهم من عذاب الآخرة ، وفي هذا صورة جديدة من صور حركة النفاق في العهد المدني كما هو واضح .

٩ ـ وفي سورة محمد الآيات التالية :

« أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ... »

٢٩ ـ ٣٠

وفي الآيات إنذار لمرضى القلوب بالفضيحة . وبأن الله لا يخفى عليه أمرهم . ولو شاء

لدل النبي عليهم فرداً فرداً . ومع ذلك فقد أكدت أن النبي صلى الله عليه وسلم يستطيع أن يعرفهم من أسلوب أقوالهم . ويبدو أن الآيات قد عنت الفريق الذي أتقن كتم نفاقه عن سواد المسلمين والذي أشارت إليه آية التوبة . (١١٠) التي أوردناها قبل هذه الآيات غير أن أحواله وأقواله ومواقفه كانت تفضحه أحياناً . أو على الأقل كانت تكشف للنبي صلى الله عليه وسلم عما في قلبه من مرض . وهذا الإنذار بهذا الأسلوب قد يلهم أن من هذا الفريق من كان يرجى ارعواؤه وعودته إلى حظيرة الإخلاص خشية الفضيحة التامة على الأقل وروح الآيات تلهم أن موضوع الكلام أفراد بارزون .

الصُّورَةُ الخَامِسَة

١٠ — وفي سورة الحديد الآيات التالية :

« يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ . . . » ١٣ ـ ١٤

وهي وإن كانت وصف حال مشهد أخروي ، فإن الآية الثانية قد احتوت بيان ما كان من واقع حالهم الدنيوي من انحراف وريبة وغرور وتربص ، إلى سائر صفات النفاق التي كانوا متصفين بها . وقد ذكر المنافقات إلى جانب المنافقين كما ورد أكثر من مرة واستدللنا به على أنه كان للمرأة دور في حركة النفاق كما كان لها دور في الحركة الإسلامية والحركة الجحودية معاً .

١١ ـ وفي سورة المنافقون الآيات التالية :

« إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ . ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ . سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ . هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... ١ — ٨

وفي الآيات صورة قوية صريحة للمنافقين ؛ فهم يظهرون الإسلام ويحلفون كذباً أنهم مصدقون برسالة النبي صلى الله عليه وسلم وفى حين أنهم لا يتورعون عن الكفر ، ويعطلون الناس عن تأييد النبي ويصدون عن سبيل الله ، ويأنفون أن يطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر الله لهم على ما اقترفوه من آثام ؛ وإن مظاهرهم لتعجب الرائي ، وأقوالهم لتحمل المخاطب على الاستماع لما فيها من تنميق وتزويق ، في حين أنها عاطلة من الإخلاص ، وصادرة عن نية خبيثة ، وطوية مريبة ؛ وهم إلى هذا كله دائمو الخوف والقلق النفسي ، كلما هتف امرؤ ظنوا أنه يهتف ضدهم ، وكلما أشار امرؤ إلى أحد توهموا أنه يشير إليهم ويحاول أن يفضحهم ؛ فهم العدو الذي يجب الحذر منه وعدم الركون إليه في حال . والآيتان الأخيرتان في صدد مواقف كيدية للنبي والمسلمين دعا إليها بعض زعماء المنافقين في بعض المناسبات ،

وسنشرحها في مبحث آخر ؛ غير أنهما تحتويان بالنسبة لحالتهم مايلهم أنهم كانوا على شيء من القوة ونفوذ الكلمة حينما نزلت الآيات ، أو أنهم كانوا يشعرون بذلك في أنفسهم ؛ إذ جهروا بالدعوة إلى مقاطعة المهاجرين وعدم مساعدتهم ، وإلى نذر إخراجهم مع النبي من المدينة .

وروح الآيات تلهم أن الصورة هي بنوع خاص لزعماء المنافقين وبارزيهم ؛ وهذا ينسحب فيما نعتقد على ماجاء في الآيات الأخرى من صورة ووصف حال .

المبحث الثاني

في مواقفهم الكيدية والساخرة والتآمرية

صور لمواقفهم الكيدية من سور النساء والتوبة والأحزاب والمجادلة والمنافقون ـ إشارة تذكيرية إلى صور كيدية سابقة ـ صور لمواقفهم الساخرة من سور النساء والتوبة ومحمد ـ صور لمواقفهم التآمرية من سور النساء والتوبة ومحمد والمجادلة تذكير بصور تآمرية سابقة إتماماً للسلسلة .

الصورة الأولى

إن هذا المبحث يتناول كما هو واضح من عنوانه ثلاثة أنواع من المواقف ؛ ولهذا رأينا أن نقتبس صور كل منها لحدتها .

فأولا مواقفهم الكيدية :

١ ـ في سورة النساء الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلاً بَعِيداً . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ... » ٦٠ ـ ٦١

وقد احتوت صورة لما كان من تعطيل المنافقين وصدهم عن التقاضي لدي رسول الله، وتفضيلهم التقاضي لدي زعيم من زعماء اليهود عرف بشدة حقده وعدائه للنبي والإسلام ؛ والصورة من صور الكيد الواضحة كما هو المتبادر .

٢ ـ وفي سورة التوبة الآية التالية :

« وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ... »

وقد احتوت صورة كيدية للنبي صلى الله عليه وسلم باتهامهم إياه بالمحاباة في توزيع أموال الزكاة ، وتقريراً لواقع حالهم في هذا الاتهام ، فهم يتوسلون بالافتراء والكيد للحصول على نصيب منها قد لا يرى النبي لهم حقا فيه .

٣ ـ وفي سورة الأحزاب الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا . وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا . يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا . لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا . مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ... » ٥٧ ـ ٦١

وقد تضمنت إشارات إلى مواقف كيدية للمنافقين فيها أذى وسوء أدب إزاء النبي والمؤمنين والمؤمنات ، وإلى ما كانوا يسعون فيه من نشر إشاعات السوء عنهم والإرجاف في حقهم بما هم براء منه ؛ والآية ٥٩ قد تلهم أنه كان من جملة مواقف هذه الفئة ما يتنافى مع الرجولة والمروءة من التعرض للحرائر من نساء المسلمين أثناء خروجهن إلى حاجاتهن ، وأذيتهن بفاحش القول وبذيئه . والإنذار الذي احتوته الآيتان الأخريان قاصم وحاسم ومتناسب مع ما أشارت إليه الآيات من مواقف الأذى والكيد والإرجاف . وعدم ورود ما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد طردهم أو طرد بعضهم عن المدينة ، أو أمر بقتلهم أو قتل بعضهم بعد هذا التوجيه القرآني الحاسم ، قد يلهم أن الذين كانوا يقفون هذه المواقف الكيدية والمؤذية قد ارتدعوا عنها .

ولقد نقلنا في بحث حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية آيات عدة من سورة

النور احتوت إشارات إلى ما كان من بعض زعماء المنافقين من موقف شديد الأذى للنبي صلى الله عليه وسلم وآله في ظروف ماعرف في تاريخ السيرة بحديث الإفك ؛ وهذا الموقف من حيث الشكل والأسلوب يتصل بما أشارت إليه آيات الأحزاب من مواقف ، كما أن آيات النور قد احتوت إنذاراً شديداً لهم وقررت أنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، وحذرت من خطتهم القائمة على اتباع الشيطان الذي يأمرهم بالفحشاء والمنكر ؛ وهذا مقارب لما احتوته آيات الأحزاب من إنذار ، ومن بابه أيضاً .

الصّورة الثانية

٤ — وفي سورة المجادلة الآية التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ... » ٨

وقد احتوت صورة لموقف شديد الأذى والكيد مما كان يقفه المنافقون ؛ فقد كانوا يعقدون المجالس والحلقات الخفية ليضعوا خطط الكيد والعصيان والتمرد على النبي؛ فعاتبهم النبي صلى الله عليه وسلم ونهاهم عن ذلك فلم يأبهوا للعتاب وظلوا في خطتهم الآثمة؛ ومما روي أن هذه الحلقات كانت تعقد أكثر ماتعقد في ظروف الأزمات الحادة التي كان يضطرب لها النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وهذه الرواية متسقة مع منطق الأمور ، حيث تكون الفرصة سانحة لهم لوضع خطط الدس والتثبيط والكيد ، استغلالا للظروف الحرجة ؛ وفي هذا ماهو ظاهر من شدة الكيد والأذى ؛ وقد يدعم هذه الرواية آية جاءت بعد قليل وهي :

« إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ... » ١٠

إذ احتوت طمأنة للمسلمين بأن هـذه الحلقات السرية هي من وساوس الشياطين بقصد إدخال الحزن على نفوسهم مع أنها ليست بضارتهم شيئاً ؛ لأن الضرر والنفع إنما هو من الله ، وعليهم أن يتوكلوا عليه .

وفي الآيات إلى صور مواقف الأذى والكيد صور تصف سخرية المنافقين من النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ تضمنت الإشارة إلى أنهم كانوا حينما يأتون إليه لا يسلمون عليه بالسلام المعتاد ؛ وإنما بسلام فيـه غمز أو سخرية ثم يتساءلون ساخرين جاحـدين متى يقع عليهم عـذاب الله الذي أنذرهم به النبي صلى الله عليـه وسلم جزاء ما يصدر منهم من أقوال وأفعال !؟

ولما كان من المرجح أن هـذا التساؤل إنما كان يقع فيما بينهم ، كما أنهم كانوا يعقدون تلك الحلقات متكتمين ، فإن من المحتمل أن يكون النبي صلى الله عليـه وسلم قد جعل عليهم عيوناً يأتونه بأخبارهم وما يبيتونه من خطط الكيد والأذى ، كما تلهمه روح الآيات ، لاسيما أنه ليس فيها ما يفيد أن الله هو الذي أطلع النبي بالوحي على ما يعقدونه من حلقات ويصدر منهم من أقوال جحودية ساخرة ، وهـذا مما قد ينسحب على كثير من خطط المنافقين الكيدية على ما هو المتبادر ، وفيه إن صح مشهد من مشاهد السيرة النبوية .

٥ ـ وفي سورة المنافقين آية نقلناها في المبحث السابق وهي الآية ٧ ؛ وقد تضمنت حكاية توصية كيدية من زعماء المنافقين للناس بعـدم الإنفاق على المحتـاجين ممن هم حول النبي حتى تضيق بهم الحال وينفضوا عنه وتضعف حركته وشأنه ، والراجح أن المقصودين هم المهـاجرون من قريش الذي أصبح كثيرون منهم أو بالأحرى

أكثرهم فقراء محتاجين بتركهم أموالهم في مكة على ماأشارت إليه إحدى آيات الحشر هذه :

« لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ... » ٨

وفي السورة نفسها آية أخرى نقلناها كذلك في المبحث السابق وهي الآية ٨ ؛ وقد تضمنت حكاية نذر شديد الخطورة والكيد من زعماء المنافقين بأنهم سيخرجون النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه القرشيين من المدينة ؛ وهذا النذر يدل على ما كان يستشعره هؤلاء الزعماء من الثورة والعزة والقدرة على النكاية والكيد ، على ماذكرناه في المبحث السابق .

الصورة الثالثة

وثانيا مواقفهم الساخرة :

(١) في آيات سورة البقرة التي نقلناها قبل هذه الآيات :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ... » ١١ ـ ١٤

حيث تتضمن الآيات صوراً من سخريتهم وانتقاصهم للمسلمين .

(٢) في سورة النساء الآية التالية :

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ... » ١٤٠

وقد جاءت الآية في معرض التنديد بالمنافقين ؛ واحتوت صورة لما كان يعقده المنافقون من مجالس يستهزئون فيها بالنبي والقرآن ، وينكرون أن يكون متصلا بالله . وفي الآية صورة لبعض المسلمين هم المقصودون بالنهي في الآية ، إذ تلهم أن فريقا منهم لم يكن يرى بأساً في التردد على مجلس المنافقين والسمر معهم ، والإغضاء عما يدور فيها من استهزاء وكفر ؛ وكما كان للعصبية والقرابة والمصالح المشتركة أثر فيما كان من مواقف دس المنافقين ، فإن لها أيضا أثراً في هذا الموقف كما هو المتبادر ، ويبدو أن هذا الأثر كان قويا بحيث أن الآية اكتفت بالنهي عن الاشتراك في مجالس فيها كفر وهزء بآيات الله فقط ، إلى أن ينتقل الكلام إلى مالا حرج فيه .

(٣) وفي سورة الأنفال الآية التالية :

« إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... » ٤٩

وهذه الآية نزلت في جملة السياق الوارد في سورة الأنفال تعقيباً على ما أحرزه المسلمون من نصر على قريش في وقعة بدر . ولقد أثار هذا النصر دهشة المنافقين ولكنهم كظموا غيظهم وعبروا عنه بالعبارة الساخرة التي حكتها عنهم الآية .

(٤) وفي سورة التوبة الآية التالية :

« وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... » ٦١

وقد احتوت حكاية قول ساخر لهم إزاء النبي في نقدهم له ، وقولهم عنه إنه سماع لكل ماينقل له ، كما أن فيها تنبيها إلى أن هذا القول كان مما يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وقد روي في صدرها أن بعضهم كان يقدح في النبي فإذا حذر بعضهم بعضا من وصول الخبر إليه قالوا إنه أذن سهل الاقتناع فنحلف له فيصدق ؛ والتنبيه على أن قولهم

كان مما يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم مما يجعل الرواية سائغة كما هو المتبادر .

(٥) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ . وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ... » ٦٤ — ٦٥

ولقد روى أن الآيات نزلت في فريق من المنافقين كمنوا للنبي صلى الله عليه وسلم في طريق عودته من تبوك ليوقعوه عن دابته ، فعلم بالمؤامرة وعاتبهم فأنكروا واعتذروا ؛ كما روي أن بعضهم كان يقدح أثناء الغزوة فيه ويستهزئ بما يقول ويعد من نصر الله على الروم ، فعلم بأقوالهم فأوقف الركب وعاتبهم فأنكروا واعتذروا ، ومنهم من تاب وحسن إسلامه .

والروايتان لاتتسقان مع روح الآيات ومضمونها وسياقها إذا ما أنعم النظر فيها ، ولعلها متصلة بموقفهم الذي حكته عنهم الآية السابقة مباشرة لها من أنهم كانوا يغتابون النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون إنه أذن ، ثم يقولون على سبيل الهزء أيضاً إنه سينزل فيهم سورة تفضحهم ؛ بل إن مضمون الآيات وروحها تدعم هـذا أكثر كما هو المتبادر منها . وعلى كل حال فإن فيها صورة واقعية لموقف كيد وسخرية وسوء أدب وقفه فريق من المنافقين .

الصّورة الرابعة

(٦) وفي السورة نفسها الآية التالية أيضا :

« ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... » ٧٩

وقد روي أنها نزلت في مناسبة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى التصدق ،

فأقبل أغنياؤهم وفقراؤهم على السواء ، كل يتصدق بحسب قدرته ، فأخذ المنافقون يلمزون الفريقين ، فيقولون عن الأغنياء إنهم إنما يعطون رياء ، وعن الفقراء إن ما أتوا به تافه لا قيمة له ، وإنهم إنما أعطوه ليذكروا بأنفسهم به ، وليكون لهم وسيلة إلى نيلهم نصيبا من مال الصدقة ، وقد عينت الرواية عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه من الأغنياء حين تصدق بنصف ماله ، وأبا عقيل من الفقراء حين جاء بصاع من تمر ؛ ومع احتمال صحة الرواية واتساقها مع الآية فإنه يتبادر لنا أنها أوسع شمولا ؛ والراجح أن الدعوة النبوية كانت بسبيل تجهيز حملة تبوك، لأن الآية قد نزلت في ظروفها ، وموقف السخرية والكيد بارز في الآية كما هو واضح ؛ ولقد جاء عقبها آية شديدة حاسمة في دمغ المنافقين بالكفر وعدم إمكان غفران الله لهم كما ترى فيها :

« ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ .. » ٨٠

ومع أن المروي أن هذه الآية نزلت في صدد مراجعة أحد أقرباء زعيم من زعماء المنافقين كان في حالة الاحتضار وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله خيرني واستغفر له تطييبا لقلب المؤمن المخلص الذي طلب منه ذلك ، فإننا نرجح أنها أسلوبية استهدفت كما قلنا دمغ المنافقين بالكفر والفسق ، وعدم احتمال غفران الله لهم بسبب ما حكته هذه الآيات وما قبلها من مواقفهم الكيدية والساخرة ؛ ولا نعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم خالف روح الآية واستغفر لأحد ممن كان مصراً على نفاقه وكفره ومواقفه الكيدية والساخرة .

(٧) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ . أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ . وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ... » ١٢٤ — ١٢٧

وقد احتوت صوراً عن سخرية المنافقين واستخفافهم بما كان النبي صلى الله عليه وسلم يبلغه من آيات القرآن وسوره حينما تنزل عليه ، واستخفافهم كذلك بمجالسه، وانصرافهم عنها خلسة .

(٨) وفي سورة النور الآيات التالية :

«إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . . . » ٦٢ — ٦٣

والآيات تذكر موقف فريقين من المسلمين مخلص ومخامر . وتذكر كيف كان المخامرون يتسللون من مجالس رسول الله بدون استئذان وتندد بهم وتنذرهم . والمفسرون يذكرون أن هـذا كان شـأن المنافقين في وقت حفر الخندق حينما زحفت قريش وأحزابهـا على المدينة .

(٩) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً

سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً . . . » ٦٩ — ٧١

ويروي المفسرون أن الآية الأولى نزلت في مناسبة قول أحد المنافقين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قسمة قسمها إنها قسمة لم يرد بها وجه الله فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فتأذى أذى شديداً .

(١٠) وفي سورة محمد الآية التالية :

« وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفاً أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ . . »

١٦

وقد احتوت صورة مقاربة للصورة التي احتوتها آية التوبة (١٢٤) ؛ إذ تلهم أنهم كانوا يتلهون عن سماع الآيات القرآنية والمواعظ النبوية ، وحينما ينصرفون يتساءلون تساؤل المستخف عما تلاه وقاله .

الصُّورةُ الخامسة

وثالثاً مواقفهم التآمرية :

(١) في آيات سورة البقرة التي أوردناها في مطلع الفصل هذه الآية :

« وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ . . . » ١٤

والمفسرون متفقون على أن (شياطينهم) تعني اليهود وفي الآية والحالة هذه صورة من صور التآمر بين المنافقين واليهود ضد المسلمين والإسلام .

(٢) في سورة النساء الآية التالية :

١ — بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً . ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ

أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً . . .

١٣٨ ـ ١٣٩

٢ ـ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا .

١٤١

وقد احتوت الآية (١٣٩) تقريراً بأن المنافقين كانوا يتمسكون بولائهم ، للكفار دون المؤمنين ابتغاء الاعتزاز بذلك ، واحتوت الآية (١٤١) صورة أخرى عن نفاقهم وذبذبتهم ، إذ كانوا يقفون موقف المتربص المتنهز للفرصة متى جاءت وكانت ؛ وقد قال المفسرون إن المقصود من الكافرين هم اليهود ، وقد جاء بعد الآيات بقليل سلسلة فيها حملة شديدة على اليهود مما يمكن أن يوجه ذلك القول ؛ وعلى هذا فالآيات بسبيل الإشارة إلى موقف تآمري بين المنافقين واليهود ؛ والأرجح إن هذا الموقف كان قبل التنكيل باليهود جميعهم ، وبالتالى في وقت كان اليهود فيه أقوياء بعض القوة ، وكان المنافقون فيه كذلك أقوياء بعض القوة ؛ والآيات تلهم هذا وتلهم أنها في صدد اليهود ؛ فاحتمال اعتزاز المنافقين بالولاء للكفار ، واحتمال قولهم لهم إنهم نصروهم بموقفهم السلبي فتم لهم النصر على المسلمين ، لا يمكن أن يكون إلا مع المنافقين واليهود ، وفي وقت كان الفريقان فيه على شيء من القوة .

(٣) في سورة المائدة الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ

نَٰدِمِينَ . وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ . . . » ٥٠ ـ ٥٣

والمفسرون متفقون على أن (الذين في قلوبهم مرض) هم فريق المنافقين الذين كانوا متحالفين مع اليهود رغم تحذير القرآن بذريعة الخوف من العواقب . وفي الآيات والحالة هذه صورة من صور التآمر بين المنافقين واليهود وتأييد لما احتوته الآيات السابقة من استمرار موالاتهم وإصرارهم على ذلك .

(٤) وفي سورة التوبة الآيات التالية :

« وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ . أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . . . » ١٠٧ ـ ١١٠

والجمهور على أن الذين بنوا هذا المسجد الذي عرف في تاريخ السيرة بمسجد الضرار اتساقا مع الوصف القرآني ، فريق من المنافقين كانوا يقطنون محلة قباء ، وكان في المحلة مخلصون أيضاً استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في بناء مسجد حيث كانت صلاته حينما جاء مهاجراً من مكة ، وحيث أقام بعض الوقت ، ليصلوا فيه في أيام الشتاء والبرد والليل بسبب بعد المحلة عن مسجده ، فأذن لهم ؛ وكان راهب عربي اسمه أبو عامر قد تلاحى مع النبي صلى الله عليه وسلم وأقسم أن يحاربه أينما وجد محاربا له ، فلما انتصر المسلمون في فتح مكة ويوم حنين ، تآمر مع المنافقين على أن يبنوا مسجداً في قباء ليكون مركز اجتماعاتهم ، وينتظروا عودته من بلام الروم حيث أزمع أن يذهب ليدبر المكايد للنبي

والمسلمين ؛ فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم ببناء مسجد مثل رفاقهم ، فأذن لهم ، ورجوه أن يصلي لهم فيه فوعدهم بذلك بعد عودته من غزوة تبوك .

والصورة التآمرية واضحة في الآيات وليس فيها مالا يتسق مع الرواية ؛ والمروي أيضا أن الآيات قد نزلت أثناء غزوة تبوك ، وأن النبي علم وهو في الرحلة بخبث نية بناة المسجد ؛ وقد أرسل فور عودته إلى المدينة من هدمه وحرقه . ومضمون الآيات يلهم أنها نزلت في وقت كان المنافقون فيه في ضعف وضآلة شأن ، إذ جاءوا للنبي صلى الله عليه وسلم يؤكدون له حسن نياتهم .

الصورة السادسة

(٥) وفي سورة محمد الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ... » ٢٥ ـ ٢٦

وقد احتوت الآية الثانية منها إشارة إلى ما كان من وعد المنافقين ، للذين كرهوا ما نزل الله ـ وهم اليهود على الأرجح ـ بطاعتهم والاندماج في مكايدهم ؛ وفي هذا صورة تآمرية واضحة كما هو المتبادر ؛ وتعبير « إسرارهم » قد يلهم أن المنافقين واليهود كانوا يعقدون جلسات خفية يتآمرون فيها على النبي والإسلام .

(٦) وفي سورة المجادلة الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . . . »

١٤ ـ ١٦

ومع أن ذكر المنافقين لم يرد في الآيات إلا أن صفاتهم التي جاءت في آيات أخرى

قد وردت فيها ، كما أن الجمهور على أنهم هم موضوع التنديد وما تبع الآيات من حملة شديدة ؛ وتعبير « ماهم منكم ولا منهم » يدل بقوة على أن المقصود من القوم الذين غضب الله عليهم وليسوا من العرب ، هم اليهود على الغالب ؛ وفي الآيات صورة لما كان بين اليهود والمنافقين من تواثق وتآمر كما هو ظاهر .

ويظهر أن المنافقين كانوا يعاتبون على مواقفهم التآمرية فينكرونها ، ويحلفون على ذلك الأيمان الكاذبة ، شأنهم في كل موقف من مواقفهم الأخرى على ما احتوته الآيات التي نقلناها .

هذا ؛ وإتماماً للسلسلة نذكر هنا بالصور التآمرية التي احتوتها آيات الحشر (١١ ـ ١٤) والبقرة (١٤) والمائدة (٥١ ـ ٥٣) التي أوردناها في فصل اليهود ، لاتصالها بهذا المبحث أيضاً بقدر اتصالها بالفصل المذكور .

المبحث الثالث

مواقفهم من الجهاد ووقائعه

هذه المواقف نوعان ـ الأول إزاء الدعوة ـ صور له من سور آل عمران والنساء والتوبة ومحمد ـ الثاني إزاء الوقائع الجهادية ـ صور له من سور آل عمران والأنفال والأحزاب ـ إشارة تذكيرية بما كان من موقفهم إزاء وقعتي بني النضير وغزوة تبوك ـ صور أخرى للنوع الثاني من سورتي التوبة والمنافقون ـ تعليق على شدة نكاية مواقف النوع الثاني ـ إشارة إلى ما كانوا عليه من قوة في ظروفها .

الصورة الأولى

إن هـذه المواقف على ما يستفاد من الآيات نوعان : نوع إزاء الدعوة إلى الجهاد والاستنفار إليه ، وآخر إزاء الوقائع الجهادية .

(١) في سورة آل عمران الآية التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . . . »

١٥٦

وقد جاءت الآية في سياق الإشارة إلى مشاهد وقعة أحـد ، وما كان للمنافقين وبعض فئات المسلمين المخلصين من مواقف فيها ؛ والآية مطلقة تلهم أنها بسبيل تقرير موقف متكرر منهم ؛ وهو أنهم كانوا يعمدون إلى إثارة شجون أهل الشهداء والموتى من المسلمين الذين يستشهدون في الجهاد أو يموتون في السفر فيقولون إنهم لو لم يخرجوا إلى ماخرجوا إليه لما ماتوا وماقتلوا ؛ وواضح أن في هـذا دسا خبيثا وتثبيطا عن الاستجابة إلى الجهاد ؛ وقد تلهم الآية أن المقصودين بالذين

يضربون في الأرض هم الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يندبهم لمهمة ما فيلقون حتفهم ؛ لأن الدس والتثبيط إنما يجدان سبيلهما في ذلك دون الأسفار المطلقة الخاصة التي لاغنى للناس عنها ولا سبيل إلى إثارة الشجون والدس فيها .

(٢) وفي سورة النساء الآيات التالية :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعاً . وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيماً . . . ٧١ — ٧٣

٢ — أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . . .

٧٧

٣ — وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِي تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا . . .

٨١

وقد احتوت الآيات الأولى إشارة إلى ما كان من تثبيط المنافقين الناس عن الاستجابة إلى دعوة الجهاد فضلاً عن تربصهم وانكماشهم . وفيها صورة مؤكدة لنفاقهم وكون مايصدر عنهم لايصدر عن إيمان وإخلاص . وكون كل ما كان هدفهم هو الكسب والفوز مع العافيه والسلامة . واحتوت الآية (٧٧) صورة من تذمرهم حينما فرض الجهاد ودعوا إليه . واحتوت الآية (٨١) صورة من مواقفهم من الدعوة إلى

الجهاد حيث كانوا أحيانا : يعلنون السمع والطاعة في مواجهة النبي صلى الله عليه وسلم ولكنهم لا يلبثون إذا مافارقوه أن ينقضوا ماأبرموا ويجنحوا إلى الخلاف والتخلف .

(٣) في سورة التوبة المقاطع التالية :

١ — لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَّاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ . عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَـٰذِبِينَ . لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَـٰعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّـٰلِمِينَ . لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ . وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَـٰفِرِينَ ...

٤٢ ـ ٤٩

٢ — فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَـٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَـٰتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَـٰلِفِينَ ...

٨١ ـ ٨٣

٣ — وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَـٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَـْٔذَنَكَ أُولُوا

ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ . رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ... ٨٦ ـ ٨٧

٤ — وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... ٩٠

٥ — إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ . يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ... ٩٣ ـ ٩٦

ففي هذه الآيات التي نزلت في معرض التنديد بالمنافقين والحملة عليهم وذكر مواقفهم المنكرة ، صور عدة ولكنها متقاربة لتلك المواقف ؛ فهم إذا اتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فإنما يتبعونه حينما يكون السفر سهلا والخطر مأمونًا ؛ فإذا ماانعكس الحال اعتذروا بعدم الاستطاعة وأقسموا الأيمان وهم كاذبون ، فيستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم بالتخلف من جهة ، ويثبطون الناس عن النفرة من جهة أخرى ؛ وكلما دعا الله ورسوله إلى الجهاد سارع أولو الطول والقدرة إلى النبي يطلبون منه أن يتركهم في المدينة ـ ويبدو من روح بعض الآيات أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأذن لهم تفاديًا لما يعلمه من دسهم وشغبهم وتثبيطهم وأثر ذلك في المخلصين الذين كان منهم من تربطه بهم الروابط الوثيقة المتنوعة .

ولقد سبق القول أنه كان من الأعراب منافقون . وفى المقطعين الأخيرين من مقاطع سورة التوبة صورة لموقف هؤلاء من حركة الجهاد والدعوة إليه مماثلة لموقف زملائهم من أهل المدينة .

(٤) وفي سورة محمد الآيات التالية :

« وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ . فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ . أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ... » ٢٠ — ٢٣

وقد احتوت الآية الأولى وصفاً بديعاً وقويا لجبن المنافقين حينما كانت تنزل سورة فيها أمر حازم بالجهاد توافق رغبة المخلصين من المسلمين . وفي الآيات الأخرى حملة عليهم لجبنهم ، وتنبيه إلى مافي ذلك من تقطيع الأرحام ، وتدمير البلاد ، لأن فيه تشجيعاً للعدو وإغراء له .

الصورة الثانية

وثانيا : مواقفهم في وقائع الجهاد :

(١) وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ . ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ... » ١٦٦ — ١٦٨

والآيات مما نزل عقب وقعة أحد التي دارت الدائرة فيها على المسلمين ، والتي أثارت فيهم آلاما مرة ؛ وقد احتوت الأولى صورة لموقف المنافقين في هذه الوقعة ، إذ يستفاد منها أنهم دعوا إلى الاشتراك في الجهاد في سبيل الله ، أو التضامن على الأقل في الدفاع عن وطنهم وقومهم ، فأبوا وتخلفوا قائلين إنهم لايظنون أن يقع اشتباك ، ولو تيقنوا من ذلك لخرجوا معهم ؛ وكان قولهم كذبا لأنهم تخلفوا بقصد الخذلان ، واجتناب الحرب ، وتربص السوء بالمسلمين ؛ وقد احتوت الثانية صورة لموقف آخر لهم بعد المعركة ، فإنهم عمدوا إلى الدس الخبيث ، وإثارة شجون أهل الشهداء ، فقالوا إنهم أطاعونا وتخلفوا كما تخلفنا لما قتلوا ؛ وفي جملة « لو أطاعونا » صورة لموقف ثالث قبل المعركة ، إذ تلهم أنهم لم يكتفوا بالتخلف بل حاولوا حمل غيرهم من المخلصين الذين تربطهم بهم روابط القربى والعصبية على التخلف أيضا ولكن هؤلاء لم يسمعوا لهم .

الصورة الثالثة

(٢) وفي سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللهِ ٱلظُّنُونَا . هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا . وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللهِ مَسْـُٔولًا . قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللهِ إِنْ

أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً . قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً . يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلاً ... » ٩ ـ ٢٠

وهـذه الآيات مما نزل عقب وقعة الخندق أو الأحزاب ، وفي صدد وقائعها ومشاهدها ؛ وقد احتوت صوراً لمواقف المنافقين ودسائسهم في ظروف الوقعة ؛ وإذا لاحظنا أن هـذه الآيات هي معظم مانزل في صدد الوقعة بدا لنا أنها إنما نزلت للتنديد بهم وفضيحتهم خاصة .

والآيات الثلاث الأولى تصور مقدار ما كان من شدة اضطراب المسلمين لقدوم جيوش الأحزاب ووفرتها ؛ ودسائس المنافقين وتثبيطهم في هذه الحالة يكون بطبيعة الحال شديد الأذى بعيد المدى بحيث يتناسب مع تلك الشدة ؛ يضاف إلى هذا أن هـذه الغزوة كانت أشد ماتعرضت له المدينـة والمسلمون من خطر ، بل كان من شأنها أن تعصف بالإسلام لولا تأييد الله وثبات رسوله ، لاسيما أنها جاءت بعد وقعة أحـد التي كانت الدائرة فيها على المسلمين وكاد النبي يقتل فيها ؛ وهذا مما يجعل مواقف الدس والتثبيط التي وقفها المنافقون أشد خطرا وأبعد نكاية وأذى .

وفي الآية الرابعة تبـدو صورة للمنافقين في جرأتهم على الله ورسوله جهرة وقولهم إن ماوعدوا به من نصر ليس إلا غرورا أو تغريرا بالناس ؛ ومما لاريب فيه أن خطورة الظرف هي التي جرأتهم على هذا القول .

وفي الآية الخامسة تبدو صورة أخرى لهم في تثبيطهم أهل المدينـة وتخويفهم إياهم ودعوتهم إلى الرجوع إلى المدينة ، وصورة ثانية أيضاً في استئذانهم النبي صلى الله عليـه وسلم بالعودة إلى بيوتهم لحمايتهاوزعمهم كذبا أنها مكشوفة للعدو ،وقد قررت الآية والآية التالية لها واقع أمرهم في الحقيقة ، فهم لايبغون إلا الفرار ، وإذا قدر للعدو أن يدخل إلى المدينة منصوراً وطلب منهم أن يجهروا بالـكفر وأن يثيروا الفتنة لما توقفوا في الإجابةإلى ذلك ؛ ويبدو من الآية السابعة أن المنافقين عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم وأشهدوا الله عليهم على عدم الفرار بعد ما كان منهم ما كان في وقعة أحد فذكرتهم الآية بهذا العهد تذكير تأنيب وتنديد .

وفي الآية التـاسعة صورة أخرى لهم في ظروف الوقعـة ؛ إذ تلهم أنه كان منهم من يبثون فـكرة الالتحاق بمعسكر النبي لتعويق الناس عنه ، ويدعون بني قومهم وذوي قرباهم إلى الانضمام إليهم بحجة الرغبـة في القتال فريقاً خاصاً ، في حـين أنهم كانوا لايقصـدون إلا التفريق ، ولم يبيتوا النيـة على الاشتباك في الحرب إذا نشبت بصورة فعالة .

وفي الآية العاشرة تقرير آخر لواقع حالهم ؛ فهم بخلاء ، وحينما يحـدق الخطر بهم يظهرون جبنا شديدا صورته الآية أبلغ تصوير ، وحينما يذهب الخوف يطلقون ألسنتهم بالنقد الشديد والتبجح العريض ، وهم بعيدون عن كل خـير . وفي الآية الحادية عشرة وهي الأخـيرة صورة أخرى لهم ، إذ يبدو أنهـم حينما قيل لهم إن الأحزاب قد ارتدوا خائبين عن المدينة لم يكادوا يصدقون ، وقد احتوت تقريرا لحالة فرضية لهم متصلة بموقف الجبن وعدم التورط الذيوقفوه ، فقررت عنهم أنه لو عاد الأحزاب ثانية لتمنوا أن يكونوا في البادية بعيدين عن المدينة ، فلا يشهدوا الوقعة ، ولا يتورطوا فيها ، ويكتفوا بالسؤال عن الأخبـار ؛ وقد استدركت الآية فقررت أنهم لو كانوا مع المسلمين لما قاتلوا قتال جد فيه غناء .

والصور القرآنية واضحة كل الوضوح ؛ وهي تؤيد ماقلناه من شدة نكاية مواقف المنافقين وبعد مداها في ظروف هذه الوقعة التي هي أشد ماتعرض له الإسلام من خطر .

الصّورة الرابعة

(٣) وفي سورة الحشر الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ . . »

١١ ــ ١٢

وهذه الآيات من جملة مانزل من آيات سورة الحشر تعقيباً على وقعة إجلاء يهود بني النضير عن المدينة . وكان زعيم المنافقين عبد الله بن أبي وعشيرته حلفاء لهم . فلما استحقوا نكال الله ورسوله وحاصرهم النبي أرسل المنافقون إليهم يشجعونهم على الصمود ويعدونهم بالتضامن معهم في الحرب والخروج حيث انطوى في الآيات صورة من صور تآمر المنافقين من ناحية وموقفهم في حالة الحرب التي قامت بين المسلمين واليهود من ناحية أخرى .

(٤) وفي آيات سورة التوبة ٤٢ و ٤٧ ــ ٤٨ و ٨٣ التي أوردناها في النبذة السابقة لهذه النبذة من هذا المبحث صور لمواقف المنافقين من وقائع الجهاد نفسها مما يدخل في باب هذا القسم أيضاً . وتحسن الإشارة إليه لتتم السلسلة . فالآية (٤٢) تذكر أن المنافقين كانوا أحياناً يستجيبون للدعوة ويشتركون في حملات الجهاد حينما تكون الرحلة قريبة والغزوة سهلة مأمونة . والآية (٨٣) احتوت أمراً للنبي بإعلانهم أنه لن يسمح لهم بالخروج

معـه إلى غزوة ما أو بمقاتلة عـدو ، بسبب ما كان من تخلفهم وتهربهم وتثبيطهم ؛ والآيتان ٤٧ ــ ٤٨ تصفان واقع حال المنافقين في الوقائع الجهادية . فهم لا يألون جهـدهم في بث الفتنة وإثارة القلق وتثبيط الهمم ودس الدسائس إذا ماخرجوا مع الحمـلات الجهادية ؛ ولمساعيهم هـذه أثر في بعض المسلمين الذين يستمعون إليهم بسبب الروابط التي تربط بينهم ؛ وفي الآية الثانية إشارة إلى موقف واقعي منطبق على ماذكرته الآية الأولى من واقع حالهم ، إذ لم يألوا جهـدهم في فتح الثغرات ، وخلق المشاكل ، وظلوا كذلك إلى أن صارت كلمة الله هي العليـا ، وتوطدت قوة الإسـلام رغم أنوفهم وعلى كره منهم .

الصّورة الخامسة

(٥) وفي سورة التوبة آيات لم ننقلها قبل وهي متصلة بمواقف المنافقين في ظروف الوقائع الجهادية ، منها الآيات التالية :

« إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ . قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ . قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ . قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ . . »

٥٠ ـ ٥٣

وهي صور متصلة بوقائع الجهاد من بعض النواحي أيضاً ، إذ حكت الأولى تربص المنـافقين الدوائر بالمسلمين حتى إنهم ليستاءون من فتح يفتح عليهم ، وليتمنون أن تدور الدائرة عليهم . وهذه المساجلة التي تأمر بها الآيات تدل على ما كان من شدة أثر مواقف المنـافقين في نفوس المسـلمين في ظروف الوقـائع الجهـادية كما هو المتبادر .

والآية (٥٣) مع ماورد في صددها من روايات ، تلهم أن المنافقين حاولوا أن يفتدوا أنفسهم بالاشتراك ماليا في غزوة تبوك ، فألهم الله نبيه رفض ذلك مع تعليل الرفض في الآية، وهو تعليل بليغ يلهم أن قبول المال منهم قد يتخذ دليلا على تصديقهم فيما يدعونه من نيات حسنة ويقدمونه من أعذار كاذبة .

ومنها الآية التالية :

« وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ... » ٩٨

وقد تضمنت صورة لمنافقي الأعراب ؛ فقد كانوا يعتبرون مايؤخذ منهم من مساعدات وصدقات ، تكاليف إجبارية ، وكانوا يدفعونها تفادياً لا إيماناً واحتساباً ، وكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر حتى يخلصوا من هذه التكاليف .

(٦) ولقد نقلنا سابقاً الآية (٨) من سورة « المنافقون » ، ولها اتصال وثيق بموقف للمنافقين أثناء إحدى الغزوات النبوية ؛ إذ روي في صددها أن أنصاريا خزرجيا تلاحى مع قرشي فاستغاث كل منهما بقومه على عادة العصبية القبلية الجاهلية ، وكادت تكون فتنة هوجاء ، فأخذ عبد الله بن أبي كبير المنافقين الغضب والحمية وأقسم : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، كأنما كان واثقا من أنه هو الأعز ؛ ففي الآية من جهة صراحة بأن المنافقين كانوا أحيانا يخرجون في غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيها من جهة أخرى صورة لما كان من استعدادهم لإثارة الفتنة بين صفوف المسلمين أثناءها .

ومما لاريب فيه أنهم إنما كانوا يخرجون في الغزوات الهينة المضمونة العاقبة على ماوصفت إحدى آيات التوبة وهي (٤٢) من واقع حالهم في ذلك .

الصّورة السّادسة

ولابد أن القاريء قد لاحظ أن المنافقين قد وقفوا من الوقائع الجهادية الخطيرة في تاريخ السيرة مثل أحد وبني النضير والخندق وتبوك موقف الخذلان والتثبيط ، وأن موقفهم خاصة من وقعتي أحـد والخندق ـ اللتين دارت في أولاهما الدائرة على المسلمين وكادت ثانيتهما تعصف بالإسلام والمسلمين أشد العصف ـ من أشد مواقفهم نكاية وخبثا وأبعدها مدى .

وهذا يفسر الحـكمة التي اقتضت إنزال الحملات القرآنية العنيفة في حقهم كما هو المتبادر .

ويلاحظ من ناحية أخرى أنهم كانوا في ظروف الوقائع الثلاث الأولى على شيء من القوة ، فلم يعبأوا بما يمكن أن يكون لمواقفهم منها من رد فعل في نفس النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

فصل
في اليهود في العهد المدني

تمهيد

الصورة الأولى

لليهود في العهد المدني شأن كبير متعدد النواحي ، يجعل لهذا الفصل قيمة خاصة ، هذا إلى أنهم من أول من اصطدم مع النبي صلى الله عليه وسلم إن لم نقل أولهم ، ولقد شغلوا في القرآن المدني حيزاً واسعاً منذ بدء تنزيله ، وفي سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة بنوع خاص ، عدا غيرها من السور الثانوية . ولعل من الدلائل على أنهم أول من اصطدموا مع النبي ما جاء في الآيات الأولى من سورة البقرة التي هي أول السور المدنية في ترتيب النزول ، والتي يحتمل جدا أن تكون هذه الأولية لها بسبب فصلها الأول الذي منه آيات المنافقين والتي جاء فيها :

« وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ... » ١٤

فقد قال جمهور المفسرين إن شياطينهم هم اليهود ، ويدل هذا على أن اليهود هم الذين أغروا المنافقين بالنفاق أو شجعوهم في مواقف الخداع ، وعلى أن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين لم يغب عنهم ذلك .

كما جاء في فصول السورة المذكورة الأولى ، وفي مطلع الفصول الطويلة في مواقف اليهود وأخلاقهم خطاب موجه إليهم في هذه الآيات :

« يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ . وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا

تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰيَ فَٱتَّقُونِ . وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . . . » ٤٠ ـ ٤٢

وقد أنذرت اليهود وحذرتهم من أن يكونوا أول الكافرين بالقرآن الذي هو مصدق لما معهم ، ومن أن يلبسوا الحق الذي يعرفونه بالباطل ويكتموه ويصدوا عنه ، ويدل هذا الخطاب صراحة على الأولية التي ذكرناها .

الصورة الثانية

ولقد اتخذ اليهود يثرب والمناطق الواقعة على طريق الشام دار هجرة ومقام منذ أمد بعيد ، وكان لهم كيان بارز ومؤثر بسبب ما كانوا عليه من كثرة العدد ، وسعة الثروة ، والمهارة الزراعية والصناعية والتجارية ؛ ثم بسبب ما كان لهم من مكانة دينية وعلمية مستمدة من أنهم أصحاب كتاب سماوي ، وذوو صلة بالأنبياء والأمم الغابرة وأخبارها على ما فصلناه في كتابنا عصر النبي وبيئته .

وكان السبب الأخير قد جعلهم في مركز المعلم والمرشد والمرجع ، بل القاضي لسكان يثرب ، على ما تلهمه آيات قرآنية عدة شرحناها في كتابنا المذكور ، فكان لليهود من ذلك الحرمة والحصانة ، والقوة النافذة والأثر في حل المشكلات ، وتعليل الحوادث والقضاء في الخصومات ، والاستمتاع بالكيان والمركز الممتاز ، وقد اندمجوا في الحياة العربية ، وارتبطوا بمواثيق الحلف مع جيرانهم العرب ، فكان هذا مما زاد مركزهم ورسوخ قدمهم قوة وشدة ، حتى لقد احتاج الأمر إلى تكرار النهي عن موالاتهم مراراً على رغم مابدا منهم من المواقف الجحودية والمريبة والعدائية الضارة .

ومع أنهم ـ على ما أشرنا إليه في فصل سابق استدلالا من بعض الآيات ـ كانوا يبشرون بمبعث النبي العربي ويستفتحون به على العرب ، ومع أن النبي صلى الله عليه وسلم منذ حل في المدينة كتب بينه وبينهم عهداً على ما ذكرته الروايات المعتبرة وما تدعمه الآيات ، أمنهم فيه على حريتهم الدينية وطقوسهم ومعابدهم وأموالهم وحقوقهم ، وأبقاهم

على محالفاتهم مع بطون الأوس والخزرج ، وأوجب لهم النصرة والحماية مشترطاً عليهم ألا يغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدواً ولا يمدوا يداً بأذى[١] ـ مع هذا فإنهم ما لبثوا أن تطيروا من قدومه إلى المدينة ، وأخذوا ينظرون بعين التوجس والخوف إلى احتمال رسوخ قدمه وانتشار دعوته ؛ واجتماع شمل الأوس والخزرج تحت لوائه بعد ذلك العداء الدموي الطويل الذي كانوا من دون ريب يستغلونه في تقوية مركزهم ، وخشوا على المركز الذي هم فيه ، والامتيازات الكبيرة التي كانوا يتمتعون بها ويجنون منها أعظم الثمرات .

الصورة الثالثة

ولقد كان ظنهم على ما يبدو أن يجعلهم النبي صلى الله عليه وسلم خارج نطاق دعوته ، معتبرين أنفسهم أهدى من أن تشملهم ، وأمنع من أن يأمل النبي دخولهم في دينه ، وانضواءهم إلى رايته ؛ بل لقد كانوا يرون أن من حقهم أن ينتظروا انضمامه إليهم كما يمكن أن تلهمه هذه الآيات :

١ — وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ . . .[٢]

البقرة ١١١

---

(١) قال ابن هشام عزواً إلى ابن إسحق (كتب رسول الله «ﷺ» كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم) وفي صدد ما اشترط عليهم وشرط لهم ورد في نص كتاب رسول الله الذي أورده ابن هشام (إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ـ وإن يهود بني عوف ـ الأغلب تعني الجملة اليهود المتحالفين مع بني عوف وهم من قبيلة الخزرج ـ أمة مع المؤمنين لليهود دينهم . وللمسلمين دينهم . مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته ـ أي لا يهلك أو يفسد ـ وإن ليهود بني النجار مثل ماليهود بني عوف . وليهود بني الحرث مثل ماليهود بني عوف . وليهود بني ساعدة مثل ماليهود بني عوف . وليهود بني جشم مثل ماليهود بني عوف . وليهود بني الاوس مثل ما ليهود بني عوف . وليهود بني ثعلبة مثل ماليهود بني عوف . وإن بطانة يهود كأنفسهم وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد . وإنه لا ينحجز على ثأر جرح . وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم . وإن الله على أمر هذا . وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم . وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه . وإن النصر للمظلوم . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين) انظر ج ٢ ص ١١٩ ـ ١٢٢ .

(٢) هذه الآية والآيتان الأخريان هي من سلسلة في اليهود وذكر النصارى استطرادي على ما يتبادر .

٢ — وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . . .

البقرة ١٢٠

٣ — وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ . . . البقرة ١٣٥

لا سيا حينما رأوه يصلي إلى قبلتهم ، ويعلن إيمانه بأنبيائهم وكتبهم بلسان القرآن ، ويجعل ذلك جزءاً لا يتجزأ من دعوته ، ويتلو فيما يتلوه :

١ — أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ . . .(١) الأنعام ٩٠

٢ — وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ. وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ...

السجدة ٢٣ ـ ٢٤

٣ — شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ . . .

الشورى ١٣

٤ — وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ . . الجاثية ١٦

٥ — ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ . . .

البقرة ٢٨٥

فخاب ظنهم ورأوه يدعوهم في جملة الناس ، بل يختصهم بلسان القرآن أحياناً بالدعوة ويندّد بهم لعدم إسراعهم إلى استجابتها ، ولموقفهم منها موقف الانقباض ثم موقف التعطيل والتناقض ، كما جاء في آيات البقرة ٤٠ ـ ٤٢ التي نقلناها وكثيراً غيرها مما سوف نورده وخاصة هذه الآية التي تندّد بتناقضهم .

(١) هذه الفقرة من سلسلة ذكر فيها عدد كبير من أنبياء بني إسرائيل ونوه بهم .

٦ — أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ... البقرة ٤٤

فكان هذا على ما هو المتبادر باعثا على تنكرهم للدعوة وحقدهم على صاحبها منذ الخطوات الأولى من العهد المدني ؛ ثم رأوا الناس قد أخذوا ينصرفون عنهم ، ويتخذون النبي مرجعهم الأعلى ، ومرشدهم الأعظم ، وقائدهم المطاع ، فاستشعروا حقا أو باطلا الخطر العظيم يحدق بمركزهم وامتيازاتهم ومصالحهم إذا هم أرادوا أن يستمسكوا بكيانهم الخاص ، ويظلوا على يهوديتهم ، ولا يندمجوا في الدعوة الإسلامية ، فكان هذا عاملا على اندفاعهم في خطة التنكر والحقد والتآمر والصدّ والتعطيل إلى نهايتها .

الصورة الرابعة

ولقد كان من المتوقع على تلهمه الآيات المكية والمدنية أن يجد النبي صلى الله عليه وسلم في اليهود سنداً وعضداً ، وأن يكونوا أول من يؤمن به ويصدقه ويلتف حوله ، لما كان بين دعوته وأسس دينهم من وحدة ، ولما احتواه القرآن من تقريرات متنوعة وكثيرة بأنه مصدق لما بين يديه ، وبأنه محتو حل المشاكل والخلافات التي يتعثر فيها اليهود ، وباستشهادهم خاصة والكتابيين عامة على صحة رسالته استشهاداً ينطوي على الثقة فيهم والتنويه بهم ، وتقرير وحدة الحزبية بينهم ؛ ولما رآه من حسن استجابة الكتابيين وفيهم أناس من بني إسرائيل إلى دعوته ، واندماجهم فيها ووقوفهم منها موقف المصدق المؤيد على ما ذكرناه وأوردنا آياته الملهمة في فصل الكتابيين من العهد المكي ؛ فلما رأى منهم ما رآه من الانقباض أولا والتنكر والصد وكتم الحق وإلباسه بالباطل عن علم ثانياً ، تأثر تأثراً عميقاً من خيبة أمله فيهم ردّدته آيات القرآن على ما سوف نورده بعد .

الصّورة الخامسة

وقوة الدور الذي قام به اليهود ، وشدة نكايته وبعد أثره ، تبدو من خلال الفصول والحملات القرآنية المدنيـة ؛ سواء أكان ذلك في مؤامراتهم مع المنافقين وتشجيعهم – حتى ليمكن أن يقال إنهم هم الذين أوجدوهم بما بثوا ونموا فيهم من الريب والشكوك ، وبما أيقظوا فيهم من روح التمرّد والكيد وغذوها ؛ وإن المنافقين لولاهم لما نموا وقووا وثبتوا وكان منهم ذلك الأذى البالغ والكيد الشديد – أو في تحالفهم مع القرشيين أعداء النبي والمسلمين الأشداء الأصليين ، وتألبهم معهم ومظاهرتهم لهم حربيا ، وتثبيتهم إياهم في كفرهم ؛ أو في اضطلاعهم بأذى النبي والمسلمين مباشرة ، وإقامة العثرات في طريقهم ، والكيد والمكر والدس لهم ، والجحود والحجاج والسخرية بهم ؛ فلم يكن ثمة بد للنبي صلى الله عليه وسلم من التنكيل بهم ذلك التنكيل الحازم الذي كان فيه نهايتهم والذي نستعرض صوره القرآنية بعد .

ومما يجدر أن ننوه به للدلالة على ما كان لموقف اليهود وعدائهم من تأثير سلبي في سير الدعوة وانتشارها ، وفي مركز النبي والمسلمين ، ومن تأثير إيجابي في قوة أعداء النبي والإسلام – أنهم لم يكادوا يتوارون عن مسرح المدينة نتيجة لذلك التنكيل حتى ضعف أولا أمر المنافقين وصار أمرهم إلى ما وصفتهم بعض آيات التوبة :

« وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ » . . .

٥٦ – ٥٧

بعد أن بلغ من شعورهم بعزتهم وقوتهم وكثرتهم أن حرضوا الناس على النبي وصحبه وقالوا كما حكته آية في سورة المنافقون : « لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا » وأن أقسموا ليخرجن الأعز الأذل من المدينة ، مستشعرين أنهم الأعز

كما حكته آية أخرى في السورة المذكورة: « يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ » . . .

وخفت ثانياً غلواء زعماء قريش ولم يعودوا يفكرون في قتال المسلمين وغزوهم وتزايد ثالثاً عدد المستجيبين للدعوة والمنضوين إلى لواء النبي صلى الله عليه وسلم تزايدا عظيما .

وبلغ الأمر رابعاً إلى أن يرى النبي أن لا بأس في الرحلة إلى مكة للزيارة ومعه جمع كبير من المسلمين ، وإلى أن يجنح زعماء قريش إلى مهادنته والسماح له بالزيارة في العام القابل ، وإلى أن يصبح النبي من القوة بحيث يغزو مكة بعشرة آلاف مقاتل ويفتحها ويوطد بذلك الوحدة الإسلامية العربية . كل هذا لأن العدو الذي كان بين ظهراني المسلمين ، وكان شديد المكر والكيد قد زال من الطريق ، ولم يعد المنافقون يجدون من يشجعهم أو يزيد لهيبهم إذا خبا ، كما لم يعد العرب يجدون من يشككهم في الحق ويصدهم عن الهدى ، ولم يعد أهل مكة يجدون في يثرب الأعوان والعيون والطاعنين من الوراء طعن الغدر والخيانة .

الصورة السادسة

ومن العجيب المعجز أن يقرأ المرء اليوم آيات القرآن المدنية في أخلاق اليهود بوجه عام ، وعاداتهم ومكايدهم ودسائسهم وأنانيتهم ، وزهوهم وتبجحهم ، واستحلالهم لكل ما في أيدي الغير ، وضنهم بأي شيء مفيد للغير ، وعدم إخلاصهم في محبة أو موقف ولاء للغير ، وحسدهم لأي نعمة ينالها الغير ، وتدبيرهم لكل وسيلة مهما دنأت وفجرت وكان فيها كفر وفسق ، ونقضهم لمبادئ الدين والعهد في سبيل مكايدة الغير وتهديمه وسلب ما ناله من نعمة وخير ، وتشجيعهم لكل حائد وحاسد ومنافق ودساس ومتآمر... الخ ما سنورده في مباحث هذا الفصل مما قرر القرآن أنه جبلة فيهم يتوارثه الأبناء عن الآباء فاستحقوا عليه يمين الله :

«وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ...»[1]

الأعراف ١٦٧

وجازاهم عليه بتشريدهم في مشارق الأرض ومغاربها :

« وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا . . . » الأعراف ١٦٨

وتحقق ذلك القسم البار بما وصفه القرآن من واقع حالهم في عهد النبي وقبله :

« ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ . . . »

آل عمران ١١٢

... ثم ينظر المرء إليهم اليوم فيكاد يرى إجمالا صورة طبق الأصل : جبلة خاصة ، وترفع عن الاندماج الصادق مع من يعيشون معهم من الأمم وأهل الأوطان ، ودس ومكر وكيد ، وجحود وحجاج ولجاج ، وندب وعويل بدون مبرر ، ، وشرهٌ شديد إلى مافي أيدي الغير ، ومحاولة للاستيلاء على الكل ، والتأثير في الكل ، واللعب في وقت واحد على كل حبل وفوق كل مسرح ، والتوسل بكل وسيلة إلى الغاية التي يريدون ، وعداء لكل الناس وخداع لهم وسخرية منهم ، وتهديم لكل بنيان وكيان ، ونظام في كل مكان وزمان ، وتسخير لكل قوة في سبيل مأربهم وأنانيتهم وكيدهم وعدائهم ، وقسوة متناهية في أعدائهم حين يتمكنون منهم؛ هذا إلى استمرار مصداق آيتي الأعراف والنساء في كافة أنحاء الأرض التي تقطعوا فيها ، فلا تجدهم في أرض إلا والعين مزورّة منهم ، والسخط فائر عليهم ، والنفوس متبرمة بهم ، والناس مستثقلون ظلهم ، راغبون في التخلص بأية وسيلة منهم ، وجاعلون الحذر منهم أساس صلاتهم بهم ، بسبب تلك الأخلاق المتوارثة فيهم جيلا عن جيل ، والتي يلمسها الناس فيهم بكل شناعتها وسوآتها؛ وليس هذا اليوم فحسب ، فإنه لكذلك منذ عهد النبي وعلى امتداد القرون المتطاولة ومن

(١) هذه الآية من سلسلة آيات مدنية .

قبل الناس جميعاً ، بل من قبل عهد النبي على مادمغتهم به أسفار العهد القديم وحوادث التاريخ ، مما لايمكن تعليله إلا بتلك الجبلة الخاصة التي جلبت عليهم ما جلبت منذ أقدم الأزمنة إلى الآن …

الصورة السابعة

هذا ؛ والفصول القرآنية المدنية في اليهود كثيرة ومتنوعة كما قلنا ؛ وقد رأينا أن نستعرضها في مجموعات موضوعية أو مباحث مستقلة كما يلي :

١ ـ موقفهم إزاء الدعوة بالذات .

٢ ـ مواقفهم الحجاجية .

٣ ـ دسائسهم بين المسلمين وتآمرهم مع المنافقين والمشركين .

٤ ـ وقائع التنكيل بهم وبواعثها ونتائجها .

٥ ـ الاستثناءات القرآنية بشأن المؤمنين المعتدلين منهم ومغزاها .

المبحث الأول

مواقف اليهود إزاء الدعوة

صراحة الآيات عن عدم مقابلة اليهود للدعوة مقابلة حسنة ــ فصول سورة البقرة في تذكيرهم والتنديد بهم بسبب ذلك ــ دلالات أسلوب هذه الفصول ومضامينها ــ أسلوب آخر هاديء في القرآن المدني في دعوة أهل الكتاب إطلاقا .

الصورة الأولى

١ ــ إن آيات البقرة ٤٠ ــ ٤٤ التي نقلناها من قبل ، والتي هي أول مانزل بشأن اليهود ومن أوائل مانزل من القرآن المدني على الأرجح ــ صريحة الدلالة على أن اليهود لم يقابلوا الدعوة الإسلامية مقابلة حسنة . ويلفت النظر خاصة إلى مافيها من نهي لهم عن أن يكونوا أول كافر بالقرآن ، وعن إلباس الحق بالباطل وكتم الحق وهم يعرفونه ، ثم إلى السؤال الاستنكاري عن أمرهم الناس بالبر وعدم سيرهم فيه ؛ ففي كل هذا دلالات على تلك المقابلة أولا ، ثم على بدوّ أمارات وقوفهم منها موقف الجحود والتعطيل ثانياً .

٢ ــ ولقد تبع هذه الآيات سلسلة طويلة تضمنت تذكيرهم بما كان من نعمة الله السابقة على آبائهم ، ثم بما كان من عناد هؤلاء الآباء ومواقفهم المتمرّدة والحجاجية والتعجيزية من أنبياء الله وأوامره ووصاياه ، وما كان من نكال الله بهم الخ ؛ ثم تضمنت تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن عدم ارعواء الأبناء وصلاحهم وتبديل الجبلة الخلقيــة التي ورثوها من أولئك الآباء الذين كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه ، والذين مالبثوا أن كفروا وارتدوا إلى عبادة العجل ، ثم انتقلت إلى اليهود المعاصرين ثانية تندّد بهم لما بدا منهم من نفاق وتحريف ، وكيد ودس ، وغرور وحسد وجحود وتناقض الخ . . . نقتطف منها الآيات التالية :

١ — يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ . وَٱتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ . وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ . وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ . وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ . ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . . .

٤٧ ـ ٥٣

٢ — وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ . . .

٥٥

٣ — وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ . فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ...

٥٨ ـ ٥٩

٤ — وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ ٱلْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ...

٦١

٥ — وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ

وَٱذْكُرُواْ مَافِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِئِينَ . فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ...   ٦٣ — ٦٦

٦ — وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ . قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَاهِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَاتُؤْمَرُونَ. قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ . قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَاهِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ . وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ . فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . . .   ٦٧ — ٧٤

٧ — أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِن بَعْدِ مَاعَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَايُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ

بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ . وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . . .

٧٥ ـ ٨٠

٨ — وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ . وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ . ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ...

٨٣ ـ ٨٥

٩ — وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ . بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ

بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ . وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . . .

٨٧ ـ ٩٣

١٠ — وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ . أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . . . ٩٩ ـ ١٠١

ونكتفي بهذه المقتطفات من فصول سورة البقرة في صدد موقف اليهود إزاء الدعوة بذاتها ، لأن فيها الدلالة الكافية على الموقف الجحودي الذي وقفوه من جهة ، ولأن مواقفهم الأخرى متفرعة عن هذا الموقف واستمرار له من جهة أخرى مع التنبيه إلى أن في غير هذه السورة آيات في صدد هذا الموقف فيها تنديد وتقريع لليهود أيضاً .

الصورة الثانية

ويلفت النظر في صدد هذه المقتطفات :

أولا : إلى أسلوبها ؛ فقد يكون فيها كثير مما جاء في القرآن المكي من قصص بني إسرائيل ، غير أنه جاء بأسلوب حملات تنديدية على اليهود ، في حين جاء هناك بأسلوب قصصي وحسب . ولاريب في أن هذا متصل بالموقف الذي وقفه اليهود المعاصرون في العهد المدني .

ثانياً : إلى شدة اللحمة التي تبدو في الآيات ، إذ تستهدف تقرير وحدة الجبلة والأخلاق

والأساليب بين اليهود على اختلاف أجيالهم ، وأن الأبناء قد توارثوها عن الآباء جيلا بعد جيل ؛ وإذ يشعر القارئ أن الحديث يدور عن جماعة واحدة متصلة العهد والسبب اتصالا وثيقا . وهذا واضح في كثرة الانتقال والالتفات في الآيات وتبادل الضمائر بين الغائب والمخاطب . ويتضح ذلك خاصة في الآيات ٦٧ ـ ٧٤ و ٧٥ ـ ٨٠ و ٨٣ ـ ٨٥ .

ثالثاً : إلى وصف موقف الجحود الذي تضمنته الآيات ٨٧ ـ ٩٣ خاصة ، إذ تقرر صراحة السبب الذي جعلهم يقفون موقفاً جحوديا مناقضاً لمواقفهم السابقة للبعثة التي كانوا يستفتحون بها على العرب ، فيجحدون شيئاً عرفوه حق المعرفة وبشروا به ؛ فاستحقوا من أجله هذه الحملات الشديدة ، واللعنات القاسية ؛ وهو البغي والحقد والحسد .

رابعاً : إلى ماتدل عليه الآيات دلالة كافية وخاصة الآيات ٧٥ ـ ٨٠ من أن موقفهم الجحودي من الدعوة منذ أوائل العهد المدني كان حاسماً ، بحيث لم يبق أي أمل في ارعوائهم فيه وتراجعهم عنه . ولقد كان هذا هو الواقع ، إذ ظلت كثرتهم الساحقة عليه ، وما كان من أحداث ومواقف متنوعة بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين إنما تفرع عنه .

خامساً : إلى صيغة الآيات ، سواء في إطلاقها الكلام عن اليهود عامة أو في حكايتها لأقوالهم ومواقفهم ومكايداتهم وتاريخ آبائهم ؛ أو في ربطها بين الآباء والأبناء في ذلك ، إذ تلهم أن موقف الجحود كان موقف جميعهم بوجه الإجمال ، وهذا بارز كذلك في كل أو جل الفصول القرآنية المدنية التي تحكي مواقفهم المتنوعة الأخرى ؛ مع التنبيه إلى أن هناك آيات في مناسبات أخرى تضمنت استثناء لفئة قليلة منهم ، وسوف نعرض لها في مبحث خاص .

الصورة الثالثة

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى نقطة مهمة ، وهي أن أسلوب الآيات التي نقلناها ، والذي هو أسلوب تنديدي ، ليس هو كل شيء في صدد دعوة اليهود إلى الدين الإسلامي ، فقد احتوى القرآن المدني كما احتوى المكي آيات تضمنت دعوتهم بأسلوب هادئ لاتنديد فيه ، وأن ذلك الأسلوب إنما كان كذلك لما كان من مقابلة اليهود السريعة للهجرة النبوية وانتشار الدعوة ، ودعوتهم إلى الانضواء إليها مقابلة غير حسنة .

وإليك بعض الآيات المدنية التي تضمنت دعوة أهل الكتاب ـ الذين يدخل اليهود فيهم بطبيعة الحال ـ دعوة هادئة على سبيل المثال :

١ — فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . . . آل عمران ٢٠

٢ — قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ... آل عمران ٦٤

٣ — يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... المائدة ١٥ ـ ١٦

٤ — يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ... المائدة ١٩

ونلفت النظر خاصة إلى آيات المائدة ١٥ - ١٦ وبنوع خاص إلى الأولى منها ، إذ تضمنت إيذاناً بأن من الخطة التي سوف يسير عليها الرسول العفو عن كثير مما يمكن أن يكون صدر أو يصدر من المدعوين ؛ والتجاوز عن هفواتهم ، وتوسعة الصدر لهم ؛ وفي هذه الخطة ترغيب محبب لأهل الكتاب متسق مع الخطة القرآنية بصورة عامة ، ومع الخطة القرآنية المكية نحوهم بصورة خاصة ، كما أنها تتضمن نفي كل مايمكن أن يرد من قول مغرض عن نية مبيتة من النبي صلى الله عليه وسلم نحو أهل الكتاب أو فريق منهم .

المبحث الثاني

مواقف اليهود الحجاجية

حجاج اليهود حول إبراهيم وملته وزعمهم بأنهم على الهدى ـ الحجاج حول نبوة النبي بسبب عروبته ـ مواقف حجاج وتحد وسخرية من النبي حجاجهم حول جبريل ـ حجاجهم حول القبلة والكعبة ـ استطراد إلى بحث تبديل سمت الكعبة وظروفه وخطورته في الشخصية الإسلامية ـ غرور اليهود وتبجحاتهم المتصلة بمواقفهم الحجاجية .

الصورة الأولى

(١) من هذه المواقف ما كان حول إبراهيم صلى الله عليه وسلم وملته ، وفي صدد تبجحهم بأنهم على الهدى وأن ملتهم هي خير الملل ؛ في سورة البقرة الفصول التالية :

١ — وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَـٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ . بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ...

١١١ ـ ١١٣

٢ — وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ . يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ...

١٢٠ ـ ١٢٢

٣ — وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَٰبِدُونَ . قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ . أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ... ١٣٠ ـ ١٤٠

الصورة الثانية

والآيات قد جاءت ـ على ما يدل عليه سياقها وبعض مضامينها ـ في معرض مواقف اليهود وحجاجهم ، وهذا ما يجعلنا نرجح أن إدماج النصارى في الآيتين (١١٠ و ١٣٥) منها إنما كان من قبيل التعميم أو الاستطراد ؛ ومهما يكن من أمر هذه النقطة فالآيات على كل حال تتضمن حكاية أقوال اليهود ومواقفهم والحجاج معهم .

ويبدو من روحها ومضامينها أن اليهود قابلوا الدعوة الإسلامية بقولهم إن الهدى إنما هو

في اليهودية ، واحتجوا على دعوى النبي صلى الله عليه وسلم بأنه على ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم وإن دعوته إليها ، فقالوا إن إبراهيم صلى الله عليه وسلم هو أبوهم وأبو الأنبياء، وإن أبناءه قد ساروا على ملته ، وإن اليهودية التي هي دين هؤلاء الأنبياء والأبناء هي ملته . فردت عليهم الآيات قائلة إن إبراهيم كان حنيفا مسلماً وما كان من المشركين ، وهذه هي ملته التي يدعو إليها النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قررت العقيدة الإسلامية الواجبة على الجميع ومنهم اليهود ، وهي الإيمان بالله وبما أنزل إلى محمد وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والنبيين صلوات الله عليهم جميعا بدون تفريق بين أحد منهم ، وإسلام النفس لله وحده ، ودعتهم إلى هذه العقيدة ، وطمأنت النبي صلى الله عليه وسلم في حال عدم استجابتهم ـ وهو المتوقع ـ مقررة أنهم في شقاق وخلاف ، وأن الله كافيه شرهم ومكرهم .

وقد نصت الآية (١١٣) خاصة من قبيل الإفحام ودحض الحجة التي يحتجون بها ، على أن شقاقهم ليس فيما بينهم فقط بل بين الكتابيين عامة ، إذ يقرر اليهود أنهم وحدهم على الحق وأن النصارى ليسوا على شيء منه ، ويقرر النصارى هذا عن اليهود ، في حين أن الفريقين يتلون الكتاب (التوراة على الغالب لأنها مشتركة بينهما) ويؤمنون به ؛ وهكذا يشهد كل فريق على ضلال الفريق الثاني ؛ فتصدق الشهادة على الفريقين وتدمغهم حجة القرآن ودعوته ، ويصبح لزاماً عليهم اتباع العقيدة التي قررها والتي بها وحدها يتحد الجميع في الطريق القويم ويتخلص اليهود والنصارى من شقاقهم ومشاكلهم .

الصّورة الثالثة

هذا ؛ ولعله أريد بتقرير أن إبراهيم كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين جواباً على قولهم « كونوا هودا أو نصارى تهتدوا » الإشارة إلى عقيدة النصارى ببنوة عيسى وألوهيته ، وإشراكهم إياه مع الله في الربوبية والعبادة ، وإلى ما كان من عبادة اليهود العجل ، ثم إلى عقيدتهم في بنوة العزير لله التي أشارت إليها إحدى آيات التوبة هذه :

« وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ... » ٣٠

وهي عقيدة لابد أن يكون اليهود المعاصرون في المدينة أو فريق منهم على الأقل يدينون بها ؛ ولعله أريد بها كذلك الإشارة إلى اتخاذهم وأحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله كما نددت بذلك آية التوبة التالية لهذه الآية وهي :

« ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ . . . » ٣١

والإشارة إلى ما تلهمه بعض آيات سورة آل عمران وهي هذه :

« مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ... » (١) ٧٩ — ٨٠

فثمة دلالة على أن الكتابيين أو بعضهم كان يتخذ الملائكة والأنبياء أرباباً ، أو يستشفع بهم مع الاعتقاد بتأثيرهم ، مما هو من جملة الشرك .

الصورة الرابعة

(٢) وقد جاء في سورة آل عمران في صدد الحجاج حول إبراهيم وملته الفصل التالي :

« يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ

(١) قال بعض المفسرين والرواة : إن الآيات نزلت بمناسبة سؤال اليهود للنبي عما إذا كان يريد منهم أن يسجدوا له . والآيات وسياقها تجعل ما استلهمناه أوجه وتلهم أن الآيات بسبيل التنديد باليهود .

إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ... » ٦٥ ـ ٦٨

وفي الآيات شيء مما تضمنته آيات البقرة ، وتلهم وقوع حجاج مماثل لما استلهمناه من تلك الآيات مرة أخرى بين النبي صلى الله عليه وسلم واليهود ، فنزلت معقبة منددة وموضحة دامغة الحجة ؛ وقد جاءت عقب سلسلة أشير فيها إلى مشهد حجاجي بين النبي وبعض النصارى حول ماهية المسيح ، غير أن الآيات التي تلتها احتوت حكاية موقف كيد ودس لليهود ، مما يسوغ أن القول بأن الخطاب الموجه فيها إلى « أهل الكتاب » قد قصد به اليهود . ومهما يكن من أمر هذه النقطة فإن اليهود داخلون في هذا التعبير على كل حال .

وفي الآيات حجة جديدة ، وهي أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم إنما عاش قبل التوراة ، واليهودية إنما بدأ عهدها بعد التوراة ، وأن ملة إبراهيم والحالة هذه لا يمكن أن تكون اليهودية ، وأن دعوى اليهود ذلك باطلة من أساسها ؛ وأن أبوة إبراهيم لليهود ليس من شأنها أن تجعلهم على ملته ، وأن تدعم أولويتهم به ؛ فأولى الناس به هم الذين اتبعوا ملته حقا ، والنبي صلى الله عليه وسلم الذي اتبعها ، ويدعو إليها بصراحة لا التواء فيها ، والذين تابعوه في دعوته من المؤمنين . وهكذا يكون القرآن قد دمغ اليهود في موقفهم الحجاجي الثاني أيضا ، وزيف دعوى أولويتهم به بسبب أبوته لهم وحسب ، وجعل هذه الأولوية للنبي صلى الله عليه وسلم ومن تابعه من المسلمين . ومما لا شك فيه أن الحجاج استؤنف وأن النبي صلى الله عليه وسلم واجههم بهذه الحجة القرآنية في مشهد مواجه .

الصورة الخامسة

(٣) ومن هذه المواقف ما كان حول نبوة النبي صلى الله عليه وسلم بسبب عروبته. فقد جاء في سورة الجمعة الآيات التالية :

« هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ . وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ . مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ... » ٢ ـ ٦

ويستلهم من روح الآيات أن اليهود ادعوا أن الله قد اختص بالنبوة بني إسرائيل دون سائر الأجناس ، وأنكروا نبوة النبي لأنه ليس من بني إسرائيل ؛ فردت الآيات عليهم مثبتة أولا نبوة النبي الأمي العربي ، ومقررة ثانيا أنه لاحرج على فضل الله ، وأنه مطلق الإرادة يختص بفضله من يشاء ؛ وهاجمت ثالثاً اليهود لأنهم مكابرون في موقفهم ، يعرفون الحق ويكتمونه ، وأن مثلهم في موقفهم كمثل الحمار الذي لاينتفع بما يحمله من أسفار العلم ؛ ومما لاشك فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم واجه اليهود بهذه الآيات في مشهد استؤنف فيه الحجاج مواجهة .

ولقد سجل القرآن المكي موقفين فيهما اعتراف بعض اليهود بمطابقة صفات النبي صلى الله عليه وسلم لما هو مكتوب عندهم في التوراة واتباعهم له وإيمانهم به في آية سورة الأعراف (١٥٧) وآية سورة الأحقاف (١٠) على ماشرحناه وفي الجزء الأول فاستحكمت بذلك الحجة القرآنية عليهم .

الصّورة السّادسة

(٤) ومنها مواقف حجاج وتحد وسخرية نحو شخص النبي ونبوته :

١ ـ فقد جاء في سورة آل عمران الآيات التالية :

« وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ . ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ . ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . . . »

١٨٠ ـ ١٨٣

والآيات لاتحتوى دلالة صريحة على أنها في حق اليهود ؛ ولكن في الفقرة الأخيرة من الآية الأخيرة قرينة حاسمة على أنها في حقهم .

وقد ذكر المفسرون والرواة في صدد القسم الأول من الآيات أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استعان باليهود ماليا في ظرف من الظروف ـ تمشياً مع عادة الحلف العربي وتبعاته ـ بواسطة أبي بكر رضى الله عنه ، فذهب إلى محلتهم فردوه رداً قبيحاً ، كما رووا أن أبا بكر ذهب ليدعوهم إلى الإسلام وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإقراض الله قرضاً حسناً ، فقابلوا الدعوة بالجحود ، والجملة الأخيرة بالسخرية ، وقالوا إذا كان الله يستقرضنا فهو إذن فقير ونحن أغنياء ؛ ولم يرو في صدد القسم الثاني مناسبة خاصة فيما اطلعنا عليه . ولعل ماحكى عنهم فيه قد صدر منهم في الظرف نفسه الذي صدر عنهم فيه ماحكاه القسم الأول ، جواباً على دعوتهم إلى الإسلام . والآية الأخيرة تلهم أن هذا الموقف قد كان

بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم مواجهة فيما يتبادر لنا .

ومهما يكن من أمر فالآيات صريحة بأنها قد تضمنت حكاية موقف يهودي بذيء ساخر في حق الله ، وموقف تحد وتعجيز وحجاج من النبي صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ وقد جاء في سورة النساء الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ . وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيراً . مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ... »

٤٤ ـ ٤٦

وقد تضمنت صورة موقف ساخر لليهود من النبي فكانوا يلوون ألسنتهم بكلمة « راعنا » حتى تؤدي إلى نعت النبي بالرعونة ، ويجهرون بعصيانه فيما يأمر ويدعو ، فيستعملون كلمة « عصينا » بعد « سمعنا » استخفافاً به بدلا من الجملة العربية المعتادة « سمعنا وأطعنا » أو « سمعاً وطاعة » ، ويدعون عليه بالسوء فيقولون اسمع لا سمعت ، أو اسمع غير مستجاب ، ويقصدون في كل ذلك الانتقاص من الدعوة النبوية والشخصية النبوية والطعن فيهما . ومما يروى أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه انتبه إلى خبثهم في ليهم كلمة « راعنا » فقال لهم : يا أعداء الله عليكم لعنة الله ، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربنّ عنقه ...

وقد يبدو من هذا أن اليهود بعد أن كانوا يحاجون النبي صلى الله عليه وسلم ويقفون موقف الجحود دون أن يخرجوا ـ ولو في مواجهته على الأقل ـ عن حدود الأدب ، رأوا في أنفسهم القوة فتجاوزوا هذا النطاق إلى الهجوم وبدأوه بالسخرية والبذاءة ؛

ولعل هذا كان منهم في ظرف أزمة من الأزمات مرت بالنبي والمسلمين كواقعة « أحد » فاغتنمها اليهود فرصة لإظهار ما امتلأت به قلوبهم من غل وحقد.

٣ ـ وقد جاء في سورة النساء أيضاً الآيات التالية :

« يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا . وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا . فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا . وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا . فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا . وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا . إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ

قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا . رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا . إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًا بَعِيدًا . . . » ١٥٣ ـ ١٦٧

والآية الأولى تضمنت حكاية موقف تحد يهودي للنبي إزاء دعوتهم إلى التصديق بنبوته ؛ ومن المتبادر أن هذا التحدي قد كان في مشهد دعوة وحجاج مواجه ؛ أما الآيات الأخرى فقد جاءت تعقيباً على هذا الموقف ، واحتوت ربط موقفهم هذا بموقف آبائهم ، وحملت عليهم حملة شديدة بسبب تحديهم لموسى عليه السلام وانحرافاتهم عن مبادىء دينهم وعقيدة التوحيد ، وافتراءاتهم على مريم والمسيح ؛ وقد استهدفت الآية التي ذكرت إيمان الراسخين في العلم منهم ، دمغهم بحجة قاطعة كما هو المتبادر ، كما استهدفت الآيتان التي تلتها بتقرير أن وحي الله بالقرآن لنبيه كوحيه للأنبياء الذين يؤمن بهم اليهود ـ بيان تناقضهم في تحديهم وتعجيزاتهم ؛ ومما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أسمعهم هذا الفصل التعقيبي القوي في مشهد مواجه وأفحمهم بالحجة القرآنية الدامغة ، والتقريع القرآني اللاذع .

٤ ـ وقد جاء في سورة المائدة الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ

عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . . . »
٤١ _ ٤٣

وقد روى جمهور المفسرين والرواة أنها نزلت في حادث زنا اقترفه يهودي فطلب اليهود قضاء النبي فيها آملين أن يقضي بغير الرجم الذي هو قصاص ذلك في شريعتهم ؛ كما أن بعضهم روى أنها نزلت في حادث دم ؛ وهذه الرواية أكثر اتساقا مع سياق الآيات التي أتت بعدها ، لأنها ذكرت أحكام التوراة في حوادث الدماء .

ومهما يكن من أمر ففي الآيات صورة صريحة لموقف حجاج وتعجيز وتهويش وقفه اليهود من النبي يطلبون التقاضي عنده ؛ ويبدو منها أن المنافقين اندمجوا في هذا الموقف وأنه كان له أثر أليم في نفس النبي صلى الله عليه وسلم لما بدا منهم من تمحل وتضليل وكذب وتحريف .

ومن قبيل الاستطراد نلفت النظر إلى ما احتوته الآيات من جعل الخيرة لليهود في التقاضي لدى النبي وعدمه ، وفي إيجاب القضاء بالقسط إذا ما تقاضوا لديه ، إذ حفظت لهم حريتهم القضائية وأقرت لهم القضاء بأحكام التوراة ؛ ولقد نوهت الآيات التالية لها بما في التوراة من نور وهدى توكيداً لهذا الإقرار ؛ ففي هذا شاهد على ما جنح إليه الإسلام من احترام حرية اليهود القضائية واحترام أحكام التوراة القضائية وإقرارهم عليها مع التوصية بالقسط إذا ماأرادوا التقاضي لديه ورأى أن يقضي بينهم دون أن يكون لمواقفهم الجحودية أي تأثير في ذلك .

٥ — وقد جاء في سورة المائدة الآية الآتية :

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا

ٱللهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَاداً وَٱللهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ...» ٦٤

وقد روي في نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم استعان ببعض اليهود على بعض الديات تمشياً مع عصبية الحلف فشكوا له ضيق الرزق ، وقالوا إن يد الله مغلولة عنهم فيه .

وعلى كل حال ففي الآية صورة لموقف محاجة يهودي أساء اليهود فيه أدبهم في حق الله؛ وقد سبق منهم موقف مماثل حكته آيات آل عمران ١٨٠ ـ ١٨٤ على ما شرحناه قبل ؛ مع فارق واحد هو أنهم في ذلك الموقف كانوا يزهون بغناهم ، في حين أنهم في هذا الموقف كانوا يشكون إذ بدل الله حالهم بالعسر بعد اليسر وبالضيق والفقر بعد السعة والغنى !

ويبدو من مضمون الآية أن هذا الموقف الذي وقفوه كان منبعثا مما كان يملأ صدورهم من الغيظ والسخط من رسوخ في قدم النبي وانتشار دعوته ؛ ولعل مما يصح أن يضاف إلى هذا احتمال كون المسلمين قد انصرفوا عنهم أو قاطعوهم بسبب مواقف الكيد والجحود التي ما فتئوا يقفونها ، واستجابة لأمر القرآن ونهيه وتحذيره ، فأثر ذلك في حالتهم الاقتصادية تأثيراً سيئاً زاد غيظهم وسخطهم وتبرمهم ، ودفعهم إلى ما كان منهم من سوء الأدب في حق الله ومن رد غير جميل لرسوله . ولقد جاء بعد هذه الآية آيتان في ثانيتهما قرينة على صحة ما ضمناه وهما هاتان :

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ . . . »

٦٥ ـ ٦٦

إذ يلمح فيهما أنهم في حالة ضيق ، وأن سبب هذا هو ما كان من موقفهم الجحودي. وواضح أن في هذا فوق الصورة التي نبهنا عليها مشهداً من مشاهد الحال التي صار إليها

اليهود ؛ وننبه إلى أن الآيات وسياقها في حق اليهود ،وأنها تحتوي مشاهد وأقوالا واقعية لهم ، ولو أن الآيتين الأخيرتين جاءتا مطلقتين وشملتا أصحاب الإنجيل أيضاً ، ونرجح أن ذلك من قبيل التعميم والاستطراد :

٦ ـ وقد جاء في سورة البقرة الآيتان التاليتان :

« قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَـٰلَ فَإِنَّ ٱللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ... » ٩٧ ـ ٩٨

وليس لليهود ذكر في الآيتين ؛ غير أنهما جاءتا في سلسلة في حق اليهود متصلة بهما من قبل ومن بعد ، كما أن روايات الرواة والمفسرين تذكر أنهما نزلتا بمناسبة حوار وقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض اليهود حول جبريل عليه السلام ، إذ سألوه عمن ينزل عليه بالوحي ، فلما قال لهم إنه جبريل قالوا هذا عدونا ، وذكرت كذلك أنهما نزلتا بمناسبة حوار وقع بين عمر بن الخطاب رضي الله عنها وبعض اليهود قالوا فيه إن جبريل وميكال عدوان لليهود .

ومهما يكن من أمر ففي الآيتين موقف من مواقف اليهود التمحلية والجحودية متصل بوحي الله وملائكته ، وصلتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم كما هو المتبادر .

الصورة السابعة

(٥) ومنها مواقفهم الحجاجية حول القبلة والكعبة والحج . فقد جاء في سورة البقرة الآيات التالية :

« سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن

كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ . قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ . وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ . ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ . وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ . فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ... » ١٤٢ — ١٥٢

ولقد قال جمهور المفسرين والرواة : إن المقصود من السفهاء هم اليهود ؛ وفي الآيات قرينة على ذلك في ذكر أهل الكتاب وكتمانهم الحق مع علمهم به ، مما وصف به اليهود أكثر من مرة في القرآن ، هذا إلى أن الآيات مسبوقة بسلسلة طويلة في حق اليهود . وهكذا تكون الآيات قد تضمنت فيما تضمنته صورة لموقف من مواقف اليهود

الحجاجية والكيدية في ظروف تبديل سمت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الحرام .

وروح الآيات تلهم أنه كان لهذا التبديل وقع شديدعلى اليهود ؛ فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في مكة يتجه في صلاته ـ على ما جاء في الروايات ـ إلى الكعبة ، ثم اتجه إلى المسجد الأقصى عزوفاً عما كان فيها من أصنام ، وتفادياً من اشتراكه في الاتجاه إليها مع المشركين ، أو لعله فعل هذا عند هجرته من مكة من أجل هذين السببين من جهة ، وتأثرا من موقف أهل مكة الجحودي والمؤذي الذي اضطره إلى مفارقة مكة من جهة ، وتألفاً لليهود وتسهيلا لإجابتهم لدعوته من جهة ثالثة ، وقد عددنا العلل لأننا لم نطلع على تعليل قديم وثيق، ولا على توقيت وثيق لاتجاهه إلى المسجد الأقصى ؛ ولكن اليهود وقفوا منه موقف الإنكار والجحود والدس من جهة ، وأخذوا يزهون عليه وعلى المسلمين بأن اتجاههم إلى قبلتهم هو اعتراف بأنهم على الهدى ، وبأن النبي والمسلمين إنما يقتبسون الهدى منهم ، وبأنهم أولى أن يتبعوهم ويندمجوا فيهم لا العكس ؛ فحزّ هذا في نفس النبي صلى الله عليه وسلم وانبثقت فيها أمنية التحول عن سمت المسجد الأقصى ، لا سيما وقد ظهر من اليهود ما أيأسه منهم .

ونص مطلع الآية (١٤٤) بنوع خاص « قد نرى تقلب وجهك في السماء » قرينة قوية على ما اعتلج في نفس النبي من أزمة بسبب الاتجاه نحو المسجد الأقصى وزهو اليهود وموقفهم من ذلك ، وعلى ما قام فيها من رغبة في التحول عنها ؛ وجملة « فلنولينك قبلة ترضاها » في الآية المذكورة يمكن أن تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم حين صار يائساً أو كاليائس من اليهود وثارت في نفسه تلك الأزمة وقامت فيها هذه الرغبة ، تراءى له أن اتجاهه إلى قبلتهم مما يضعف قوة دعوته ، وأن عودته إلى قبلته الأولى مما يؤلف قلوب العرب ، كما أن ذلك هو الأولى ، لأنها بيت الله العربي القديم الذي يعرفه العرب ويرتبطون به ، والذي هو من عوامل وحدتهم الروحية بسبب اشتراكهم جميعاً في حجه ، فكان يتمنى أن يتحول إليها في صلاته وتكون قبلته ثانية ؛ ولعله كان يسمع تألما

أو انتقاداً أو يرى حيرة من العرب مسلمين وغير مسلمين من الاتجاه إلى المسجد الأقصى وإهمال الكعبة وهي بيت الله العربي المقدس منذ قديم الأحقاب ، فكان هذا مما قوى ما في نفسه من الرغبة والأمنية[١]

ولعل جملة « لئلا يكون للناس عليكم حجة » تتضمن قرينة على هذا .

ولقد رأى اليهود في هذا التحول ضربة شديدة توجه إلى مكانتهم الدينية ووسيلتهم إلى الزهو على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فنشطوا على ما تلهمه الآيات إلى الدس والحجاج وتشكيك المسلمين ، فقالوا إذا كان سمت المسجد الأقصى غير حق فقد أضاع النبي عبادة الذين صلوا إليه ، وإذا كان حقا فلا معنى للتحول عنه وتكون الصلاة إلى الكعبة ضائعة ؛ وقالوا إن أفعال النبي لو كانت مستندة إلى وحي رباني لما نسخ اليوم ما فعله بالأمس ، ولما قال اليوم قولا ثم نقضه في الغد ، لاسيما في الأمور التعبدية[٢] .

ويبدو من روح الآيات ومضامينها أن هذه الدسائس والدعايات والمواقف الحجاجية قد أثرت بعض الأثر في بعض المسلمين ، فاحتوت الآيات أسباب طمأنينة متنوعة لهم ، وحملة على اليهود ، وتثبيتاً للنبي صلى الله عليه وسلم فيما أوحى إليه به ، مثل تقرير أن المسألة ليست في الشرق والغرب[٣] ، وإنما هي في الاتجاه الخالص إلى الله ، وأن تبديل القبلة الأولى بالثانية هو اختبار رباني لقوة إيمان المسلمين واتباعهم الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وأن من نعمة الله عليهم أن بعث فيهم رسولا منهم ، يعلمهم ويزكيهم ، فحق عليهم شكره وذكره ، والثبات على ما فرضه ، وعدم جحود نعمته والتردد في اتباع

---

(١) روى المفسر الطبرسي في سياق تفسير الآيات عن الحسن وأبي العالية وعكرمة من التابعين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكثر الدعاء والابتهال بأن يوجهه الله إلى الكعبة فاستجاب الله دعاءه . وروى البخاري والترمذي عن البراء أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل الله الآيات (قد نرى تقلب وجهك في السماء . . . الخ) .

(٢) هذا الدس اليهودي تتضمنه آيات سابقة لهذه السلسلة سنعرضها بعد .

(٣) هذا التقرير في آيات أخرى سابقة سنعرضها بعد .

مايأمر به ، وكون الله لايمكن أن يضيع إيمانهم وصلاتهم فعليهم أن يطمئنوا ، ولا يستمعوا لدسائس اليهود الذين يعلمون أن ماوقع حق وإن كتموه، وأن يستيقنوا أن انتقادهم سفه فلا يعبأ به ، وأنه لاأمل في اتباعهم دعوة النبي وقبلته ، فلم يبق محل لاتباعه قبلتهم وأهواءهم .

وهذه السلسلة مسبوقة بسلسلة أخرى نعتقد أن لها صلة بالموقف وأنها نزلت هي أيضاً في مناسبة نقتطف منها مايلي :

١ — مَّايَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ . مَانَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَالَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ .وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . . .

١٠٥ ـ ١٠٩

٢ — وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ...

١١٤ ـ ١١٥

٣ — وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ . وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً

وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ . وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . . .

١٢٤ ـ ١٣١

ولقد روي في صدد الآية ١٠٦ أن اليهود كانوا يغمزون النبي ويثيرون الشك في المسلمين بقولهم إنه يأمر بالشيء ثم ينهى عنه ، وإن هذا ليس شأن الأنبياء ، ويلقنونهم طلب البراهين منه على نبوته بسبيل ذلك ؛ فاحتوت الآيات طمأنة للمسلمين ، فالله إذا نسخ أمراً فلحكمة رآها ،ولعل الناسخ يأتي خيراً من المنسوخ ، وأن الكتابيين ـ والمقصود هنا اليهود للقرينة القائمة ـ لايريدون لهم أي خير كالمشركين ، وأن كثيراً منهم يودون أن يرتدوا كفاراً حسدا وحقدا ، وأنه لاينبغي للمسلمين أن يقفوا من النبي موقف اليهود من موسى : يحاجونه ويرادونه ويسألونه البراهين ، فإن مغبة هذا تبدل إيمانهم بالكفر .

والذي يتبادر لنا أن اليهود قد غمزوا النبي صلى الله عليه وسلم بما غمزوه من النسخ بمناسبة تبديل القبلة قصد الدس والتشكيك ، فاحتوت الآيات ما احتوته من الطمأنة والتحذير .

وفي الآيتين ١١٤ ـ ١١٥ مايمكن أن يكون قرينة على هذا التوجيه ، إذ احتوت

الأولى تنديدا بمن يعطل مساجد الله ويسعى في خرابها ،والثانية إعلاناً بأن المشرق لله والمغرب لله ،وأن الله موجود أينما يولي المسلمون وجوههم ؛ والأولى تلهم أنها تنديد باليهود ،لأنهم دسوا وشككوا في ظروف تبديل القبلة ، وفي هذا سعي لخراب بيت الله وإهماله ،وينطوي في الثانية معنى سعة أفق الدعوة الإسلامية ،واهتمامها بالجوهر دون العرض ، تلقينا للمسلمين حتى لا يعبأوا بما يبثه اليهود فيهم .

أما السلسلة الثالثة (١٢٤ ـ ١٣٠) ففيها توكيد :

(١) لقدسية الكعبة ، وتقرير أنها بيت الله ومعبده المطهر ، ومثابة للناس منذ طويل الأحقاب . و (٢) لصلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بها وبأمن منطقتها ومناسك حجها. و (٣) لصلة العرب بإبراهيم وإسماعيل بالبنوة ، وتوكيد أن بعثة نبي منهم فيهم هي أمنية من أمانيهما ، ودعوة من دعواتهما لإنقاذ العرب وتطهيرهم وإرشادهم . و (٤) لأساس ومفهوم ملة إبراهيم عليه السلام وهي إسلام النفس لله وحده ، وأن المنحرف عن ذلك ضال خاسر نفسه .

والذي يستلهم من روحها ومضامينها ومن ورود الآيات المندِّدة باليهود بسبب موقف الدس الذي وقفوه في ظرف تبديل القبلة بعدها بقليل ، وهي الآيات ١٤٢ ـ ١٥٣ أن هذه الآيات هي من جهة مقدمة للآيات التي تليها مباشرة والتي احتوت الرد على اليهود في أمر ملة إبراهيم ومجادلتهم وهي ١٣١ ـ ١٣٤ التي نقلناها في فقرة سابقة ، ومن جهة ثانية مقدمة أيضاً للآيات ١٤٢ ـ ١٥٣ التي احتوت الرد عليهم في نقدهم تبديل القبلة ؛ فوق ما احتوته من تدعيم لصحة النبوة المحمدية وأهدافها إزاء أهل الكتاب معاً . ولعل مما يتصل بالموضوع الذي نحن في صدده استهدافها في تقرير صلة إبراهيم وإسماعيل بالكعبة واتصال فضلها وطهارتها ـ تقرير سبقها في القدم والوجود للمسجد الأقصى ، وأولويتها عليه في الاتجاه والتعظيم ، وبالتالي تقرير أن الناسخ وهو الكعبة جاء خيراً من المنسوخ وهو المسجد الأقصى .

وننبه إلى ما يمكن أن تلهمه فقرة « وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم » في الآية ١١٤ من اعتراف اليهود في موقف ما قبل البعثة أو بعدها بفضل الكعبة وصلتها بإبراهيم عليه السلام وسبقها المسجد الأقصى ، إذ جبهتهم الحجة القرآنية بما كان من اعترافهم بذلك ثم إنكارهم له وسعيهم ضده بالدس والتشكيك ؛ وإذ أريد في آيات من السلسلة تقوية للحجة الدامغة عليهم ، تقرير واقع موقفهم وبواعثه ، وهو الغرض والهوى والحقد والمماراة . ولقد كانت هذه الفصول القرآنية تتلى جهرة ، ولا بد أن يكون اليهود قد سمعوها أو وجهت إليهم في مشهد من المشاهد ، كما سمعها العرب على اختلاف سرائرهم ، وقد احتوت هذه التقريرات القوية الصريحة عن فضل الكعبة وقدمها وصلتها بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وصلة العرب بهما ، ومعرفة اليهود أن هذا حق ، والتنديد بهم لكتمهم إياه ومماراتهم فيه ؛ وكل هذا لا يبقي أيّ محل للمماراة فيما استلهمنا من أن اليهود كانوا اعترفوا للعرب في موقف من المواقف بذلك كله .

ومع كل ذلك يظهر أن اليهود لم يقبلوا الهزيمة ، فقد جاء في سورة آل عمران الآيات التالية :

« كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ . فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ . قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن

سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ . » ٩٣ ــ ١٠٠

وقد روى الرواة والمفسرون في صدد القسم الأول من الآيات أنه نزل في سياق موقف حجاجي بين النبي واليهود حول تحليل النبي صلى الله عليه وسلم لحوم الإبل وألبانها ؛ إذ انتقدوا ذلك لمخالفته للتوراة وملة إبراهيم ؛ ورووا في صدد القسم الثاني أنه نزل في سياق موقف حجاجي آخر بينه وبينهم أيضاً ادعى اليهود فيه أفضلية معبدهم وأفضلية الاتجاه إليه على الكعبة ؛ وكل رواية متسقة مع مضمون القسم الخاص بها من الآيات ؛ غير أنه يتبادر لنا أن الآيات نزلت دفعة واحدة في سياق موقف حجاجي واحد اتصل الموضوعان فيه بعضهما ببعض ، إذ أنكر اليهود ما قررته آيات البقرة من صلة الكعبة وحجها بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وقالوا إن التوراة لا تذكر شيئا من ذلك ، فردّت عليهم الآيات بأن التوراة لا تذكر أشياء كثيرة مما كان قبلها ، وضربت مثلا لهم بالمحرمات من الأطعمة التي ذكرتها التوراة مع أن كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل قبلها ، وتحدتهم بتلاوة التوراة وإثبات عكس ذلك .

ومهما يكن من أمر هذا التوجيه فإن القسم الثاني متصل بموقف حجاجي لليهود في شأن الكعبة وفضلها ؛ وقد احتوى تثبيتاً لما قررته آيات البقرة من صلة إبراهيم عليه السلام بها ، وقدمها على كل بيت عبادة آخر ، وبالتالي على المسجد الأقصى ، وإن من علائم فضلها أن كل من دخلها أمن ، وأن الله قد فرض حجها على كل من استطاع إلى ذلك سبيلا من الناس ، وأن فيها مقام إبراهيم ذا العلامات الواضحة المعروفة ؛ ثم حمل على اليهود حملة قوية ، وحذر المسلمين منهم ؛ فالله غني عن الكافرين وإن اليهود ليكفرون بآيات الله ويصدون من آمن عنها ، وعلى المسلمين أن يحذروهم فإنهم إذا أصغوا إليهم ارتدوا إلى الكفر بعد الإيمان . وفي الفقرة الأخيرة من الآية (١٠٩)

نقطة خطيرة المغزى نريد أن ننبه إليها ؛ فقد أمرت المسلمين بالعفو والصفح إزاء ما يبدو من اليهود من مواقف الدس والكيد والأذى والتشكيك والحسد ومحاولة رد المسلمين إلى الكفر . . . إلخ ، إلى أن يأتي الله بأمره ؛ مما يلهم أن الغضب استفز فريقاً من المسلمين عليهم فاقترح التنكيل بهم ، فاقتضت الحكمة تهدئته وتسكينه إلى وقت تكون الحجة عليهم أشد قوة وتبديل الموقف معهم أكثر تبريراً .

الصورة الثامنة

هذا ؛ وقد رأينا المناسبة سانحة للتنبيه إلى بعض الأمور في صدد تبديل سمت القبلة بالذات كحادث من حوادث السيرة في العهد المدني ؛ فقد أكسب الدعوة الإسلامية شخصية مستقلة بعد أن كان في شخصيتها شيء من التموج أو التمازج في أفق ومدار شخصية أهل الكتاب وقبلتهم ، وقد خلد قدسية الكعبة ومركزيتها ، إذ لم تلبث أن صارت متجه العرب في حياتهم الدينية الجديدة في جميع أنحاء الجزيرة ، أشد وأقوى وألزم مما كانت لهم قبل هذه الحياة أولا ، ومتجه المسلمين في جميع أنحاء العالم ، وناظماً لوحدتهم الروحية ثانياً ؛ وقد كان كذلك عنواناً على الإبقاء على مناسك الحج والكعبة ، إذ صارت ركنا مفروضا من أركان الإسلام بعد تصفيتها من شوائب الوثنية ومشاهدها .

وهناك نقطة تستحق التوقف من ناحية ظروف حادث تبديل القبلة : فالآيتان ١٤٢ ـ ١٤٣ تقدمتا على الآيات التالية لها في السلسلة ١٤٢ ـ ١٥٣ والتي فيها صراحة تبديل القبلة . والسؤال الذي يخطر بالبال هو هل نزلت هذه السلسلة جميعها معا ، أو أن الآيات ١٤٤ وما بعدها نزلت على حدة ونزلت الآيتان الأوليان على حدة ، وأي المجموعتين نزلت قبل الأخرى ؟ فإذا كانت السلسلة نزلت جميعها معا فمعناه أن حادث التبديل كان بدءا بإلهام رباني غير قرآني ، وأن السلسلة وما قبلها إنما نزلت للردّ على انتقاد اليهود ، وتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم على ما ألهمه من التحوّل ، وتبريره

وطمأنة قلوب المسلمين . ولعل حكاية تساؤل اليهود بصيغة « ماولاهم » قرينة على هذا .
وفي القرآن شواهد عدة على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلهم العمل ثم ينزل القرآن بتثبيته وتبريره ومن الأمثلة على ذلك غزوة بدر ، وعزيمة زيارة الكعبة التي انتهت بصلح الحديبية ، فقد نزلت سورتا الأنفال والفتح فيهما بعد وقوعهما ، وفيهما تثبيت لما فعل النبي ، كما في الأنفال وعتاب بشأن الأسرى لأن ما فعله كان خلاف الأولى الذي في علم الله . أما إذا كان التبديل قد وقع بأمر قرآني ، وبعبارة أخرى : بالآية ١٤٥ وما بعدها فالمتبادر أن تكون هذه الآية هي التي نزلت أولا ثم وقف اليهود موقفهم فنزلت الآيتان ١٤٢ ـ ١٤٤ ثم بقية السلسلة وما قبلها من فصول متصلة بالموقف على ما ذكرنا قبل ؛ ونحن نميل إلى ترجيح الفرض الأول ، لأن الآية ١٤٥ نفسها قد احتوت ردا على أهل الكتاب ، وبيانا لواقع موقفهم وباعثه .

أما تاريخ الحادث فقد كان ـ فيما يروى ـ بعد ستة عشر شهرا من الهجرة النبوية ، في أثناء صلاة ظهر يوم الاثنين للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرا حيث صلى النبي صلى الله عليه وسلم ركعتين إلى المسجد الأقصى ثم تحوّل إلى الكعبة[1] ، وبقطع النظر عن التعيين الحاسم في الرواية فإن من المحتمل جدا أن تكون آيات القبلة من الفصول المبكرة في النزول تبعا لتبكير اليهود في موقفهم الجحودي ؛ وقد يكون في هذا ما يدعم صحة التاريخ المروي أو مقاربته للصحة .

الصورة التاسعة

ومما يصح أن يلحق بهذا المبحث ما حكته آيات عدة عن غرور اليهود وتبجحهم

---

(١) روى البخاري والترمذي عن البراء أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً وكان يحب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل الله آيات القبلة فوجه نحو الكعبة فصلى رجل معه العصر ثم مر على قوم من الأنصار وهم ركوع في صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال لهم إنه يشهد أنه صلى مع رسول الله وأنه وجه إلى الكعبة فانحرفوا نحوها وهم ركوع . انظر أيضاً تفسير الآيات في تفسير الطبري والخازن وابن كثير .

الذين كانا يبدوان منهم حينما كانت توجه إليهم الدعوة أو يحدث بينهم وبين النبي والمسلمين حجاج وجدل ، إذ ورد في القرآن غير ما مر نقله مما اتصل بالأبحاث السابقة آيات عدة أخرى .

١ ـ ففي سورة البقرة الآيات التالية :

« فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ . وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . . . »

٧٩ ـ ٨٠

وقد تضمنت (١) حكاية موقف تدليس لهم على العرب بما كانوا يظهرونه من تعاليم ، وينسبون ما يقولونه ويكتبونه إلى الله افتراء عليه ، لاستبقاء ما لهم عندهم من ثقة ومكانة . و (٢) حكاية موقف تبجح إزاء ما كانوا يسمعونه من الإنذار القرآني فيقولون: إن المذنب منهم لن تمسه النار إلا أياماً معدودة ثم يناله عفو الله لما لهم من حظوة خاصة عنده . والمتبادر أن هذا الموقف خاصة هو من باب المواقف الحجاجية فوق ما فيه من تبجح زائف .

٢ ـ وفي السورة نفسها الآية التالية :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . . . »

٩١

وقد تضمنت حكاية موقف غرور واستخفاف لهم؛ إذ كانوا يقولون إن ما عندهم كاف لهم ولا حاجة لهم بغيره حينما كانوا يدعون إلى الإيمان بالقرآن والنبوة المحمدية ،

والفقرة الثانية من الآية تلهم أن هذا القول منهم كان في مشهد حجاج ودعوة مواجه كما هو المتبادر .

٣ ـ وفي السورة نفسها أيضا الآيات التالية :

« قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ ... » ٩٤ ـ ٩٥

والمتبادر أن تحدي اليهود في الآية الأولى قد كان جواباً على موقف حجاج وتبجح قالوا فيه إنهم وحدهم على الهدى ، وإنهم من أجل ذلك هم وحدهم أصحاب الحظوة عند الله في الآخرة . ولقد جاء في سورة الجمعة تحد مقارب لهذا التحدي ردا على تبجحهم بأنهم أولياء لله من دون الناس ، كما ترى فيما يلي :

« قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ ... » ٦ ـ ٧

مما يدل على أن هذا التبجح منهم في المشاهد الحجاجية كان يتكرر آنا بعد آخر .

٤ ـ وفي سورة البقرة كذلك الآية التالية :

« وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ... » ١١١

وهذه الآية متصلة فيما هو المتبادر بالموقف التبجحي الذي ذكرناه في الفقرة السابقة ، لأنها مع سلسلة واحدة من الآيات السابقة لها ؛ وقد لاحظنا في مكان سابق أن ذكر النصارى هو من قبيل التعميم لكل من يتمسك بما هو عليه ويزعم أنه على حق . ومع ذلك فاليهود على كل حال ممن حكى القول عنهم .

٥ ـ وفي السورة نفسها الآية التالية :

« وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ...» ١٣٥

وهذه أيضا متصلة بالموضوع نفسه ، وهي من سلسلة واحدة ، إذ قالوا متبجحين إن الهدى إنما هو في اليهودية ؛ وما قلناه آنفاً فى صدد ذكر النصارى يصح هنا بطبيعة الحال.

٦ ـ وفي سورة آل عمران الآية التالية :

« وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . . . » ٧٥

وجمهور المفسرين والرواة على أن قائلي « ليس علينا في الأميين سبيل » هم اليهود ، وهذا متصل بفكرة أنهم شعب الله المختار ، وأنهم ليس عليهم تبعة أي عمل يصدر منهم ضد أي شخص من الأميين ، أي غير الكتابيين ، وبكلمة ثانية من غيرهم[1]؛ لأنهم لا يعترفون بالنصرانية وإنجيلها . وواضح أن قولهم هذا من باب الزهو والغرور والترفع عن الغير ، كما أن فيه فتوى لأنفسهم باستحلال ما في أيدي الغير دون ما حرج .

ولقد جاء في سورة النساء آيات تمت إلى هذا الخلق الذي لا يتورعون عن التبجح به وهي :

« أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ...» ٥٣ ـ ٥٤

(١) صار المقصود من الأمين في القرآن « العرب » أيضا ، لأن اليهود حينما كانوا يقولون الأميين لم يكن أمامهم غير عرب الحجاز تقريبا . وقد وصف النبي بالأمي في آيات سورة الأعراف ١٥٧ ـ ١٥٨ بمعنى العربي ، كما وصف العرب بالأميين في آيات سورة الجمعة الأولى وغيرها .

إذ وصفتهم بأنهم إذا صار لهم ملك شيء أو سلطان ما فإنهم يحتكرون كل منفعة لأنفسهم ، ولا يدعون للغير أي مجال للانتفاع بأي شيء مهما كان تافهاً ؛ كما أن من خلقهم حسد غيرهم على أي نعمة تصيبهم أو فضل ينالهم من الله ، مع أن الله قد آتاهم نعماً عظيمة تمتعوا بها من فضله .

٧ ـ وفي سورة آل عمران أيضاً الآية التالية :

«لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ...» ١٨٨

وجمهور المفسرين والرواة على أن المقصود في الآية علماء اليهود . ومما روي في صددها أن النبي صلى الله عليه وسلم سألهم عن أمر فأجابوه إجابة غير صحيحة ثم أخذوا يزهون بعلمهم ، مع أن كذبهم لم يلبث أن انفضح ؛ فنزلت الآية تندد بهم وتتوعدهم ؛ ومهما يكن من أمر فالموقف التبجحي واضح في الآية .

٨ ـ وفي سورة النساء الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا . . .»

٤٩ ـ ٥٠

وقد روي أن الآيتين نزلتا بمناسبة تبجح صدر من اليهود بأن الله يكفر عنهم في النهار ما يقترفونه من ذنوب في الليل ، ويكفر عنهم في الليل ما يقترفونه في النهار ؛ وعلى كل حال فالتبجح واضح في الآية ، وهو متصل بدعوى الحظوة عند الله .

٩ ـ وفي سورة المائدة الآية التالية :

« وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ...» ١٨

وقد تضمنت حكاية تبجح صريح وعجيب وردّاً عليه ، والقسم الثاني من الآية يدل على أنه صادر في موقف حجاجي . وقد استهدفت الآية دحض دعوى الحظوة والشعب المختار ؛ كما استهدفت الآيات الأخرى ذلك أيضاً . ومما يجدر التنبيه إليه أن القرآن المكي والمدني قد احتوى تقرير تفضيل الله اليهود على العالمين [١] مما يمكن أن يوهم تناقضاً في التقريرات القرآنية ؛ ولسنا نرى ذلك ؛ إذ الأولى صرف التفضيل إلى بعثة موسى عليه السلام ، وعدم ضرورة أن يكون ذلك مستمراً كما هو المتبادر ؛ لا سيما أن القرآن مكيه ومدنيه قد ذكر ما كان من انحراف اليهود واستحقاقهم لغضب الله ونكاله في السابق واللاحق ، وفسق كثير منهم ، وجواب الله لإبراهيم عليه السلام بأن عهده لا ينال الظالمين من ذريته[٢] .

هذا بقطع النظر عما إذا كان القول المحكي في الآية قد صدر عن اليهود والنصارى في مجلس أو مجالس ، أو أنه تعبير عن لسان حالهم ؛ فإنها تحتوي صراحة أن اليهود ممن صدر عنهم القول كما هو ظاهر .

---

(١) الجاثية ١٦ والبقرة ٤٧ مثلا .

(٢) الأعراف ١٢٨ — ١٥٦ و ١٦١ — ١٦٩ والبقرة ١٢٤ والحديد ٢٦ وكثير من الآيات التي نقلناها في هذا المبحث وخاصة آيات البقرة وآل عمران والنساء .

المبحث الثالث

دسائس اليهود بين المسلمين وتآمرهم عليهم

مع المنافقين والمشركين

مدى دسائس اليهود ومؤامراتهم ـ أولا دسائسهم : تظاهر اليهود بالإيمان وتواصيهم بعكسه ـ تدليسهم باسم التوراة ـ محاولتهم تشكيك المسلمين في صحة أفعال النبي وخاصة في أمر تحويل القبلة ـ كتمهم ما في التوراة من المحرمات بقصد التشكيك ـ تآمرهم على التظاهر بالإيمان ثم الرجوع عنه لتشكيك المسلمين ـ تدليسهم بحلف الإيمان ـ دسهم بقصد إثارة الفتن والشكوك ـ صورة بليغة عن بغض اليهود المسلمين وتربصهم بهم ـ محاولات علماء اليهود في التدليس والإضلال ـ سخرية اليهود بالإسلام والصلاة والأذان ـ دور أحبار اليهود في الموقف الجحودي اليهودي العام . ثانيا تآمرهم مع المنافقين : تمازج المنافقين واليهود وأثر هؤلاء في نمو أولئك ـ مدى وصف اليهود بشياطين المنافقين ـ موالاة المنافقين لليهود ـ وعدهم لهم بالطاعة ـ موقف تآمر صريح بين المنافقين واليهود في ظروف إجلاء بني النضير ـ موقف إعلان صريح من المنافقين بتمسكهم بولائهم لليهود ـ تعليق في صدد تولي المنافقين لليهود . ثالثاً تآمرهم مع المشركين : خطورة الصور القرآنية لهذا التآمر على قلتها ـ تشجيع المشركين على الثبات على الشرك وإيمانهم بآلهتهم بسبيل التحالف معهم للقضاء على الكيان الإسلامي ـ بعد مدى ما ساقهم إليه الحقد من بشاعة الموقف ـ مظاهرة اليهود لجيوش الأحزاب التي غزت المدينة كنتيجة للتحالف ـ موالاة اليهود للكفار بالرغم من تظاهرهم بالإيمان ـ صورة بليغة من عدائهم المسلمين .

الصورة الأولى

في القرآن صور عدة لدسائس اليهود بين المسلمين وكيدهم لهم وللدعوة الإسلامية ، وتآمرهم عليهم مع المنافقين من جهة والمشركين من جهة أخرى ، تدل على بعد مدى ما كان من سوء نيات اليهود ضد المسلمين وشدة نكايتهم فيهم ، وتوسلهم بكل وسيلة إلى محاربة الإسلام وتقويض أركانه كما ترى فيما يلي :

الصّورة الثانية

أولا : دسائس بين المسلمين :

١ ـ في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ . وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ... » ٤١ ـ ٤٢

وقد تضمنت نهي اليهود عن كتم الحق وإلباسه بالباطل عن قصد ؛ والمتبادر أن هذا إنما كان منهم تجاه الغير ، وبقصد الدس والتشكيك والصد ، والراجح إن لم نقل المحقق أن هذا كان منهم إزاء المسلمين ، لاسيما أن آيات أخرى كثيرة قد أكدته بصراحة . ويلاحظ أن الآيات من أبكر ما نزل في المدينة ، ومعنى هذا أن الدس بين المسلمين قد أخذ يقع من اليهود مبكراً جدا ...

٢ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ... » ٧٥ ـ ٧٦

والآيات تخاطب المسلمين وتقرر لهم من جهة فقدان الأمل بارعواء اليهود وإيمانهم بالنبي ، وتتضمن من جهة أخرى صورة من صور تدليسهم على المسلمين ونفاقهم ، وصورة أخرى لتآمرهم عليهم بالتواصي بألّا يصدر منهم أي اعتراف بحقيقة قد يكون فيها متمسك أو حجة عليهم ...

٣ ـ وفي السورة نفسها الآية الآتية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ... » ١٤٠

يضاف إليها الآيات ١٠٥ ـ ١٠٩ التي نقلناها في بحث تبديل القبلة . ولهذه الآيات مع الآية ١٠٤ صلة بالمبحث الذي نحن في صدده ، إذ احتوت تحذيرات متنوعة للمسلمين من حسد اليهود ودسائسهم والجري على أساليبهم ؛ فاليهود كانوا يتخذون خطاب المسلمين للنبي صلى الله عليه وسلم بكلمة « راعنا » وسيلة لأذاه ، فيلوون ألسنتهم بالكلمة ليكون معناها وصف النبي بالرعونة سخرية به ، فنهوا عن ذلك ؛ وقد حذروا من تعجيز النبي صلى الله عليه وسلم بالأسئلة والمطالب تقليداً لأسلافهم الذين عجزوا موسى بمثل ذلك . مما يلهم أن اليهود قد نجحوا في دسهم وتشكيكهم بين المسلمين حتى صار بعضهم يجادل ويسأل ويبدو منه بعض الشك ، وقد رجحنا أن هذا قد كان في ظروف تبديل القبلة . وقد حذروا تحذيرين آخرين : فاليهود لا يريدون أن ينالهم خير من ربهم ، ويودون أن يرتدوا عن دينهم كفاراً ، حسدا للمسلمين وغيظاً من إسلامهم والتفافهم حول النبي صلى الله عليه وسلم . وخلال كل هذا تبدو أصابع اليهود الدساسة بين المسلمين واضحة كما ترى .

٤ ـ ويسلك في هذه السلسلة آيات القبلة ١٤٢ ـ ١٥٢ التي نقلناها سابقاً ، إذ احتوت الإشارة إلى مواقف الدس والتشكيك اليهودية ، مما شرحناه في مناسبته .

٥ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ

أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ...» ١٧٢ ـ ١٧٦

والمقصود من الحملة في الآيات ١٧٤ ـ ١٧٦ هم علماء اليهود على ماقاله جمهور المفسرين . وورود آية المحرمات مع الحملة عليهم أن هؤلاء العلماء قد وقفوا موقف دس وتشكيك من المسلمين بشأنها ، كاتمين أنها مما حرمته التوراة ، فاستحقوا هـذا التقريع والإنذار ، وتنبيه المسلمين إلى الحق في الأمر ، وإلى أن علماء اليهود إنما يكتمون مافي كتابهم من الحق المتسق مع التقرير القرآني بقصد بث الشك فيهم وإضلالهم عن الهدى .

الصّورة الثالثة

٦ ـ وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ . يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ..»

٦٩ ـ ٧٣

والجمهور على أن أهل الكتاب هنا أيضاً هم اليهود ؛ وفي الآيات قرائن عدة على ذلك ؛ فالصفـات والأفعال المنسوبة إليهم مما نسب في غـيرها لليهود صراحة كما مر في آيات البقرة . ويبـدو أن الآيتين الأوليين تضمنتا تمهيدا تنديدياً لما حكته الآيات التاليـة لها ؛ أما الآيات التالية فقد تضمنت صورة دس وتشكيك بشعة جـدا ،

إذ حكت تآمر اليهود فيما بينهم على التظاهر بتصديق القرآن والإيمان به ، حتى إذا اطمأن المسلمون لهم أعلنوا شكوكهم وارتيابهم في بعض المسائل ؛ فأحدثوا بلبالا وريباً في المسلمين وثغرة في صفوفهم ؛ وقد حكت كذلك تواصيهم فيما بينهم بعدم الاعتراف بحقيقة مواقفهم ومقاصدهم ومعارفهم إلا بعضهم لبعض ، وبعدم الاطمئنان إلا لمن دان بدينهم ؛ لئلا ينتفع بذلك غيرهم ويكون لهم عليهم الحجة ، أو ينفذون إليهم من ثغرة ما .

٧ ـ وبعد قليل من هذه الآيات جاءت الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ... » ٧٧ ـ ٧٨

والآيتان من سلسله وسياق واحد ، والجمهور على أن المقصود في الآية الثانية هم علماء اليهود ؛ وقد تضمنت صورة من صور التدليس على المسلمين بقصد التعالم وكسب الثقة وضمانة المنفعة الخاصة ؛ ويبدو من فحوى الآية الأولى أنهم كانوا يحلفون الأيمان على صحة مايقولون من الأكاذيب والافتراءات على الله ليضمنوا الأهداف الدنيوية التي يهدفون إليها ...

ومن المحتمل أن تكون الحملة المنطوية في الآية الأولى ، والتقرير الذي احتوته الآية الثانية ، متصلين بالمؤامرة التي حكتها الآية ٦٩ ـ ٧٤ ، وأن يكون فريق من علماء اليهود قد نفذوها ، وأنهم أخذوا يقسمون الأيمان على صدق ما قرروه من مناقضات النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن لما عندهم ، تحقيقاً لهدفهم

وهو تشكيك المسلمين ، وردهم إلى الكفر ، وتفريقهم عن النبي أو إيجاد ثغرة في صفوفهم .

ولقد جاء بعد قليل الآيات التالية :

« أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ . قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ . وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ . كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ . خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ . إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... » ٨٣ ـ ٨٩

ومن المحتمل أن تكون الآيات الأولى قد استهدفت رد دعوى المناقضة التي ادعاها اليهود تحقيقاً لمؤامرتهم ،وتوكيد إيمان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بكل ما جاء به الأنبياء السابقون بالإضافة إلى ما أنزل عليهم ، دون تفريق بين أحد ، ودون تردد ما ، وبكل إسلام وانقياد مما هو متصل بالرد عليهم أيضا على ما هو المتبادر . والآية ٨٦ تلهم أكثر من الآيات السابقة أن فريقاً من اليهود قد نفذ المؤامرة ، فأعلن إيمانه بالرسالة النبوية والتنزيل القرآني ، وشهد أنهما حق ، ثم ما لبث أن أعلن ارتداده لإثارة الشك في المسلمين ، فاستحق هذه الحملة الشديد المتناسبة مع بشاعة المؤامرة ، واحتمالات آثارها الوخيمة .

ونحب أن نلفت النظر إلى مدى الآية الأخيرة ، إذ يتسق مع مبادئ القرآن العامة من إبقاء الباب مفتوحاً لكل إنسان جاحداً كان أم مذنبا ليصلح أمره ، ويتوب عن

موقف الإثم والجحود فيقبل منه ذلك ؛ وإذ يدل على أن هذا لليهود كما هو لغيرهم على السواء، وعلى أن فكرة التعصب ضد اليهود دينا وعنصراً لم يكن لها أساس أو محل في الدعوة النبوية والسيرة النبوية خلافاً لما يزعمه المغرضون .

الصورة الرابعة

٨ ـ وفي سورة آل عمران أيضا الآيات التالية :

« قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ... » ٩٨ ـ ١٠٠

والفريق المقصود هنا هو اليهود أيضا على ما قاله الجمهور ، والاستنكارات التي احتوتها الآيتان الأوليان مماثلة لاستنكارات آيات البقرة الموجهة لليهود بصراحة ، مما يقوم قرينة على ذلك . ولقد روي أنها نزلت بسبب محاولة بعض اليهود إثارة الفتنة بين الأوس والخزرج مدفوعين بالغيظ من اجتماع شملهم والتفافهم حول النبي ، وعدم نجاحهم فيما حاولوه من دس وتشكيك . ولقد جاء بعد هذه الآيات آيات فيها أمر للمسلمين بالاعتصام بحبل الله وعدم التفرق ، وتذكير لهم بما كان بينهم من عداء انقلب بنعمة الله إلى أخوة ، وبما كانوا عليه من ضلال تبدل إلى هداية ، مما يمكن أن يدعم تلك الرواية كما ترى فيها :

« وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا

وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ...» ١٠١ ـ ١٠٣

على أنه مما يحتمل أن تكون الآيات ٩٨ ـ ١٠٠ قد نزلت لمناسبة موقف دس وتضليل ديني أيضاً ، لأنها تندد باليهود لمحاولتهم صد المؤمنين عن سبيل الله وإقامة العثرات في طريقهم ، مع يقينهم صدق النبوة والتنزيل ، كما أن من المحتمل أن يكون هذا الموقف قد أثر في بعض المسلمين أيضاً .

ومهما يكن من أمر فالآيات تضمنت صورا لمواقف دس وتضليل وإفساد وفتنة وقفها اليهود من المسلمين والدعوة الإسلامية ، واستهدفوا بها إيجاد ثغرة في صفوف المسلمين ؛ ويبدو من صيغة الآيات وقوة تحذيرها للمسلمين وتنديدها باليهود أنه كاد يكون لهذه المواقف أثر غير محمود لولا أن تدارك الله المسلمين بتثبيته وهدايته .

الصُّورةُ الخامسَة

٩ ـ وبعد هذه الآيات جاء الآيات التالية :

١ ـ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... ١٠٤ ـ ١٠٥

٢ ـ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ . لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ . ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ . . .

١١٠ ـ ١١٢

والمتبادر أن الآيات استمرار لسابقاتها في تحذير المسلمين وتنبيههم إلى ما هو الأولى بهم ؛ وقد احتوت الآيات الأخيرة تهويناً لشأن اليهود وقوتهم ومدى أذاهم ، وإشارة إلى الطابع العام الدائم الذي دمغوا به من الذلة والمسكنة وغضب الله ، بسبب كفرهم وتمردهم وبغيهم وسوء نياتهم . والتقريرات التي احتوتها متصلة بما كان من الدسائس اليهودية بين المسلمين ، ومنبهة للمسلمين إلى واجبهم من التضامن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنهم بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وقد ربطت بين مواقفهم ومواقف آبائهم ، وحالتهم وحالة آبائهم ، فقررت أن هذا الواقع الذي فيه اليهود المعاصرون هو متصل بما كان عليه أسلافهم جيلا بعد جيل . ويبدو من الآية (١١١) أن بعض المسلمين كانوا يخشون ما لليهود من قوة مال وعدد وحصون وسلاح ، وأن هذه الخشية كانت منفذا ينفذ اليهود منهم إليهم في الدس والكيد مطمئنين إلى عدم جرأة المسلمين على التنكيل بهم التنكيل الذي يستحقونه ، فقد استهدفت هي والآية التالية لها تهوين قوتهم وشأنهم ، ولفت نظر المسلمين إلى واقع أمرهم من الذلة والمسكنة والجبن ؛ ويلمح من هذا بدء تطور إزاء بغاة اليهود الذين لم يتورعوا عن أي موقف من مواقف الأذى والكيد والدس وإثارة الفتنة ؛ ولقد أشرنا في فقرة سابقة إلى ما تضمنته الفقرة الأخيرة من آية البقرة ١٠٩ من معنى خطير ؛ ويبدو من الآية ١١١ هذه أن الوقت الذي هدأ فيه المسلمون الساخطون على اليهود إلى أن يحين ؛ قد أخذ يحين بما ازداد اليهود فيه من بغي وكيد وأذى وإثارة فتنة ؛ فاحتوت الآية هذا التهوين الذي احتوته ، تسكينا لروع الخائفين ، ولعل التنكيلات باليهود قد أخذت طريقها التنفيذي بعد ذلك .

١٠ — وفي سورة آل عمران أيضاً الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ

مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ...» ١١٨ ـ ١٢٠

والجمهور على أن الآيات تعني اليهود ، ومضامينها تدعم هذا إذا ما أنعم النظر فيها ، وفيها الصفات نفسها التي وصف بها اليهود بصراحة في آيات أخرى .

ولقد تضمنت صورة قوية وبليغة لعداء اليهود الشديد ومكرهم ، ونية الشر والكيد والبغض فيهم ضد المسلمين ،والغيظ مما بلغ أمر هؤلاء إليه من القوة والتعالي ، وقد حذرت المسلمين من أجل ذلك من موالاتهم واختلاطهم بهم ، واطلاعهم على أمورهم وأسرارهم مما تتضمنه كلمة « بطانة » وليس من شك في أن هذا قد كان مستندا إلى المواقف المتنوعة والكثيرة ، العانية والسرية ، القولية والفعلية ، التي وقفها اليهود من النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين والدعوة الإسلامية . والآيات تلهم ما كان من قوة الروابط التي كانت تربط بعض العرب باليهود ، وقوة أثر هؤلاء فيهم ؛ مما يفسر حكمة تفصيل نيات اليهود وحقيقة أمرهم ومواقفهم تجاه المسلمين للتأثير في الذين يميلون إلى التمسك بولائهم لليهود وحملهم على الانسحاب منه .

ولقد جاء في سورة النساء نهي آخر فيه شيء من العتاب كما ترى في الآية التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ...» ١٤٤

وهذه الآية من سلسلة فيها حملة على المنافقين تلهم أن الكافرين المعنيين مباشرة فيها هم اليهود ؛ وقد استهدفت الآية مااستهدفته الآيات السابقة ، كما أن فيها نفس الدلالة التي ذكرناها آنفا كما هو المتبادر .

ولعل مما يصح أن يقال إن هذه الآيات تمت إلى ذلك التطور الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة ، وتمهد له السبيل في نفوس بعض المسلمين الذين غفلوا عما يبيته اليهود لهم .

١١ ـ في سورة آل عمران أيضاً الآية التالية :

« لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ... » ١٨٦

وهذه الآية جاءت بعد آيات قوية الصراحة بأنها في حق اليهود بحيث يمكن القول إنهم هم المقصودون من جملة (الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) في الدرجة الأولى . وفي الآية إشارة إلى ما كان المسلمون وظلوا يتعرضون له من أذى اليهود ومكائدهم .

الصّورة السّادسة

١٢ ـ وفي سورة النساء الآيات ٤٤ ـ ٤٦ التي نقلناها في مبحث مواقف اليهود الحجاجية ، فإن لها صلة بهذا المبحث أيضا ؛ إذ تضمنت صورة للعداء والدسائس اليهودية، من عدم تورع اليهود عن المكابرة والارتكاس في الضلال ومناقضة وصايا كتابهم وتعاليمه ، وتحريفهم له ، وتأويلهم إياه تأويلا باطلا بقصد إضلال المسلمين وتشكيكهم في دينهم وشق صفوفهم . والصورة هنا أقوى منها في الآيات السابقة التي تضمنت صوراً مماثلة كما يبدو منها ؛ وتكرار التنديد بهذه الصورة يدل على توالي صدورها منهم بطبيعة الحال . ويلاحظ هنا أن اليهود قد وصفوا بأنهم أعداء للمسلمين ؛ ولعل هذا الوصف يأتي في القرآن لأول مرة . ومما لا ريب فيه أن هذا إنما كان بسبب استمرارهم في المواقف الكيدية والمؤذية السرية والعلنية ، والقولية والفعلية التي وقفوها .

١٣ ـ وفي سورة المائدة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ

وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ . قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ . وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ . وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ...» ٥٧ ـ ٦٣

ومضامين الآيات وخاصة الآية ٦٠ تدل على أن المقصود من أهل الكتاب فيها هم اليهود ، إذ وصفوا بالصفات التي تضمنتها أكثر من مرة : والربانيون والأحبار هم علماء اليهود خاصة أيضاً .

وفي الآيات تحذير للمسلمين من موالاة اليهود ، وتعليل بأنهم اتخذوا دينهم ونداءهم إلى الصلاة ، أي أذانهم ، هزواً ولعباً . وفي هذا صورة لمواقف المكر والاستخفاف اليهودية من المسلمين ودينهم وصلاتهم ، وقد يكونون استهدفوا بها ـ فوق دلالتها على غيظهم وجبلتهم الخلقية ـ إلقاء الريب في قلوب المسلمين فيما هم عليه .

وفي الآيات صورة أخرى لمكرهم ، إذ كانوا يأتون إلى المسلمين فيعلنون إيمانهم وهم كاذبون ، وإنما يفعلون ذلك من قبيل التدليس والمكر والتضليل ؛ ولعلهم كانوا يستهدفون بذلك كسب ثقة المسلمين وطمأنينتهم حتى يكون مكرهم ودسهم وتضليلهم أنفذ .

وفيها إلى ذلك استطراد لذكر ما كانت عليه أخلاقهم من قول الإثم وأكل السحت ، ومن سكوت ربانييهم وأحبارهم عن ذلك ، مما يرجح أن يكون لهذا الاستطراد

صلة بمواقف المكر والأذى ، وقصد لتقرير اندماج الربانيين والأحبار في تلك المواقف وهذه الأخلاق .

ولقد جاء في سورة التوبة : بضع آيات في حق أهل الكتاب وقتالهم ومنها هذه الآيات :

« يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ . هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ... » ٣٢ ـ ٣٤

والآيات صريحة الدلالة على ما كان للأحبار اليهود من موقف الصد والتعطيل ، وما كان لهذا الموقف من أثر في جحود جمهور اليهود للنبوة المحمدية ، وعدم استجابتهم للدعوة الإسلامية ؛ ويبدو منها أن هؤلاء الأحبار كانوا شديدي التعلق بأعراض الدنيا ، وكانوا يصدون عن سبيل الله قصد إطفاء نوره وتعطيل دعوة نبيه لتبقى لهم الرياسة والمكانة والطاعة ، مهما كانت الوسيلة مناقضة للحق . ولعل من الصواب أن يقال استلهاماً من هذه الآيات وغيرها إن أحبار اليهود وربانييهم بالتضامن مع زعماء اليهود قد تولوا كبر المعارضة والمحاجة ، والمشاقة والدسائس والتآمر والكيد والتشويش .

الصورة السابعة

ثانياً تآمر اليهود مع المنافقين .

١ ـ لعل أول آية ذكرت فيها صلات اليهود بالمنافقين هي آية البقرة هذه :

« وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ... »

وقد قلنا في مناسبة سابقة إن الجمهور على أن « شياطينهم » تعني اليهود ؛ والكلام في الآية حكاية قول المنافقين ، وهي من سلسلة وصفية لهؤلاء حمل عليهم فيها حملة شديدة ؛ ووصف اليهود بأنهم شياطين المنافقين أي الذين يوسوسون إليهم ويغوونهم من جهة ، وذكر اختلاء المنافقين بهم من جهة أخرى ، يدلان بصراحة على الأثر الكبير لليهود في حركة النفاق والمنافقين ، كما يدلان على التضامن الوثيق الموطد بين الفريقين تجاه الدعوة الإسلامية .

والآية من أبكر ما نزل من القرآن المدني على الأرجح ، وهذا التبكير يدل على ما كان من جدّ اليهود في تغذية وتقوية جبهة النفاق ، وعلى نجاحهم في سعيهم وقيام حالة تواثق وتآمر بينهم وبين المنافقين منذ وقت مبكر من العهد المدني .

وإذا لاحظنا الدور الباغي الذي قام به المنافقون على ما سبق شرحه ، وما كان له من آثار ضارة ، ثم لاحظنا ما كان يربط بين المنافقين والمخلصين من الأوس والخزرج من أوشاج القربى ، وما كان لعصبية القربى من قوة في المجتمع العربي ، وما كان ينتج عن وقوف بعض ذوي القربى ضد بعضهم من مشاكل ومواقف محرجة ومؤذية في الوقت نفسه للكيان الإسلامي وحركة الدعوة الإسلامية ؛ بدت لنا شدة النكاية وبعد مدى الأذى فيما كان من جد اليهود في تغذية وتقوية جبهة النفاق ، ونجاحهم في سعيهم ، وقيام حالة التضامن والتآمر بينهم وبين المنافقين منذ الوقت المبكر على ما تلهمه الآية .

٢ ـ في سورة النساء الآيات التالية :

« بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ... »

١٣٨ ـ ١٣٩

وجمهور المفسرين على أن الكافرين هنا هم اليهود ؛ وفي الآية قرينة على صحة ذلك ،

كما أن فيما بعدها قرينة ثانية أيضا . وواضح أن اتخاذ المنافقين اليهود أولياء ، وتواثقهم معهم ، إنما هما أثر من آثار التآمر الموطد بين اليهود والمنافقين تجاه الدعوة والقوة الإسلامية .

٣ ــ في سورة محمد الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ... » ٢٥ ــ ٢٦

والجمهور على أن الآية الأولى عنت المنافقين ، وأن الذين كرهوا ما نزل الله هم اليهود ؛ وهكذا تبدو في الآية الثانية صورة من صور التآمر بين الفريقين ضد الإسلام والمسلمين . ونلفت النظر إلى ماحكته الآية الثانية من وعد المنافقين لليهود بطاعتهم والسير على الخطة التي يضعونها ، ففي هذا كما هو ظاهر صورة لبعض ما كان لليهود من التوجيه والتأثير والنفوذ في المنافقين وحركتهم وأعمالهم .

٤ ــ في سورة المجادلة الآية التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ... » ١٤

والجمهور كذلك على أن الآية في صدد تولي المنافقين لليهود ؛ وفيها والحالة هذه صورة من صور ذلك التآمر .

٥ ــ في سورة الحشر الآية التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ . . . » ١١

والذين كفروا من أهل الكتاب هم اليهود ، لأن الآيات السابقة هي في صدد حادث تنكيل بهم ؛ وفي الآية صورة قوية للتضامن والتحالف الوثيقين بين اليهود والمنافقين ؛ كأثر من آثار التآمر الموطد بينهما .

٦ – في سورة المائدة الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ . فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ . . . » ٥١ – ٥٢

والآية الأولى وإن كانت شملت اليهود والنصارى فإن الموضوع المباشر للنهي على ما تلهمه الآية الثانية ورواية نزولها ، هو اليهود ؛ لاسيما أن المدينة لم يكن فيها من يسارع المنافقون إلى توليهم خشية الدوائر إلا اليهود ، إذ لم يكن فيها كتلة نصرانية عدو .

وقد روى المفسرون والرواة أن الآية الثانية نزلت بمناسبة مشادة بين كبير المنافقين عبد الله بن أبيّ وأحد زعماء المسلمين ، إذ قال هذا إني بريء من اليهود ، فقال الأول أما أنا فلا أتبرأ منهم لأني أخشى الدوائر ؛ وعلى كل حال ففي الآية الثانية صورة للتواثق الشديد بين المنافقين واليهود وأثر من آثار التآمر بينهما .

الصورة الثامنة

ولقد يرد – في صدد الحملة على المنافقين لتوليهم اليهود في آيات هذه الفقرة وغيرها مما نقلناه قبل – أنه كان بين الأوس والخزرج وبين اليهود عهود ومواثيق ، وأن النبي قد أبقى عليها وجددها ، وأن تمسك فريق من العرب بها أو اعتبار أنفسهم مقيدين بها مما لا غبار عليه ، لأنه مما توجبه واجبات الوفاء .

وجواباً على هذا نقول أولا : إن المنعي عليهم هم فريق المنافقين فقط الذين وقفوا منذ بدء الهجرة النبوية من النبي ودعوته موقف الكيد والمكر والتآمر ، في حين أن تلك العهود والمواثيق قد كانت بين اليهود وسائر بطون الأوس والخزرج ؛ ومعنى هذا أن المسلمين المخلصين استجابوا لتحذير القرآن والنبي الذي كان معللا بمواقف كيد اليهود ومكرهم ودسهم وتآمرهم ؛ وإذا كان بعض المسلمين تردد أو تأخر في نفض يده من الولاء للحلف بينه وبين اليهود ، فإن الذين جاهروا بالتمسك به ولم يعبأوا بالتحذير والنهي بوقاحة وإصرار وتمرد هم المنافقون فقط ، وهذا يدل بصراحة وقوة على أن الباعث لهم على هذا الموقف ليس الإخلاص للحلف ، وإنما ماجمع بين اليهود وبينهم من وحدة البغض والكيد للإسلام ونبيه ، وما توطد بين الفريقين من تواثق وتضامن وتآمر على النكاية بهما ، ولا يصح أن يعد من قبيل الوفاء بالعهود ، ولو أن المنافقين كانوا يعتذرون بذلك .

ونقول ثانياً : إن تلك المواقف التي حكاها القرآن عن اليهود من شأنها أن تكون نقضاً من جانبهم لتلك العهود والمواثيق ؛ ولقد اعتبرت كذلك بنص القرآن كما تلهمه الآيات التالية :

١ — أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . . .

البقرة ١٠٠

٢ — إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . . .

الأنفال ٥٥ ــ ٥٦

والآيات مما نزل مبكراً ، وهو أمر يدل على أن تلك المواقف قد اعتبرت نقضا منذ وقت مبكرٍ ؛ فدعوة القرآن إلى عدم موالاتهم واتخاذهم بطانة وإطاعتهم وتحذيره ؛ هي شيء طبيعي لا يتمحل فيه إلا مكابر أو مغرض .

وثالثا : تآمر اليهود مع المشركين :

إن الآيات الواردة عن تآمر اليهود مع الكفار والمشركين أقل مما ورد عن تآمرهم مع المنافقين ؛ وهذا طبيعي فيما يبدو ، لأن اليهود في المدينة ، والصلات بينهم وبين أهلها أوثق ، والشقة بعيدة عن مكة التي كان زعماؤها قادة حركة العداء للنبي صلى الله عليه وسلم ودعوته ؛ ومع ذلك ففي الآيات القليلة الواردة صور ذات خطورة كبيرة المغزى والأثر .

(١) ـ فمنها الآيات التالية من سورة النساء :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً . . .

٥١ ـ ٥٢

ولقد روي في صدد الآيتين روايات مفادها أن وفداً من زعماء اليهود ذهب إلى مكة بعد واقعة أحد ليبحث في أمر النبي والمسلمين مع زعمائها ، ويعرض عليهم حلفاً يهدف إلى القضاء عليهم بعد الضربة التي نزلت بهم نتيجة لتلك الواقعة ، وأنه لما تم الاتفاق على الحلف ذهب الوفد والزعماء إلى فناء الكعبة وألصقوا أكبادهم بها ، وأقسموا عند الأصنام التي حولها على البر في الحلف ، والجهد في تنفيذه ؛ ومما روي أن زعماء مكة استشهدوهم على من هو الأفضل دينا وسبيلا فشهدوا لهم أنهم هم الأهدى والأفضل . وليس في الروايات مالا يتسق مع الآيات إلا كون الآيات أكثر صراحة إذ تذكر إيمانهم بآلهة الكفار .

ولعل أبشع مافي الصورة ، بل أشنع ما كان من اليهود ، أن يدفعهم الحقد والحسد والعداء للنبي ودعوته إلى عدم التورع في الشهادة الفاجرة بأن الشرك خير من التوحيد ، وأن آلهة المشركين وأصنامهم خير من إله محمد رب العالمين ، وأن ماعليه

المشركون من عادات وتقاليد أهدى مما يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ثم إلى عدم التورع في إعلانهم وإيمانهم بآلهة المشركين وتكريمهم لأصنامهم ؛ وهكذا ينكرون أساس دينهم الذي هو الإيمان بالله وحده ، في سبيل محاربة النبي الداعي إلى ذلك ، والناهي عن الشرك والإثم والفواحش ؛ وليس من ريب في أن موقف هذا الفريق يدمغه بطابع من العار لا يمكن أن ينسى .

ولقد كان من نتيجة رحلة الوفد اليهودي وعقده الحلف مع زعماء مكة أن استنفر هؤلاء أهل مكة وأحزابهم وحلفاءهم ، وأن زحفوا بجيوش جرارة على المدينة — وهو ماعرف بواقعة الخندق — وأن زلزل هذا الزحف أعصاب المسلمين وأدخل في قلوبهم الرعب ، وأن كاد يعصف فعلا بالإسلام والمسلمين لولا أن تداركهم الله بنعمته على ماسوف نذكره في فصل الجهاد ؛ وقد وفي اليهود بالحلف ، فظاهروا الجيوش الزاحفة على المسلمين ، مما زاد في حرج الموقف وشدة خطورته ؛ وهذا وذاك مما أشارت إليه الآيات في سورة الأحزاب :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا . هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ...

٩ — ١٢

٢ — وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا . وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ

أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ...
٢٥ ـ ٢٧

(٢) ـ ومنها الآيات التالية فى سورة المائدة :

« لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ . كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ . تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَاقَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ . وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ . لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ . . . »
٧٨ ـ ٨٢

وقد ذكرت صراحة أن كثيراً من اليهود كانوا يتولون الكافرين ويتواثقون معهم ، ومما لاريب فيه أن هذا قد كان بسائق البغضاء التي كانت تجمع بين الفريقين للإسلام والمسلمين ، وبقصد التآمر على تقويض أركانهم وهدم بنيانهم ، وإذا لوحظ أن الكفار كانوا في حالة حرب مستمرة مع اليهود ، بدا لنا أن ذلك التولي قد كان نوعا من المظاهرة الحربية وكان بالنتيجة شديد الخطورة بعيد المدى والأثر . ويبدو من الآية الأخيرة أن هذه المواقف منهم كانت مكشوفة ، وكانت آثارها ملموسة ، إذ وصفت اليهود بأنهم أشد الناس عداوة للمسلمين ، وقرنتهم في هذه العداوة الشديدة بالمشركين الذين كان منهم ما كان من شديد الصد والأذى وكانوا في حالة حرب مستمرة مع المسلمين .

ويستلهم من الآية ٨١ أن من اليهود من كان يتظاهر كذبا بالإيمان وتصديق النبي ، ففضحتهم وأقامت عليهم الحجة في موقفهم الذي لايمكن أن يحدث لو كانوا صادقين في إيمانهم ؛ وهذه الصورة من الدس والمكر مما تكرر وروده

في آيات أخرى شرحناها سابقا ، غير أنها هنا مقترنة بما كان من تناقضهم واتخاذهم الكفار أولياء .

ولقد ربطت الآيات بين اليهود المعاصرين والسالفين في الأخلاق والمكر وعدم التناهي عن الإثم والمنكر ، واستحقاقهم لعنة الله على ذلك جريا على الأسلوب القرآني الذي يستهدف تقرير أن ماعليه المعاصرون من أخلاق وما يقفونه من مواقف هو جبلة متوارثة عن الآباء ...

المبحث الرابع

وقائع التنكيل باليهود وبواعثها ونتائجها

عداء اليهود وغدرهم منذ وقت مبكر ، تعدد فصول التنكيل ـ لكل فصل سببه ـ التنكيل جرى بمقدار الضرورة ، عدم خروج اليهود جميعهم من نطاق الكلام إلى الغدر والأذى في وقت واحد ـ أثر عدم تكتلهم سياسيا وحربيا في ذلك ـ إشارة إلى ماغمز به المغرضون النبي بسبب التنكيل وتفنيده ـ إجلاء بني قينقاع وظروفه وتحليل الإشارات القرآنية إليه ـ تكملة الصورة بالروايات ـ إجلاء بنى النضير وتحليل مافي القرآن عنه ـ تكملة الصورة القرآنية بالروايات ـ التنكيل ببني قريظة وتحليل مافي القرآن عنه ـ تكملة الصورة بالروايات ـ الإشارات القرآنية إلى فتح خيبر والقرى اليهودية الأخرى وظروفه ـ تكملة الصورة بالروايات ـ الأسباب المحتملة للحملة ـ دلالة تساهل النبي مع أهل القرى .

الصورة الأولى

إن اليهود لم يبقوا في نطاق جحود نبوة النبي وتنزيل القرآن ، وفي نطاق المكايدات والمكابرات والمماحكات الكلامية طويلا ، بل تجاوزوه إلى الغدر ونقض العهد والعداء الفعلي الصريح منذ عهد مبكر على ما استدللنا عليه في المبحث السابق من آيات البقرة ١٠٠ والأنفال ٥٥ ـ ٥٦ المبكرة في النزول ؛ فكانت مواقفهم هذه سببا مباشراً لدور التنكيل الذي بدأت فصوله في الربع الأول من العهد المدني ، ثم استمرت إلى أن تم إجلاؤهم عن المدينة وخضد شوكتهم وإجلاء بعضهم عن أرباضها في ظرف الربع الثاني والثالث منه .

ولقد تعددت فصول هذا الدور ، وكان لكل فصل أسبابه الخاصة ، كما كان موضوع كل فصل فريقاً دون آخر من اليهود ، وهذا يدل على أن التنكيل إنما كان يجري بمقدار الضرورة وبقصد إزالة الضرر والخطر المتحقق من الفريق الذي حق عليه التنكيل فحسب ؛ كما يدل على أن اليهود لم يقدموا جميعهم على الخروج من نطاق الكلام

إلى الغدر والعداء العملي في وقت واحد ، ولعل من أسباب ذلك أنهم لم يكونوا مجموعي الشمل في سلك كيان سياسي وحربي واحد ومتواثق ؛ بل كانوا — والكلام في صدد يهود المدينة خاصة؛لأنهم كانوا الأكثر والأقوى والأغنى، والمحتكين بالنبي والمسلمين والمنافقين والمصطدمين بالنبي والمسلمين — كتلا مستقلة ، كل كتلة أو قبيلة لحدتها وتسكن في محلة خاصة بها ؛ ولعله كان بينهم خصومات أيضاً ، بدليل أن كتلهم كانت متوزعة في التحالف والولاء بين قبيلتي الأوس والخزرج اللتين كانتا في خصومة قديمة على ما ذكرنا في مناسبات سابقة . وفي آيات البقرة ٨٤ — ٨٥ التي نقلناها من قبل دليل على ذلك ، إذ يستفاد منها أن كتل اليهود كانت تدخل في الحرب بعضها ضد بعض . كل واحدة متضامنة مع فريق عربي يخاصم آخر ، وأن اليهودي كان يقتل اليهودي ويأسره ويجليه عن أرضه فيما كان ينشب بين الكتلتين المزدوجتين[١] .

ونحن نعرف أن بعض الكتاب من يهود ومبشرين ومستشرقين رأوا في توالي فصول التنكيل باليهود ماجعلهم يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بيت نية التنكيل بهم ، وإثارة حرب عنصرية دينية ضدهم من البدء ، وأنه إذا لم ينفذ نيته فيهم مرة واحدة فلأنه لم يكن له قبل بهم جميعاً ؛ وقد غمزوه بالنكث بما عاهدهم عليه من الحرية الدينية والاقتصادية والاجتماعية ، وبالميل إلى سفك الدم ، وبالطمع في أموالهم وإغداقها على المسلمين إلخ ، مما صدر منهم بسائق الغرض والتعصب وعدم التروي في فهم آيات القرآن التي احتوت ما فيه الحجة القاطعة والبينة الحاسمة على زيف ما زعموا وسفه ما غمزوا .

فالقرآن قد ذكر (آيات البقرة ٨٤ — ٨٥) عدم تكتلهم وما كانوا يقعون فيه

---

(١) بالإضافة إلى الدلالة الحاسمة التي تضمنتها آيات بسورة البقرة المذكورة فإن الكتاب الذي كتبه النبي صلى الله عليه وسلم حين وصل إلى المدينة بين المهاجرين والأنصار واليهود والذي أوردنا خبره ونصوصاً منه في مطلع هذا الفصل ذكر كل فريق من اليهود مع الفريق المتحالف معه من بطون الأوس والخزرج مما فيه بيان وتوضيح . وكان بين بطون الأوس والخزرج قبل الإسلام أحقاد وحروب على ماذكرته الروايات العديدة. وقد أشرنا إلى ذلك في سياق هجرة النبي صلى الله عليه وسلم . انظر أيضاً طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٦٨ و ٩٩ و ١١٨ وتاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ج ٤ ص ٣٥٤ — ٣٥٥

من جراء ذلك من مخالفات دينية في قتل بعضهم بعضا وأسر وإخراج بعضهم بعضا في معرض الذم والتنديد ، فلم يبق أي محل للارتياب في أن ظروفهم الاجتماعية المتقدمة على البعثة ـ فضلا عن الهجرة ـ هي العامل في عدم تكتلهم ، مما يسوغ الترجيح إن لم نقل الجزم بصحة ما قلناه من أنهم لم يخرجوا جميعهم في وقت واحد من نطاق الكلام إلى الغدر والعداء العملي ، ومن أن التنكيل إنما كان يقع في نطاق إزالة الضرر المتحقق من الفريق المبادر إلى الخروج من ذلك النطاق ، ولقد احتوت الآيات القرآنية في مختلف أدوار التنزيل المدني ـ وقد أوردنا منها جملة صالحة فيما سبق ـ حكاية مواقف متنوعة وكثيرة لليهود فيها تعجيز وتحد ومكابرة ومجادلة وسخرية ، بل دسائس ومؤامرات في صدد الجحود بالنبوة ، وتعطيل الدعوة ، وتشكيك المسلمين فيهما ، كما احتوت مساجلات متنوعة معهم في الجدل حينا ، والتنديد حينا ، والإفحام حينا ، والوعظ والتذكير والإنذار والتبشير حينا ، والدعوة إلى تخفيف الغلواء والانسجام والتوبة حينا ؛ وبكلمة أخرى : لقد اتسع صدر النبي صلى الله عليه وسلم لهم سعة كبيرة ، وتمتعوا بحريتهم في التمسك بدينهم ، ومباشرة شؤونهم الاقتصادية ، والاستمرار في محالفتهم واتصالاتهم الاجتماعية والسياسية والشخصية ، دون انتقال من طور المساجلة إلى طور التنكيل ، ولم ينتقل إلى هذا الطور مع أي فريق منهم إلا بعد أن يطفح الكيل من دسائسه ومكائده وأذاه ، وبعد أن يكون قد انتقل هذا الفريق إلى موقف النكث بالعهد والأذى والغدر والتآمر والإضرار بكيان المسلمين ، مما تلهم أو تدل عليه الآيات والفصول العدة التي مرت ، والتي سترد بعد عند الكلام على كل واقعة من وقائع التنكيل أيضا .

ونقول من قبيل المساجلة إنه لم يكن في وقت نزول القرآن وتدوين الروايات قضية من نوع ما يثيره المغرضون من المستشرقين حتى يصح أن يقال إن الدلائل والمبررات التي انطوت فيهما قد اخترعت اختراعاً للدفاع عما فعله النبي والمسلمون في اليهود وهذا وحده كاف لإسكات كل أفاك مغرض وأخذ ما ورد على حقيقته وصدقه . هذا فضلا عن أن جبلة

اليهود وأخلاقهم تجاه الأمم الأخرى المشهورة منذ تاريخ خروجهم من مصر إلى اليوم في غنى عن اختراع المبررات للتنكيل بهم في كل ظرف ومكان .

وإليك الآن تفصيل الوقائع .

الصورة الثانية

أولا : إجلاء بني قينقاع [1] :

ليس في القرآن ذكر صريح لهؤلاء ولا لواقعة إجلائهم ، وكل ما هنالك إشارات فسرتها الروايات ؛ ولقد ذكرت الروايات التي ليس بينها خلاف جوهري ؛ أن هذه الواقعة كانت أولى وقائع التنكيل باليهود ، وأنها كانت بين واقعتي بدر وأحد . ومما ذكره ابن هشام أن يهود بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا مابينهم وبين رسول الله ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد ؛ وأن بدء واقعتهم كان أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته في سوقهم ، وجلست إلى صائغ منهم ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده بظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا منها ، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين فقتل الصائغ ، فشد اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهله المسلمين ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع ،وانتهى الأمر إلى أن حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه ، ومما جاء في طبقات ابن سعد أن النبي أجلاهم عن المدينة إلى أذرعات ،وسمح لهم بأخذ أموالهم وأثقالهم وسلاحهم الخفيف ؛ ومما ورد في ابن سعد وابن هشام معا أن النبي صلى الله عليه وسلم استشعر من بني قينقاع الغيظ مما كان من نصر المسلمين في بدر ، ولعلهم أخذوا يكشفون عن غيظهم ويغمزون المسلمين ، فجمعهم وحذرهم ، فكان جوابهم وقحا ، إذ قالوا له : لا يغرنك ما نلت ،

---

(١) روايات السيرة تذكر أن أولى وقائع التنكيل باليهود كانت قتل يهودي اسمه أبو عفك كان شاعراً يهجو النبي ويحرض قومه عليه فنذر سالم بن عمير من الأنصار أن يقتله أو يموت دونه وتربص به حتى واتته فرصة فدخل عليه وهو في بيته وقتله . (ابن سعد ج ٣ ص ٦٧) .

فإنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ؛ وإنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ، وأن آيات آل عمران هذه :

« قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ... » ١٢ - ١٣

إنما نزلت فيهم . وظروف نزول الآيات تجعل هذا سائغا ، لأنها نزلت بعد وقعة بدر ، واحتوت إشارة إليها على سبيل الإنذار ، ولا سبيل للتوهم بأن ذلك كان لكفار مكة الذين كانوا في حالة حرب مع المسلمين ؛ والتحذير إنما يكون لأناس ما يزال بينهم وبين النبي والمسلمين صلات سلم .

وإذا كان ثمة شيء يلاحظ على ما قاله ابن سعد وابن هشام في صدد نزول الآيتين ، فهو أنهما أبعد مدى مما قالاه ، وإنهما لتلهمان أنه قد بدا من اليهود ما يصح أن يعد نقضا أو تحرشا بحرب وقتال ، فأمر النبي فيهما بإنذارهم ، ودعوتهم إلى الاعتبار بما حل بكفار مكة في بدر ، وهم أكثر عدداً من المسلمين . وعلى هذا فإنه يصح أن يضاف إلى ما ذكره المؤلفان أن تكون حادثة المرأة أو حادثة مماثلة لها قد وقعت ، وأن الإنذار وجه إليهم بعدها فلم يعبأوا فكان الحصار والجلاء .

ولقد احتوت آية من آيات البقرة إشارة صريحة إلى نبذ فريق من اليهود العهد كما ترى فيها :

« أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . . . » ١٠٠

وهذه الآية من السلسلة الطويلة في حق اليهود التي نقلناها في المبحث الأول ، وهي

مما نزل مبكراً كما قلنا قبل ، فيسوغ القول إن الإشارة التي تضمنتها هي إلى أول نقض بدا من فريق من اليهود ، وهو على الأرجح نقض بني قينقاع الذين كانوا أول من وقع عليهم التنكيل بسببه .

وفي سورة الأنفال آيات فيها إشارة أخرى إلى نقض يهودي ، وهي هذه :

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ... »(١) ٥٥ ـ ٥٨

وسورة الأنفال نزلت عقب وقعة بدر ، ولقد روى المفسرون أن الآيات نزلت في بني قريظة ، مع أن التنكيل بهؤلاء قد كان من أواخر الفصول التنكيلية ، ونزل به قرآن خاص في سورة الأحزاب ؛ والمتسق مع ظروف وتاريخ واقعة بني قينقاع التي لا يختلف في أنها الأولى ، وفي وقوعها بعد بدر وقبل أحد ، أن تكون نزلت فيهم . ولقد جاء في طبقات ابن سعد أنه لما كانت وقعة بدر ، أظهر بنو قينقاع البغي والحسد ونبذوا العهد ، وكانوا أشجع اليهود ؛ فأنزل الله « وإمّا تخافن من قوم خيانة ... إلى آخر الآية » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أخاف بني قينقاع ، فسار إليهم بهذه الآية . والآية إنما نزلت مع ما سبقها ولحقها من آيات ، فيكون سير النبي إليهم بسبب نقضهم العهد المرة بعد المرة ، وتكون الرواية متسقة مع ظروف واقعتهم ، ومؤيدة لرجحان أن الآيات فيهم ، مع التنبيه إلى أن الآية أبعد مدى من الرواية أيضاً في ذكرها نقض اليهود العهد مرة بعد مرة .

ونلفت النظر إلى ما ينطوي في الآيات التي نقلناها والروايات التي استأنسنا بها والتي

(١) أعلنهم أنك تقف منهم نفس الموقف الذي وقفوه ، وهو حل العهد القائم ، وفي الآية مغزى رائع ، وهو تلقين عدم المبادرة إلى القتال بدون إعلان مادام هناك عهد قائم .

تتسق إجمالا مع الآيات ، مع ما في الآيات من بعد مدى وقوة أكثر من معنى كون التنكيل الذي وقع على بني قينقاع ، بل الحروب النبوية كلها إنما كانت ردا على عدوان أو غدر أو خيانة ، ودفاعاً عن الكيان ؛ ومما لا يصح أن يماري فيه أحد مهما كانت نحلته أن النبي قد اتبع بدقة لا مزيد عليها ما تضمنته هذه الآيات وغيرها من تعليم في هـذا الصدد .

ولقد جاء بعد آيات الأنفال هذه الآيات التالية :

« وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . . . »
٦٠ ـ ٦٣

وقد تضمنت حثا المسلمين على الاستعداد بجميع الوسائل لإرهاب عدوهم حتى يكفوا شره ؛ كما تضمنت تعليما بالجنوح إلى السلم إذا ما جنح الخصم إليها ؛ وهذا متصل ومؤيد لما قررناه ، وداحض للأقوال والمزاعم المغرضة كما هو واضح .

كذلك نلفت النظر إلى الإنذار الذي احتوته آيات آل عمران ١٢ ـ ١٣ إذ ينطوي فيه كما تلهم صيغة الآيات معنى التنبيه والنصح حتى للذين بادءوا بالشر والنقض ، كما يعني هـذا الرغبة في تفادي القتال والتنكيل بقدر ما يمكن . وآيات الأنفال ٥٧ ـ ٥٨ جديرة بالتفات النظر أيضا ، إذ انطوى في الأولى معنى التنبيه والعظة لليهود الآخرين والأمل في أن يكون التنكيل بمن نكل بهم رادعا لهم ، وفي هـذا

ينطوي رغبة تفادي القتال والتنكيل بقدر ما يمكن ؛ وانطوى في الثانية مغزى رائع جليل وهو تلقين عدم المبادرة إلى قتال من يبيتون الغدر والخيانة بدون إعلان ما دام هناك عهد قائم ، ووجوب إنذارهم بالوقوف منهم نفس الموقف الذي يقفونه وهو حل العهد القائم . وهذا وذاك متصلان بما قررناه ومؤيدان له بما لا يدع محلا للمماراة كما هو واضح أيضا[1] .

وفي مناسبة الآية (٨١) التي تأمر بالجنوح إلى السلم إذا ما جنح إليهـا العدو وقوة احتمال كون الآية في صدد اليهود نرى أن نستدرك أمراً هاماً . وهو أن الآية في صدد اليهود الذين كانوا في المدينة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من الناحية الموضوعية وأنها من الناحية المبدئية يمكن أن تنطبق على العدو الذي يكون له دار أو دولة خاصة به منذ الأصل ويظهر الرغبة في السلم والمسالمة . أما اليهود في فلسطين اليوم فهم أعداء معتدون على دار المسلمين والعرب . ومغتصبون لما احتلوه من هذه الدار اغتصاباً باغياً بعد أن حاربوهم فيها أشد حرب وأذوهم أشد أذى وطردوهم من مدنهم وقراهم . واستولوا على بيوتهم ومخازنهم ومصانعهم ومزارعهم وبساتينهم وكرومهم وثرواتهم المنقولة وغير المنقولة . وهتكوا حرماتهم . ودنسوا مقدساتهم . وأزالوا معالم الإسلام والعروبة في وطنهم . فلا يصح عليهم معنى الجنوح إلى السلم إذا أعلنوا أنهم يريدون الصلح مع العرب والمسلمين ليحتفظوا بما اغتصبوه من ديارهم وأموالهم وبالدولة الباغية التي أقاموها فيها . ولا يجوز للمسلمين والعرب إجابتهم إلى ذلك حتى لو تركوا بعض ما اغتصبوه وقبلوا بالقسم الذي قررته لهم هيئة الأمم . لأنه دار المسلمين والعرب . وليس لهذه الهيئة أن تمنحهم جزءا مهما كان صغيراً من هذه الدار . وعلى المسلمين والعرب واجب مقاتلتهم وتضييق الخناق والحصار عليهم بكل وسيلة وطريقة ووقت وبدون هوادة ولا كلل إلى

---

(١) انظر تفصيل وقعة جلاء بني قينقاع في ابن سعد ج ٣ ص ٦٧ — ٦٨ وابن هشام ج ٢ ص ٤٢٦ — ٤٢٩ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٧٢ .

أن يخرجوهم من دارهم ويطهروا كل بقعة منها من رجسهم . وتعود هذه الدار إلى السلطان العربي الإسلامي كما كانت .

الصورة الثالثة

وثانياً : إجلاء بني النضير(١) :

وهذه الواقعة كذلك ليس لها ذكر صريح في القرآن ؛ إلا أن فيه بياناً أوفى عنها اتفق جمهور المفسرين والرواة على أنهم هم المقصودون به . أما البيان فهو في سورة الحشر التي كان ابن عباس عليه السلام يسميها سورة بني النضير على ما ورد في كتب التفسير وفي كتاب تفسير منسوب إليه ؛ وهذه آيات السورة في صدد هذه الواقعة :

١ ـ « هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ . وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ . وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ

---

(١) ذكرت روايات السيرة خبر قتل شاعر يهودي فاجر اسمه كعب بن الأشرف بين واقعتي بني قينقاع وبني النضير . فقد نظم هذا الشاعر قصائد في هجو النبي والمسلمين وذهب إلى مكة فرثى قتلى بدر وحرض قريشاً فقال النبي من لي بابن الأشرف فقد آذاني فانتدب له محمد بن مسلمة في نفر من الأوس حتى تمكنوا من قتله (ابن سعد ج ٣ ص ٧٠ ـ ٧٢) .

ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَـٰكُمْ عَنْـهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . . . »

٢ – ٧

٢ – أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْـلِ ٱلْـكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَـكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيـكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّـكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَـكَـٰذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ . لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ . لَا يُقَـٰتِلُونَـكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ . كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . فَـكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّـٰلِمِينَ ...

١١ – ١٧

والمجموعة الأولى جاءت في صدد تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم ونصره رسوله في هذه الواقعة دون اشتراك عملي وحربي منهم ، وجعل هـذا مبرراً لتشريع أيلولة ما عاد منها من الغنائم فيئا لرسـول الله يقسمه على المصارف المذكورة دون الأغنياء ، لا على أساس قسمة غنائم الحرب التي يشترك فيها المسلمون أغنياء وفقراء ، والتي يوزع عليهم منها الأخماس الأربعة وينال كل فرد منها نصيبا متساويا . ومع ذلك ففيها بعض الصور عن الواقعة ، إذ يستفاد منها :

١ – إنه كان لبني النضير حصون قوية لم يكن المسلمون يأملون التغلب عليها ، كما كان اليهود يحسبون أنها مانعتهم .

٢ – إن اليهود قد وقع في قلوبهم خوف شديد ويأس بحيث استسلموا من جهة وخربوا بيوتهم بأيديهم من جهة أخرى .

٣ ـ إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أجلاهم ووضع يده على مزارعهم وأملاكهم .

٤ ـ إنه لم يقع اشتباك حربي بينهم وبين المسلمين ؛ وهـذا يعني أن الحصار وحده كان كافيا للنصر الذي تم .

٥ — إنه كان منهم مواقف كيد ومشاقة مزعجة ، وإنها هي السبب في التنكيل بهم .

٦ — إن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقطع بعض نخيلهم ، فبررت إحدى الآيات العمل ، وقررت أنه بإلهام رباني لإرغام العدو الفاسق وخزيه ، مما يلهم أنه جرى ـ قيل وقال ـ حول تقطيع النخل .

أما المجموعة الثانية فقد تضمنت صورا لما كان من المنافقين في هذا الموقف ، إذ وعدوا اليهود بالتضامن معهم تضامناً وثيقا حتى أكدوا لهم أنهم سيحاربون معهم إذا حوربوا ، وسيخرجون معهم إذا غلبوا وأخرجوا ، ولـكنهم كذبوا بما وعدوا ، وقد وصفت الآيات مبلغ خوف اليهود أو المنافقين أو كليهما من المسلمين ، وعدم جرأتهم على مواجهتهم في الميدان ، وقررت أن كل أمرهم القتال من وراء الحصون والجدران ، كما قررت واقع حالتهم الداخلية والنفسية ، من عدم التضامن ، وشدة التنازع والتشاد فيما بينهم ، وتفرقهم شيعاً على رغم مايبدو من اتحادهم ؛ وشبهت المنافقين بالشيطان الذي يغوي المرء بالـكفر ثم لا يلبث أن يتبرأ منه بعده .

ويرجح أن الآية ١٥ تضمنت الإشارة إلى ما كان من التنكيل ببني قينقاع ، والتنديد ببني النضير الذين لم يعتبروا بهم حتى ذاقوا وبال أمرهم مثلهم .

والروايات الواردة في كتب السيرة والتفسير تـكمل هذه الصور ، إذ يستفاد منهـا أن الواقعة كانت بعد واقعة أحد وقبل واقعة الخندق ، وأن سببها المباشر هو أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب مع بعض أصحابه إلى محلة بني النضير يستعينهم على دية بعض القتلى فتآمروا على اغتياله ، وشعر هو بذلك فنجا بنفسه ، ثم أرسل إليهم في اليوم التالي إنذارا بالجلاء على أن يأخذوا أموالهم ويقيموا وكلاء على بساتينهم ومزارعهم ، وأن المنافقين أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض ، ويعدونهم بالنصر ، فتشجعوا وعصوا ، فحاصرهم

النبي صلى الله عليه وسلم وضيق عليهم الحصار ، وأمر بقطع بعض نخيلهم إرغاماً وإرهاباً ، ولم يف المنافقون بما وعدوا ، فاستولى عليهم الرعب واليأس ، ورضوا بالجلاء بشروط أشد من الأولى بسبب تمردهم ، وهي تسليم سلاحهم ، وتنازلهم عن بساتينهم وقراهم الزراعية ، وأخذ منقولاتهم فحسب ، وقد ذهب بعض زعمائهم إلى خيبر وجلا بعضهم إلى بلاد الشام .

والروايات منسجمة مع ما احتوته الآيات من صور . وإن كان ثمة شيء يزاد فهو المدى الواسع الذي ينطوي في الآية ٤ إذ يصح أن يقال إن محاولة بني النضير اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت سببا مباشرا ، وإنه كان منهم قبل ذلك مواقف مشاقة مؤذية ومزعجة كثيرة طفح بها الكيل وحق عليهم من أجلها التنكيل .

ولقد كان قبل هذا الحادث أن أمر النبي بقتل أحد شعرائهم وزعمائهم وطواغيتهم . كعب بن الأشرف ، لما كان منه هجو فاحش وكيد شديد للنبي والمسلمين كما جاء في كتب السيرة ، ولقد روي فيما روي أن كعبا ورهطا من بني النضير اتصوا بكفار قريش اتصال تآمر وتحالف وكيد ضد النبي والمسلمين على رغم ما كان بينهم وبين بني النضير من عهد وسلام . وهذا وذاك مما يتسق مع مدى الآية ، ويدعم ماقلناه من أن محاولة الاغتيال إنما كانت النقطة التي ملأت الكأس .

وهكذا يبدو أن هذا التنكيل أيضاً إنما كان ردًّا على غدر وخيانة ومشاقة تجاوز فيها اليهود نطاق الكلام إلى التآمر على المسلمين وكيانهم ، ثم على حياة النبي صلى الله عليه وسلم وهو في محلتهم (١) ..

الصورة الرابعة

وثالثاً : القضاء على بني قريظة :

واسم هؤلاء أيضاً لم يرد في القرآن بصراحة ، وإنما أشير إلى موقفهم والتنكيل بهم

(١) انظر تفصيل وقعة بني النضير في ابن سعد ج ٣ ص ٩٨ — ١٠٠ وابن هشام ج ٣ ص ١٩٩ — ٢١٣ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٢٣ — ٢٢٩ .

إشارة اتفق جمهور المفسرين والرواة على أنهم المقصودون بها وذلك في آيات الأحزاب هذه :

« وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ... » ٢٦ – ٢٧

وهاتان الآيتان هما من سلسلة احتوت بعض مشاهد وأحداث واقعة الخندق والأحزاب . وهي صريحة الدلالة بأن اليهود قد ظاهروا الكفار الغزاة جهرة على المسلمين، فاستحقوا التنكيل الشديد الذي نالهم .

ولقد نقلنا في مناسبة قريبة من هذا الفصل أيضاً آيات الأحزاب ١٠ – ١٢ التي احتوت وصفاً للحالة الخطيرة التي واجهها المسلمون من زحف جيش أحزاب الكفار الجرار على المدينة وإحداقه بها ، وما كان من جرأة المنافقين على المجاهرة بتكذيب وعد الله ورسوله بهذه الوسيلة ، وفيما يلي تتمة لهذه الآيات فيها تتمة لموقف المنافقين الجريء المثبط الذي يكاد ينم عن مؤامرة خفية محبوكة الأطراف بين اليهود وأحزاب الكفار والمنافقين للقضاء على الكيان الإسلامي قضاء ساحقاً كما ترى فيها :

« وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا . وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا . قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ

يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَـٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ...» ١٣ — ٢٠

مما يجعل التنكيل عملا لا معدى عنه ، على أن يكون متناسباً مع شدّة الخطورة التي أحدقت بالمسلمين ؛ و إذا لاحظنا أن مظاهرة اليهود للغزاة كانت نتيجة للحلف الذي وفد اليهود إلى مكة لعقده بقصد القضاء المبرم على النبي والمسلمين ، واغتناماً لفرصةماحل بهم من ضعف بعد وقعة أحد على ماذكرناه في المبحث السابق ـ بدا بعد مدى الموقف اليهودي وخطورته ، وشدة نكاية نيتهم المبيتة ، ووضح الحق في صحة تبرير التنكيل الواقع ، وسفه المغرضين في غمز النبي به لأنه جاء قاسياً لا هوادة فيه .

هذا ؛ وفي الروايات الواردة في كتب السيرة والتفسير مايكمل الصورة ويتسق مع مدى الآيات اتساقا غير يسير ، إذ يستفاد منها[1] :

(١) أن وفداً من زعماء اليهود ذهب إلى مكة بعد وقعة بني النضير فحرضوا زعماءها على غزو المدينة واستئصال شأفة النبي والمسلمين قبل أن يتفاقم أمرهم ، وأعلنوا تضامنهم معهم ، وأقسموا على ذلك عند أصنام المشركين في فناء الكعبة ، وهو ماتضمنت الإشارة إليه آية النساء ٥١ التي نقلناها قبل .

و (٢) أن الوفد ذهب كذلك إلى قبائل غطفان وقيس وغيلان وحرضها على مثل ذلك ، ومناهابخيرات المدينة ، وأعلن تضامن اليهود معها ، وأخبرها بما تم الاتفاق عليه مع زعماء مكة ، فأجابوهم كذلك وتحالفوا معهم .

---

(١) انظر تفصيل وقعة بني قريظة في ابن سعد ج ٣ ص ١٠٨ ـ ١٢١ وابن هشام ج ٣ ص ٢٣٥ ـ ٣١٢ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٤٥ ـ ٢٥٤ .

(٣) أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بلغه تغير نية بني قريظة وتبييتهم الغدر حال وصول جيش الأحزاب ، فأرسل زعيمي الأوس والخزرج إلى محلتهم ــ وكانت وراء بيوت عرب المدينة ــ لينظر : أحق مابلغهم عنهم ، وطلب منهما ألا يجهرا به إن كان حقا ، وأن يلحنا إليه لئلا يفتا في أعضاد الناس ، وأنهما أتياهم فوجداهم على أخبث مابلغهم ، ونالوا من رسول الله ، وقالوا من هو رسول الله ، وإنه لا عهد بيننا و بين محمد ولا عقد ، وأن سعد بن معاذ زعيم الأوس شاتمهم ــ وكان حليفهم ــ فشاتموه ، وأن سعد ابن عبادة زعيم الخزرج قال له : دع عنك مشاتمتهم فما بيننا و بينهم أربى من المشاتمة .

(٤) أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر مؤذنا فأذن في الناس في صبيحة اليوم الذي ارتد الأحزاب في ليله عن المدينة بناء على وحي من الله : أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة ! وأن النبي حاصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله الرعب في قلوبهم ، فنزلوا على حكم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وأن جماعة من الأوس تشفعوا فيهم عند النبي لأنهم حلفاؤهم وطلبوا الاكتفاء بإجلائهم كما فعل بمن سبقهم ، فجعل الحكم في أمرهم لزعيم الأوس سعد بن معاذ ، وأن هذا حكم بقتل الرجال وسبي النساء والأطفال وتقسيم الأموال ، قائلا لمن طلب الرفق بهم من جماعته : آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم ! فأمر النبي بتنفيذ الحكم .

ونحن ننبه إلى أن عبارة « ظاهروهم » تلهم أنه بدا من اليهود في أثناء حصار الأحزاب للمدينة أعمال مؤذية للمسلمين ، أو بالأحرى أعمال تمتّ إلى الحرب ، تضرر المسلمون منها وأثارت في نفوسهم السخط فوق ما أثاره موقف الغدر والخيانة فيهم من خوف وزاد من شدة الخطر على ما أشرنا إليه قبل قليل ؛ وليس من ريب في أن التنكيل الشديد يمتّ بسبب وثيق إلى هذه الظروف كلها ؛ لا سيما أن هذا قد كان منهم دون أن يعتبروا بما كان من إجلاء بني قينقاع وبني النضير أولا ، وبسعي وجد في إيقاد نار الحرب بغية القضاء المبرم على المسلمين ثانياً ؛ فلا غرو أن كان عقابهم أشد صرامة من عقاب من سبقهم ، لأن جريمتهم أشد أثراً ، وأبعد مدى .

أما عبارة « وأرضاً لم تطئوها » الواردة في الآية ٢٧ فقد قال المفسرون إنها أرض خيبر ، وإن الجملة بشرى سابقة لفتحها ، غير أن الذي تلهم روح الآية ومضمونها على مايتبادر لنا أنها أرض لبني قريظة بعيدة عن مساكنهم ، آلت إلى المسلمين دون حرب أو حصار ، ونتيجة للمصير الذي صار إليه أصحابها .

الصورة الخامسة

ورابعا : فتح خيبر والقرى اليهودية الأخرى :

وهذه الوقائع أيضاً لم تذكر في القرآن بصراحة ، بل لم يرد عنها بيان شاف وإنما أشير إليها إشارات خاطفة فسرتها الروايات ؛ فمن [1] هذه الإشارة آية في سورة الفتح وهي هذه :

« سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً ... » ١٥

إذ قال جمهور المفسرين والرواة إن هذه المغانم هي مغانم خيبر ؛ وقد ذكرت الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستصحب أحدا معه إلى خيبر ممن تخلف عن صحبته في رحلة زيارة الكعبة التي انتهت إلى صلح الحديبية ، بناء على هذه الآية التي نزلت قبيل الوقعة التي كانت بعد قليل من رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من الحديبية . وصيغة حكاية حال المتخلفين وأقوالهم تدل على أن النصر في رحلة خيبر مما لم يكن يتحمل ريبا ، كما أن الآية تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بيت القيام بهذه الرحلة عقب إبرام صلح

---

(١) تفصيل وقائع خيبر وما وراءها في ابن سعد ج ٣ ص ١٥١ — ١٦٣ وابن هشام ج ٣ ص ٣٧٨ — ٤١٢ وروايات السيرة تذكر خبر قتل أبي رافع بن أبي الحقيق النضري أحد زعماء اليهود في خيبر قبل غزوة خيبر لأنه كان يتآمر مع غطفان وغيرهم من مشركي العرب على غزو المدينة . فندب النبي له عبد الله بن عقيل مع نفر من المسلمين فذهبوا إليه وتمكنوا من قتله انظر ابن سعد ج ٣ ص ١٣٤ .

الحديبية ، وبشر المسلمين الذين معه بها ؛ ومن هذه الإشارات آيات أخرى في سورة الفتح أيضا ، وهي هذه :

« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا . وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا . . . » ١٨ — ٢١

وقد فسر جمهور المفسرين « الفتح القريب » بفتح خيبر والمغانم الكثيرة بمغانمها ؛ وهذا متسق مع ما قالوه أيضا في الآية السابقة ، كما أن الصيغة تؤكد ما استلهمناه منها ؛ وتعبير « وعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم » مقصود به على الأرجح ما تم في الحديبية من صلح ، وعدم وقوع قتال بين المسلمين وأهل مكة .

ولعله يتضمن إشارة إلى أن فتح خيبر قد تيسر أكثر بعد هذا الصلح .

ومع أن من المفسرين من فسر جملة « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها » بفتح مكة أو فتح الأقطار التي فتحها المسلمون بعد ، فإن صيغة الآية تلهم أنها في صدد وقائع حاضرة مؤكد تمامها ، وتسوغ الترجيح بأنها تعني ما تم فتحه بسهولة ويسر من قرى اليهود بعد فتح خيبر ، مثل وادي القرى وتيماء وفدك .

ويستفاد من الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم سار بالمسلمين إلى خيبر بعد صلح الحديبية بنحو شهرين ، وأنه كان في خيبر حصون كثيرة وقوية استغرق فتحها نحو شهر ونيف ، وأن اليهود قاوموا مقاومة عنيفة ، وكان بعض الجهد والمشقة على المسلمين في الرحلة ، وأنه لما تم الفتح صارت جميع المزارع والأموال إلى المسلمين غنيمة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أبقى من أراد من اليهود ليتولى رعاية البساتين مقابل نصف الغلة بعد تجريدهم

من السلاح ، وأجلى الخطرين منهم ، وأنه انصرف عن خيبر إلى وادي القرى ، وكان فيها كتلك حصون عدة ، وقاوم اليهود فيها بعض المقاومة ، غير أن أمرهم صار إلى ماصار إليه أمر أهل خيبر ، وقد دب الرعب في يهود فدك والجرباء وتيماء فأرسلوا رسلهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم يصالحونه على نصف أملاكهم ، ويعاهدونه على المسالمة والصداقة [1] .

وليس في القرآن إشارة إلى سبب مباشر أو غير مباشر لغزوة خيبر ، كما أنه لم يرد في الروايات ذكر صريح لمثل هذا السبب ؛ وهذا ما جعل بعض المستشرقين يقول إنها لم تكن إلا رغبة من النبي صلى الله عليه وسلم في مكافأة أهل الحديبية وتطييب نفوسهم ، وبرر قوله بما احتوته الآيات من بشرى المغانم لهم .

على أن الروايات ذكرت مبررات عديدة غير مباشرة . منها أن أبا رافع بن أبي الحقيق النضري أحد زعماء اليهود الذين استقروا في خيبر بعد جلاء بني النضير عن المدينة كان يتآمر مع غطفان ومن حولهم من المشركين ضد المسلمين مما جعل النبي صلى الله عليه وسلم ينتدب إليه من يقتله . ومنها أن حيياً بن أخطب النضري الذي تزعم يهود خيبر ووصف بأنه ملكهم كان على رأس الوفد اليهودي الذي ذهب إلى مكة وحرض قريشاً على غزو المدينة ثم ذهب إلى غطفان وغيرها وحرضها كذلك وكان زحف قريش وأحزابها على المدينة في السنة الخامسة الذي عرف بوقعة الخندق والأحزاب نتيجة لذلك . ومنها أن هذا الزعم هو الذي أغرى يهود بني قريظة بنقض عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين حينما زحفت قريش والأحزاب على المدينة حيث يبدو من ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما زحف على خيبر بناء على مبررات قوية متساوقة مع تلقينات القرآن التي لم تكن تسمح بالمبادرة إلى قتال إلا المقابلة أو الدفاع أو بسبب الغدر والخيانة والتي

---

(١) خبر وادي القرى وفدك وتيماء والجرباء في فتوح البلدان للبلاذري ص ٤١ ـ ٤٢ وابن سعد ج ٣ س ١٦١ وابن هشام ج ٣ ص ٣٩١ و ٤٠٨ .

لايمكن أن يماري أحد فيه إنصاف ومنطق سليم في أن النبي صلى الله عليه وسلم يقدم على مناقضتها .

ولقد كانت هذه المبررات قائمة قبل رحلة النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة بقصد الزيارة وهي الرحلة التي انتهت إلى صلح الحديبية بين النبي وقريش . فيكون القول إن الزحف على خيبر كان لمكافأة الذين رافقوه في هذه الرحلة في غير محله . وكل مايمكن أن يكون أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مبيتاً في نفسه فكرة الزحف وأنه أخبر بعض أصحابه به وأنه كان يؤجله إلى فرصة أكثر ملاءمة لأنه لم يكن يرى هناك خطراً عاجلاً . فلما أبرم الصلح مع قريش وأمن به الوقوع بين نارين رأى أن الفرصة المنشودة قد سنحت فقام بالغزوة لإتمام خضد شوكة اليهود في الحجاز ، وتصفية الموقف معهم ، وأمن جانبهم نهائيا ؛ ولقد تساهل في معاملة يهود هذه القرى كما جاء في الروايات التي استأنسنا بها ، وهذا يدل على أن الهدف الذي رمى إليه هو خضد شوكتهم ، وأمن جانبهم فحسب ؛ وواضح أن هذا يظل في نطاق الضرورة وإزالة الضرر كما قررناه في مطلع الفصل .

ولقد كان لليهود قرى أخرى أقرب إلى بلاد الشام منها إلى المدينة مثل أزرح ومتنا وبني جنبة وبني عريض وبني غاويا ، فلما سار النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في السنة التاسعة على ما سوف يرد في مبحث النصارى سارع زعماء هذه القرى إلى إعلان خضوعهم وولائهم للنبي صلى الله عليه وسلم وتعهدوا بالمسالمة والنصح وأداء الجزية فقبل منهم وعاهدهم .

ولقد ظل المزارعون اليهود في خيبر والقرى الأخرى كما ظل نفر من اليهود في المدينة إلى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأجلاهم عن الحجاز . وقد روى في صدد ذلك أنه قال إنا صالحنا أهل خيبر على أن نخرجهم متى أردنا وأنهم عدوا على ابنه عبد الله

وألقوه من فوق بيت وفدعوا يديه كما عدوا على أنصاري معه فكان ذلك سبباً مباشراً لإجلائهم . ولقد روت أم المؤمنين عائشة أنه كان من آخر وصايا النبي صلى الله عليه وسلم حين حضر أجله (لا يترك بجزيرة العرب دينان) فكان فيما فعله عمر رضي الله عنه تنفيذ لهذه الوصية الشريفة حال ما وقع المبرر(١)

---

(١) هذه الأخبار في كتاب فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٩ ـ ٤١ و ٦٧ و ٧٣ وابن سعد ج ٢ ص ٥٢ ـ ٥٦ وكتاب الخراج لأبي يوسف ٢٩ وكتاب الأموال للامام أبي عبيد ٩٩ وابن هشام ج ٤ ص ٣٤٥ .

المبحث الخامس

الاستثناءات القرآنية بشأن المؤمنين والمعتدلين من اليهود

مدى الاستثناءات القرآنية ودلالتها ـ قلة مستثناة بسبب التزامها وصايا الله وميثاقه ـ حملة القرآن على الأكثر والكثير ودلالتها ـ صور من سورتي البقرة والمائدة لإخلاص فريق من اليهود وعملهم الصالح بصورة عامة ـ صور من سورتي آل عمران والنساء لإيمان فريق منهم بنبوة النبي والتنزيل القرآني وإخلاصهم ـ دلالات هذه الصور ـ العبرة البالغة في تسجيل القرآن للمحسن إحسانه .

إلى جانب ماأوردناه من آيات تتعلق بمواقف اليهود وجحودهم ودسائسهم ومؤامراتهم وعدائهم والتنكيل بهم ، والتي تلهم أنها شاملة لأكثريتهم الساحقة في الحجاز وخاصة في المدينة ، نجد آيات أو فقرات من آيات تضمنت استثناء لبعضهم من تلك المواقف ، وتنويهاً بسلامة مواقفهم واعتدالهم واقتصادهم ، ومنها ماتضمن إشارة إلى إيمانهم وإخلاصهم ؛ مما يدل من جهة على أن فئة من اليهود ـ وفيها فريق من العلماء ـ قد استطاعوا أن يفلتوا من المؤثرات المتنوعة العنصرية والإقتصادية والنفسية والأنانية التي خضع لها اليهود ، فلم يسعهم إلا أن يروا أعلام النبوة واضحة جلية ، فصدقوا وآمنوا بالنبي والتنزيل القرآني ، ولم يشتروا الضلال بالهدى ويبيعوا دينهم وعلمهم بالعرض الدنيوي البخس ، دون مبالاة بما عليه قومهم ، وبما يمكن أن يلقوه منهم من جفاء وسخط ، واضطهاد وتكذيب ؛ وعلى أن فئة أخرى لم تندفع ولم تتورط في العداء والكيد ؛ ومن جهة أخرى على أن الدعوة النبوية قد قوبلت باستجابة حرة لاإكراه فيها من بعض اليهود في العهد المدني ، بل بحسن إقبال قد يؤدي إلى أذى المقبلين كما كان في العهد المكي مما شرحناه في مبحث سابق ؛ وعلى أن مواقف الكيد والدس والجحود والتآمر إنما كانت لأسباب لاتمت إلى الحق والإنصاف

بل إلى هوى الأحبار والربانيين والزعماء ، وأغراضهم ، وتأثرهم بالمؤثرات الدنيوية ، والجبلة الخلقية ، وتأثيرهم في العامة ، وسوقهم وراءهم في الطريق التي ساروا فيها كما كان شأن أكثر أهل مكة زعماء وعامة أيضا ؛ وهذا وذاك يدعم ماقلناه غير مرة من أنه لم تكن هناك أي فكرة مضادة لليهود منذ البدء كعنصر ولليهودية كدين ، وأن كل ماهناك هو دعوة الناس جميعا إلى الله وإلى مكارم الأخلاق ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، من دون ما إكراه ولا سيطرة ؛ مما اتسق القرآن المكي والقرآن المدني فيه ، وقد أوردنا في المباحث السابقة آيات عدة مكية ومدنية فيها التأييد الوافي لذلك ؛ وإليك الآن الآيات الاستثنائية الواردة :

الصورة الأولى

١ ـ في سورة البقرة الآية التالية :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ . . . »

٨٣

ومع أن الكلام قد ربط الآباء بالأبناء فإن الفقرة الاستثنائية جاءت بضمير المخاطب القريب ولا تتضمن دلالة على أن الفريق المستثنى قد آمن بالنبي ؛ غير أنها تتضمن على أي حال دلالة على أنه كان في عهد النبي فريق قليل منهم يتقي الله ويخلص لوصاياه ويقف عند حدودها ، وبالتالي لاينحرف عن الحق ولا ينساق مع الهوى .

٢ ـ ومن هذا الباب الآيات التالية في سورة المائدة :

١ ـ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا

وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ . . .		٥٩

٢ — وَتَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . . .		٦٢

٣ — وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ . . .

٦٦

٤ — تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ . . .		٨٠

وقد جاءت هذه الآيات في سياق يدل على أنها في حق اليهود[١] ، وعبارات « أكثركم » و « كثيراً منهم » و « كثير منهم » تدل ـ على الأقل ـ على أن هناك فريقاً قليلاً لم يتورط فيما تورطت فيه الكثرة من الدس والكيد وعمل السوء والفساد . وهذا المعنى بارز بروزاً أكثر في جملة « منهم أمة مقتصدة » ، كما هو ظاهر .

٣ ـ وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ . . . »		١١٣ ـ ١١٥

وقد جاءت الآيات عقب آيات تضمنت حملة على اليهود ، لأنها ذكرت أوصافهم[٢] ؛ ولذلك نرجح أن الاستثناء لفريق منهم ، وروح الآيات تلهم أنهم ممن آمنوا

---

(١) اقرأ آيات المائدة ٦٠ ـ ٦٦ و ٧٨ .		(٢) اقرأ الآيات ١١٠ ـ ١١١

بالنبوة المحمدية ، كما أن أقوال المفسرين والرواة تؤيد ذلك ؛ وعلى كل حال فإن التنويه القوي الذي تضمنته ، والوصف الرائع الذي وصفتهم به ، يسوغ القول أنهم كانوا على درجة عالية من الإخلاص لله ، والاستغراق في عبادته ، والسير في طريق الخير والعمل الصالح ، وبالتالي وقفوا من مواقف قومهم الجحودية والمؤذية موقف المنقبض ، بل المنكر ، وحاولوا جهدهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير والإصلاح .

٤ – وفي السورة نفسها أيضا الآية التالية :

« وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ...» ١٩٩

والآية قد جاءت بعد فصل سابق تناول اليهود بحملة شديدة [1] مما يجعل من المحتمل كثيرا أن يكون موضوع الآية فريقا من اليهود ؛ وهي صريحة الدلالة على إيمانه بالنبوة المحمدية والتنزيل القرآني ؛ ويستلهم من روحها ومما سبقها في السياق أنها بسبيل طمأنة المسلمين : فإذا كان أكثر اليهود قد وقف موقف الجحود والتعجيز والأذى والتآمر ، وكتمان العلم ، فإن هذا منهم منبعث عن الهوى والنية الخبيثة ، لأن من حسنت نيته منهم قد آمن بالحق ، وتمسك به ، ولم يبع دينه وعلمه بالثمن البخس .

٥ – ومن هذا الباب آية جاءت في سورة النساء وهي هذه :

« لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ...» ١٦٢

---

(١) اقرأ الآيات ١٨١ – ١٨٨ .

وقد جاءت الآية عقب حملة شديدةوصريحة على اليهود ؛ ولذلك فإن الاستثناء الذي احتوته هو لفريق منهم حتما .ويلفت النظر إلى وصفها إياهم بالراسخين في العلم ، وصراحتها بأنهم آمنوا بالنبوة المحمدية والتنزيل القرآني . ولما كانت آيات عدة حملت على الأحبار والربانيين وأولى العلم من اليهود لكتمهم الحق وتدليسهم بالتوراة وحلف الأيمان ، وإلباسهم الحق بالباطل ، وبيعهم دينهم وعلمهم وعهدهم بأعراض الدنيا ، فإن في الآية دليلا واضحا على أن فريقامن علماء اليهود قد أبى عليه علمه ودينه أن يندمج فيما تورط به سائرهم فينكر أعلام النبوة ، ويكابر في صدق الدعوة النبوية والتنزيل القرآني ، فآمن بهما ، ولم يعبأ بموقف قومه وزملائه .

هذا ؛ ومن الحق أن ننبه في ختام المبحث على ما في هذه الاستثناءات القرآنية من عبرة بالغة ، ومثل رائع لتسجيل الحسنة لصاحبها ، والتنويه بالمحسن لإحسانه ، وذكر الفضل لذويه ، مما يظل مصدر تلقين قرآني جليل الشأن ويدحض حجة المغرضين .

فصل
في النصارى في العهد المدني

تمهيد

في السور المدنية آيات كثيرة في النصارى وعقائدهم ، وما كان بينهم من خلاف ونزاع ، وفي عيسى عليه السلام وأمه والحواريين ؛ وقد جاء بعضها بأسلوب محبب وثناء جميل ، وفي بعضها تحذير وتنبيه وتنديد ، وفي بعضها جدل ومناظرة ، وحكاية صدّ وكيد ، وفي بعضها شيء من العنف وأمر بالقتال ، واستنفار إليه ، ومشاهد رحلة بسبيله .

ومعنى هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد لقي في العهد المدني نصارى ودعاهم واحتك بهم ، وأن بعضهم أظهر روحاً طيبة وتلقى الدعوة بالإقبال ، وأن بعضهم تردد أو نأى أو جادل وكابر ، وأن بعضهم قد صدر منه ما تجاوز حد الجدل والمكابرة إلى البغي والعدوان .

والآيات في النصارى وعقائدهم ومواقفهم في القرآن المدني أكثر وأصرح منها في القرآن المكي ؛ بل إن هذا القرآن ـ إذا استثنينا آيات سورة مريم والزخرف التي هي تقويرية والتي كانت الإشارة فيها إلى انحراف النصارى في عقيدة المسيح والتنديد به بأسلوب عام وغير عنيف ـ لم يذكر أهل الكتاب المعاصرين بصورة عامة ، ومنهم النصارى ، إلا بالخير ، على ما ذكرناه في فصل أهل الكتاب في العهد المكي .

وهذا الفرق يلهم أن دائرة الاتصال بين النبي صلى الله عليه وسلم والنصارى في العهد المدني كانت أوسع منها في ذلك العهد ، كما يلهم أن المؤثرات التي كان يخضع لها النصارى الذين لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم واحتك بهم أكثر تنوعاً ، وأن الذين لقيهم في العهد المكي كانوا أكثر تجرداً عن الهوى والرغبات المادية ، وأكثر استعداداً بالتبعية للاستجابة إلى الدعوة والاندماج فيها .

وليس في القرآن ما يمكن أن يستند إليه في بيان كيفية وظروف ذلك الاتصال والاحتكاك . وهناك بيت من الشعر مروي من مرثية لحسان بن ثابت رضي الله عنه رثى بها النبي صلى الله عليه وسلم وهو :

فرحت نصارى يثرب ويهودها　　لما توارى في الضريح الملحد [1]

حيث يفيد هذا إن صح أنه كان في المدينة فريق من النصارى ظل على دينه إلى ما بعد وفاة النبي « ﷺ » . وهناك رواية تذكر أنه كان في المدينة جالية من النصارى تسكن في مكان يقال له سوق النبط [2] .

أما بالنسبة لمن هم من غير المدينة فقد ذكرت الروايات خبر وفود بعض النصارى إلى المدينة من اليمن والحبشة . ومنهم من جادل وتمسك بنصرانيته ومنهم من أذعن وصدق بالقرآن وبالنبي ما يمكن أن يكون نتيجة لانتشار صيت النبي « ﷺ » وأخباره في العهد المدني أكثر منه في العهد المكي ، كما ذكرت خبر إرسال النبي صلى الله عليه وسلم كتباً ورسلاً إلى بعض الملوك والأمراء النصارى وخبر اتصالات كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وسكان مشارف الشام الذين كان أكثرهم أو كثير منهم من نصارى العرب الحضر منهم والبدو وأخبار سرايا جهادية إليهم وأخبار إسلام بعض زعمائهم وقبائلهم . وفي سورة التوبة فصل طويل في ظروف غزوة تبوك التي سميت في القرآن بيوم العسرة والتي كانت ضد أولئك السكان بسبب ما بدا منهم من عدوان ، وفي هذا مصداق التنوع الذي ذكرناه آنفاً .

وسنعرض صور النصارى في هذا العهد على حسب ما يلهم تصنيف الآيات فيهم كما يلي :

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ج ٦ ص ٢٠٨ .

(٢) عزواً إلى ديوان حسان الذي نشره هرشفلد . وننبه على أن ابن هشام أورد مرثية حسان بروي البيت وقافيته وليس فيها هذا البيت .

١ ـ مدى ما ورد في القرآن عن حالتهم والتنديد بهم .

٢ ـ مواقفهم من الدعوة النبوية .

٣ ـ مواقفهم الحجاجية .

٤ ـ الصدام بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

وسيكون كل موضوع من هـذه المواضيع في مبحث خاص كما فعلنا في الفصول السابقة .

المبحث الأول

حالة النصارى في العهد النبوى
والتنديد بهم في القرآن

مدى الآيات الواردة وملهماتها بصورة عامة ـ صورة من سورة البقرة عن نزاعهم وخلافاتهم ـ صورة أخرى من سورة من المائدة ـ إنذارهم في سورة المائدة بوجوب تطبيق أحكامهم على التوراة ودلالته ـ صورة من سورة الحديد عن صفاتهم بصورة عامة مع استدراك انحراف كثير منهم ـ مدى دعوة المسلمين في سورة الصف بالتأسي في الحواريين . التنديد بعقيدتهم في بنوة المسيح في سورة المائدة ومداه . التنديد بعقيدتهم في سورة التوبة ومداه .

الصّورة الأولى

إن الآيات الواردة في حالتهم مطلقة من جهة ، وتمزج بين حاضرهم وماضيهم من جهة أخرى ، وفيها بعض الصور الأخلاقية كما فيها إشارة إلى ما قام بينهم من خلاف ونزاع ؛ أما الآيات التنديدية فهي مصبوبة في الدرجة الأولى على عقيدتهم في المسيح وأمه، ومذكرة لما كان من دعوة المسيح الصادقة إلى الله وانحرافهم عنها ،وهي تمزج كذلك بين حاضرهم وماضيهم .

وننبه إلى أمر مهم في هذا الصدد ؛ وهو أن الآيات الواردة في حالة النصارى والتنديد بهم مع ما في بعضها من عنف فإنه لا يمكن أن تنعقد أية نسبة بينها وبين ما جاء في حق اليهود ؛ هذا إلى أن هناك آيات تحتوي ثناء محببا عليهم وعلى أخلاقهم ومواقفهم .تلهم صيغتها أن ما احتوته هو الحالة العامة التي كانوا عليها ، في حين أن عكس هذا ينطبق على اليهود ؛ أي أن الآيات التي تضمنت حملات شديدة عليهم ، ووصفت سوء أخلاقهم ومواقفهم وصفا قارعا ، تمثل الحالة العامة التي كانوا عليها ، وكل ما في الأمر أن القرآن استثنى فريقا قليلا من ذلك .

والمبحث يتنـاول موضوعين يتميز بعضهمـا عن بعض تميزاً ما : الأول فيما ورد من الآيات عن حالتهم ، والثاني فيما ورد في التنـديد بهم ؛ وسنورد كلا منهمـا لحدته .

الصورة الثانية

فأولا ما ورد عن حالتهم ومداه :

١ ـ في سورة البقرة الآية التالية :

« تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ . . . »

٢٥٣

ففي هذه الآية وصف لواقع حال أهل الـكتاب من لدن رسالة عيسى عليه السلام خاصة ، وما آل إليه أمرهم من خلاف ونزاع ؛ وهذا الوصف يشمل اليهود والنصارى ؛ ومما لا يكاد يحتمل تردداً أنه وصف لحالة كل من الفريقين في عهد النبي صلى الله عليـه وسلم التي كان يشاهدها الناس ومنهم العرب غير الـكتابيين . ولقد كان يقع في ظروف البعثة النبوية وقبلها بقليل قتال ، وثورات بين النصارى والإسرائيليين في بلاد الشـام نتيجة لما كان من نزاع وعداء بينهم ، ولما كانت فيه البلاد من اضطراب سياسي ، إذ كان يتداول الحـكم فيها الروم والفرس فيتقوى النصارى بالأولين كما يتقوى الإسرائيليون بالآخرين ، وهلم جرا ؛ كما أنه كان كل من اليهود والنصارى مختلفين فيهـا بينهم ، ومنقسمين فرقاً ومذاهب ، وقد كان يصل الأمر بين النصـارى خاصة قبيل البعثة النبوية وفي ظروفها إلى الثورات والاضطهادات الدامية ، مما ذكرته الآثار التاريخية المعتبرة

والمستندة إلى الوثائق القديمة [١] ؛ ومما لا ريب فيه أن هذه الحالة مما كان له أثر إيجابي في استعلاء الموقف النبوي والدعوة النبوية في الكتابيين وغير الكتابيين على السواء ، كما أن هذه الحالة تفسر بعض حكم الله في البعثة المحمدية التي استهدفت إنهاء النزاع والخلاف بين الكتابيين ، وحلّ مشاكلهم المذهبية والذهنية ، وجمعهم تحت راية القرآن مع غيرهم ؛ مما احتوته آيات عدة منها هذه الآيات :

« يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ . يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... » ١٥ ـ ١٦ المائدة

٢ ـ وفي سورة المائدة الآية التالية :

« وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ... » ١٤

وقد احتوت تقريراً مطلقاً عن انحراف النصارى عن بعض عهود الله ووصاياه ، فأدى بهم الانحراف إلى الشقاق والتنازع ، والعداء والبغضاء ؛ وروح الآية وظروف نزولها لا تدع مجالا للتردد في أن هذا التقرير يتضمن وصف حالتهم حينما كان ينزل القرآن . ولقد جاءت الآيات ١٥ ـ ١٦ التي أثبتناها آنفاً بعد هذه الآية مباشرة متضمنة إيذان أهل الكتاب ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بكتاب من الله يهدي إلى الحق وسبيل السلام ، ويخرج من اتبعه من الظلمات إلى النور ؛ فورود الآيتين المذكورتين عقب هذه الآية يؤيد أن التقرير الذي تضمنته يشمل حالة النصارى حينما ينزل القرآن من جهة ، ويؤكد

---

(١) اقرأ كتاب تاريخ التبشير الإسلامي لأرنولد توماس والمجلدين ٣ و ٤ من تاريخ سورية للدبس وتاريخ فتح العرب لمصر لبتلر مثلا .

ما قلناه قبل قليل من حكمة ربانية في البعثة المحمدية ؛ إذ استهدفت دعوة النصارى واليهود إلى الانضواء إلى الحق والنور اللذين جاء بهما النبي ، والخلاص مما هم فيه من خلاف وانحراف .

٣ ـ وفي سورة المائدة أيضا الآيات التالية :

« وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ . وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ... » ٤٦ ـ ٤٧

ولقد جاءت الآيات استطراداً في سلسلة تضمنت خبر موقف لليهود في التقاضي عند النبي صلى الله عليه وسلم ، ومع أنها تنطوي على تقرير عام فإن الأخيرة خاصة تلهم أنها احتوت إنذارا ربانيا للنصارى المعاصرين بالسير وفق الإنجيل في أحكامهم ، وتلميحاً إلى أن بعضهم لايفعل ذلك ، ثم إن الآيتين معاً تحتويان تقريراً تشريعيا لما يجب على المسلمين أن يحترموه إزاء النصارى ، وهو إقرارهم في القضاء على أحكام الإنجيل دون حرج ، على شرط ألّا ينحرفوا عنها ؛ وهذا التقرير مطلق بحيث يشمل النصارى الذين كانوا يعاصرون النبي صلى الله عليه وسلم أيضا بطبيعة الحال .

٤ ـ وفي سورة الحديد الآية التالية :

« ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ... » ٢٧

وقد تضمنت تنويها محببا وشاملا بما جعله الله في قلوب أتباع عيسى عليه السلام من رأفة ورحمة ، وبما كان منهم من جنوح إلى الرهبانية ابتغاء رضوان الله أقرهم الله

عليها ، كما تضمنت استدراكا لذلك التنويه العام وهو عدم رعايتهم لأحكام الرهبانية حق الرعاية ، وانحراف كثير منهم عن جادة الحق والهدى ؛ ومع إطلاق الكلام في الآية فإن روحها تلهم أن ما فيها من وصف كله أو بعضه يشمل حالة النصارى المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم .

٥ ـ وفي سورة الصف الآية التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ ... » ١٤

والآية بسبيل دعوة المسلمين إلى الاقتداء بالحواريين في تأييدهم عيسى ونصرهم له ، وقد احتوى مطلع السورة حملة على بعض المسلمين لأنهم يقولون ما لا يفعلون في صدد الجهاد في سبيل الله ونصر نبيه ؛ وبذلك اتسقت المناسبة بين هذه الآية وذلك المطلع ؛ على أن هذه الدعوة من جهة ما ، والقصة التي سيقت بسبيلها ، تنطويان على ثناء الله على الحواريين ، وإيجاب احترام ذكراهم ومواقفهم على المسلمين أيضا . وفي هذا تدعيم للمودة وحسن الصلات بين المسلمين والنصارى في عهد النبي على ما نبهنا إليه في مناسبة قريبة .

وهذا المعنى مندمج في آيات من سلسلة طويلة في آل عمران ذكر فيها الحواريون كما ترى .

« فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ... » ٥٢ ـ ٥٣

وهو مندمج كذلك في آية أخرى في سورة المائدة كما ترى :

« وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ... » ١١١

الصورة الثالثة

وثانيا : مما ورد في التنديد بهم ومداه :

١ ـ في سورة المائدة هذه الآيات :

« لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ... » ١٧

والآية تحتوي تقريراً تنديديا ومطلقا بكفر القائلين بألوهية المسيح ، وطبيعي أن هذا التقرير التنديدي يشمل النصارى المعاصرين للنبي والقائلين بهذه الألوهية ؛ ولقد جاءت هذه الآية عقب الآيات ١٥ ـ ١٦ التي نقلناها قبل قليل ، والتي وجهت إلى أهل الكتاب تهيب بهم إلى اتباع الحق والنور والكتاب المبين الذي جاء به النبي ؛ وهكذا تكون هذه الآية متصلة بهاتين الآيتين ؛ وكأنما تقول للنصارى ـ والنصارى المعاصرون للنبي هم المخاطبون الأولون بطبيعة الحال ـ إن القائلين بألوهية المسيح قد كفروا بالله وإن عليهم أن يرعووا وينضووا إلى ما جاء به النبي من الهدى والنور وما قرره القرآن المنزل عليه من الحق .

٢ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية .

« لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ

ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . . »

٧٢ — ٧٦

والتنديد في هذه الآيات أقوى ، كما أن شموله للنصارى المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم أصرح ، كما هو واضح من صيغتها ومضمونها ؛ والآية الأخيرة تلهم أنها نزلت معقبة على مشهد حجاج مواجه بين النبي صلى الله عليه وسلم وفريق من النصارى ، مما سنعود إلى الكلام عنه في مبحث آخر من هذا الفصل .

٣ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية أيضا :

« وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ... »

١١٦ — ١١٧

والآيات حكاية حال لمشهد أخروي ؛ غير أن احتواءها سؤالا استنكاريا لعيسى عليه السلام عما يعتقده النصارى بألوهيته وألوهية أمه ، وحكاية تنصله من ذلك ، ينطويان على تنديد بعقائد النصارى يدخل في شموله المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى إفحام وإنذار لهم ورد عليهم أيضا .

٤ ـ وفي سورة التوبة الآيات التالية :

« وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ...» ٣٠ ـ ٣١

وواضح أن الآيات تنطوي على التنديد بعقيدة بنوة المسيح وألوهيته ؛ وقد احتوت تنديداً فيه صورة من الصور التي كان عليها عامة النصارى ، وذلك في طاعتهم لرهبانهم طاعة عمياء ، واتخاذهم وإياهم أرباباً أيضا ؛ وصيغة الآيات ومضمونها يلهمان أن ما احتوته من تنديد وصورة يشمل النصارى المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم .

المبحث الثاني

دعوة النصارى ومواقفهم إزاءها

دعوة النصارى في القرآن المدني ـ تنوع مواقفهم من الدعوة وتعليله ـ صورة رائعة لإيمان بعضهم وفيهم القسيسون والرهبان ـ ترجيح كون الصورة لبعض وفودهم ومداها ودلالتها ـ إشارات قليلة أخرى إلى إيمان بعضهم ـ التعليل القرآني لمواقف الذين جحدوا منهم ـ تعليل قلة الآيات المدنية التي تشير إلى إيمانهم .

الصورة الأولى

إن آيات المائدة ١٥ ـ ١٦ التي نقلناها في المبحث السابق قد احتوت دعوة إلى أهل الكتاب ، وبطبيعة الحال قد شملت اليهود والنصارى ؛ ثم جاء بعدها الآية ١٧ التي نقلناها كذلك ؛ قد وصفت الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم بالكفر ، ووجهت إليهم سؤالا استنكاريا ؛ وورود هذه الآية عقب تلك الآيتين يلهم بقوة أن النصارى قد اختصوا نوعاً ما بالدعوة في هذا المقام ؛ ثم جاءت بعدها الآية التالية :

« يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ... » ١٩

وفيها عود على ما بدأته الآيتان ١٥ ـ ١٦ بأسلوب آخر ، إذ احتوت تقرير أن رسالة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم قد شملت أهل الكتاب الذين منهم النصارى كما هو واضح ؛ وفيها في الوقت نفسه الهدف الذي نبهنا إليه في المبحث السابق وحكمة من حكم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وشمولها لأهل الكتاب ، ليكون لهم فيه بشير ونذير بعد ما مر عليهم فترة انحرفوا فيها عن الأسس التي احتوتها كتبهم وأوغلوا في

الخلاف والشقاق ؛ على أن في سورة النساء آيات فيها دعوة مماثلة ، واختصاص النصارى فيها واضح ، وهي :

« يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا . لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ... » ١٧١ - ١٧٣

إذ تهيب بالنصارى المعاصرين إلى الارعواء والانتهاء عما هم فيه من باطل لا يتسق مع عظمة الله وصفاته الكاملة ، وتقرر أن عيسى عليه السلام والملائكة المقربين لا يمكن أن يستنكفوا عن عبادة الله ، وأن ماينسبونه إلى المسيح إنما هو افتراء عليه ؛ وقد تضمنت الآية الأولى دعوتهم بصراحة إلى الإيمان بالله ورسوله ؛ هذا إلى أن هناك آيات عدة وردت في المحاجة معهم سنوردهافي مبحثها الخاص ،وقد احتوت دعوتهم إلى الإيمان بالنبي والتنزيل القرآني ، إلى الآيات التنديدية التي أوردناها في المبحث السابق واحتوت دعوتهم ضمناً وصراحة أيضا .

الصورة الثانية

أما مواقفهم إزاء الدعوة فهي متفاوتة ؛ إذ كان منهم المستجيب المقبل أحسن إقبال، ومنهم المنقبض المتمسك بما هو عليه ، بل المجادل المشاق الصادّ عن سبيل الله ، وهو تفاوت طبيعي ، لأن الذين لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم من النصارى أو اتصل بهم في

العهد المدني فئات متنوعة متباينة ، فيهم البدو والحضر ، والنساك والزهاد المتجردون عن أعراض الدنيا الراغبون في الله وحقائقه ، وفيهم الأمراء وأصحاب المركز والجاه والمطامع، ممن يخضعون على الأكثر لمؤثرات الدنيا وأعراضها ، كما أن فيهم عوام سذجا يتبعون رؤساءهم ويطيعونهم طاعة عمياء .

ولقد احتوت آيات من سورة المائدة وصفاً محبباً للنصارى بصورة عامة ، ومشهداً رائعاً واقعيا من مشاهد استجابة فريق منهم إلى الدعوة والإيمان بالنبي والتنزيل القرآني كما ترى فيما يلي :

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ . فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ... » ٨٢ ـ ٨٦

ولقد تعددت الروايات في المشهد الذي وصفته الآيات ؛ فمنها ماذكر أنه مشهد نجاشي الحبشة ورجال الدين النصارى الأحباش حينما تلا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه سورة مريم في مجلسه إبان الهجرة ؛ ومنها ماذكر أنه مشهد وفد حبشي أرسله النجاشي أو جاء مع المهاجرين العائدين ، ومنها ماذكر أنه مشهد لبعض وفود نصرانية جاءت من الشام أو نجران اليمن .

ومن الصعب الجزم بإحدى هذه الروايات ؛ غير أن الوصف كما قلنا وصف مشهد

واقعي ، وروحه تلهم أنه في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، والفقرة الأولى من الآية الأولى تلهم أن الآيات نزلت في وقت كان العداء فيه مشتدا بين المسلمين واليهود ، وبالتالي في وقت كان اليهود فيه مايزالون في المدينة على شيء من القوة ؛ وهذا لا يمكن أن يكون إلا قبل أواسط العهد المدني التي تم فيهاإقصاؤهم عن المدينة ، وبالتاليقبلرجوع المهاجرين من الحبشة الذي لم تختلف الروايات في أنه كان بعد صلح الحديبية . والروايات، وروح آيات آل عمران التي احتوت تعقيباً على مجلس المناظرة الذي انعقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ووفد نصارى نجران ، بل نصها ، يسوغ الجزم بأن الوفد رجع دون أن يؤمن ؛ وعلى هذا فالوفد الذي كان منه ذلك المشهد إمّا أن يكون حبشياً أرسله النجاشي للقاء النبي صلى الله عليه وسلم والسماع منه بعد أن عرف عنه ماعرف من المهاجرين ، وإمّا أن يكون قد جاء من أطراف الجزيرة الشمالية حيث كانت الديانة النصرانية هي السائدة ؛ وكلا الاحتمالين ممكن ومعقول ، وإن كنا نرجح الثاني ، ونرجح أن يكون الوافدون ممن يفهمون العربية ، فهذا التأثر الشديد يرجح أن يكون من أسلوب القرآن وروحانيته وصدق لهجته ، مما يدركه العارف بالعربية ويتأثر به أكثر .

وهكذا يمكن أن يقال إن أخبار النبي صلى الله عليه وسلم قد انتشرت إلى خارج الجزيرة ، فأثارت الأفكار ، واسترعت الأسماع ، وجعلت بعض رهبان النصارى وقسيسيهم ، وبتعبير آخر علماءهم الذين يستطيعون الحجاج والجدل ووزن الأقوال ويرغبون في معرفة وقائع الأمور وحقائقها ، والوقوف عليها بأنفسهم ـ يشدّون الرحال إلى المدينة ، كما فعل بعضهم في العهد المكي على ما ذكرناه في حينه ، ليروا هذا النبي ويسمعوا منه ، وليحاجوه ويجادلوه ؛ وإن منهم من أخذ بما رأى وسمع ، ولمس القوة والحق والروحانية ، والتطابق مع جوهر ما جاء به الرسل ، فصدق وآمن ، وكان منه هذا المشهد الرائع . وخطورة هذا المشهد ـ وما كان من أمثال في العهدالمكي مما انطوت إليه الإشارة في عدة آيات مكية وخاصة آيات الإسراء ١٠٧ ـ ١٠٩ عظيمة جدا من جهة سير الدعوة وأثرها كما هو واضح ؛ إذ جاء شهادة عيان قوية صادقة على

ما كان لروحانية القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم والدعوة من أثر نافذ فيمن كان يسمعها بقلبه وعقله ، وكان رائده الحق والهدى من النصارى ، وفي مقدمتهم رؤساء دينهم .

والآية الأخيرة من آيات المائدة تتضمن إنذارا للذين كفروا وكذبوا بآيات الله ، فمن المحتمل أن تكون الآية مطلقة عامة وبسبيل التنديد بهؤلاء مع ما ظهر من أعلام النبوة وروحانية القرآن وأثرها في رؤساء الدين النصراني ، كما أن من المحتمل أن تكون قد قصدت الذين كفروا وكذبوا من النصارى خاصة ، لهذا القصد نفسه ؛ وقد يكون هذا أوجه بمناسبة موضوع الآيات نفسها .

الصورة الثالثة

وليس في القرآن المدني آيات أخرى فيها مثل الصراحة التي احتوتها آيات المائدة عن إيمان النصارى وتصديقهم ، غير أن ثمة إشارتين في بعض الآيات يحتمل أن تكونا قد عنتا ذلك ؛ منها ما احتوته الفقرة الأخيرة من آية سورة الحديد التي نقلناها في المبحث السابق ، إذ تشير على ما نرجحه إلى الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم من أتباع عيسى عليه السلام ، وإلى الذين لم يؤمنوا منهم وظلوا فاسقين ، أي منحرفين عن جادة الحق والصواب ؛ لأن أول الآية قد احتوى إشارة إلى الذين اتبعوا عيسى عليه السلام ؛ ويلاحظ في وصف الفاسقين تعبير « كثير منهم » ؛ ولا ندرى أيعني هذا أن كثيرا من الذين لقوا النبي ظلوا فاسقين ، أو أنه يعني وصف النصارى عامة ؟ ونميل إلى هذا أكثر ، لأن كل ما يمكن أن يستفاد من الروايات أن النصارى الذين لقيهم النبي في المدينة قليلون جدا ، قد لا يتجاوز عددهم مئات قليلة ؛ وسورة الحديد نزلت بعد الفتح المكي على ما يستفاد من بعض نصوصها ؛ وهذا الظرف قد كان ظرف استنفار المسلمين إلى غزوة تبوك ، وبعبارة أخرى إلى قتال أهل منطقة كثير منهم نصارى ، بسبب ما كان منهم من بغي وعدوان ؛ فليس من المستبعد أن يكون ذلك الوصف قد عني هؤلاء بصورة خاصة .

ومنها ما احتوته آية في سورة البقرة ننقلها مع آية قبلها للاتصال الوثيق بينهما :

« وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ... » ١٢٠ – ١٢١

والآيتان وإن جاءتا في سلسلة طويلة في حق اليهود جاء ذكر النصارى فيهما استطراداً على الأرجح كما قلنا في مناسبة سابقة؛ فإن ما حكي عن النصارى في الآية الأولى لا بد أن يكون حكاية لموقف جحودي وحجاجي وقفه بعضهم ، وهذا يجعل الاحتمال واردا بأن تعبير « الذين آتيناهم الكتاب » في الآية الثانية قد عني النصارى كما عني اليهود ؛ وقد احتوت هذه الآية استدراكا لما جاء في الآية الأولى بشأن موقف المكابرين من الفريقين ، وتقريرا بأن منهم من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فالذين فتح الله بصائرهم، وآتاهم فهم الكتاب منهم ، يتلونه حق التلاوة ، ويفهمونه حق الفهم ، فيؤمنون بالنبي والقرآن لما يجدونه من التطابق بين ما جاء به وما عندهم ؛ أما الذين كفروا منهم فهم الذين عميت بصائرهم فلا يتدبرون آياته ، ولا يفهمونها حق الفهم ، وهكذا تكون الآية قد أشارت كما قلنا إلى الذين آمنوا بالنبي من النصارى ، إلى ما فيها من تعليل قوي بليغ لموقف الكافرين به . ولقد احتوت آيات في سورة التوبة تعليلا لموقفهم أقوى وأصرح كما ترى فيها :

« ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ . هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ

لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . . »

٣١ ـ ٣٤

وفي سورة آل عمران آيات تذكر إيمان فريق من أهل الكتاب وهي :

١ — لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ ... »   ١١٣ ـ ١١٥

٢ — وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ...   ١٩٩

والمجموعة الأولى جاءت بعد حملة تنديدية ضد اليهود . بحيث يمكن أن تكون قد أرادت استثناء فريق منهم كانوا متقين صالحين كما يمكن أن تكون قصدت التنويه بفريق من النصارى كانوا كذلك تقريراً لكون موقف أهل الكتاب لم يكن دائماً سلبياً .

أما الآية ١٩٩ فهي عامة يمكن أن تكون عنت فريقاً من اليهود أو فريقاً من النصارى أو الذين آمنوا من كل من الفريقين ممن أخبرت بإسلامهم الآيات الأخرى .

وقلة الآيات المدنية التي تشير إلى إيمان النصارى بالنبي والقرآن ، يمكن أن تعلل بأن الذين لقوا النبي في المدينة كانوا قليلين ، فلم تكرر مشاهد إيمانهم بحيث تذكر في القرآن كثيرا ، ولقد قلنا في مناسبة قريبة إن ما جاء فيهم في القرآن المدني وخاصة في آيات المائدة ٨٢ ـ ٨٥ والحديد ٢٧ من الثناء المحبب ، قد جاء بأسلوب مطلق وتعميمي ، ويكاد يوحي بأنه يشملهم كافة ؛ وقد ينطوي هذا على الإشارة إلى أن أكثر الذين لقوا

النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة قد آمنوا به وصدقوا التنزيل القرآني ؛ كما يحمل على القول إن الحملة عليهم التي وردت في آيات التوبة التي نقلناها آنفاً وفي غيرها مما نقلناه قبل وما سننقله بعد ، قد عنت بعض الوفود التي ظلت على جحودها ومكابرتها ، وعنت كذلك أولئك الذين وقفوا موقف البغي وأمر النبي والمسلمون بقتالهم من سكان مشارف الشام على ما سوف نشرحه في مبحثه الخاص .

على أن روايات السيرة في الكتب القديمة المعتبرة سجلت وقائع إسلام فئات عديدة من النصارى في مناسبات متنوعة . فرأينا عرضها موجزة فيما يلي إكمالاً للصورة القرآنية العامة .

١ ـ إن تلك الروايات[1] متفقة على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل كتباً ورسلاً إلى ملوك الفرس والروم والحبشة والقبط وغسان . وكان رسوله إلى قيصر الروم الذي كان وقت إرساله في بلاد الشام دحية الكلبي وإلى كسرى الفرس عبد الله بن حذافة السهمي وإلى نجاشي الحبشة عمرو بن أمية الضمري وإلى المقوقس ملك الإسكندرية ـ وهذا وصف ابن هشام ـ حاطب بن أبي بلتعة . وإلى أبي شمر الغساني وجبلة بن الأيهم الغساني شجاع بن وهب الأسدي . وإلى ملك بصرة الحارث بن عمر .

ومما ذكرته الروايات أن كسرى مزق الكتاب وأرسل إلى عامله في اليمن باذان يأمره بإرسال من يستطلع خبر النبي فبعث هذا برجلين فقال لهما النبي : أبلغا صاحبكما أن ربي قد قتل ربه كسرى . فلما رجعا أخبرا باذان بما قال النبي وتحقق باذان من صحة الخبر فأسلم هو والأبناء أي أبناء الفرس في اليمن . وأن المقوقس أخذ كتاب النبي فجعله في حق من عاج وأرسل إلى النبي يخبره أنه أكرم رسوله وبعث إليه بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وكسوة وبغلة لركوبه وأنه يعلم أن نبياً بقي وكان يظن أنه يخرج بالشام ولم يزد على

---

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٩ ـ ٣٠ وابن هشام ج ٤ ص ٢٧٨ ـ ٢٨٠ وكتاب الأموال للامام أبي عبيد ص ٢٠ ـ ٢٤ ، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٨٨ ـ ٢٩٤ .

ذلك . وقد تسرى النبي صلى الله عليه وسلم بإحدى الجاريتين وهي مارية أم إبراهيم رضي الله عنها . وأن النجاشي وضع كتاب النبي على عينيه ونزل عن سريره وجلس على الأرض تواضعاً ثم أسلم وشهد شهادة الحق وقال : لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته . وأن جبلة بن الأيهم ملك غسان أسلم وكتب بإسلامه إلى رسول الله وأهدى له هدية . وأن حاجباً رومياً اسمه مري لأبي شمر الغساني استوضح من الرسول صفة النبي ثم أعلن إيمانه وتصديقه . وأن عامل قيصر الروم على عمان من أرض البلقاء فروة بن عمر الجذامي أسلم وكتب إلى رسول الله بإسلامه وأهدى له هدية . وكل الذين ذكرت إسلامهم من هؤلاء هم نصارى كما هو معلوم .

ونستطرد إلى القول إن بعض المستشرقين ومنهم كاتياني ينكرون خبر رسائل ورسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك الكبار . وقد حاولوا تأييد إنكارهم بما وجدوه في الروايات من اختلاف في النصوص والتواريخ والأيام والأسماء . بزعم أنه ليس في القرآن نص صريح بعموم رسالة النبي وأن في القرآن نصاً صريحاً بأنه أنزل عربياً لينذر أم القرى ومن حولها . وأن النبي لم يكن في ظروف تسمح له بالتفكير في خارج الجزيرة أو تجعله يجرؤ على إرسال رسل ورسائل إلى أكبر ملوك الأرض إذ ذاك .

وفي هذه الأقوال والمزاعم أخطاء ومفارقات فظيعة . فالاختلاف في النصوص والأسماء لا يمكن أن يعد سوغاً لإنكار الخبر . لأن مثل ذلك يمكن أن يقع في سياق كل حادث . والحادث لم يدون إلّا بعد مدة ما . وظل خلالها متداولًا على الألسنة يزيد الرواة في تفصيله وينقصون ويبدلون ويغيرون . ولقد ورد الخبر في أقدم ما وصل إلينا من كتب كتبت في القرن الثاني والثالث وروى مؤلفوها الخبر عن راو فراو إلى أحد أصحاب رسول الله . وفي النصوص تقارب كبير مع اختلاف الرواة مما يمكن أن يكون فيه تأييد للخبر . وفي القرآن المكي والمدني آيات صريحة بعموم الرسالة المحمدية للناس كافة وللعالمين كما أن فيه آيات وجهت فيها الدعوة إلى اليهود والنصارى بصراحة . وما ورد في القرآن

من آيات تأمر بإنذار أم القرى وما حولها أو تذكر أن الله أنزل القرآن عربيا لإنذار أم القرى وما حولها يعلل بسبب كون العرب الحجاز بين أول من خوطبوا بالدعوة وليس من تناقض بين هـذا وبين عموم الرسالة الثابتة بالنصوص القطعية القرآنية . وإذا كان النبي بذل جهوده الأولى في العهد المكي وقسم من العهد المدني في نشر الدعوة وتوطيد سلطانها في الحجاز خاصة والعرب عامة فإن هـذا طبيعي جدا ولا يعقل غير ذلك .

وزمن إرسال الرسل والرسائل المروي يدل على صحة الحادث، حيث كان ذلك بعد صلح الحديبية حيث قامت حالة الهدنة بين المسلمين وأشد أعدائهم قريش وأحزابها وقبل ذلك كان قد تمكنوا من إجلاء اليهود عن المدينة ثم خضدوا بعد ذلك الصلح مباشرة شوكة اليهود في خيبر ووادى القرى . فكان كل هذا من الأسباب الحافزة على توسيع نطاق الدعوة إلى سائر أنحاء الجزيرة وخارجها . فليس والحالة هذه فى الحادث ارتجال يجعل خبره منكراً وموضوعاً كما هو واضح . وفى سورة المائدة آية ذات مغزى خاص في هذا الصدد وهي :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ . . . »[1]

٦٧

وقد جاءت هـذه الآية عقب آيات طلب فيها من أهل الكتاب أن يقيموا

---

(١) إن مفسري الشيعة (انظر تفسير الطوسي مثلا) ورواتهم ومؤلفيهم يؤولون الآية بأنها أمر رباني للنبي بأن يبلغ الناس ما أمر بتبليغه من وصاية علي بن أبي طالب وخلافته من بعده وأن النبي أعلن ذلك في موقف له عند غدير ضم في طريق عودته من مكة إلى المدينة بعد فتح مكة أو بعد حجة الوداع . وهذا من غرائب ما كثر من هذا الباب من تفسيراتهم ورواياتهم . والتهافت في هذا ظاهر ولا يوجد بين هذا وبين الآية وسياقها أية مناسبة بعيدة أو قريبة . وقد فندها الإمام ابن تيمية تفنيداً بليغاً (أنظر المنتقى من منهاج السنة ص ٤٢٢ وبعدها) .

التوراة والإنجيل وما أنزل إلى النبي من الله حتى يسعدوا ويفتح الله لهم بركات كل شيء وهي :

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ... » ٦٥ ـ ٦٦

والفصل الأول من سورة المائدة يدل دلالة قوية على أنه نزل بعد صلح الحديبية . ولعل تلك الآية كانت نقطة الانطلاق في هذا المجال . ولقد أرسل النبي رسله وكتبه إلى أمراء العرب وزعمائهم وقبائلهم في الحضر والبدو في جزيرة العرب. فمن المنطقي جدا أن يرسل رسله وكتبه لإبلاغها لمن هم خارج الجزيرة من ملوك وامراء أيضا .

ولقد كانت أحداث منبثقة عن هذا الحادث روتها الروايات في سياق آخر مثل سلب دحية الكلبي رسول رسول الله إلى قيصر من قبل بعض بني جذام ترتب عليه توجيه سرية لقتالهم بقيادة زيد بن حارثة . ومثل قتل رسول رسول الله الحارث بن عمر إلى ملك بصرة من قبل عامل مؤتة الغساني عمرو بن شرحيل ترتب عليه توجيه سرية إلى مؤتة للانتقام بقيادة زيد بن حارثة أيضا . والحادثان وقعا في السنة السادسة وبعد حادث إرسال النبي رسله وكتبه . ولم ينكر المستشرقون واحدا من الحادثين . ثم مثل حادث قدوم مارية وأختها من مصر هدية من المقوقس فتحظى النبي مارية وأولدها إبراهيم . والحادث أيضا في نفس السنة . أما القول إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليجرؤ على إرسال رسله ورسائله لملوك الأرض الكبار فهو هراء بالنسبة إلى صاحب دعوة مؤمن بدعوته أعمق الإيمان ومستغرق فيها أشد الاستغراق ومعتقد بوجوب نشرها في مشارق الأرض ومغاربها وإبلاغها لجميع البشر تنفيذاً لأمر ربه القرآني أقوى الاعتقاد . وقد رأى علماء اليهود الراسخين في العلم قد آمنوا بها ورأى النصارى الذين هم

في الحجاز قد آمنوا بها ورأى وفود النصارى الذين فيهم القسيسون والرهبان قد آمنوا بها وقد فاضت عيونهم بالدموع مما عرفوا فيها من الحق على ما ذكرته الآيات القرآنية العديدة التي أوردنا نصوصها سابقا فضلا عما كان من شهادتهم بأن رسالة النبي حق وصدق وأن القرآن منزل من عند الله ومن فرحهم به على ما ذكرته كذلك الآيات العديدة الأخرى . فليس هناك أي محل لاستغزاب هذا الحادث وإنكاره والمكابرة فيه . وإرسال النبي كتبا ورسلاً إلى ملوك وأمراء العرب في الجزيرة يقيني ،وكان له آثار يقينية . والمستشرقون الذين يكابرون في إرسال النبي كتبا ورسلا إلى الملوك الكبار لا يكابرون في ذلك ، وليس من فرق في نظر صاحب الدعوة المؤمن بها وليس غريبا . بل وإنه لمن المعقول أن يفكر النبي فى جعل رسله وكتبه شاملة لملوك العرب والعجم جميعا. هذا إلى أنه لا يبدو أن هناك أية ضرورة دينية أو سياسية أو قبلية أو حزبية تحمل أحداً في القرن الأول أو القرن الثاني للهجرة على خلق هذا الخبر وروايته وتدوينه .

٢ ـ روى ابن سعد [١] نص كتاب أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأكيدر ملك دومة الجندل يفيد أنه اعتنق الدين الإسلامي . وكان نصرانيا .

٣ ـ وروى المؤلف نفسه [٢] خبر إسلام الأصبغ بن عمرو الكلبي زعيم قبيلة بني كلب في منطقة دومة الجندل وناس كثيرين من قبيلته على يد عبد الرحمن بن عوف . وكانوا نصارى . وكان ذلك في السنة السادسة للهجرة .

٤ ـ وروى ابن هشام خبر إسلام عدي بن حاتم الطائي ورافع بن أبي رافع الطائي . وكانا نصرانيين [٣] .

٥ ـ وروى ابن سعد خبر إسلام رفاعة الجدامي وكان نصرانيا [٤] .

---

(١) ج ٢ ص ٥٤ (٢) ج ٣ ص ١٣٣

(٣) ج ٤ ص ٢٤٦ ـ ٢٥٤ و ٢٩٩ (٤) ج ٣ ص ١٣١

٦ ـ وروى المؤلف نفسه خبر إسلام الجارود من بني القيس الذي كان في جملة وفدهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان نصرانيا[1] .

٧ ـ وروى المؤلف نفسه خبر وفادة وفود من تغلب وغسان وبهراء وبلي وعذرة ممن كانوا نازلين في مشارف الشام . وكان منهم من يدين بالنصرانية . ولما تم الفتح العربي الإسلامي في زمن الخلفاء الراشدين أقبل النصارى في بلاد الشام والعراق وجزيرة الفرات ومصر وشمال أفريقيـة سواء منهم العرب الصرحاء أم الذين هم من أنسال الموجات العربية القديمة على اعتناق الإسلام فلم يـكد يمضي بضعة أجيال حتى صار دين أكثريتهم الساحقة .

(١) ج ٢ ص ٧٨ ـ ٧٩

المبحث الثالث

مواقف النصارى الحجاجية

المواقف الحجاجية مع النصارى في القرآن ومداها ـ مقايسة بينها وبين مواقف اليهود ـ أهم المواقف الحجاجية مناظرة وفد نجران ـ تعليق وبيان وخلاصة ماذكرته الروايات في صددها ـ ترجيح انعقاد جلسات متعددة لها ـ الفصول الواردة في صددها في سورة آل عمران ـ تعليقات وتحليلات في صدد الصور والمشاهد التي جرت في هذه الجلسات مستلهمة من الفصول القرآنية ـ تعليق على بعض الروايات في صدد حادث المباهلة بالذات ـ دلالة وفادة وفد نجران ـ صورحجاجية محتملة من سورةالبقرة وتحليلات للآيات التي تلهمها ـ صورة حجاجيةمحتملة من سورةالنساء ـ صورةحجاجية محتملة من سورة المائدة ـ دس اليهود للنصارى في الموقف الحجاجي الذي تلهمه آيات هذه السورة .

الصّورة الأولى

في القرآن المدني بعض الفصول والمقاطع القرآنية التي تدل على أنه كان ينعقد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض النصارى مجالس مناظرة وحجاج حول الدعوة الإسلامية وأسسها ، والعقيدة النصرانية في السيد المسيح عليه السلام وغلو النصارى فيها ؛ غير أنها قليلة إذا ما قيست بما احتواه هذا القرآن من الفصول الكثيرة الطويلة في مواقف اليهود الحجاجية ، مما يتسق مع ظروف الفريقين في العهد المدني ، من قلة النصارى الذين لقيهم النبي ، وقلة المستقرين منهم في المدينة ، وما كان يتحلى به النصارى بصورة عامة من دماثة وبعد عن العنف واللجاج ، كما تلهمه الآيات القرآنية التي أوردنا بعضها ؛ في حين كان اليهود جالية كبيرة مستقرة ، لها مصالح متنوعة ، ولها كيان قوي متشعب الجذور والتوغل في حياة المجتمع العربي ، ولها طابع خاص وجبلة متوارثة في التفكير والحياة والمعيشة والأخلاق ، على ما فصلناه في فصلهم الخاص استلهاماً من القرآن .

الصُّورَة الثانيَة

وأهم هـذه المواقف أو المجالس ما كان بين النبي صلى الله عليـه وسلم ووفـد من نصارى نجران اليمن ؛ والاسم لم يرد في القرآن صراحة ، ولـكن الروايات التي لا اختلاف في جوهرها مجمعة على ذلك ، وعلى أن الفصل الطويل الذي شغل حيزاً كبيراً من القسم الأول من سورة آل عمران هو في صدد ذلك .

ويستفاد من الروايات أن هذا الوفد كان مؤلفاً من ستين شخصياً ، منهم أربعة عشر من أشرافهم، وثلاثة من كبار رجال دينهم ؛ فاجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم في مسجده وعليهم الحبرات ، وجرت بينهم مناظرة كان أهم مواضيعها ولادة عيسى عليه السلام وصلته بالله ورسالته ، وقد جادلوه مستشهدين بما قرره من أن عيسى عليه السلام كلمة الله وروحه ، ورد عليهم منددا بتأويلاتهم التي لا تتسق مع جوهر الأمر ومبدأ التوحيد المطلق الذي قرره القرآن ودعا إليه ؛ ولـكنهم لم يقتنعوا ، وظلوا يدّعون أنهم على الحق ؛ فطلبهم بأمر الله القرآني إلى المباهلة ، أي أن يدعو ويدعوا هم بأن تكون لعنة الله على الـكاذبين ؛ فلم يجيبوا الطلب ووادعوه وانصرفوا[1] .

---

(١) لا يذكر ابن هشام الذي انفرد في تفصيل خبر قدوم هـذا الوفد والمناظرة (ج ٢ ص ٢٠٤ — ٢١٦) والذي ذكر أن الشطر الأول من سورة آل عمران قد نزل في صددهما تاريخ قدوم هذا الوفد والشطر الثاني من سورة آل عمران هو في صدد وقعة أحد التي كانت في السنة الهجرية الثالثة . وقد يقتضي تقديم الشطر المروي نزوله في صدد الوفد على الشطر الذي نزل في صدد هذه الوقعة أن يكون قدوم هذا الوفد قبل هـذه الوقعة . غير أن حالة العداء الشديد التي كانت بين مكة والمدينة تجعلنا نستبعد قدوم هذا الوفد في هذا الظرف . ومع أن سياق ابن هشام عن هذا الوفد ورد في كتابه قبل سياق وقعة بدر — وهذا غريب — فإنه ذكر قبله بعض أعمال لليهود من جملتها تحريضهم قريشاً وغطفان على غزو المدينـة ونقض بني قريظة للعهد مع المسلمين . وهذا وذاك إنما وقعا في السنة الهجرية الخامسة ! ومهما يـكن من أمر فالذي نميل إليه هو أن قدوم الوفد كان بعد صلح الحديبية أي في أواخر السنة الهجرية السادسة . حيث وقفت حالة الحرب بين مكة والمدينة . والله أعلم. ومما رواه ابن هشام في صدد المناظرة أن النبي صلى صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى المباهلة قالوا له: ياأبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه . فانصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب وكان ذا رأيهم فقالوا له ياعبد المسيح ماذا ترى فقال والله يامعشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل . ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبـكم (يعني حقيقة أمر عيسى) . ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم . وإنه الاستئصال =

وليس من السهل بطبيعة الحال الجزم بأن هذا الفصل الطويل القرآني قد نزل قبل المناظرة أو بعدها ، ولكن روح آياته قد تلهم أن المناظرة لم تكن في جلسة واحدة ، وأن بعض أقسام الفصل نزل عقب الجلسة الأولى ، كما أن بعضها نزل عقب الجلسة الأخيرة وقبل انصراف الوفد إلى أهله ؛ ومما لا يحتمل شكا أن أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وحججه كانت في نطاق ما احتواه الفصل على كل حال ، ولهذا فإن الفصل قد انطوى على مشاهد جلسات المناظرة وما دار فيها ، وخاصة حجج النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله .

ومما نكاد نجزم به أن جلسات المناظرة كانت حاشدة ، إذ شهدها أعضاء الوفد ، وشهدها فريق كبير من المسلمين أو كبارهم ؛ ولعل بعض اليهود كانوا من شهودها ؛ وفي بعض الآيات ماقد يلهم أنهم حاولوا أن يتدخلوا أو يدسوا ؛ وإليك الآن مقتطفات من الفصل القرآني الذي استلهمنا أنه في صدد هذه المناظرة :

= منكم إن فعلتم . فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ماأنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم . فأتوا رسول الله فقالوا ياأبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا فإنكم عندنا رضا، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح (ص ٢١٥ ـ ٢١٦) . ولقد روى الإمام أبو يوسف في كتاب الخراج (ص٤٠) والبلاذري في فتوح البلدان (ص ٧٠ ـ ٧١) وابن سعد في الطبقات (ج ٢ ص ٥٣ ـ ٥٤) نص كتاب كتبه رسول الله لنصارى نجران رتب عليهم فيه (ألف حلة في السنة ومثوى رسل النبي شهراً فدونه وثلاثين درعا وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً عارية إذا كان كيد باليمن . وجعل لهم جوار رسول الله وذمته على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعيرهم وبعثهم . لا يفتن أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا واقف من وقفانيته على ما تحت أيديهم من قليل ولا كثير . وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية . ولا يعشرون ولا يحشرون ولا يطأ أرضهم جيش . من سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين . ومن أكل منهم ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة . ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر . ولهم على مافي هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي أبداً حتى يأتي أمر الله ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مكلفين شيئاً بظلم . شهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف من بني نصر والأقرع بن حابس الحنظلي والمغيرة وكتب) . وللتوفيق بين النهاية التي انتهت بها رواية ابن هشام وبين هذا الخبر بمكة أن يقال إن نصارى نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم مرتين . مرة قبل الفتح المكي فتناظروا معه وانصرفوا . ومرة بعد الفتح . وكان النبي قد قوي دعوة وسلطاناً وسير بعض سراياه إلى اليمن (انظر ابن سعد ج ٣ ص ٢٢٢ـ٢٢٣) فقدموا عليه وطلبوا منه عهد صلح وأمان فأجابهم إلى ماطلبوا . وفي نص كتاب العهد وأسماء الشهود دلائل قاطعة على ذلك .

١ — الٓمٓ . ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ . نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ . مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ . إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ . هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ . رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ...

١ — ٨

٢ — زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ . قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ . ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ . ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ . شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ . فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ . إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ . أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ . . .

١٤ — ٢٤

٣ — إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ . فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ . فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ . قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ . وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ . يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي

لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ . ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ
وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ
يَخْتَصِمُونَ . إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ
ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ
ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ
يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ
كُن فَيَكُونُ . وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ . وَرَسُولاً إِلَىٰ
بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ
كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ
وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ
لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ .
إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ
ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ .
وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ . إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ
وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ . وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ... ٣٤ ـ ٥٧

٤ — ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأَيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ . إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ . إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ . قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . . .

٥٨ ـ ٦٤

٥ — يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . .

٦٥ ـ ٦٨

الصورة الثالثة

فالآية ١٥ من المجموعة الثانية فيها خطاب لمخاطبين قريبين ، ثم يعقبها تقرير عن حقيقة الإسلام ومعناه ، والآية ٢٥ تخاطب النبي صلى الله عليه وسلم في صدد محاجة الذين يحاجونه في الله والإسلام ، والآية ٢٣ منها تندد بفريق من الكتابيين دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى تحكيم كتاب الله فأبوا ، والآيات ٦٠ و٦٤ من المجموعة الرابعة ، وآيات المجموعة الخامسة ، موجهة إلى كتابيين مواجهة وعلى سبيل المجادلة والتحدي ؛ فكل هذا

يلهم بقوة صحة وقوع المناظرة التي أجمعت الروايات على ذكرها .

ومما ذكرته الروايات أن الوفد أراد أن يتخاص بأسلوب جدلي ، فقال للنبي : ألست تقول بأن عيسى روح الله وكلمته ؟ قال : بلى ؛ فقال الوفد : هذا حسبنا . والمجموعة الأولى احتوت – على مايتبادر لنا – ردا وتفنيداً لما عمدوا إليه من حجة ، وبالتالي تؤيد صحة الرواية ، فقد احتوت الآية ٧ منها تقرير أن الله هو الذي يصور الناس في الأرحام كيف يشاء ، واعتبرت الآية ٨ سؤالهم مغالطة ، فردت عليهم مفندة ؛ إذ قررت أن هناك آيات محكمات هن أم الكتاب وفيها جوهر الدعوة وأسسها التي لا تتحمل تأويلا ، وهناك آيات متشابهة للتمثيل والتقريب ، فلا يتمسك بهذه ويتجاهل تلك ، أو يريد أن ينقض تلك بهذه على تأويل خاطىء إلا من في قلبه زيغ ولم يكن رائده الحق وإنما يقصد المكابرة والتمحك ، أمّاالمؤمنون الراسخون في العلم فلا يمكن أن يتورطوا في ذلك ،وإنما قولهم في صدد الآيات المتشابهة : آمنا به كل من عند ربنا ، ولا بد أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد شرح ذلك بالآيات والأمثال ، وأورد الآيات القرآنية المحكمة التي تقرر وحدة الله وحدة لا شائبة فيها بحيث لا يجوز في حقه أبوّة ولا بنوّة ولا تعدد ولا تجزؤ ولا انفصال ، وقال إنه إذا جاء في القرآن أن عيسى كلمة الله ومن روحه فإنما أريد بذلك التقريب والتمثيل والتنويه بالمعجزة الربانية التي تمت بولادته بلا أب ، فلا يصح أن يحاول بهذا نقض تلك الآيات المحكمة . ومن الجدير بالتنبيه أن المجموعة الرابعة احتوت تمثيلا لخلقة عيسى عليه السلام بآدم ، وفي الآيات المكية ذكر أن الله نفخ في آدم وفي الإنسان من روحه فصار حيا[1] فيحتمل أن تكون هذه الآيات قد أوردت في معرض المجادلة ؛ ويبدو أن المناظرين جادلوا في القرآن وأنكروا نزوله من عند الله وقالوا إنهم لا يتقيدون به ، فجاءت الآيات الأولى من المجموعة الأولى تنوه بكتب الله ثم تقرر أن الله قد أنزل القرآن مثلها ، فليس هو بدعا ، وإن فيه لفرقاناً بين الحق والباطل فيجب أن يؤمن به

---

(١) اقرأ آيات الحجر ٢٩ والسجدة ٧ – ٨ مثلا .

من آمن بكتب الله السابقة ، وإن الذين لا يؤمنون به سيكونون موضع انتقام الله وعذابه .

وعلى هذا فمن السائغ أن يقال إن المجموعة الأولى قد نزلت بعد جلسة ما ، أو بعد الجلسة الأولى ، رداً على ما كان منهم من إنكار للقرآن ، ثم تفنيداً للمغالطة التي عمدوا إليها ؛ كما أن من السائغ أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد رد عليهم في نطاق هذه الحجج ثم نزلت الآيات مرددة أو مؤيدة له ، ولهذا نظائر عدة في القرآن نبهنا إليها في مناسبات سابقة .

ويلمح خلال آيات المجموعة الأولى وملهماتها ـ إذا صح شرحنا وتوجيهنا ـ تناقض للمناظرين ، أو أسلوب من أساليب المناظرة والجدل ، فقد أنكروا القرآن ثم أخذوا يحاجون النبي صلى الله عليه وسلم فيما قرره بشأن عيسى عليه السلام وأنه كلمته أو روحه أو من روحه ؛ ولعلهم قالوا كما يقول المناطقة أو المتناظرون : لنسلم جدلا بالقرآن ، فالقرآن يقول كذا وكذا ، وفي هذا صورة بارزة وطريفة من صور المشهد على ماهو المتبادر .

وفي المجموعة الثانية خطاب موجه إلى مخاطبين حاضرين ، وخطاب آخر موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صدد المحاجين ، وهذا ماجعلنا نستلهم أنها هي أيضاً في صدد المناظرة ، وقد احتوت تدعيماً للنقطة التي جرى الحجاج فيها ، والتي انطوت على الإشارة إليها المجموعة الأولى ، فوحدانية الله أمر محكم لا يتحمل أي كلام ، والله وملائكته وأولو العلم يشهدون على هذا ويشهدون بما اتصف به من القيومية الدائمة بالحق والقسط ، والطاعة والانقياد . والإسلام لله هو الدين الحق الواجب على الناس . وحجاج الكتابيين ولجاجهم في الأمور المحكمة ليس من الدين ، وإنما هو مظهر من مظاهر اختلافهم في التأويل وتجاوزهم فيه حدود العقل إلى البغي والغلو ، ومن لم يطع وينفذ ويرعو عن البغي فعند الله حسابه ، ثم نقل الكلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم : فإذا ظل المناظرون في لجاجهم بعد سطوع الحجة البالغة فليعلن عن نفسه وعمن تابعه ، إسلامهم لله ، وليكتف

بدعوة النــاس كتابيين وأميين إلى مثل ذلك ، وليــكل إلى الله أمر من يتولى ويعرض منهم .

ولقد تـكون بعض آيات المجموعة محل تساؤل عما إذا كانت ذات صلة بالمناظرة ، وذلك بسبب أن ما احتوته مما وصف به اليهود في آيات أخرى ، ونعني الآيات الأربع الأخيرة من المجموعة الثانية أي الآيات (٢١ ـ ٢٤) ، غير أن انسجامها مع السياق من جهة ، وبعض مضامينها وخاصة الآية ٢٣ من جهة أخرى ، جعلانا نميل إلى القول بصلتها بالمناظرة ، وورود الصفات التي فيها حق اليهود لا يمنع ـ فيما يتبادر لنا ـ أن يوصف بها فريق من النصارى وقفوا موقف اللدد والمـكابرة ؛ على أن مما يرد على البال أيضاً أن النبي قد دعا المناظرين إلى تحـكيم كتاب الله وآياته فتدخـل اليهـود ودسوا حتى جعلوهم يأبون .

وقد يكون في الآية الأولى من المجموعة الثانية تأييد لما ذكرته الروايات من أن الوفد جاء وعليه الحبرات الديباجية الموشاة ، وعلى هيئة أثارت دهشة المسلمين ، إذ أشارت إلى طبيعة البشر في انهماكهم في حب الدنيا وزينتها مع أن ماعند الله أعظم وأبقى للمؤمنين المستغفرين الصابرين الصادقين القانتين الخ .

وعلى كل حال فإنه يتبادر لنا أن كل آيات المجموعة الثانية أو جلها متصلة بالمناظرة ، وأنها نزلت بعد جلسة مامن جلساتها وقبل انتهائها ، ومما لا ريب فيه أن النبي قد تلاها في الجلسة التالية ، أو أدار حديثه في نطاقها مقررا ومنددا وداعيا إلى تحكيم كتاب الله ثم داعيا إلى الإسلام والانقياد لله .

أما المجموعة الثالثة فهي ـ على ماهو المتبادر الواضح ـ في صدد موضوع المناظرة بالذات ، أو أهم مواضيعها ، وهو خلقة عيسى عليه السلام ورسالته ، وتقرير قرآني لما هو الحق فيه ، وقد احتوى تمهيدات مثل تقرير نذر أم مريم ما في بطنها لخـدمة الله ، وتقبل الله لهـا في خدمته بقبول حسن ، ورعايته لها رعاية عظيمة ، وذلك بسبيل تقرير طهارتها وانقطاعها لله وتأهلها للمعجزة الربانية ، ومن هذه التمهيدات قصة ولادة يحيى عليه السلام

وما فيها من إعجاز ، وذلك بسبيل تقرير أن ذلك لم يقتض أن يكون يحيى إلها أو جزءا من إله .

وقد احتوى الفصل تقرير أمر واقع هو أن خلقة عيسى معجزة ربانية ليس غير ، وتقرير أمر رسالته وحكاية ما كان من دعوته الناس إلى عبادة الله وحده ، وما كان من نسبتــه ما ظهر على يــده من خوارق إلى الله ، وتقرير استجــابة الحواريين لدعوته في حياته على وجهها الصحيح المحكي ، وأن الاختلاف فيــه وفيهــا إنمــا كان بعـــد توفيــه .

ولقد علقنا في فصل الــكتابيين من قسم العهد المــكي تعليقات كافية في سياق فصــل سورة مريم تغنينا عن الزيادة هنا ، وفي هذه المجموعة عود على بدء اقتضته حكمة التنزيل توكيداً وتأييداً ، ويلاحظ بعض الفروق بين ما جاء في فصل سورة مريم وما جاء في هذه المجموعة ، مما يحمل على القول أن هناك من أدوار الحديث على بعض جزئيات من سيرة السيد المسيح وأمه ورسالته وخوارقه وموقف الحواريين منه ، أو سأل عن ذلك ، فاحتوت الآيات ما فيه البيان مما لم يرد في فصل سورة مريم .

وليس من الممكن الجزم بأن آيات هذه المجموعة نزلت قبل المناظرة ، أو بعدها ، أو خلالهــا ؛ والحــالات الثلاث واردة الاحتمال على تفــاوت في قوته ؛ ولعل أوجــه الاحتمالات أن تــكون نزلت بعد جلسة من جلسات المناظرة دار الحديث فيها حول الموضوع مبدئيا ، فتليت في الجلسة التالية كتقرير قرآني رباني فيه ، ونرجح أنها نزلت بعد نزول المجموعتين الأوليين ، إذ يتبادر لنا أنه دار في الجلسة الأولى بحث حول ولادة عيسى عليـــه السلام ، فتلا النبي صلى الله عليـــه وسلم الآيات المــكية فيها ، فجــادلوه على ما ذكرناه قبل قليــل ، ففنــد أقوالهم في نطاق ما جاء في المجموعتين ؛ ثم نزلتا بعد الجلسة فتلاهما ، ثم نزلت المجموعة الثالثة بعــد هذه أيضا فتلاهــا في الجلسة التي تلتهــا .

ونرجح أن المجموعة الرابعة نزلت هي والمجموعة الثالثة في آن واحد ؛ وتلهم أن

المناظرة قد انتهت بها ؛ إذ احتوت تقريراً وتعقيباً وتحدياً ودعوة ختامية ؛ فخلقة عيسى ليست أعظم من خلقة آدم ، وهي مما يعترف به المناظرون ؛ ولم يعد ثمة إمكان للمراء لمن يريد الحق ؛ فإذا أصر المناظرون في لجاجهم بعد هذا فلم يبق ما يقال لهم إلا تحديهم بأن يجتمع الطرفان ومعهم من يعزون من أبنائهم ونسائهم ، فيطلب الجميع من الله أن يجعل لعنته وسخطه وغضبه على الكاذبين منهم وإلا أن يدعو النبي الكتابيين المناظرين إلى كلمة سواء بينهم وبينه ، فيعلنوا معا أنهم لا يعبدون إلا الله ، ولا يشركون به شيئًا ، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دونه ؛ فإن لم يعلنوها معه فليعلنها هو باسمه واسم أتباعه ، وليشهدهم على أنهم مسلمون لله وحده لا شريك له ، ولا رب غيره .

ومما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تلا عليهم هذه الآيات القوية النافذة أو خاطبهم بما في نطاقها ، وأنه دعاهم إلى ما أمر بأن يدعون إليه ، وأعلن ما أمر أن يعلنه في المشهد الحافل ؛ ومضمون الآيات وروحها يلهمان أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في موقف القوي المطمئن بقوة موقفه وصحة دعواه ، والمستعلي على مناظره بالحجة الدامغة ، والصميمية العميقة ، والتحدي المفحم ، والدعوة التي لا يردها إلا الممتري .

ولقد ورد في صدد آية المباهلة (٦٠) رواية متصلة بالمشهد . مفادها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أصبح دعا علياً وفاطمة و الحسن والحسين رضي الله عنهم وغدا بهم ليباهل القوم . ويتمسك الشيعة كثيراً بهذه الرواية ويسوقونها للتدليل على أن كلمة (نساءنا) لا تعنى زوجات النبي (ﷺ) لأنه لم يدع أحداً من زوجاته وإنما دعا فاطمة فقط . وإن كلمة (أنفسنا) تعني علياً لأن الإنسان لا يدعو نفسه وما دام أن النبي دعا علياً فإن الكلمة تعنيه [١] ! وهذا التفسير عجيب مناقض للمعقول والمنقول بل والنصوص القرآنية . وابن هشام الذي انفرد بتفصيل خبر المناظرة بين النبي ووفد نجران لم يذكر ذلك . بل لم يذكر

---

(١) انظر تفسير الآية في تفسير الطوسي .

أن النبي استعد للمباهلة . وأسلوب الآية لا يقتضي ذلك . وهو أسلوب تحد وإفحام .

وقد ألحقنا المجموعة الخامسة بمجموعات المناظرة بسبب احتوائها لفظي « الإنجيل » و « نصرانيا » إذ رأينا من المحتمل أن يكون موضوع ملة إبراهيم قد أثير في جلسات المناظرة ، وأن المناظرين النصارى ادعوا أن ملتهم وملة إبراهيم سواء ، فنزلت الآيات تردد ذلك وترد عليه ، على أننا لا نتشدد في الاحتمال؛ لأن ذكر النصارى في موضوع ملة إبراهيم قد ورد أيضاً في سلسلة حجاجية مع اليهود خاصة ؛ مما جعلنا نقول إن ذكرهم قد جاء من قبيل الاستطراد .

وعلى كل حال فالمجموعات القرآنية التي نقلناها مع الروايات الواردة في صددها والتي استأنسنا بها ، سمحت لنا باقتباس صور عدة لمشاهد حادث يمكن أن يعد من أعظم أحداث السيرة والدعوة في العهد المدني ، ومن أشدها إثارة للدهشة ، وبعثاً للاهتمام بما كان من وفرة عدد الوفد ، وهيئته ، ومجالس المناظرة الحاشدة التي انعقدت بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم كما هو المتبادر ، مما يدل على أن شأن النبي واسمه ظلا يتجاوزان أفق الحجاز ويلفتان أنظار الملل الأخرى ، ويسترعيان أسماعها ، ويبعثان في نفوس رجالتها رغبة إلى الاستصلاح والاستماع والاستيثاق ؛ وعلى أن دار الهجرة النبوية صارت مما يشد إليه الرحال بقصد العلم والمعرفة والمناظرة والمحاجة .

الصورة الرابعة

وهناك آيات في سور البقرة والنساء والمائدة من المحتمل كثيرا أن تكون نزلت في صدد مواقف حجاجية مواجهة بين النبي صلى الله عليه وسلم وفريق من النصارى أيضاً :

١ ــ فقد جاء في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ

عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ... » ١١١ — ١١٣

وهي تحكي أقوالا لليهود والنصارى في آن واحد . والآيات من سلسلة طويلة في حق اليهود ، ومن المحتمل أن يكون ذكر النصارى جاء فيها من قبيل التعميم والاستطراد ، غير أن مما لا يحتمل أن يكون اليهود قالوا (كونوا نصارى تهتدوا) ، وأنه لا بد أن يكون هذا القول قد صدر من نصارى في موقف ما ؛ وفي القول رد حجاجي على دعوة موجهة إلى القائلين كما هو واضح ، فيه تبجح وفيه استكبار .

والآية الثالثة جديرة بالتعليق ؛ إذ تحكي حكاية قول كل فريق ورأيه في الآخر ؛ وصدور هذا القول من كل منهما في حق الآخر مما لا يحتمل شكا ؛ فهو متردد على ألسنتهم أبداً :أمس واليوم وغداً ، والراجح أنه صدر من كل فريق في غياب الآخر بسبيل دعواه أنه هو وحده على الحق وأنه لن يدخل الجنة إلا من هو على ملته ! والآية قرينة قوية على صدور القول الأول أيضا فعلا أمام النبي صلى الله عليه وسلم في موقف مواجه . ولا ريب في أنه كان لموقف ورأى كل فريق في الآخر أثر إيجابي فيما كان من استعلاء الموقف النبوي والدعوة النبوية ، في نفوس العرب والكتابيين على السواء ؛ وأن يكون من أسباب تبرم بعض علماء الكتابيين من نصارى ويهود ، وإقدامهم على التفلت من المؤثرات المتنوعة ، واستجابتهم إلى الدعوة النبوية دون مبالاة ببني قومهم وملتهم ؛ لاسيما أن الخلاف بين الكتابيين مما كان موضوع بحث وعجب وسخرية عند العرب على ما ذكرناه في مناسبات سابقة .

٢ ـ وقد جاء في سورة البقرة أيضاً الآيات التالية :

« وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن

وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ...» ١٢٠ ـ ١٢١

والآيات تحكي موقف كل من النصارى واليهود من النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهي من سلسلة طويلة في حق اليهود في الوقت نفسه ، مما يجعل من المحتمل كثيراً أن يكون ذكر النصارى فيها قد ورد من قبيل التعميم والاستطراد ، غير أن مما لا يحتمل شكا أنها حكاية واقع حال كل منهما فعلا ؛ ولا بد أن تكون قد تكشفت للنبي صلى الله عليه وسلم بالاحتكاك والمواقف الحجاجية المواجهة ؛ وفي الآية الثانية تدعيم لذلك إذ تأمر النبي بأن يقول لهم إن هدى الله هو الهدى الحق .

٣ ـ وقد جاء في سورة النساء الآيات التالية :

« يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا . لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ...» ١٧١ ـ ١٧٣

والآيات موجهة إلى النصارى كما هو واضح ، وبأسلوب مزج فيه الحجاج والنهي و لدعوة والتنديد والإنذار معاً ، والصيغة تلهم أنها تخاطب فريقاً يسمع أو من الممكن أن يسمع مواجهة ، ومما لا يحتمل شكا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تلا عليه الآيات في موقف حجاجي مواجه .

٤ ـ وقد جاء في سورة المائدة الآيات التالية :

« قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ . لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ . كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ . تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ... » ٧٧ ـ ٨٠

وهذه الآيات قد جاءت عقب الآيات (٧٢ ـ ٧٦) التي قررت كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وإنه ثالث ثلاثة ، ونددت بهم ودعتهم إلى التوبة والاستغفار ، وقررت حقيقة ما دعا إليه المسيح صلى الله عليه وسلم وأنه ليس إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل ، وقرعتهم على عبادتهم ما لا يملك لهم ضرا ولا نفعاً من دون الله ، والتي نقلناها في مبحث سابق من الفصل ، والتي يجب أن تعد جزءا من هذه الآيات وما احتوته من موقف حجاجي وتنديدي ، ومضمونها يدل بجزم على أن النصارى هم موضوع الخطاب ؛ ومما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وجه الآيات إلى فريق نصراني لقيه في موقف مواجه .

ويلفت النظر خاصة إلى الآية ٧٧ التي تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بنهي هـذا الفريق عن اتباع أهواء القوم الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً من غيرهم وما زالوا ضالين عن سواء السبيل ؛ إذ هي تسوغ لنا القول بجزم إن المقصود هم اليهود ؛ وقد أكدت هذه الآية التالية لها إذ ذكرت بني إسرائيل بصراحة وما كان من لعنة داود وعيسى لهم بسبب ما ارتكسوا فيه من المنكرات وعدم نهي أحد منهم أحداً عنها ؛ وقد أشارت الآية الأخيرة إلى واقع حالهم الحاضر ، إذ لا يتورعون عن تولى الكافرين المشركين مع ما يدعونه من التوحيد وما ينتسبون إليه من كتاب الله وأنبيائه كحجة منضمة أريد بها التدليل على ارتكاسهم في الضلالة وتضامنهم مع المشركين بقصد

الدس على دعوة الله ، والصد عن سبيلها ، وإضلال الناس عنها . ويبدو أن فريقاً من اليهود حاولوا صد الفريق النصراني عن الإسلام ، وتثبيته على ما هو عليه من كفر صريح ؛ فكان هذا النهي وهذا التقريع ، وكانت هذه الإشارة إلى توليهم المشركين ليكون فيها عبرة الفريق النصراني ، ورادع عن الاستماع إليهم . وفي كل هذا صور من المشهد الحجاجي الذي انطوت عليه السلسلة كما هو المتبادر ؛ والآية ٧٩ قصدت تقوية العظة وداعي العبرة والروع الموجه للفريق النصراني ؛ فعيسى عليه السلام قد لعن اليهود لما ارتكسوا فيه من المنكرات ، وداود عليه السلام ـ جده لأمه ـ قد لعنهم من قبله ؛ وفي هذا ما يجب أن يكون رادعاً وعبرة للفريق النصراني ، وصارفاً عن الاستماع إلى دسهم ووساوسهم .

وفي هذا أسلوب بديع من الجدل المحكم والحجة البالغة بالنسبة للموقف الذي طرفه نصارى كما هو واضح أيضا .

المبحث الرابع

الصدام مع النصارى

حالة النصارى في المدينة وأخلاقهم لم تكن تتحمل صداماً ـ مدى النهي القرآني عن اتخاذهم أولياء ـ اختلاف الحالة بالنسبة لنصارى مشارف الشام ـ ماذكرته الروايات من أخبار عدوان قبائل هذه المشارف وسرايا النبي إليها ـ آيات التوبة بقتال الكتابيين وترجيح نزولها بين يدي غزوة تبوك ـ آيات التوبة بالاستنفار إلى غزوة تبوك ـ مدى الآيات ـ تعليقات وتحليلات حولها ـ ماتلهم من سبق بغي سكان المشارف وسبق الصدام الذي روته الروايات ـ خلاصة الروايات عن ظروف وأحداث غزوة تبوك ـ مقاطع من سورة التوبة تحتوي صوراً ومشاهد من حركة الاستعداد للغزوة وتأليفها ـ إشارة إلى ما يتبعها من جيش أسامة ثم جيوش الفتح وصلتها بها ـ مغزى هذه الغزوة ومداها ـ تفنيد لمزاعم بعض المستشرقين فيها .

الصورة الأولى

لم يكن في المدينة جالية ذات شأن وكيان يمكن أن يقع بينها وبين النبي والمسلمين صدام ، وأن يصدر منها مواقف عملية مؤذية وخطرة كما كان شأن اليهود ، هذا إلى أن الآيات القرآنية المدنية لم تحتو حملات عنيفة قاسية عليهم ، بل وصفتهم بأوصاف محببة إطلاقاً ، مما يلهم أن الذين لقيهم النبي منهم في المدينة كانوا دمثي الأخلاق ليني الجانب ، غير جانحين إلى عنف وكيد ؛ وهذا ما جعلنا نرجح في مناسبة سابقة أن موضوع آيات المائدة ٥١ ـ ٥٢ و ٥٧ ـ ٥٨ التي نهى فيها المسلمون عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، هم اليهود مباشرة ، وأن ذكر النصارى في الآية ٥١ قد جاء استطراديا ومعللا بالتعليل الذي احتوته الآيات ٥٧ ـ ٥٨ ليكون تلقيناً قرآنيا مستمر المدى ؛ وترجيحنا مستلهم مما احتوته الآية ٥٢ من نعي على المنافقين أن يتمسكوا بأوليأهم خشية الدوائر ؛ واليهود هم الذين كان بينهم وبين المنافقين ولاء متصل بما قبل الهجرة ومحتج به .

الصُّورة الثانية

أما بالنسبة إلى الخارج فالأمر مختلف . حيث كان غالب سكان مشارف الشام نصارى تابعين لنفوذ دولة الروم البيزانسية التي كانت عاصمتها (القسطنطينية) وقد ذكرت الروايات سلسلة من الوقائع التي فيها عدوان أو محاولة عدوان من بعضهم والتي جعلت النبي صلى الله عليه وسلم يقابلهم على ذلك .

من ذلك غزوة خرج النبي صلى الله عليه وسلم على رأسها في أوائل السنة الخامسة للهجرة بما بلغه من تجمع جموع في منطقة دومة الجندل التي كانت تبعد عن المدينة خمس عشرة ليلة وعن دمشق خمس ليال للدنو من المدينة وعدوانهم على القوافل وقد بلغ المنطقة وبث فيها سراياه . وهرب الناس من وجهه . فعاد دون أن يصطدم مع أحد[1] .

ومن ذلك سرية سيرها بقيادة زيد بن حارثة في السنة السادسة إلى حسمي ؛ لأن جماعة من بني جذام اعتدوا على دحية الكلبي رسول رسول الله إلى قيصر فشلحوه في طريق عودته من الشام . وقد أغار زيد عليهم . فقتل وسبي وغنم منهم[2] .

ومن ذلك سرية سيرها بقيادة عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل ولم تذكر الروايات سبب مباشراً . والراجح أنها لنفس السبب الذي خرج به النبي صلى الله عليه وسلم . وقد ذكرت الرواية أن النبي عمم عبد الرحمن بيده وقال له (اغز باسم الله وفي سبيل الله من كفر بالله ولا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً . وقد سار فدعا بني كلب إلى الإسلام فأسلم زعيمهم الأصبغ بن عمرو وأسلم معه ناس كثير من قومه وتزوج ابنته . وصالح من لم يسلم منهم على الجزية[3] .

ومن ذلك سرية سيرها النبي بقيادة كعب بن عمير إلى ذات أطلاح من أرض

---

(١) ابن سعد . ج ٣ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .   (٢) ص ١٠٣ .

(٣) نفس المصدر ص ١٣٢ .

الشام للدعوة . فدعوا من وجدوه فرشقوهم بالنبال وقتلوا معظمهم[١] .

ومن ذلك سرية سيرها بقيادة زيد بن حارثة إلى مؤتة في البلقاء لأن عاملها شرحبيل الغساني قتل الحارث بن عمير رسول رسول الله إلى ملك بصرى . وكانت السرية جيشاً مؤلفاً من ثلاثة آلاف . وقد اشتبكوا بالجموع التي جمعها شرحبيل من بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام وكان قتال شديد وقتل قائد السرية ثم استلم القيادة جعفر بن أبي طالب فقتل فاستلمها عبد الله بن رواحة فقتل فاستلمها خالد بن الوليد وتمكن من الانسحاب بمن بقي من المسلمين[٢] .

ومن ذلك سرية سيرها بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل لما بلغه من تجمع جموع قضاعة بقصد الدنو من المدينة . فوطيء بلادهم ودوخها وهرب أهلها منه[٣] .

وهكذا يكون الصدام المسلح بين النبي والمسلمين من جهة وسكان مشارف الشام الذين كانت غالبيتهم نصرانية من جهة أخرى قد بدأ منذ أوائل النصف الثاني من العهد المدني واستمر .

وليس في القرآن إشارة صريحة إلى ذلك ؛ غير أن في سورة التوبة آيات تأمر بقتال الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، وتذكر أنهم يريدون أن يطفئوا نور الله ، وأن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم يصدون عن سبيل الله ، وهي هذه :

« قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ . وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ

---

(١) ١٧٣ — ١٧٤ . (٢) ١٧٤ — ١٧٧ . (٣) ١٧٧ — ١٧٨ .

ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ . هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . . . »

٢٩ ـ ٣٤

والآية الأولى تشريعية ، والأخرى تنطوي على حكمة التشريع بالإضافة إلى ما في الأولى من هذه الحكمة . وقد يدخل في الآيات اليهود والنصارى معاً ؛ غير أن الآيات قد نزلت بعد الفتح المكي على ما يلهمه ترتيبها حيث وضعت بعد الآية التي تحظر على المشركين الدخول إلى المسجد الحرام . ولم يكن قد بقي في الحجاز يهود أقوياء يجب قتالهم . وقد جاء بعدها بقليل آيات تستنفر المسلمين إلى القتال في سبيل الله وتندد بالمتثاقلين عن ذلك، وأجمعت الروايات على أنها في صدد الاستنفار إلى غزوة تبوك التي هي من مشارف الشام والتي كان غالب سكان منطقتها نصارى .

وقد احتوت وصفا يلهم بقوة أنه وصف لها كما ترى فيما يلي :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ...»[(١)]

٣٨ ـ ٤٢

فهذه الآيات وتلك والحالة هذه تنطوي على إشارات قرآنية إلى الصدام بين النبي والمسلمين من جهة ، والنصارى من جهة أخرى .

الصورة الثالثة

ومع أن كثيراً من المفسرين قد صرفوا الأوصاف الثلاثة المذكورة في الآية الأولى إلى أن كفر الكتابيين برسالة النبي والدين الذي أتى به سبب مطلق ، وقالوا إنه موجب التشريع ، فإن هناك ما يحمل على التوقف في التسليم بذلك ؛ لأنه يقتضي أن يكون المسلمون مأمورين بمقاتلة كل كتابي إطلاقا إذا جحد رسالة النبي ، مع أن الآية قد احتوت حرف التبعيض « من » الذي لا شك في أنه يعترض ذلك القول الإطلاقي ، ويسوغ صرف الأوصاف المذكورة إلى حالات أوسع تناولا ، ويجعل أمر القتال منوطاً بأسباب أخرى ؛ فعدم تحريم ما حرم الله ورسوله ، وعدم الدينونة بدين الحق ، يتسعان لمعان كثيرة أخرى مثل العدوان على القوافل وإخافتها وسلب أموالها ، مما هو مناقض لكل حق ودين ، ومما كان حالة واقعة عند نزول الآيات والاستنفار إلى غزوة تبوك ، ومثل عدم تقيدهم بقيود الحق والعدل في معاملة الناس وفي أموالهم ودمائهم وحرياتهم المتنوعة مما يأمر به دين الله وأنبيائه ، ويزجر عنه خوف الله واليوم الآخر ، ومما يصح أن يكون تعليلا مستمراً لحكمة التشريع التي انطوت في الآية الأولى ؛ وقد

---

(١) الآية الأخيرة هي التي احتوت وصف الرحلة بأنها بعيدة الشقة غير يسيرة المنال .

يدعم هذا ما ورد في الآيات التي تلت هذه الآية من إرادتهم إطفاء نور الله ، وصد كثير من رهبانهم الناس عن سبيل الله ، مما يعني وقوفهم في وجه الدعوة وحريتها ونشرها والاستجابة لها ، ومما كان في الغالب حالة واقعة ، ويصح أن يكون كذلك تعليلا مستمراً لحكمة التشريع أيضاً ؛ ومعلوم أن هذا كان من الأسباب التشريعية لقتال المشركين ؛ هذا إلى أن قولهم ذاك ينقض المبدأ القرآني المحكم في آية الممتحنة ٨ خاصة وفي البقرة ٢٩ ـ ٤١ و ١٩٠ ـ ١٩٤ والنساء ٩٠ ـ ٩١ وغيرها ، من أن الجهاد الإسلامي دفاعي ورد لبغي وعدوان سابقين يشملان الطعن في الدين والفتنة عنه والوقوف في وجه حرية الدعوة إليه وممارسة شعائره ؛ فضلاً عن مناقضته كذلك لما هو ثابت من النهي النبوي عن قتال غير المحاربين من الكتابيين كالرهبان والشيوخ والنساء والأطفال ؛ إذ ينطوي فيه ألّا يكون عدم إسلام إنسان ما سببا لقتاله ؛ وعلى هذا كله فإننا نقرر بشيء من الجزم أن الآيات قد نزلت في قتال الكتابيين الذين يبدو منهم بغي وعدوان ، حتى تخضد شوكتهم ويؤمن بغيهم وعدوانهم بالخضوع التام ، ودفع الجزية للسلطان الإسلامي ؛ وهو ما يتسق مع المبادئ والتقريرات القرآنية بوجه عام . وما دام الأمر كذلك فإن من الممكن القول بجزم أيضا إن غزوة تبوك التي استنفر إليها بالآيات التي أوردناها آنفا والتي نزلت تلك الآيات بين يديها قد كانت غزوة مقابلة على عدوان وبغي سابقين ؛وهذا يؤيد ما ذكرته الروايات بوجه عام من قيام حالة الحرب بين المسلمين وسكان مشارف الشام نتيجة لعدوان وبغي كان هؤلاء السكان بادئين بهما . وهو ما ذكرته الروايات وأوردنا خبره في مطلع المبحث .

ونقول بالمناسبة وبسبب مارده بعض المغرضين عن سيروأغراض الجهاد في الإسلام: إن تقرير مبدأ الصلح مع المحاربين الكتابيين[1] على الجزية قد انطوى على تبرير غاية

(١) من السنة النبوية والراشدية الثابتة أن الجزية أخذت من غير الكتابيين أيضا مثل المجوس وعبدة الكواكب وعلى هذا تكون السنة قد فسرت الآية بحيث يفهم منها أن ذكر أهل الكتاب لا يعني اقتصار الجزية عليهم وإنما خصوا بالذكر لأنهم موضوع مباشر حاضر .

الحرب الإسلامية الدفاعية ، وأن نشر الإسلام لم يكن هدفا رئيسيا للقتال أو من أهدافه أو نتائجه ، وإنما هو لخضد شوكة العدو الباغي بشكل من أشكال البغي على ما ذكرناه قبل قليل ؛ ومما لا ريب فيه أن قادة الفتح الإسلامي الأول والخلفاء الراشدين بنوع خاص قد التزموا هذا بكل دقة وإخلاص .

الصّورة الرابعة

وغزوة تبوك هذه كانت في السنة الهجرية التاسعة على ما ذكرته الروايات التي لا خلاف في جوهرها ، أي بعد فتح مكة بسنة ، وهي آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ومن أهمها مدى ومعنى وكثرة عدد وبعد شقة ، إن لم نقل أهمها . ومما ورد عن أسبابها المباشرة أن النبي قد بلغه تجمع جموع كثيرة على حدود الشام تريد غزو الحجاز ردا على حملة مؤتة ، كما ورد أن قبائل العرب في هذه الحدود تجرأت أكثر من ذي قبل على القوافل بعد ما كان من عاقبة حملة مؤتة المحزنة ما كان ؛ فرأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يجمع أكبر عدد ممكن من المسلمين ويخرج بهم إلى هذه الحدود إرهابا للعدو ؛ فاستنفر الناس واستعانهم بالمال ، ولم يزل بهم محرضا مرغبا ومنذراً منددا حتى تمكن من جمع جيش عظيم بلغ ثلاثين ألفا ونيفا بين مشاة وركبان ، وحتى تمكن من جمع عدة وافرة من السلاح والخيل والإبل والماشية والطعام والثياب ، بالرغم مما كان من شدة الحر من جهة وعسر الوقت من جهة أخرى ، حتى سمي الجيش بجيش العسرة .

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم بجيشه العظيم في شهر رجب فوصل تبوك بعد عشرين يوماً وعسكر فيها ولم يتعدها . وقد أرسل منها سراياه مستطلعة ومنذرة . منها سرية إلى دومة الجندل بقيادة خالد بن الوليد . وقد تمكن من أسر ملكها الأكيدر . وأخذ فدية منه ثم استصحبه معه إلى النبي الذي كان رجع إلى المدينة فأسلم على يده . وكتب له كتاب عهد . وقدم على النبي وهو في تبوك يوحنا بن رؤبة ملك

الأيلة وتعهد بأداء الجزية وأخذ من النبي كتاب عهد . وجاء إلى لقاء النبي يهود بني جنبة وبني عاديا وبني العريض ومدن أذرح والجربا ومقنا فوجدوه قد عاد إلى المدينة فلحقوا به إليها وأعلنوا له خضوعهم وتعهدوا بأداء الجزية وأخذوا منه كتب عهد وأمان[1] .

وهكذا يصح أن يقال إنه كان لهذه الحملة نتائج عظيمة المدى حيث تم بها للدعوة الإسلامية الإحاطة بجميع جزيرة العرب إلى تخوم الشام ودخول كل ذلك تحت راية الإسلام وسلطان النبي وحكمه . وإرهاب سكان مشارف الشام الذين تكررت أنباء تجمعهم وتضامنهم مع الروم وحوادث اعتدائهم . وكانت إلى ذلك تمهيداً للخطوات التاريخية الخالدة التي خطاها خلفاء النبي وتم فيها ما تم من فتح باهر وسلطان عزيز وأعلام منشورة في ربوع الأرض المختلفة .

الصّورة الخامسة

ولقد جاء في سورة التوبة مقاطع عدة حول هذه الغزوة دون ذكر اسمها ، عدا المقطعين اللذين نقلناهما سابقا ونوردهما فيما يلي لأن فيهما بعض الصور والمشاهد في صدد تأليف الحملة :

١ — عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ . لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ[2] يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ . لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ

---

(١) تفصيل غزوة تبوك في ابن سعد ج ٣ ص ٢١٨ — ٢٢١ وابن هشام ج ٤ ص ١٦٩ — ١٩٤

(٢) لسعوا سعياً حثيثاً بينكم بالإفساد والفتنة .

حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ . وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ... (١) ٤٣ ـ ٤٩

٢ — قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ . قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ . وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ... ٥٢ ـ ٥٤

٣ — فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ . وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ . وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ . وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ . رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . . .

٨١ ـ ٨٧

٤ — وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ (٢) مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى

(١) تقرأ مع هذه الآيات الآيات السابقة لها، والتي نقلناها قبل، وهي الآيات ٣٨ ـ ٤٢ لأنها سلسلة واحدة.

(٢) أي المعتذرون .

ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ . إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ... ٩٠ ـ ٩٤

٥ ـ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ... ١١٧ ـ ١١٨

٦ ـ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . . . ١٢٠

وبعض مضامين المقاطع يلهم بقوة أن بعضها نزل في أثناء الرحلة ، بقصد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، ويستلهم منها أن الاستنفار إلى الغزوة كان في موسم الصيف واشتداد الحر ، كما كان في وقت ضيق وشدة ؛ وأن السفرة قد صعبت على فريق من المسلمين المخلصين فضلا عن المنافقين ، وقوبلت بشيء من الفتور والتثاقل حتى

اقتضت الحكمة التشديد في الحث والإنذار ، وقد استجاب المخلصون وفيهم من صعبت عليه السفرة ، باديءَ ذي بدء ، ولم يتخلف من سكان المدينة إلا ثلاثة ؛ أما المنافقون ، لا سيما أغنياؤهم ورؤساؤهم ، فقد اعتذروا للنبي بأعذار كاذبة ، وواهية ، واستأذنوه بالتخلف بعد أن حاولوا تثبيط عزائم الناس بحجة الحر وأخفقوا ، فأذن لهم ؛ ومع العتاب المحبب الذي عوتب به في الآيات على الإذن لهم ، والذي إنما كان بقصد فضح كذبهم ، يبدو من الآيات أنه كان هناك مبررات لهذا الإذن ، إذ أريد منه تفادي دسهم وكيدهم بين المسلمين ، في أثناء الرحلة ، لا سيما وبينهم وبين كثير من المسلمين روابط القربى والمصلحة والألفة ؛ وقد أراد بعضهم أن يساعد بماله دون نفسه فلم يقبل منهم ذلك زيادة في النبذ والإهمال ؛ وقد استنفر النبي صلى الله عليه وسلم البدو المسلمين أيضاً ، فسارع فريق منهم إلى الاعتذار ؛ والاستئذان في التخلف ، كما تخلف آخرون بدون اعتذار ولا استئذان ، مع قدرة هؤلاء وأولئك ؛ وقد كان لبعضهم مع ذلك موقف رائع جدا ، وكانوا فقراء ، فجاءوا إلى النبي يعرضون أنفسهم ، ويطلبون معونته على الرحلة ، فلما قال لهم إنه ليس في إمكانه معونتهم تولوا باكين حزنا على حرمانهم من الاشتراك في الجهاد النبوي ؛ ومشهد المتخلفين الثلاثة رائع حقا هو أيضا ، إذ يستفاد من الآية ١١٨ وما ورد في صددها من روايات أنهم من المخلصين ، وأن تخلفهم كان كسلا ، وأنه لما عادت الحملة قوبلوا من النبي صلى الله عليه وسلم والمجاهدين بالإهمال والمقاطعة حتى قاطعهم نساؤهم ، وظلوا مقاطعين نحو أربعين يوماً لا يكلمهم أحد ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، فلجأوا إلى الله يستغفرون ويعلنون توبتهم فتاب عليهم .

وعلى ضوء الآيات الأخرى يتبادر أن الآية ١٢٠ هي عتاب وحث بالنسبة للمستقبل ، وأن المعقول أن يكون فيها كلمة مقدرة ، لتكون الجملة الأولى هكذا « ما كان لأحد من أهل المدينة ... » وبذلك يزول ما توهمه من تخلف أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إطلاقاً ، مع تقرير الآيات بصراحة اشتراك جميع المخلصين القادرين من أهل المدينة عدا الثلاثة

ومع ورود حرف التبعيض في الآية ٩٠ التي تحكي اعتذار الأعراب ، وما في ذلك من دلالة على أن منهم من اشترك ولم يتخلف .

وتخلف الأعراب والمنافقين الذي حكته آيات سورة التوبة والحملات الشديدة عليهم بسببه قد يوهم أن العدد المروي لجيش تبوك الذي زحف به النبي صلى الله عليه وسلم على رأسه مبالغ فيه كثيراً . ولقد جاء في سيرة ابن هشام هذه العبارة (إن عبد الله بن أبي كبير المنافقين ضرب عسكره بأسفل عسكر النبي صلى الله عليه وسلم وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين فلما سار رسول الله تخلف عنه فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب[1]) فتمسك بها المستشرق كايتاني وأخذ يعظم من شأن وعدد المنافقين ويشكك في عدد الجيش المروي . غير أن هذا وذاك في غير محلهما . فالآيات القرآنية صريحة بأن المتخلفين من الأعراب والمنافقين كانوا من الأغنياء وأولى الطول . وهؤلاء دائما محدودو العدد . وعبارة ابن هشام تحمل الشك الصريح في المدى . وقد روي في الوقت نفسه أن عدد المتخلفين من المنافقين كان بضعة وثمانين رجلاً[2] . وفي سورة التوبة آيات تحكي ما كان من شدة خوف المنافقين واعتذارهم وتزلفهم وأيمانهم ما فيه الدلالة القوية على ما صار إليه شأنهم من ضعف وعددهم من قلة كما ترى فيما يلي :

١ — وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ . . .

٥٦ — ٥٧

٢ — يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ . يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي

---

(١) ج ٤ ص١٧٣ . (٢) ص ١٨٩ .

قُلُوبِهِمْ قُلْ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ . وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ . لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ . . . ٦٢ ـ ٦٦

٣ — يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . . . ٧٤

وذكر تخلف الثلاثة من المخلصين دليل على أنه لم يتخلف من مسلمي المدينة المخلصين القادرين غيرهم ؛ وإذا لوحظ أن المدينة قد اكتظت بالنازحين من مكة وغيرها بعد الفتح ، بدا احتمال وفرة المشتركين من سكانها وفرة كبيرة ، قويا جداً كما هو المتبادر .

وقد نبهنا إلى أن الأعراب المعتذرين والمتخلفين ليسوا هم جميع الأعراب ، بدليل حرف التبعيض ؛ ونضيف إلى هذا أنه ورد في سلسلة الحملة على هؤلاء آية تثني على المخلصين منهم كما ترى :

«وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ..» ٩٩

مما يصح أن يكون قرينة أخرى على اشتراك هذا الفريق المخلص الذي نرجح أنه كان وافر العدد ، إذا ما ذكرنا أنه اشترك منهم عدد كبير في الفتح المكي ، وأنهم أو أن غالبيّتهم العظمى لم تندمج في فتنة الردّة ، بل كانوا في فصائل قمعها على ما ذكرته الروايات : ولقد انطوى في الآية (٩٢) من سورة التوبة مشهد رائع حكى ما كان من

بكاء وحزن الذين لم تتيسر لهم أسباب الاشتراك في الحملة من الأعراب حيث يدل هذا على ما كان من حرص الفريق المخلص من الأعراب على الاشتراك في الحملة وشدة رغبتهم فيه .

وفي سورة التوبة آية متصلة بمشاهد الإعداد للحملة جديرة بالتنويه وهي هذه :

« ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . . . »

٧٩

والآية تتضمن تنديداً بالمنافقين لأنهم كانوا يلمزون المتبرعين من المخلصين بالصدقات . فيقولون عن من يتبرع من القادرين إنه يبتغي الحمد والزهو . وعن من يتبرع من الفقراء الذين كانوا يتبرعون بقليل حسب جهدهم إن الله لغني عن تبرعهم .

والروايات تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب من المسلمين أن يتبرع كل منهم بما يستطيع لغزوة تبوك وحث على ذلك مرة بعد مرة بسبب كثرة ما تحتاج إليه من وسائل ودواب ومؤونة وما كان يحيق في ظرفها من شدة وعسرة ، فاستجابوا وأخذوا يتبرعون كل بما قدر عليه . ومنهم من تبرع بمبالغ كبيرة مثل عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي روي في الأحاديث الصحيحة في صدده روايتان : واحدة تذكر أنه أتى بألف دينار فنثرها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ يقلبها ويقول : ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم وواحدة تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم حث على التبرع لجيش العسرة فقام عثمان فأعلن تبرعه بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ثم كرر النبي حثه فقام فأعلن تبرعه بمائتي بعير بأحلاسها وأقتابها فبلغ تبرعه ثلاثمائة بعير[1] .

---

(١) روى الحديثين الترمذي . وليس هناك ما يمكن الاستناد إليه للقول : إن الألف دينار هي قيمة الثلاثمائة بعير أم أن عثمان رضي الله عنه تبرع بتلك وهذه معاً .

الصُّورَةُ السَّادِسَة

هذا ؛ ومما تجدر الإشارة إليه أن الروايات قد ذكرت دون خلاف ـ حتى ليكاد يصح أن يقال إن ما ذكرته يقيني ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم جهز قبيل وفاته جيشا بقيادة أسامة رضي الله عنه بقصد تسييره إلى مشارف الشام ، وبتعبير أدق : إلى البلقاء ، وأنه كان فى هذا الجيش كثير من كبار الصحابة وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم مات قبل سيره ، فسيره خليفته الأول رغم ما كان يحيط به وبالإسلام من مشاكل وأخطار ، حرصاً على تنفيذ خطة رسول الله ، مما يمكن أن يلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد الانتفاع بما تم له من توطيد هيبة الإسلام في مشارف الشام ، وتمهيد السبيل لحرية الدعوة بإخضاع أمراء تلك المشارف في غزوة تبوك ، فجهز هذا الجيش ليصل إلى أبواب الشام ـ البلقاء ـ ويوطد هذه الهيبة ويمهد هذه السبيل أيضاً ، وانتداب كبار الصحابة في الجيش ذو مغزى عظيم في هذا الصدد كما هو المتبادر . ولقد ذهب هذا الجيش بدون أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لمشاغلهما الجديدة العظمى بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عاد ؛ ولم يكد ينتهي أبو بكر رضي الله عنه من إخماد فتنة الردة حتى جهز الجيوش وعهد بقيادتها إلى قواد معروفين ، وسيرها في الوجهة التي سير فيها النبي صلى الله عليه وسلم حملة مؤتة أولا ، ثم سير حملة أسامة ، فكان لها ما كان من الفتوحات الباهرة وتوطيد سلطان الإسلام ونشر رايته في بلاد الشام نتيجة لذلك .

فغزوة تبوك والحالة هذه ـ وإن كانت امتداداً لحالة الحرب التي بدأت منذ السنة الهجرية السادسة ـ لا نعدو الحق إذا قلنا أنها كانت تهدف فوق ذلك ـ وقد حشد لها ذلك الحشد العظيم وتبعها جيش أسامة رضي الله عنه ثم جيوش الفتح ـ إلى أن تكون عنواناً لما بلغه الإسلام في الجزيرة تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم من قوة وسعة وانتشار يراه سكان مشارف الشام فيرهبون ويقفون عند حدهم ، وقارعاً لأسماع

من ورائها بالنبي ودعوته العظمى ؛ بل لعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا إنها كانت كما قلنا آنفاً تمهيداً للخطوات التاريخية الخالدة التي خطاها خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم وتم بها ما تم من فتح باهر ، وسلطان عزيز ، وأعلام منشورة في ربوع الأرض ؛ بالرغم مما يحلو لبعض المستشرقين[١] من تقليل شأنها وأغراضها ونتائجها ، ومن زعمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يخطر بباله أن يمد دعوته إلى أفق خارج جزيرة العرب ، وإنكارهم رسالات النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الأرض ، وقولهم إن الروايات والأخبار والأقوال مما حمل على السيرة النبوية حملا .

فالأوامر القرآنية بتبليغ الرسالة للناس والكتابيين متكررة ، والآية ٦٧ من المائدة خاصة ، وقد نقلناها في مناسبة سابقة ، قوية جدا في حث النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ؛ وقد دان الحجاز كله تقريباً بدوه وحضره بالإسلام ، بل أخذت وفود الأنحاء القاصية من الجزيرة تفد إلى المدينة وتدين به قبيل السفر إلى تبوك ، وسرايا النبي صلى الله عليه وسلم قد تكررت ، وقرعت إحداها أبواب الشام قبل ذلك ، فليس هناك ما لا يتسق مع منطق الحوادث والظروف والتوجيهات القرآنية ويبرر مزاعم المستشرقين .

---

(١) المستشرق كايتاني في كتابه تاريخ الإسلام .

فصــــل
في الجهــاد ووقــائعــه

تمهيـد

آيات الجهـاد مدنية ـ ليس في القرآن المـكي إلا نواة ـ تعليل ذلك ـ حدود التشريع الجهادي في القرآن ـ كثرة آيات الجهاد ودلالتها ـ الآيات الجهادية نوعان : دعوة ووقائع ـ أسلوب ومدى كل منها ـ روعة الأسلوب وأثره ـ الوقائع الجهادية وطبيعتها ـ شمول الدعوة للجهاد بالمال ـ الجهاد الإسلامى قام على التطوع ـ الجهاد الإسلامي استهدف الدفاع ورد العدوان وضمانة حرية الدعوة واستجابتها فقط ـ قطعية التزام النبي هذا الهدف في التطبيق ـ مباحث الفصل .

الصورة الأولى

إذا استثنينا آيات سورة الشورى هذه :

« وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ . وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ . وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . . . » ٣٩ ـ ٤٣

لا نجد في القرآن المـكي شيئا عن الجهاد والدعوة إليه وواجب الدفاع عن الإسلام والمسلمين بالقوة ؛ على أن هذه الآيات ليست في الحقيقة دعوة ، وإنما هي في معرض وصف أخلاق المسلمين التي منها الانتصار من البغي ، وعدم الحرج عليهم في دفع العدوان بمثله ؛ وعلى هذا فـكل ما يمكن أن يقال فيها إنها نواة لمبدأ الجهاد الإسلامي الذي هو دفاع ورد بغي وعدوان فحسب ، جاءت بأسلوب الوصف والحث والتنويه والوعظ ، كما هو شأن أسلوب القرآن المـكي في صدد المبادئ الإسلامية .

وبناء على هـذا فإنه يصح أن يقرر أن جميع الآيات القرآنيـة الواردة في الجهاد تشريعاً ودعوة ووقائع هي مدنية ، وهذا طبيعي ؛ فإن المسلمين قبل الهجرة لم يـكونوا من حيث العدد والقوة في الموقف الذي يساعدهم على قتال حتى لدفـع الظلم والأذى ، فقد كانوا في مـــكة يتحملون الأذى صابرين محتسبين ، وما فتئت الآيات المـكية تحثهم على الصبر والدفع بالتي هي أحسن مع الوعد بالنصر في النهاية ، واضطر كثير منهم إلى الهجرة إتقاء للفتنة عن دينهم ، وفراراً بدمهم ، على ما مر تفصيله في بحوث سابقة . وإذا كان بعض الأقوياء من المسلمين حاولوا أحياناً مقابلة العـدوان والإساءة بمثلهما مما استلهمناه من بعض الآيات في مبحث محنة الأذى والفتنة ، فإنما كان ذلك محاولات شخصية وفردية .

فلما بايع الأوس والخزرج النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، ثم على الدفاع ، وتمت الهجرة النبوية ، تبدل الموقف ، وأصبح النبي صلى الله عليه وسلم في عاصمة مستقلة ومحيط قائم بذاته مستغن عن غيره ، للإسلام فيه صوت قوى ، وشيوع غير ضيق ؛ وحينئذ كانت الخطوة الجدية إلى مقابلة مشركي مكة على ما كان منهم من ظلم وبغي ظلا مستمرين في الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام ، وأذى وفتنة لمن لم يستطع الإفلات من المستضعفين المسلمين على ما ذكرناه كذلك في المبحث المذكور آنفاً .

الصُّورَة الثانيَة

وتتمثل هذه الخطوة بثلاثة حدود . الأول في آيات سورة الحج التي تعلن أن الله يدافع عن الذين آمنوا وأن المسلمين الذين يقاتلون هم في موقف المظلوم وأنه أذن لهم بالدفاع والانتصار وأن الله قادر على نصرهم وهذا نصها :

« إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ . أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ

لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ . . »

٣٨ ـ ٤١

والثاني في آيتين في سورتي البقرة والأنفال متقاربتين نصاً تأمران بقتال المشركين البادئين بالعدوان والظلم إلى أن ينتهوا عن عدوانهم وتصبح حرية الدعوة مضمونة ويكون الدين كله لله ، كما ترى في إحداهما هذه :

« وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ[1] وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ . . . » البقرة ١٩٣

والثالث في آيات النساء والتوبة والممتحنة التي تأمر بعدم قتال المسالمين والحياديين والمعاهدين ، وباحترام عهد المعاهدين ما احترموه ، وبقتال الناكثين والغادرين والطاعنين بالدين والذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وتشجع على البر بالمسالمين ، وهي هذه :

١ — إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا . . . النساء ٩٠

٢ — إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ . . . التوبة ـ ٤

---

(١) إن بعض المفسرين قال : إن كلمة « فتنة » بمعنى شرك ، وإن الأمر في الآيتين بقتال المشركين إلى ألا يبقى شرك . وفي القرآن نصوص تخالف هذا من الجهة اللغوية ومن الجهة التشريعية ، كما أن في السيرة النبوية ما يخالفه مما سيرد في هذا الفصل بعد .

٣ — كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ . ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ . فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ . أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ... التوبة ٧ — ١٣

٤ — قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ... التوبة ٢٩

٥ — لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ... الممتحنة ٨ — ٩

ويلفت النظر إلى أن هذه الآيات مما نزل في مختلف أدوار التنزيل ، أي في أوائل وأواسط وأواخر العهد المدني وأن بعضها متسق مع بعض في الروح والحكم والمدى ، مما يصح أن يقال معه إنها مبادئ أو حدود محكمة .

الصّورة الثالثة

والآيات القرآنية في موضوع الجهاد قد شغلت من حيث كثرتها حيزاً كبيراً يكاد يبلغ نصف القرآن المدني ؛ وفي هذا دلالة على أن هذا الموضوع كان من أهم أدوار السيرة النبوية في العهد المدني ، أو أهمها .

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم محوطاً من جهة باليهود ، ولهم الحصون والقرى والمزارع والمال والعدة ، والمركز القوى المتغلغل في حياة العرب ؛ وكان من جهة ثانية على عداء شديد مع أهل مكة بقيادة زعمائها الأقوياء ، وكان العرب الآخرون من جهة ثالثة ينظرون إلى هؤلاء وأولئك فيرون أن النبي ما يزال ضعيفاً منعزلا مع مسلمي الأوس والخزرج ومهاجري مكة القليلين ، فكان منهم من يقف موقف المتربص ، ومنهم من يقف موقف المناوئ ومنهم من يجرؤ على الغدر والخيانة ليتقرب بإثمه إلى مشركي مكة أو يهود المدينة ، وكل هذا كان يستدعي الحرب والدفاع والتأديب والتنكيل والبعوث والسرايا والغزوات بصورة مستمرة ؛ ويكفيك أن تعلم مثلا أن عدد الغزوات والسرايا والبعوث قد بلغ خمساً وستين ، قاد النبي صلى الله عليه وسلم منها بنفسه سبعاً وعشرين ، وكل ذلك في نحو عشر سنين — لتقدر خطورة الدور الذي كان للجهاد في هذا العهد ، وتفهم حكمة شغل موضوعه ذلك الحيز الكبير من القرآن .

الصّورة الرابعة

والآيات في هذا الموضوع على نوعين : نوع تضمن دعوة عامة إلى الجهاد بالنفس والمال ، وحث عليه وتثبيت وترغيب فيه ، وتنويه بالمستجيبين ؛ وتنديد بالمنكمشين والقاعدين ؛ وقد تضمنت آيات هذا النوع مبادئ عامة في الجهاد وأهدافه والاستعداد له ، جليلة الشأن مستمرة التلقين والمدى والإلهام في كل نزاع بين المبادئ القويمة والفاسدة ، وفي كل صراع بين الحق والباطل ، والضعيف والقوي ، والحرية والاستعباد؛

وتضمنت كذلك صوراً لمواقف المسلمين من الدعوة إلى الجهاد ، وما كان من أزمات حادة في سبيل ذلك ، ونوع ثان أشير فيه إلى وقائع الجهاد النبوي البارزة وما كان فيها ؛ ومن الجدير بالتنبيه أن آيات النوع الثاني قد نزلت بعد الوقائع ، مما يسوغ القول إن الوقائع قد كانت بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ورأيه ، وبدون وحي قرآني كما هو شأن أكثر أحداث السيرة النبوية ، وإنها جاءت مؤيدة لكل ما صدر من النبي تقريباً ، وفيها ما يلهم أن ما كان إنما كان بإلهام رباني ، كما أنها لم تكن قصصا عن الوقائع وسيرها ونتائجها ، بل كانت بمثابة تعقيبات عليها قصد بها التشريع أو التنبيه أو التنويه أو التنديد أو الطمأنة أو التسكين أو الوعظ الخ مما اقتضته ظروف كل واقعة وسيرها ؛ بل إن هذه النواحي هي البارزة فيها أكثر من مشاهد الوقائع وسيرها ؛ وقد تضمنت مثل النوع الأول مبادئ عامة في الجهاد أيضا ؛ وإنه ليصح أن يقال إن ما جاء في القرآن من الإشارات إلى وقائع لم يقصد به غير هذه النواحي ، ولعل هذا مما يفسر السكوت عن وقائع جهادية مهمة روتها الروايات حتى كانت يقينا مثل غزوات مؤتة واليمن وفتح الطائف ، ويفسر الاكتفاء كذلك بالإشارات الخاطفة الغامضة إلى وقائع مهمة أخرى مثل فتح مكة وخيبر والقرى اليهودية الأخرى ، وما تم في أثناء غزوة تبوك من شؤون .

الصُّورة الخامسة

وكل من يتمعن في الآيات القرآنية من كلا النوعين يقف حالا على المعجزة القرآنية الخالدة فيما يجده ، أولا : من تلك المبادئ العامة التي تركزت فيها كل مبادئ الحق والعدل والرأفة والتسامح مع القدرة ، وثانيا : من الأسلوب الأخاذ ، والحيوية الرائعة ، والإشراق الباهر وبما يمكن أن يوجبه من الإيمان النافذ المستولي ، والذي من شأنه أن يأخذ بالمرء صاعدا به إلى ما فوق مستوى المادة ، وأن يشعره بقوة الإيمان العميق الفياض الذي تمتلئ به النفس وتسعد فيه ، وهي بسبيل نصرة الحق والحرية والمبادئ السامية ،

مهما أحاط بصاحبها من شظف وحرمان وتعب وبؤس واستهدف له من مخاطر ومصاعب وموارد هلاك وفناء .

وليس من ريب في أن هذا هو ما حصل في نفوس السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، وسجل الله رضاءه عنهم ورضاءهم عنه في القرآن ، فجعلهم – وهم الفئة القليلة المحوطة بالخصوم الأقوياء بالعدة والعدد والمكر والدسائس والتي في صفوفها أناس ضعفاء أو منافقون ومرضى قلوب – ينتصرون في جزيرة العرب أولا ، ثم يخرجون بعد ذلك إلى الدنيا لا يملكون إلا هذا الإيمان ، وما يوحيه من طمأنينة بنيل إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، وما يبثه من قوة زاخرة في النفس ، واستهانة بالموت في سبيل المثل الأعلى الذي تشبعت به قلوبهم ، فيضربون ضرباتهم الجبارة ، ويأتون بالمعجز الخارق ، ويسيطرون على الكون ، فتبقى آثار ذلك كله على مدى الدهر قوية وهاجة النور ، داوية الصوت ساطعة النور .

الصّورة السّادسة

وفي النوع الأول فرض الجهاد على المسلمين فرضا ، وعبر عن ذلك بأنه كتب عليهم « كتب عليكم القتال » كما استعمل نفس التعبير في فرض الصيام ؛ وبذلك توطد الجهاد في الإسلام كركن من أركانه إذا لم يقم به المسلمون حينما تدعو الحاجة إليه وقعوا في الإثم ضمن المبادئ العامة التي وضعت له ، وفي نطاق الحدود التي رسمت له في الآيات القرآنية .

الصّورة السّابعة

ووقائع الجهاد التي أشير إليها في القرآن قد انحصرت في وقائع كبرى وقعت بين جمهرة من المسلمين وجمهرة من المشركين أو اليهود ؛ منها ما أشير إليه باسمه وهو وقعتان : بدر وحنين ، ومنها ما أشير إليه بدون تسمية وأجمعت الروايات على توضيحها وهو

وقائع أحد والخندق ويهود بني قينقاع والنضير وقريظة وخيبر والحديبية وفتح مكة وتبوك ؛ منها ما بسطت مشاهده بسطاً ما ، ومنها ما أشير إليه إشارات خاطفة على حسب ما اقتضته حكمة التنزيل وأهدافها .

وهذه الوقائع وما تخللها من غزوات وسرايا وبعوث صغيرة وكبيرة لم تكن أهميتها على حسب خطورة سير الحرب فيها وعدد المقاتلين والقتلى والجرحى والأسرى والغنائم ، إذ كان جلها في الحقيقة موضعيا قليل الخطورة من هذه الناحية ؛ وإنما كانت أهميتها من حيث أنها مظهر عملي للصراع الهائل الذي كان بين التوحيد والشرك ، والإيمان بالرسالة النبوية وجحودها ، والحرية والصد والعدوان ، وهو الصراع الذي انتهى بانتصار حرية الدعوة ودخول الناس في دين الله أفواجا .

الصورة الثامنة

ولم تقتصر الدعوة القرآنية إلى الجهاد على الناحية البدنية والحربية ، بل تناولت الناحية المالية أيضا ، فالمال عصب الحرب ، وليس من الميسور الاضطلاع بأعبائها المتنوعة إلا بالمال؛ بل إن الأرواح التي توهب للجهاد وتقدم ضحية فيه أيسر وجودا وأسرع استجابة إليه ؛ وقد كان من هذا مثل رائع حكته إحدى آيات سورة التوبة :

« وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ... » ٩٢

فكان من الطبيعي والحالة هذه أن تتضمن الآيات دعوة إلى الإنفاق في سبيل الله وحضا عليه ؛ ولقد تخلل آيات الجهاد نفسها كثير من مثل تلك الآيات للمناسبة والملازمة التامتين ، وأطلق تعبير الجهاد على الجهاد البدني والمالي معا ، بل قدم الثاني بالذكر في كل موضع ذكر فيه الاثنان تنويهاً بخطورته ؛ ولا تكاد تقرأ مجموعة من الآيات في صدد الجهاد والاستعداد له إلا وجدتها في سياق واحد مع آيات الحث على الإنفاق

في سبيل الله ، بأسلوب قوي نافذ ومستول من شأنه أن يملأ النفس الطيبة الحسنة إيماناً ورضاء وإقداما ، ويجعلها تخرج عن ما لها طائعة مختارة . ولقد تخللت الآيات حملات لاذعة ، ووعيد قاصم بأسلوب قوي رهيب على البخلاء الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، والأغنياء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ؛ وقد كادت هذه الحملات أحياناً تكون رعداً وبرقاً ومطراً من نار محرقة وعذاب شديد تقشعر الجلود لسماعها ، كما أن أكثر آيات النفاق والمنافقين الواردة في صدد الجهاد والتي نقلناها سابقا وردت متخللة في أثناء الإشارات إلى الجهاد ؛ فإن جبن المنافقين وقبض أيديهم ، وتهربهم وتثبيطهم ، وتخلفهم واعتذارهم إنما كان بسبب هذه المناسبة ، وقد رأيت ما كانوا هدفا له من حملات لاذعة .

الصورة التاسعة

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى نقطتين :

الأولى : إن الحث على الجهاد بالمال والنفس ، وعذر الذين لا يجدون ماينفقون من الفقراء ؛ والحملة على القادرين إذا ماتهربوا وشحوا ، يسوغ القول إن السلطان الإسلامي في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قد وصل إلى درجة تجهيز الحملات ، وتموين المجاهدين بالسلاح والمال والمعدات الأخرى ، وإن الجهاد كان يقوم على التطوع والتبرع بدافع الإيمان والرغبة في التقرب إلى الله وطاعة الرسول ، وكان المجاهدون هم الذين يجهزون أنفسهم بالسلاح والركائب والزاد ؛ وكل مافي الأمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفق من الفيء والغنائم والصدقات ــ الزكاة ــ في هذا السبيل ، ويساعد الفقراء على التجهز بقدر ما كان نصيب بيت المال يتسع له ، على كثرة ما كان يطلب منه من ناحية ، وقلة الوارد من ناحية أخرى .

وهذا يفسر لنا حكمة تقسيم غنائم الحرب على خمسة أقسام ؛ قسم يخصص لبيت المال وينفق منه على الطبقات المحتاجة وفي سبيل الله ، والأقسام أو الأخماس الأربعة توزع على

المجاهدين ، كما تفسر لنا حكمة حصر الفيء ، أي مايدخل في حوزة النبي دون قتال ، في الطبقات المحتاجة وسبيل الله كذلك .

أما النقطة الثانية فهي أن الجهاد لم يستهدف بصورة رئيسية إجبار الناس على الإسلام؛ فمن ناحية التعاليم القرآنية قامت الدعوة على مبدأين (١) الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال فيها بالتي هي أحسن (٢) عدم الإكراه في الدين ، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها .

والآيات التي تضمنت تقرير هذين المبدأين كثيرة جدا ، أوردنا وشرحنا كثيراً منها فيما سبق ، وسنورد جملة منها في مباحث هذا الفصل ؛ ونكتفي بإيراد مايلي هنا :

١ — لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِن بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . . .
البقرة ٢٥٦

٢ — قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ . . .
يونس ١٠٨

٣ — ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ . . .
النحل ١٢٥

وأما من ناحية سير الجهاد ووقائعه فقد كانت ضمن المبادئ القرآنية ؛ فكل سرية أو بعث أو غزوة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت ردا على عدوان وانتقاما منه ، أو دفعاً لأذى ، أو تنكيلا بناكث أو غادر ، أو تأديباً لبغاة أشرار ،

أو ثأرا لدم إسلامي أهدر ، أو ضمانة لحرية الدعوة والاستجابة المهددتين أو المعطلتين بغياً وعدواناً .

ولا يمكن أن يكون قد وقع من النبي صلى الله عليه وسلم نقض للمبادئ التي قررها القرآن وبلغها النبي بطبيعة الحال ، والتي استمرت تترى في الآيات القرآنية في مختلف أدوار السيرة النبوية في عهديها إلى آخرها ؛ ولقد وقع مرة أن حصل سوء تفاهم بين قائد إحدى السرايا وبعض العرب الذين أظهروا الإسلام أو المسالمة ، فظن القائد أنما كان ذلك خدعة فلم يقبل منهم وقتل بعضهم وغنم ماشيتهم ، فغضب النبي أشد الغضب ، ولم يلبث أن أوحي بآية قوية رائعة فيها عتاب على عدم قبول ظواهر الناس كما ترى فيها :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ... » **النساء ٩٤**

ولقد كان بعض جماعات من المشركين يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعاهدهم على المسالمة وحسن المعاملة والتعايش السلمي فيجيبهم إلى طلبهم ويعقد معهم عهوداً ومواثيق . فشددت الآيات بالوفاء لهم ماداموا محافظين على عهدهم غير غادرين به ولا مخامرين فيه . ولقد كان بعض جماعات من المشركين يلتزمون الحياد في الحرب التي تنشب بين المسلمين وقومهم فنبه القرآن إلى أنه لا سبيل عليهم مما تضمنته الآيات التي أوردناها آنفاً . ولم يرد في الروايات خبر وثيق بأن النبي صلى الله عليه وسلم رفض طلب صلح أو عهد أمان من أعداء محاربين ، كما أنه لم يرد خبر بأنه قاتل أناساً مسالمين وحياديين دون سبب مبرر بدا منهم ، مما هو متسق مع المبادئ والتلقينات القرآنية التي لا شك في أنه أشد المسلمين وأصدقهم تمسكا بها ، والتزاماً لها .

الصّورة العاشرة

وعلى ما تقدم سنصنف الآيات على حسب النوعين اللذين أشرنا إليهما ، وسيكون الفصل والحالة هذه مؤلفا من مبحثين :

الأول : الدعوة إلى الجهاد بالمال والنفس ، ومواقف المسلمين منها .

الثاني : الوقائع الجهادية وسيرها ونتائجها .

المبحث الأول

الدعوة إلى الجهاد ومواقف المسلمين منها

الطريقة في استعراض الآيات ـ آيات سورة الحج . مداها ـ مبادئ وأوامر وصور جهادية من سورة البقرة ـ سلسلة في الحث على الإنفاق في سبيل الله ومبادئه وما فيها من صور ـ مبادئ وصور من سورة النساء ـ من سورة المائدة ـ من سورة الأنفال ـ من سورة براءة ـ من سورة محمد ـ مبادئ فيما يقع من قتال بين المسلمين من سورة الحجرات ـ مبادئ وصور من سورة الحديد في موضوع الإنفاق في سبيل الله ـ مبادئ وصور من سورة الممتحنة ومن سورة الصف .

الصورة الأولى

إن آيات الدعوة إلى الجهاد بالمال والنفس متصلة بسياق واحد على الأكثر ، ولذلك فإننا سنورد الآيات متسلسلة على حسب ترتيب السور المدنية في المصحف ، ونشرح مداها وما تنطوي عليه من مبادئ بدون تفريق ؛ ونريد أن نستثني من هـذا الترتيب آيات سورة الحج ٣٨ ـ ٤١ التي أشرنا إليها قبل قليل ؛ فإن هذه الآيات هي أولى الآيات التي نزلت في مبادئ الجهاد على ما ذهب إليـه الجمهور وما يلهمه مضمونها وصيغتها ، وقـد تضمنت مبـدأ أساسيا من مبادئ الجهاد ، كما أن السورة مما اختلف في مكيته ومدنيته وإن كان المتفق عليه أن الآيات مدنية .

والآيات صريحة الدلالة على اعتبار المسلمين في موقف المظلوم المبغي عليـه ، وتقرير حثهم على الانتصار والدفاع ؛ وهذا هو أحد الحدود الأساسية للجهاد في الإسلام كما أشرنا إلى ذلك في التمهيد ؛ وجميع الآيات الجهادية ظلت في نطاق هذا الحد كما أنه لا ريب في أن النبي صلى الله عليه وسلم التزمه بدقة تامة .

ويلفت النظر في الآيات إلى نقطتين جليلتي الشأن والتلقين المستمر ، أولاهما تعليل

المبدأ وهو حق المبغي عليه بالدفاع ، وأن دفاع الناس عن أنفسهم وحريتهم ونضالهم في سبيل دفع الأذى عنهمهو من السنن القويمة التي لا بد منها في حياة البشر والاجتماع ، وضمانة الحريات الدينية وغير الدينية ؛ وثانيتهما تقرير أن تمكين المسلمين المبغي عليهم في الأرض ، ونصرهم على ظالميهم والمعتدين عليهم ، من شأنهما تيسير إقامة حكمهم الصالح على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ينطوي فيه جماع صفات هذا الحكم وضروراته .

وإليك الآن الآيات الأخرى المتصلة بهذا المبحث متسلسلة كما قلنا على حسب ترتيب سورها :

الصورة الثانية

(١) في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ . وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ . ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ . . »

١٥٤ ـ ١٥٧

وقد احتوت إعدادا للمسلمين لما يمكن أن يصابوا به من خسائر وآلام ، وحثهم على الصبر والتحمل وتبشيرهم بالعاقبة ، وطمأنتهم بأن الذين يقتلون في سبيل الله أحياء مكرمون عند الله .

والآيات تلهم أنها نزلت عقب حادث صدام بين فريق من المسلمين وآخر من الكفار ، وأن بعض المسلمين قد استشهد فيه ، وأنه كان لذلك أثر مرير إلى حد ما في نفوس بعضهم أو ذويهم فاقتضت الحكمة نزول الآيات تستهدف ما قررناه

من أهـداف متصلة بمعنى الدعوة للجهاد والإعداد له ، بهذا الأسلوب القوي النافذ إلى أعماق النفس .

(٢) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« وَقَـٰتِلُواْ فِي سَبِيـلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَـكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ . وَٱقْتُلُوهُمْ[1] حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِنـدَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ . فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَـكُونَ فِتْنَةٌ وَيَـكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ . ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ[2] فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْـكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْـكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ . وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُـكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ . . »

١٩٠ — ١٩٥

وقد احتوت أمراً للمسلمين بقتال الذين يقاتلونهم من الـكفار ، وباعتبار ما كان من هؤلاء من فتنة المسلمين وأذيتهم واضطرارهم إلى الخروج من وطنهم بدءاً بالعداء يبرر للمسلمين قتالهم ، وقدنهت عن قتالهم عند المسجد الحرام ، أوفي الشهر الحرام إلاإذا بدأوهم بذلك ، إذيصبح من حقهم المقابلة بالمثل ، كذلك احتوت حثا على الإنفاق في سبيل الله، وتحـذيراً من البخل الذي يؤدي حتما إلى الخطر والتهلـكة بإهمال الاستعـداد لمقابلة البغي والعـدوان .

وهـذه المجموعة وإن كانت تحمل من حيث سبب نزولها المباشر طابعا محليا لأن المقصود فيها قتال مشركي مكة ، فإنها يصح أن تعتبر ثاني مجموعة احتوت مبادئ عامة

(١) الضمير راجع إلى « الذين يقاتلونكم » .

(٢) القصاص بمعنى الانتقام أو المقابلة بالمثل ، والآية تعني أن للمسلمين أن يقابلوا العدوان بمثله ، وفي الشهر الحرام إذا وقع عليهم في الشهر الحرام .

في الجهاد الإسلامي جليلة الشأن مستمرة التلقين . وما نزل من الآيات بعدها ظل ينزل في نطاقها باستثناء تطور قليل في مبدأ القتال في الشهر الحرام والمسجد الحرام على ماسوف نشرحه بعد قليل . كما لا يمكن أن يكون محل شك ومماراة أن النبي التزمه بكل دقة أيضا .

ويلفت النظر خاصة إلى نقطتين مهمتين في الآيات : أولاهما اقتصار أمر القتال على الذين يقاتلون المسلمين وعدم العدوان ، ومعنى هذا أن المسالم والحيادي والذين لا يبدو منهم أي موقف مؤذ لا يصح قتالهم ، كما لا يصح للمسلمين أن يبدأوا أحداً بعداء أو عدوان ؛ وثانيتهما الحث على الإنفاق وعدم التعرض للخطر بالبخل ، وينطوي في هذا احتمال امتناع العدو عن العداء والقتال في حال ما إذا كان المسلمون يقظين مستعدين لكل طارئ ، وتقرير أن القتال ليس أصلا وإنما هو ضرورة يحسن أن تدفع بأيسر الأسباب وهو الاستعداد .

(٣) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ . إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... » ٢١٦ — ٢١٨

وهذه المجموعة مثل سابقتها تحمل طابعا محليا من حيث سبب نزولها المباشر ، غير

أنها تتضمن مبادئ عظيمة دائمة الإلهام والتلقين في الجهاد الإسلامي ، فالقتال غير محبب للنفس ولكنه ضرورة لا مندوحة عنها للدفاع ، ومن أجل هذا كتب على المسلمين ، أي فرض عليهم كركن من أركان الإسلام مع علم الله بكرههم له ؛ والحرية الدينية فوق كل شيء ، والاضطهاد الديني أشد من القتال ، وهو سبب شرعي لإقدام المسلمين على الجهاد ، وكل ما قد يكون مقدسا من التقاليد هين في سبيل ضمان تلك الحرية وقمع هذا الاضطهاد ؛ والذين يستهينون بحرمة المقدسات فيضطهدون غيرهم . ويحولون بينه وبين حريته الدينية ، ويفتنونه عن دينه في ظل هذه المقدسات ، يقابلون على عدوانهم وبغيهم دون أن يسمح لهم بالاحتماء بهذه المقدسات ، ولقد كان هذا مما بدا من مشركي مكة في الشهر الحرام والمسجد الحرام ، فلا ضير على المسلمين في مقابلتهم على بغيهم فيهما أيضا .

وهذه الفقرة الأخيرة هي التي عنيناها بالتطور القليل الذي نبهنا إليه في الفقرة السابقة ؛ إذ نهت آيات المجموعة السابقة عن قتال المشركين عند المسجد الحرام وفي الشهر الحرام إلا إذا بدأوهم بذلك ، ومع ذلك فمضمون الآيات يلهم أن المشركين بما كان منهم من بغي وأذى ضد المسلمين في العهد المكي دون أن يرعوا حرمة البيت الحرام والشهر الحرام ، قد اعتبروا بادئين بذلك .

ومما هو جدير بالتنبيه في صدد هذه المجموعة وسابقتها ، ومجموعة سورة الحج ، أن كلا منهما قد احتوى تعليلا قويا ورائعا لما تضمنته من حث ودعوة وإذن ، شأنها في هذا شأن كثير من المجموعات القرآنية التي احتوت أمرا ونهيا وتشريعا ، بل ترغيبا وترهيبا .

كذلك ننبه إلى أن المجموعات الثلاث تلهم أنها نزلت بمناسبة اشتباكات بين المشركين والمهاجرين المسلمين ، وأثير حول بعضها ضجة ، مما سوف نعود إليه في مبحث الوقائع .

(٤) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« وَقَـٰتِلُواْ فِي سَبِيـلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .. »

٢٤٤ ـ ٢٤٥

وقد احتوت حثا على القتال والإنفاق في سبيل الله ؛ ولقد أعقبها سلسلة من الآيات ٢٤٦ ـ ٢٥١ فيها قصة ما كان من بني إسرائيل من بعد موسى ، ورغبتهم في قيام ملك يقاتلون تحت لوائه انتصارا مما يقع عليهم من عدوان ، ثم ما كان من تردد أكثرهم وجبنهم ، وثبات فئة قليلة منهم وانتصارها على جالوت وجنوده تحت لواء طالوت[1] ، وانتهت بتبرير الحرب الدفاعية وأنها مانعة لاستشراء البغي والفساد في الأرض ؛ وكل هذا قد يلهم أن الدعوة إلى الجهاد بالنفس والمال كانت تقتضي ضرب الأمثال وإيراد القصص ، ليكون من ذلك حافز للمسلمين عامة والمخلصين خاصة ، وزاجر للمترددين والمقترين ، ويتبادر لنا أنه ينطوي في هذا صورة لموقف بدا من بعض المسلمين إزاء الدعوة إلى الجهاد مما تكررت الإشارة إليه بصراحة أكثر في آيات أخرى .

الصورة الثالثة

(٥) وفي السـورة نفسها سلسلة رائعة في الحث على الإنفاق في سبيـل الله وهي هـذه :

« مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنـدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَـدَقَةٍ

(١) جالوت تعريب جليات ، وطالوت تعريب شاؤول .

يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ
وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَـآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا
كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ . وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَـآءَ
مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا
ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ
لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ
ٱلْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ
مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم
بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ . ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ
وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . يُؤْتِي
ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ
ٱلْأَلْبَـٰبِ . وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ
أَنصَارٍ . إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ
وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ
ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَـآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ
وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ
تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ . ٱلَّذِينَ

يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ...» ٢٦١ – ٢٧٤

وفي هذه السلسلة كذلك تلقينات ومبادئ عامة مستمرة المدى ، إلى ما فيها من إلهام لسبب نزولها المباشر الذي ينطوي فيه صور عدة للمسلمين إزاء الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله ؛ إذ تدعم ما قلناه من أن الجهاد إنما كان يقوم على التطوع والتبرع ، كما تلهم أنه كان فريق من المسلمين ينفق بالليل والنهار سرا وعلانية استجابة للدعوة وابتغاء لمرضاة الله على حين كان فريق منهم يتثاقل في الاستجابة ، ويرفق ما ينفقه بالمن وسوء الأدب في القول ، وفريق آخر يضن بأجود غلته ولا يتصدق إلا بالرديء منها ؛ وكذلك تلهم أنه كان هناك فريق فرغ نفسه للجهاد في سبيل الله وانقطع عن الضرب في الأرض واكتساب الرزق فمسته الحاجة والفقر ولكنه مع ذلك تعفف عن سؤال الناس ؛ أما المبادئ والتلقينات العامة التي احتوتها فهي إيجاب الإنفاق في سبيل الله دون من ولا أذى في القول ولا مراءاة للناس ، والإنفاق من الغلات الجيدة دون الرديئة ، وتفضيل إخفاء الصدقات التي تعطى للفقراء على إعلانها ، وإيجاب القيام بأود الفقراء الذين يتفرغون للخدمة في سبيل الله ويمنعهم ذلك عن التكسب ولو تعففوا عن السؤال والكشف عن عوزهم .

والآية ٢٧٢ خاصة تلفت النظر في المبدأ الذي احتوته تلقينا والصورة التي تلهم أنها منطوية فيها واقعيا ؛ فمساعدة الفقراء واجبة لذاتها دون أي اعتبار ، ولا يصح لامرئ أن يمسك يده عنها ولو كان المحتاج على غير رأيه وملته وطريقته أو كان بينه وبينه ضغينة أو شنآن ؛ وهذا مبدأ رائع من حيث المعنى الإنساني المجرد عن أي ملابسة ؛ ويبدو أن بعض المسلمين كانوا يمسكون أيديهم عن مثل هؤلاء فوردت الآية في السلسلة لتكون مرشدة إلى أفضل الطرق وأكرم الخلال[1] ، ولتقرر أن المسلم إنما يفعل الخير لنفسه

(١) مما ذكره المفسرون والرواة أن الآية نزلت بمناسبة تردد بعض المسلمين في التصدق على الفقراء من ذوي قرباهم من المشركين أو الكتابيين بقصد إرغامهم على الإسلام .

وابتغاء وجه الله ، والله يعلم نيته ويجزيه عليه .

الصورة الرابعة

(٦) وفي سورة النساء الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا . وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا . فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا . ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ... » ٧١ ـ ٧٦

وفي الآيات صورة لموقف فريق من المسلمين ـ نرجح أنه ليس من المنافقين ـ كان يجنح إلى التثبيط والتثاقل والتربص ، وصورة أخرى أشرنا إليها من قبل وهي صورة المستضعفين من المسلمين الذين لم يتمكنوا من الهجرة من مكة وظلوا تحت يد ذويهم الأقوياء واضطهادهم ، وكانوا شاعرين بشدّة وطأة الاضطهاد ، ويدعون الله أن يخلصهم ؛ وقد احتوت الآيات حثا للمسلمين على النفرة إلى القتال في سبيل الله ثم في سبيل إنقاذ هؤلاء المستضعفين الذين ينتظرون فرج الله ، وتنديدا بالذين يستثقلون الدعوة إلى هذا وذاك ، وتهويناً لأمر المشركين الذين إنما يقاتلون في سبيل الباطل والشيطان على حين

يدعي المسلمون إلى القتال في سبيل الله ، والله قوي عزيز والشيطان ذليل ضعيف ؛ وروح الآيات تلهم أن الاستنفار إنما هو لقتال أعداء محاربين من جهة وصادين عن سبيل الله ومضطهدين للمستضعفين من جهة أخرى ؛ والأرجح أن هؤلاء المستضعفين كانوا يرسلون بأخبارهم إلى النبي وإخوانهم في المدينة ويستغيثون ، فيزيد هذا في اهتمام النبي والمخلصين في اتخاذ الوسائل التي من شأنها إرغام مشركي مكة على الارعواء وعدم الاسترسال في البغي والأذى .

والآيات إلى هذه الأسباب المتصلة بالواقع من عهد السيرة النبوية احتوت مبادئ مستمرة الإلهام والتلقين ؛ سواء في إيجاب الاستجابة إلى دعوة قتال الأعداء دون توان أو تثاقل ، أو في إيجاب العمل على تخليص المضطهدين من المسلمين وإنقاذهم ودفع الأذى والاضطهاد عنهم ؛ وفي الآيات تشجيع نافذ على الإقدام على الجهاد ، من شأنه أن يدفع بالمؤمن إلى تقبل كل تضحية فيه راضياً مطمئناً ، وأن يبعث الطمأنينة في قلبه بنصر الله وتأييده .

(٧) وفي سورة النساء الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً . أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ... » ٧٧ — ٧٨

وقد احتوت إشارة إلى حادث شرحناه في مبحث محنة الأذى في العهد المكي ،

وتنديداً بالذين استثقلوا تعجيل صـــدور الأمر الرباني بالقتال خائفين من العواقب الدنيوية . وروح الآيات من جهة والسياق الذي سبقها والسياق الذي لحق بها مما يسوغ القول إن الموقف الذي تضمنته موقف فريق من المنافقين أو مرضى القلوب . وفي الآيات على كل حال تلقين مستمر المدى في الحث على الجهاد وعدم التردد في الاستجابة إلى دواعيه وعدم الخشية من الموت والعواقب ما دام في سبيل الله .

(٨) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا . وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً . إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا . سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً . . . »

٨٨ ــ ٩١

وقد احتوت الآيتان الأوليان إشارة إلى ما كان من انقسام رأى المخلصين في أمر المنافقين والموقف الحاسم الصارم الذي يجب أن يقفوه منهم إذا لم يخلصوا ويتضامنوا معهم قلباً وقالباً وبخاصة في الجهاد الذي عبر عنه بعبارة (حتى يهاجروا في سبيل الله) . أما الآيتان الأخريان فقد احتوتا صوراً لمواقف غير المسلمين من النبي والمسلمين ، إذ تلهمان أنه كان هناك أربع حالات لغير المسلمين إزاء المسلمين : حالة حرب وعداء ، وحالة ميثاق

صلح وسلام ، وحالة رغبة اعتزال فريق منهم حرب المسلمين مع قومهم ووقوفهم موقف الحياد والمسالمة ، وحالة فريق مخادع يريد ألّا يغضب قومه المحاربين ولا المسلمين حتى يأمن الفريقين معاً ؛ وقد احتوتا تقرير مايجب على المسلمين إزاء كل حالة من الحالات ؛ فالحرب للمحارب ، والوفاء للمعاهد،والسلم للمسالم ، وعدم الطمأنينة للمخادع إلا إذا اعتزل القتال وجنح إلى السلم على وجه يدعو إلى الطمأنينة ، وقتاله إذا لم يفعل واعتباره عدوا محاربا ؛ والروعة والحق وبعد المدى في هذا التقرير قوية مشرقة ؛ وفي الآيات مبادئ جليلة محكمة ظلت هي الناظم في العهد النبوي لحركة الجهاد وأهدافه .

(٩) وفي الآية (٩٤) التي نقلناها في التمهيد من سورة النساء مبدأ جليل من مبادئ الجهاد الإسلامي فيه رد مفحم على من يزعم أن هذا الجهاد إنما كان وسيلة للغنائم ؛ وفيه أمر بقبول الظواهر من الناس دون تشدد ، بحيث يقبل السلام والإسلام من كل من يعلنه ، ويكف عنه ؛ وهو من المبادئ المحكمة المستمرة التلقين ؛ وهذا بالإضافة إلى مافيها من صورة واقعية من صور الجهاد ، وتصرف بعض المسلمين فيها تصرفا اقتضت الحكمة التشديد في النهي عنه وحظره ، حتى لا يشوب الجهاد الإسلامي شائبة لا تلائم أهدافه ودواعيه .

(١٠) وفي السورة نفسها هذه الآية :

« لَا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . . . »

٩٥

وقد احتوت تمييزاً للمجاهدين على القاعدين بسبيل الحث على الجهاد ، واحتوت صورة لما كان عليه الأمر عند نزولها ، وهو اعتبار الجهاد فضيلة أو فرض كفاية لا يجب على جميع المسلمين ، والتساهل في قبول أعذار المعتذرين عنه ، ثم كون الجهاد قائماً على التطوع

والترغيب والترهيب ؛ ولما كان هناك آيات كثيرة فيها حملات شديدة على المتخلفين والقاعدين والمثبطين والمتثاقلين والمعتذرين ، وفيها أوامر حاسمة بالقتال والجهاد ، فإنه يصح أن يقال إن هذه الآية من أول ما نزل من آيات الجهاد ، وإن الآيات التي أشرنا إليها قد كانت بمثابة نسخ أو تعديل لها .

(١١) وفي السورة نفسها الآية التالية أيضاً :

« وَلَا تَهِنُوا۟ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . . . » ١٠٤

وقد احتوت حثا على الاستمرار في مجاهدة العدو ، بأسلوب قوي التلقين دائم المدى ؛ فإذا كانت الحرب مريرة فهي كذلك على المسلمين كما هي على أعدائهم ،مع الفارق العظيم بالنسبة للمسلمين الذين يقاتلون في سبيل الحق والحرية وإعلاء كلمة الله ، ونفوسهم مطمئنة بحسن العاقبة مهما كانت ؛ والآية تلهم أن فريقًا من المسلمين كان يشعر عند نزولها بمرارة الحرب وآلامها ، فاقتضت الحكمة الإيحاء بها لتكون معالجة نفسية لهذا الشعور .

الصورة الخامسة

(١٢) وفي سورة المائدة الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ . . . »

٥٤ — ٥٦

وقد جاءت هذه الآيات عقب آيات شرحناها في فصل المنافقين ووصف ما كان من استمساكهم بولائهم لليهود خشية الدوائر فيما يزعمون ؛ وهي بمثابة تعقيب على موقف المنافقين ؛ كما احتوت تصويراً قويا لعلاقة الجهاد بالإيمان ، وحثا بليغا عليه ، وتقريراً بأنّ المتأخرين عنه ، الذين يخافون الناس والعواقب ، يوشك أن يكونوا في عداد المرتدين ؛ ويبدو من خلالها صورتان واقعيتان: أولاهما تضامن المخلصين مع النبي في الجهاد إذ عدّوا حزب الله ، وطلب من عامة المسلمين التأسي بهم ، وتوليهم دون غيرهم ؛ وتلهم ثانيتهما وجود فريق من المسلمين لا يستجيب إلى دعوة الجهاد استجابة حسنة ، محتجا بأعذار لا تتسق مع الإيمان والإسلام الصحيح .

(١٣) وفي سورة الأنفال الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ . لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ . قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ . وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ . . . »

٣٦ ـ ٤٠

ولقد نزلت سورة الأنفال عقب انتصار المسلمين في بدر الكبرى ، فتكون هذه الآيات تعقيبا على ذلك الانتصار ؛ وقد انطوى فيها صورة ما لاستعلاء المسلمين وشعورهم بالعزة بعد ذلك الانتصار ، كما احتوت عرض الصلح والتوبة على الكفار ، والانتهاء من موقفهم العدائي والجحودي ؛ ولهذا العرض بعد ذلك الانتصار معناه الرائع القويّ كما هو واضح ، سواء من ناحية الشعور بالعزة أو من ناحية الرغبة في الحلم عند القدرة ،

أو من ناحية الاستفادة من فرصة انكسار الكفار ؛ وقد احتوت الآية (٣٩) تقريراً لحد رئيسي من حدود الجهاد في الإسلام ، وهو قتال الأعداء المحاربين إلى أن تزول قدرتهم على الفتنة والصدّ عن سبيل الله ، أو ينتهوا عن موقفهم العدائي الباغي .

ومع خصوصية نزول الآيات المباشرة فإن ما احتوته من تقريرات مما يدخل في سلك المبادئ الجهادية المستمرة التلقين ، وخاصة هدف الجهاد الذي هو رد البغي ووقفه عند حد تضمن به حرية الدعوة ، والتساهل مع من يجنح إلى الارعواء والانتهاء من موقف العداء والبغي .

الصّورة السّادسة

(١٤) وفي سورة الأنفال الآيات التالية أيضا :

« إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ . وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ . وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . . . » ٥٥ ـ ٦١

إذ احتوت تعليما لما يجب أن يكون مع الناكثين للعهد ومع من يخشى غدره وخيانته من المعاهدين ؛ فالناكثون يجب أن يحاربوا ، ومن يخشى غدره وخيانته يجب أن يحذر ويقابل بالمثل ، ومع ذلك فإن جنح أولئك أو هؤلاء إلى السلم فيجب أن يجنح إليها معهم أيضا ، ومما يجب على كل حال أن يستعد للعدو بكل وسائل الاستعداد دون ما تهاون أو بخل ، ففي هذا إرهاب للعدو المعروف والعدو الماكر الذي لا تعرف حقيقة أمره قد يغني عن الاشتباك .

وفي كل هذا مبادئ جليلة للجهاد الإسلامي وأهدافه متسقة مع ما نبهنا إليه من أن هذا الجهاد هو دفاع ومقابلة ، وتنكيل بغادر أو ناكث أو خائن ، وإرهاب للعدو ، وأن الأصل فيه أن يكون بقدر ما تدعو الضرورة وحسب .

والآيات في أصلها وسبب نزولها المباشر تتضمن ـ كما هو المستلهم من مضمونها وروحها ـ صوراً لواقع الحال في العهد النبوي المدني فوق ما تتضمنه من مبادئ وتلقينات جليلة مستمرة المدى ، إذ تلهم أنه كان ثمة كفار معاهدون لم يتورعوا عن نقض عهدهم مرة بعد مرة ، معاهدون تخشى خيانتهم ، وكما كان هناك أعداء متكتمون يتربصون الدوائر بالمسلمين زيادة على الأعداء العلنيين ؛ وهكذا تبدو صورة لما كان يحدق بالنبي والدعوة والمسلمين من أخطار ومكايد ، وما كانت الحاجة والحكمة تقضيان به من اتخاذ الوسائل والاستعداد والحذر والإقدام في سبيل دفع تلك الأخطار وإحباط هذه المكايد. ولقد ذكرنا في فصل اليهود أن بعض هذه الصور متصلة بمواقف اليهود في المدينة ، فنكتفي هنا بالإشارة إلى ذلك .

(١٥) وفي سورة الأنفال أيضا الآيات التالية :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ . وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ . . .

١٥ ـ ١٦

٢ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ... ٤٥ ـ ٤٦

وقد احتوى الأولى تشديداً بعدم التولي والفرار من المعركة حينما يتلاقى المسلمون مع الكفار الأعداء ، إلا إذا كان هذا بسبب تدبير حربي، كما احتوت الأخرى حثا للمسلمين

على الثبات أمام الأعداء وذكر الله ؛ إذ تمتلئ به نفوسهم قوة وطمأنينة ، وأمراً بالطاعة لله ورسوله ، وعدم التنازع لأن فيه الفشل والهزيمة . ومضمون الآيات وروحها يلهمان – على ما يتبادر – أنها نزلت أو نزل بعضها بمناسبة أخطاء أو مواقف خطرة أو غير مستحبة بدت من بعض المسلمين في ظروف الوقعة ، ولكن الله سلم فلم تكن ذات تأثير كبير في المعركة ونتيجتها ، فاقتضت حكمة التنزيل إنزالها لتكون معقبة ومنبهة للمسلمين السامعين من جهة ، وتلقينا مستمر المدى للمسلمين في كل آن ومكان من جهة أخرى .

(١٦) وفي سورة الأنفال أيضاً الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ . ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ .. » ٦٤ – ٦٦

وقد احتوت الآيتان الأولى والثانية أمراً للنبي بحث المسلمين على القتال ، وطمأنة لقلبه بكفاية من معه من المسلمين المخلصين ، وبشرى لهم باستطاعتهم أن يغلبوا عشرة أمثالهم من الكفار لأنهم يستمدون دونهم من إيمانهم واطمئنانهم بحسن العاقبة على كل حال القوة والصبر والإقدام ، أما الآية الثالثة فيبدو أنها نزلت بعد الثانية بمدة ما ، وقد روي أن المسلمين خشوا أن تكون الآية الثانية تفرض عليهم مقابلة عشرة أمثال عددهم وعدم التولي والفرار من أمامهم ، فنزلت بالتخفيف .

والآيات مما نزل عقب وقعة بدر ، مثل معظم آيات السورة ، وقد تلهم أن ما احتوته إنما هو ترديد لما كان من سير وقعة بدر ونتيجتها الباهرة ، إذ ثبت مع النبي المسلمون المخلصون من المهاجرين والأنصار وانسحب المنافقون ، وإذ قابلوا ثلاثة أمثالهم عدداً من كفار قريش ونصروا عليهم .

(١٧) وفي السورة نفسها الآية التالية أيضاً :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . . . » ٧٢

وهي تؤكد واقع الأمر من تبادل الولاء والنصر وإيجابهما بين الأنصار والمهاجرين دون الذين لم يهاجروا من المسلمين ، وتحتوى صورة أخرى من صور واقع الحال ، وهى وجود مسلمين متخلفين في دار الكفر عن الهجرة واللحاق بدار الإسلام في المدينة ، وكان تخلفهم بإرادتهم . وقد احتوت الآية تعليما للنبي والمسلمين من المهاجرين والأنصار للموقف الذي يجب أن يقفوه منهم ؛ فليس عليهم أي واجب من ولاء أو تضامن مع المتخلفين في الشؤون العادية ، ما دام تخلفهم قد كان بإرادتهم وارتضوا لأنفسهم الانفراد في دار الكفر ، لأن هذا الواجب إنما هو بين المسلمين الذين جمعت بينهم وحدة الدار والجهاد ، وحفزهم إخلاصهم لدينهم إلى ترك دار الكفر ولو خسروا أموالهم ونأوا عن وطنهم وذوي أرحامهم ، أما إذا وقع على المتخلفين اضطهاد بسبب دينهم ، واستغاثوا بهم ، فعليهم أن يسرعوا إلى نجدتهم إذا لم يكن بينهم وبين المستنصر عليهم ميثاق وعهد ! ومع أن من المحتمل أن يكون هذا التعليم قد استهدف حمل المتخلفين على الإسراع في الهجرة ، فإن مافيه تشديداً على احترام العهود والمواثيق بالغ الروعة ، يدل على ما كان يستهدفه التنزيل القرآني من ذلك الاحترام وترسيخه في نفوس المسلمين ؛ ولا يماري إلا مكابر في أن النبي والمسلمين قد التزموا ذلك بكل دقة . وإطلاق الآية يجعل ما تضمنته من التعليم مستمر التلقين ببالغ روعته وعظيم مداه وهدفه كما هو واضح .

الصورة السابعة

(١٨) في سورة التوبة الآيات التالية .

« بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ. وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ . فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... » ١ ــ ٥

ومعظم فصول سورة التوبة مما نزل في أواخر العهد المدني ؛ وهذه الآيات تلهم أنها مما نزل بعد الفتح المكي بمدةما ؛ واستثناء المشركين المعاهدين الذين يظلون أوفياء لعهدهم دون ما كيد ولا نقض من البراءة ، والأمر بالوفاء معهم إلى مدتهم ، قرينة حاسمة على أن المقصود من البراءة المشركون المعاهدون الذين لم يفوا بعهودهم ، ونكثوا أو ظهر منهم ختل وتلاعب فيها ؛ كما أنه قرينة حاسمة على أن الآية الأخيرة هي بصدد هؤلاء فحسب ؛ وليس معنى هذا أن مدى الأمر الذي احتوته لا يتناول المشركين المحاربين ، فإن الاستمرار في قتال هؤلاء غرض أصيل لا يحتاج إلى أمر جديد بطبيعة الحال ؛ وهكذا يبدو من خلال الآيات أنه كان بعد الفتح المكي مشركون معاهدون موفون بعهدهم ، ومشركون معاهدون ناكثون فيها ، زيادة على المشركين المحاربين .

والآيات قد احتوت مبادئ بالنسبة للمشركين المعاهدين الموفين والغادرين ؛ فالغادرون يقاتلون باستمرار إلى أن يتوبوا ويرعووا ويسلموا ، والموفون يوفى معهم إلى مدتهم ؛ وحينئذ إما أن يتجدد العهد معهم أو يعودوا إلى الموقف الذي كانوا عليه قبل العهد وهو موقف المحارب المعتدي ؛ ومما لا ريب فيه أن هؤلاء هم على بينة من هذا

الأمر ، وأنهم يعرفون أن الميثاق القائم بينهم وبين المسلمين إنما هو ميثاق هدنة سلم وصلح موقوتة الأجل ؛ ومما لا ريب فيه أن هذه المبادئ هي التي كانت ناناظماً للموقف بين المسلمين والمعاهدين ، كما أنها غدت تشريعاً مستمر المدى .

ولقد يرد سؤال عما إذا كان مبدأ قتال المشركين المحاربين أو المعاهدين الناكثين منهم إلى أن يسلموا لم يأت ناسخاً أو معدلا للمبادئ والتقريرات القرآنية السابقة من أنه لا إكراه في الدين ، ومن أن غاية الجهاد هي رد بغي المشركين وعدوانهم إلى أن ينتهوا عن موقفهم وتتوطد حرية الدعوة والمسلمين ؟

ومع أن عبارة الآية الرابعة قد تتحمل هذا المدى فإن المتبادر من روح ومضمون الآيات جميعا أنها لم تلغ مبدأ التعاهد ، فضلا عن أنها لم تلغ مبدأ عدم قتال المسالمين والحياديين وغير المحاربين ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فما دامت الحرب مع المشركين قد كانت في أصلها ردا على عدوان ، ومقابلة على بغي وصد وأذى ، وما دام استئنافها مع المعاهدين الناكثين إنما كان بسبب هذا النكث الذي يتضمن معنى العدوان والبغي أيضاً ـ فليس مما يتحمل نقداً أو مماراة أن يكون المسلمون في الخيار بحيث لا يقبلون منهم عهداً ، أو بالأحرى بحيث لا يطمئنون إلى عهد جديد منهم ، ولا يرون ضمانة إلا إسلامهم وانتهاءهم من موقف المحارب المناوئ والخائن المتربص . وفي آيات أخرى قريبة من هذه الآيات سنوردها بعد تدعيم قوي لما نقول .

ولقد قلنا إن الآيات تلهم أنها نزلت بعد الفتح المكي ، استلهاماً من الآية الثالثة التي تلهم أن البراءة أو الأذان قد أذيع يوم الحج الأكبر ، وطبعاً لا يمكن أن يكون هذا إلا إذا كان المسلمون هم أصحاب الأمر في الحج . وقد أيدت الروايات هذا ، وذكرت أن البراءة أذيعت في السنة التاسعة التي تولى فيها إمارة الحج أبو بكر الصديق رضي الله عنه بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وفي هذا وتؤيده الآيات صورة من العهد ، إذ يبان منها ما صار إليه الإسلام من قوة ونفوذ بعد الفتح . وفيها إلى ذلك

صورة لقوة وصدق المبادئ القرآنية إذ استمر القرآن يحث على الوفاء من ناحية، ويشجع على التوبة ويعد بالعفو عما سلف من ناحية مع ما صار للمسلمين من قوة بأس، وعزة جانب، وشيوع سلطان وكلمة؛ وفيها أيضاً صورة ثالثة وهي أن المعاهدين الذين ظلوا أوفياء والمعاهدين الناكثين من المشركين هم غير أهل مكة الذين خضعوا لسلطان الإسلام ودانوا به عقب الفتح؛ وقد روت الروايات أسماء قبائل من العرب في منطقة مكة.

وهذا إلى جانب مشركين كانوا ما يزالون محاربين.

ولما كانت الآيات قد نزلت كما قلنا في أواخر العهد المدني أو قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بنحو عام فقد صح أن يقال إن حرمة الأشهر الحرم وتحريم القتال فيها قد ظلا من المبادئ القرآنية المكررة: وكل ما صار من أمر هو تحليل القتال فيها ضمن الرخصة والضرورة اللتين ذكرتا في آيات البقرة ١٩٤ و ٢١٧ على ما شرحناه في مطلع هذا المبحث.

(١٩) وفي سورة التوبة الآية التالية أيضاً:

« وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ... » ٦

وهي تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بإجارة من يريد أن يأتي إليه ويسمع منه، وبإعادته إلى مأمنه سالماً؛ وقد روي أن بعض المشركين الذين كانوا يودون الوفادة على النبي صلى الله عليه وسلم تخوفوا من البراءة التي أذيعت يوم الحج الأكبر وذكروا ذلك لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، فنقله إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت الآية؛ وليس في الرواية ما لا يتسق مع مدى الآية؛ وهكذا يكون قد انطوى في الآية صورة لما صار إليه أمر المسلمين من قوة وعزة وهيبة، ولما صار ينبثق في نفوس العرب

من رغبة في الوفادة على النبي صلى الله عليه وسلم والاستماع إليه بعد أن انهدم الستار الكثيف بينهم وبينه بالفتح المكي .

(٢٠) وفي سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ . ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ . فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ . أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ... » ٧ ـ ١٦

وفي هذه الآيات تدعيم لما قررناه قبل قليل ، وتنظيم للموقف الذي وجب على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن يقفوه من المشركين المعاهدين ؛ فالذين لا يبدو منهم للعهد إخلاص خالص من كل شائبة كيد وغدر ، هم في الحقيقة أعداء للمسلمين ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم خداعاً ، وهم المعتدون والصادون في الأصل عن

سبيل الله ، ولا يمكن أن يكونوا موضع ثقة واطمئنان إلا إذا تابوا عن شركهم وغدرهم وأسلموا وقامت أخوة الدين بينهم وبين المسلمين . وفي الآيات صور لواقع الحال إذ تلهم أنه كان هناك معاهدون مريبون في تصرفاتهم ، ومعاهدون من منطقة المسجد الحرام لم يبد منهم أمارات نكث صريحة فأوجبت الآيات الوفاء لهم ما داموا موفين بالعهد للمسلمين ، أما إذا نكثوا وعادوا إلى بغيهم وصدهم فقد وجب عدم التواني في قتالهم لا سيما أنهم كانوا أعداء محاربين للمسلمين قبل العهد ، وهم الذين بدا منهم ما بدا من بغي وصد واضطرار النبي إلى الخروج . . .

وجملة (وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة) في الآيات قد تلهم بقوة أنها نزلت قبل الفتح المكي وأن المقصود منها أهل مكة ومن دخل في صلحهم في عهد الحديبية كما تلهم أنهم وإن لم تبد منهم أمارات نكث فإن ذلك مما هو متوقع منهم . هذا في حين أن الآيات الأولى من السورة صريحة بأنها نزلت بعد الفتح المكي . وهكذا نكون أمام مجموعتين من الآيات كل منهما مستقلة عن الأخرى في ظرف النزول ولكنهما تحتويان صوراً متشابهة وتماثلان في المدى والتلقين بحيث يصح أن يقال إنه كان قبل الفتح معاهدون من المشركين مريبون ، ومعاهدون متظاهرون بالوفاء ؛ وإنه كان بعد الفتح أيضا مثل ذلك ؛ وقد جاء التنظيم القرآني واحداً لكلا العهدين ، وهو الوفاء للموفين ، والتنكيل بالناكثين والمريبين ، والحض على قتال الناكثين قوي ، وفيه معالجة روحية امتزجت بشيء من العتاب والإنذار ، وينطوي في هذا صورة من صور موقف المسلمين من الدعوة إلى القتال ، إذ تلهم صيغة الآيات ١٣ ـ ١٦ أن بعض المسلمين كانوا يترددون في الاستجابة إلى داعي الجهاد ويتخوفون عواقبه ، ولعل هذا مما يقوي ما أشرنا إليه من أن أهل مكة هم المقصودون ، وأنه كان يتوقع منهم نكث صريح للعهد القائم بينهم وبين المسلمين . وسنورد بعد هذا آيات تقوي هذا الاستنتاج أيضا .

(٢١) وفي سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ . قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ... » ٢٣ ـ ٢٤

والمتبادر أن النهي الشديد الوارد في الآيات موجه إلى المهاجرين ، وأن الآيات نزلت قبيل الفتح المكي ؛ ويمكن أن تلهم أنها نزلت في ظروف أخذت تبدو فيها أمارات النكث بصلح الحديبية صريحة من أهل مكة ومن دخل في صلحهم ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يتهيأ لغزو مكة ويدعو إليه ؛ وفي هذا تدعيم للاستنتاج الذي استنتجناه في آخر الفقرة السابقة .

والآيات تدلنا من جهة أخرى على أن بعض المسلمين المهاجرين كانوا يقاسون أزمات نفسية في اضطرارهم إلى الوقوف من ذوي قرباهم موقف العداء ، وأن بعضهم كان رغم إخلاصه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الاستشعار بصلة الرحم برغم ما في ذلك من ضرر للمصلحة العامة ، وأن بعضهم كان يفعل ذلك محافظة على ماله من مصالح مادية في مكة ؛ ولعل هذا مما يفسر لنا سبب شدة الآيات ، ليكون الأمر محسوماً ومأمون الخطر ، لا سيما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان على أهبة غزو مكة . وفي الآيات صورة لواقع الحال قبل الفتح ؛ إذ كان لبعض المهاجرين أقارب ذوو رحم قريبة كآباء وإخوان أو ما في مثابتهم من أعمام وأخوال وبني أعمام وبني أخوال ما يزالون كفاراً في مكة مندمجين مع أهلها في موقف العداء من النبي والمسلمين الذين منهم المهاجرون الذين بينهم وبينهم مثل هذه القريبة .

(٢٢) وفي سورة التوبة أيضاً الآية التالية :

« إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْـداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِـكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُـوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ... » ١١١

وقد احتوت تقرير مبدأ إسلامي جهادي رائع وعام من الناحية الإيمانية ، وهو أنه حينما يؤمن المسلم يكون كأنه باع نفسه وماله لله ، وأن الله يكون اشترى ذلك منه بالجنة ؛ وبمعنى آخر : إن المؤمن لا يكون مؤمناً حقا إلا إذا أقدم بنفس طيبة على الجهاد بماله ونفسه حينما تدعو مصلحة الإسلام والمسلمين . وقد احتوت الآية طمأنة عظيمة للمسلمين ليقدموا على إجابة داعي الجهاد بكليتهم .

ولقد نزلت الآية في ظروف غزوة تبوك وحين أوبة الحملة من الرحلة إلى المدينة كما يستلهم من سياقها ، وقد يكون في هذه الظروف ما اقتضت الحكمة معها نزولها للتنويه بجيش المؤمنين الجرار الذي اشترك في الحملة وإقدامهم وحسن استجابتهم ، ولهذا صلة بمشاهد السيرة النبوية الجهادية كما هو واضح .

(٢٣) وفي السورة نفسها كذلك الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ . مَا كَانَ لِأَهْـلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيـلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ ٱلْـكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ... »

١١٩ — ١٢١

وهذه الآيات مثل الآية السابقة نزلت في ظروف غزوة تبوك وحين أوبة الحملة من الرحلة إلى المدينة ؛ وقد احتوت عتاباً ما للذين تخلفوا أو حدثتهم أنفسهم بالتخلف عن الحملة من مخلصي المسلمين من سكان المدينة والأعراب ، لما في ذلك من دلالة عدم التضامن والوهن لقوة الإسلام ؛ كما احتوت حثا لعامة المسلمين على تقوى الله والتضامن مع الطبقة الأولى من المؤمنين الصادقين الذين تضامنوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الحملة وتجهيزها بكليتهم ؛ وفي هذا وذاك صلة بمشاهد السيرة النبوية الجهادية كما هو واضح ، فوق ما في الآيتين من تلقين مستمر المدى بعدم تخلف المسلمين في أي وقت عن الاستجابة إلى داعي الجهاد ضد أعدائهم ، وبوجوب تضامنهم مع دعاة الجهاد منهم ، وبث الطمأنينة فيهم .

(٢٤) وفي السورة نفسها الآية التالية :

« وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ . . . » ١٢٢

وقد احتوت الآية مبدأ من مبادئ الجهاد الإسلامي وصورة لواقع الحال في العهد النبوي ؛ والمبدأ هو أن نطاق النفرة إلى الجهاد ينبغي أن يكون على حسب الضرورة ؛ وأنه ليس من الضروري أن ينفر إليه جميع المسلمين بل يكفي أن يشترك فيه جميع فئاتهم ومناطقهم بفصائل أو فرق بقدر ما تقتضيه تلك الضرورة ؛ أما الصورة فهي بسبيل توكيد أن الجهاد في العهد النبوي كان تطوعيا وليس إلزاميا . ولعل المبدأ مما سوّغ للعلماء أن يقولوا إن الجهاد فرض كفاية ، إذا اشترك فيه فريق سقط عن الباقي ، وإن لم يقم به أحد أثم الكل ؛ غير أننا نرى أن يزاد إلى هذا وجوب الاشتراك بقدر ما تقتضيه المصلحة والضرورة ، لا مجرد الاشتراك ؛ إذ يكون هذا غير مجز وإذن لا يرتفع الإثم عن القاعدين .

والآية مما نزل عقب الأوبة من غزوة تبوك على ما يلهمه سياقها السابق ولقد روي في صددها أن المسلمين بعد أن سمعوا التقريع القرآني الشديد في حق المتخلفين والمعتذرين القاعدين اعتزموا تجنب ذلك ، وأخذوا يسارعون إلى استجابة الدعوة بغض النظر عما كان لهم من أعذار وأسباب مانعة مشروعة ، فكان في ذلك مشقة كبرى خففتها عنهم الآية . ومضمون الآية مما يلهم صحة الرواية ، ولعل هذا كان منهم حينما استنفر النبي صلى الله عليه وسلم إلى غزو البلقاء وأخذ يجهز من أجل ذلك جيش أسامة بعد عودته بقليل من تبوك ؛ وهكذا تكون الآية قد احتوت أيضا صورة لرد فعل التقريع القرآني في عامة المسلمين .

(٢٥) وفي السورة نفسها الآية التالية أيضا :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ... » ١٢٣

وقد قيل في صددها إنها نزلت مبكرة ثم نسخت بفقرة « وقاتلوا المشركين كافة » الواردة في الآية ٣٦ من سورة التوبة . ويبدو هـذا القول غريباً ؛ ولعل الأمثل أن تكون قد جاءت عقب الآية السابقة لتقرير مبدأ آخر من مبادئ الجهاد الإسلامي من الناحية التنظيمية ، وهو عدم توزيع المسلمين قواهم ، ومقاتلة الأقرب فالأقرب إليهم من الكفار وعدم الهوادة معهم ، أو مقاتلة كل صقع إسلامي من في منطقته منهم ؛ وإن كنا نرجح الأول . والمبادئ القرآنية والنبوية المحكمة التي نوهنا بها قبل تسوغ القول إن المقصود من جملة (الذين يلونكم من الكفار) الأعداء منهم وليس قتال كل كافر حيادياً كان أم معاهداً أم مسالماً أم عاجزاً .

وعلى كل حال فإن الوقائع الجهادية النبوية قد سارت على الأسلوب الأول الذي استلهمنا أن الآية قد أشارت إليه ، إذ كان يقاتل الأقرب فالأقرب من أعداء الإسلام البغاة والمعتدين ، فلا يشتغل بأناس حتى يكون آمناً أو فارغاً من غيرهم ، وهذا

ما كان في غزوتي خيبر وتبوك ، ووقائع بني قينقاع والنضير وبني قريظة ، مما مر تفصيله ، وما كان في غيرهما مما سوف نلم به بعد ، وحكمة هذه الخطة في غنى عن التعليق ، ولعل في هذا ما يقوي استلهامنا من الآية .

الصورة الثامنة

(٢٦) وفي سورة محمد التي تسمى أيضا سورة القتال الآيات التالية :

« ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ . فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ... » ١ — ٧

وقد احتوت الآيات حثا قوي الأسلوب على الجهاد ، والشدة في القتال مع الكفار إذا ما صار اللقاء بينهم في المعركة والإثخان فيهم ؛ وتعبير « وصدوا عن سبيل الله » و « إذا لقيتم » قرينتان حاسمتان على أن الحث ليس على قتال الكفار إطلاقاً ، بل على قتال الذين صدوا عن سبيل الله واضطهدوا الناس ومنعوهم عن الإسلام منهم ، والذين كانت حالة الحرب قائمة بينهم وبين المسلمين . وقد احتوت تقريراً لمبدأ تشريعي للأسرى كان من دون ريب ناظما لتصرف النبي فيهم ، فضلا عن أنه ناظم تشريعي عام ؛ إذجعل أمر الأسرى للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن تنتهي المعركة ، فإما أن يسرحهم عفواً ومنا

بدون فداء ، وإما أن يستوفي منهم الفدية ويسرحهم ؛ ومما يلفت النظر أنه ليس في هذا المبدأ استرقاق للأسرى مع أن بعض الروايات ذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى استرقاق سبي هوازن ، وأنه استرق سبي بني قريظة وباعه حيث يكون عمل النبي صلى الله عليه وسلم تشريعاً تفسيرياً لما سكتت عنه الآية وهو مصير الذين لا يرى السلطان الإسلامي مصلحة في إطلاق سراحهم بدون فداء ولا يفتدون أنفسهم .

وفقرة « ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض » تلهم أنه كان يحيك في نفوس بعض المسلمين أمنية ، وهي أن يسحق الله الكفار البغاة دون ما حاجة إلى اشتباك المسلمين معهم في حرب يتحملون آلامها وشدائدها ؛ فردت الآية معللة بأن الاشتباك إنما هو اختبار لهم ، وفي هذا على كل حال صورة طريفة لحالة واقعية إزاء الجهاد والدعوة إليه .

(٢٧) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

١ — وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ... ٣١

٢ — فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ... ٣٥

وقد احتوت الأولى تقريراً بأن الحرب مع الكفار هي ابتلاء للمسلمين ليتميز منهم المجاهدون والصابرون عن غيرهم ؛ وهذا التقرير مشابه لما قررته الفقرة التي نوهنا بها آنفاً ، ودال على أن التردد الذي كان يحيك في نفوس بعض المسلمين ظل يبدو أثره ، فاقتضت الحكمة توكيد التعليل للطمأنينة .

وقد احتوت الآية الثانية نهياً للمسلمين عن الضعف والتواني في الجهاد والجنوح إلى السلم إيثاراً للعافية ، وقد يلهم هذا أنه كان يبدو على فريق من المسلمين ـ ولعله الفريق الذي تضمنت الآية الأولى والفقرة التي نبهنا إليها الإشارة إليه ـ توان

في الاستجابة إلى داعي الجهاد ، ورغبة في مسالمة الكفار ، وأسلوب الآيات يدل على أن هذا الفريق ليس من المنافقين ، فاحتوت تحذيراً ونهياً رقيقين ، وحفزاً وتثبيتاً نافذين ، وهما في الوقت نفسه مستمرا التلقين والإلهام في الظروف والمواقف المماثلة .

(٢٨) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ . إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ(١) تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ . هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ... » ٣٦ ـ ٣٨

والآيات تستهدف تهوينا للمادة وتنديداً بالبخل والبخلاء ، وتقريراً بأن البخل إنما يضر صاحبه ، وحثا ضمنيا على الإنفاق في سبيل الله ؛ وهي إلى مافيها من تلقين قوي مستمر المدى تتضمن كما يتبادر ما يلهم أنه كان يبدو من فريق من المسلمين شح وقبض يد ، وتردد في الاستجابة السريعة السمحة إلى دعوة الجهاد بالمال ؛ ويبدو أن هذا مما كان متمكنا وكثير الشيوع بحيث اقتضت الحكمة أن تكون الآيات بالأسلوب الإنذاري الشديد الذي جاءت به .

الصورة التاسعة

(٢٩) وفي سورة الحجرات الآيات التالية :

« وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ

---

(١) فيشدد عليكم في التكليف .

بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ... ٩ ـ ١٠

والآيات ليست في صدد الجهاد الإسلامي ضد الأعداء ، غير أنها احتوت مبدأ جليلا في تنظيم الموقف بين المسلمين في حالة اقتتال فريق مع آخر منهم ، مما يلهم أنها نزلت في ظرف حادثة واقعية من مثل ذلك ، وهذا ما يجعل المناسبة قائمة لإيرادها في هذا المبحث .

ولقد احتوت الآيتان تعليما تام الأركان رائع المدى بشأن ما يقوم من نزاع وقتال بين فريقين مسلمين ، موجهاً إلى فريق ثالث ليس طرفا في النزاع ، وموجبا عليه ألا يقف منه موقف الساكت المتفرج ، بل يسارع إلى فضه وإقامة الصلح والسلام بين المسلمين، وإحقاق الحق لأهله بدون محاباة ، ونصرة المظلوم المبغي عليه بالسلاح إذا لم يرتدع الظالم ويقف عند الحق والعدل وحدود الله .

ومما روي أن الآيتين نزلتا بمناسبة نزاع بين عائلتين متصاهرتين انتهى إلى الاقتتال، وهو ما تلهمه الآيتان ، وفيه صورة متصلة بمشاهد وقائع المسلمين في أثناء السيرة النبوية ، غير أن أسلوبهما المطلق التشريعي يجعل ما احتوتاه مما يتسع لأمور أعظم وأعم ؛ ولقد يكون من ملهمات تطبيقهما احتمال قيام حكومات إسلامية عدة ، ووجوب قيام الأخوة والتضامن والاتحاد بينهما ، وإقامة العلاقات بينها على أساس العدل والحق والأخوة ، فإذا ما نشب خلاف وقتال بين حكومتين منها وجب على سائرها التدخل لحل المشكل على ذلك الأساس ، والتضامن في فرض قبول الحق على المبطل ولو أدى ذلك إلى قتاله . وإذا لاحظنا أن مثل هذا النظام هو أسمى الأماني التي يتوق إلى تحقيقها العالم ويرى أن السلام والحق لا يتوطدان إلا بها ؛ بدا لنا ما فيه من جلالة وروعة وخطورة .

الصورة العاشرة

(٣٠) وفي سورة الحديد الآيات التالية :

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ . . . »

١٠ ـ ١١

ويبدو من خلال الآيات أنها نزلت بعد الفتح المكي ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد وسّع دعوته إلى الإنفاق والجهاد حتى يتمكن من التنكيل بأعداء المسلمين وتوطيد السبيل إلى نشر كلمة الله على أوسع ما يكون بعد أن زال العائق المهم وهو مكة ، كما يبدو أيضاً صورة واقعية لفريق من المسلمين لم يستجيبوا استجابة سمحة وكافية للدعوة ، ولم يعطوا إلا القليل محتجين بالزهيد الذي كان ينفقه المسلمون قبل الفتح ؛ فاقتضت الحكمة الإيحاء بها مندّدة معاتبة ، ومبينة للفرق العظيم بين ما قبل الفتح وبعده ، منوهة بفضل الذين استجابوا إلى دعوة الجهاد بالنفس والمال قبله مهما كان نطاق ذلك ، وحافزة لهم اللاحقين . وهكذا تكون الآيات قد احتوت ـ بالإضافة إلى ما احتوته مما ذكرناه ـ مبدأ مستمر التلقين بأفضلية المقدمين في الأزمات واشتداد الأخطار .

(٣١) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

١ — إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ...

١٨ ـ ١٩

٢ — سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ . مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ

إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ . لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ . . .

٢١ ـ ٢٤

ويلمح خلال الآيات صورة واقعية لفريق أمسك يده عن الإنفاق ، ودعا غيره إلى ذلك ، كما تلمح صورة واقعية أخرى لحادث استشهاد أو لحادث أليم أصاب بعض المسلمين ، واقتضت الحكمة تسكين ذويه من جهة والحيلولة دون جعل هذا الحادث وسيلة للشح أو الانقباض عن الجهاد بالمال والنفس من جهة أخرى ؛ ولقد تخلل الآيات آية فيها تمثيل للحياة الدنيا بالزرع الذي ينبت بعد المطر ثم لا يلبث أن يجف ويغدو هشيما ، وأنها لا يصح لعاقل أن يغتر بها ويركن إليها بل يسارع إلى ابتغاء رضاء الله وما عنده من الفضل والمغفرة ؛ وفي كل هذا معالجة نفسية لذلك الحادث وآثاره على ما هو المتبادر ؛ وطبيعي أن فيما احتوته الآيات من التنويه بالمتصدقين والشهداء ، والحملة على البخلاء والمحرضين على البخل ، والمختالين المتفاخرين كذباً وغروراً ، هو ـ بالإضافة إلى ما توحي به من أهداف متصلة بمشاهد وظروف السيرة ـ غرض مستمر التلقين والإلهام .

ويلاحظ تشابه موضوع الآيات التي أوردناها في الفقرة السابقة من السورة وهذه الآيات ، مما يمكن أن يلهم أن الصورة التي اقتبسناها لم تكن ضيقة النطاق .

الصّورة الحادية عشرة

(٣٢) وفي سورة الممتحنة هذه الآيات :

١ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ

سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ . إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ . لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . . .

١ ـ ٣

٢ ـ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . . .

٧ ـ ٩

والآيات الأولى احتوت نهيا شديداً عن اتخاذ الأعداء أولياء ومبادلتهم المودة ولو كانوا ذوي أرحام وقربى لما في ذلك من خطر على كيان المسلمين ومصالحهم ، وتذكيراً بما كان من هؤلاء الأعداء من بغي وعدوان وكفر وصد وأذى ؛ ومع أن المروي أن الآيات نزلت بمناسبة أن أحد المسلمين أرسل رسالة إلى زعيم مكي ينذره باستعداد النبي صلى الله عليه وسلم لغزو مكة ، ومع احتمال صحة الرواية ، فإن الآيات تلهم أن العتاب المرير الذي احتوته أوسع شمولا ، وأن موقف الموادّة الذي وقفه بعض المهاجرين نحو أقاربهم من مشركي مكة أكثر من أن يكون حادثاً فرديا ، كما أنها تحتوي دلالة على ما كان يثور في نفوسهم من أزمات لاضطرارهم إلى قتال أولئك الأقارب ؛ والرواية لا تذكر أن المسلم أرسل الرسالة إلى أقاربه ، بل إلى زعيم مشرك ليصطنع لديه يداً يحقق بها لنفسه منفعة شخصية ، في حين أن الآيات تذكر الأرحام والأولاد مما يدعم صحة استلهامنا المذكور . ولقد تكرر النهي بأساليب متنوعة أوردنا بعضها في الفقرة (٢١) مما يدل على تكرر المواقف والأزمات ، ويدعم ما استلهمناه من سعة الشمول

وأن الحادث ليس فرديا ، بحيث اقتضت الحكمة تكرار النهي لمعالجة موقف خطر وخطير في آن واحد ؛ ومع خصوصية المناسبة التي نزلت فيها الآيات ففيها من دون ريب تلقين مستمر المدى ، ومبدأ من المبادئ الجهادية وغير الجهادية ، وهو عدم جواز اتخاذ المسلمين أعداءهم أولياء أو مبادلتهم المودة ، لاسيما الذين بادءوهم بالعداء ، واستمروا يتربصون بهم الدوائر ، ويريدون لهم السوء ولا يألون جهداً في الكيد لهم في كل فرصة وموقف .

والآيات الأخرى احتوت تحديد النهي المشدد في الآيات الأولى ، وحصره فيمن يقاتل المسلمين في الدين ويظاهر عليهم ، وأباحت بل حثت على البر بمن يقف منهم موقف المسالمة ويكف عنهم يد الأذى والكيد ولا يظاهر عليهم أعداءهم ؛ والآية (٧) خاصة تلهم صحة ما ذكرناه مما كان يعتلج في نفوس بعض المهاجرين من أزمات ، وتستهدف ــ فيما هو المتبادر ــ تهدئتها ، إذ تطمئنهم باحتمال انقلاب أولئك الأعداء أصدقاء وتبدل العداء بالمودة ؛ والآية (٨) قد استهدفت حل المشكلة حلا ما زيادة في التوسعة والتهدئة وذلك بإباحة البر والقسط للمسالم الحسن النية وتقوية الحجة على الضارين المؤذين . وهكذا يبدو واضحاً أن الآيات متصلة بمشاهد السيرة النبوية ، ومعالجة الحالات النفسية وغير النفسية التي كانت تبدو في ظروفها . ومع خصوصية الآيات ففيها من دون ريب تلقين مستمر المدى ، ومبدأ محكم جليل من المبادئ التنظيمية للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين ، يظل خالد الروعة على مر الدهر .

الصورة الثانية عشرة

(٣٣) وفي سورة الصف الآيات التالية :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ . . .

٢ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ . . .

١٠ ـ ١٤

فالآيات الأولى تتضمن صورة لموقف بعض المسلمين في عدم تأييدهم قولهم بالفعل في الجهاد ، وعدم استجابتهم للدعوة إليه والتضامن فيه استجابة شافية ، كما أنها تلهم أن هذا الموقف قد أثار أزمة شديدة في نفس النبي والمخلصين ؛ بل إن الإطلاق فيها ليلهم أن هذا الموقف لم يكن حادثا فرديا بل كان مما يتكرر حدوثه ، الأمر الذي يلهم ما تكرر من الآيات المنددة حينا والحاثة حيناً ، مما أوردناه في بعض فقرات هذا المبحث .

والآيات الأخرى احتوت عودا على بدء في الحث على الجهاد بأسلوب آخر فيه قوة وفيه بشرى وليس فيه ذلك العتاب المرير ، وفيه كذلك تمثيل بموقف الحواريين من عيسى عليه السلام ، حفزاً لهم المسلمين ودعوة للتأسي بهم ، وقد يبدو أن ما انطوى في الآيات الأولى من صورة قد كانت شديدة الأثر بحيث اقتضت الحكمة العودة إلى الموضوع بهذا الأسلوب في السورة نفسها .

والآية (١٣) وإن تكن تعد بالنصر والفتح ، مما اتخذه بعض المغرضين وسيلة إلى

القول بأن الغنيمة كانت هدفاً من أهداف الجهاد النبوي والإسلامي ، فإن مما يجدر التنبيه إليه أن هذا الوعد لم يكن هو الرئيسي في الآيات ، وإنما جاء تالياً ؛ على أن النصر والفتح لا يعنيان الغنائم أو الغنائم فحسب كما هو واضح فوق أن هذا مما يتسق مع طبائع الأمور وحقائق الأشياء ، وليس فيه ما يتحمل غمزاً ولا نقداً ما دام داعي الجهاد هو رد البغي والدفاع ، وتوطيد حرية الدعوة والدين .

المبحث الثاني

في الوقائع الجهادية

طريقة استعراض الآيات والصور ـ صور من سورة البقرة للاشتباكات الجهادية الأولى بين المشركين والمهاجرين ـ صورة قرآنية لوقعة بدر وظروفها ونتائجها ـ خلاصة الروايات عنها ـ تعليقات متنوعة ـ صورة قرآنية لوقعة أحد وظروفها ونتائجها ـ خلاصة الروايات عنها ـ تعليقات متنوعة ـ تعليق على ترتيب سورتي الحشر والأحزاب ـ صورة قرآنية لوقعة الخندق وأثرها ونتائجها ـ خلاصة الروايات عنها ـ تعليقات متنوعة ـ صورة قرآنية لوقعة الحديبية وظروفها ونتائجها ـ خلاصة الروايات عنها ـ تعليقات متنوعة ـ صور قرآنية لأحداث متصلة بصلح الحديبية ـ الإشارات القرآنية الغامضة في القرآن إلى فتح مكة ـ خلاصة الروايات عنه ـ تعليقات متنوعة ـ صورة قرآنية ليوم حنين ـ خلاصة الروايات عنه ـ مدى حظر دخول المسجد الحرام على المشركين الوارد في القرآن وصلته بإسلام أهل الطائف ـ صورة قرآنية لسلاح الشعر في الجهاد .

الصورة الأولى

سنستعرض في هذا المبحث الفصول القرآنية التي تنطوي ـ على حسب ما تبادر لنا وذكره الرواة المفسرون ـ على وقائع جهادية . سواء منها المهم والثانوي ، على حسب ترتيب وقوع هذه الوقائع الذي تواترت الروايات عنه وأيدته روايات ترتيب النزول أيضاً . وقد رأينا أن نكمل الصور القرآنية لكل وقعة ذكرت في القرآن بإسهاب أو اقتضاب أو إشارة ، بالروايات الواردة عنها في كتب السيرة والتفسير ، مع إبداء ما يعن من ملاحظات في صدد ذلك .

الصورة الثانية

(١) في سورة الحج هذه الآية :

« أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . . . »

وهي تلهم أن المسلمين كانوا يقاتلون فأذن الله لهم بالدفاع ووعدهم بالنصر . وأكثر الرواة على أن هذه الآية مع الآية التي قبلها والآيتين اللتين بعدها أول ما نزل في العهد المدني في صدد الجهاد . فيكون فيها أولى إشارة إلى واقعة جهادية في وقت مبكر من هذا العهد ؛ لأن جملة (يقاتلون) لا يمكن أن تحمل إلا على ذلك فيما هو المتبادر .

(٢) وفي سورة البقرة هذه الآيات :

« وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ . وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ . ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ... »

١٥٤ ــ ١٥٦

وهي تلهم أن بعض المسلمين استشهدوا في سبيل الله فهدفت إلى تسلية ذويهم وإيذان المسلمين بأنهم سوف يتعرضون لمختلف أنواع البلاء في سبيل الله . والمتبادر أن هذا الاستشهاد قد كان نتيجة عدوان أو اشتباك مع العدو . وسورة البقرة من أوائل ما نزل من القرآن في العهد المدني . فيكون في الآيات كذلك إشارة أولية إلى واقعة جهادية في وقت مبكر من العهد المدني كذلك .

(٣) وفي سورة البقرة هذه الآيات :

« وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ . وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ . فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ . ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ

عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . . . » ١٩٠ ـ ١٩٤

والآيات تأمر المسلمين بقتال من يقاتلهم في حدود معينة .وهي ذات صلة بهذا المبحث من حيث أنها تفيد أنه كان هناك من يقاتل المسلمين منذ وقت مبكر من العهد المدني .

(٤) وفي نفس السورة هذه الآيات :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . . . »

٢١٧ ـ ٢١٨

والآيات تلهم أن اشتباكاً وقع في الشهر الحرام بين فريق من المسلمين وفريق من المشركين فأثار المشركون ضجة حول ذلك وزعموا أنه خرق لتقليد الأشهر الحرم المقدس. ويبدو أن الضجة أثرت في بعض المسلمين وجعلتهم يتساءلون هذه الأسئلة التي رددتها الآيات . وقد ردت الآيات على الضجة رداً مفحماً فيه تبرير لما وقع وثناء وتنويه عن المجاهدين المسلمين .

ولقد روى رواة السيرة[1] خبر بضع حوادث جهادية في شكل سرايا سيرها النبي صلى الله عليه وسلم في بحر الشهور السبعة عشر التي أعقبت الهجرة وسبقت وقعة بدر المشهورة . منها واحدة بقيادة حمزة عم النبي . وثانية بقيادة عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عم النبي . وثالثة بقيادة سعد بن أبي وقاص . ورابعة بقيادة عبد الله بن جحش

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ٤٣ ـ ٤٩ وابن هشام ج ١ ص ٢٢٣ ـ ٢٤٣ .

رضي الله عنهم وذلك بالإضافة إلى غزوتين خرج النبي صلى الله عليه وسلم على رأسهما واحدة إلى الأبواء وثانية إلى الأبواء. وهذه الغزوات والسرايا كانت تخرج على ماذكرته الروايات لاعتراض قوافل قريش . وكانت هذه القوافل تنجو فلم يقع قتال بين المسلمين وقريش باستثناء سرية عبد الله بن جحش حيث وقع بينها وبين المشركين اشتباك في مكان يعرف ببطن نخلة . وكانت في الشهر السابع عشر للهجرة . وقد قتل المسلمون واحداً من المشركين وأسروا اثنين وغنموا القافلة . وجميع المجاهدين في هذه الغزوات والسرايا كانوا من المهاجرين . وآيات البقرة ٢١٧ ـ ٢١٨ نزلت في صدد هذا الاشتباك الذي اشتبه في وقوعه في شهر رجب الحرم . وآية البقرة (٢١٨) تؤيد ما روي من أن المجاهدين في هذه السرايا والغزوات كانوا من المهاجرين فقط كما هو المتبادر من نصها . وقد عللت الروايات أن عهد الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم كان للدفاع والحماية في دارهم وكان الثأر بين المهاجرين والمشركين فقط لسابق ما سلف منهم ضدهم فلم يندب النبي صلى الله عليه وسلم لها إلا المهاجرين . وهو تعليل وجيه .

وواضح من الروايات أن هـذه الغزوات والسرايا كانت حركات هجوميـة من المهاجرين ضد قريش . هذا في حين أننا نقرأ جملة (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) في آية الحج (٣٩) وجملة (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) في آية البقرة (١٩٠) وجملة (وما يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) في آية البقرة (٢١٧) وجملة (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء) في آية البقرة (١٥٤) .وكل هذا يفيد أن المشركين كانوا يقاتلون المسلمين وأن من المسلمين من استشهد في القتال . فنحن نسجل هـذا لأن نصوص الآيات تفيده وإن لم نطلع في الروايات على ما يوضحه .

الصورة الثالثة

(٥) وسورة الأنفال ـ التي يجيء ترتيبها في النزول بعد سورة البقرة ـ احتوت فصولا أجمع المفسرون والرواة على أنها في صدد وقعة بدر الكبرى ، واسم هذه الوقعة قد

ورد في الآية التالية من سورة آل عمران ـ التي يجيء ترتيب نزولها بعد الأنفال ـ على سبيل التذكير بنصر الله فيها ، والتسلية عما كان من آلام وقعة أحد على المسلمين :

١ — وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . . .

١٢٣

أما فصول سورة الأنفال فهي هذه :

١ — يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . . .

١ ـ ٤

٢ — كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ . لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ . إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ . إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ

ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ . . .

٥ ـ ١٤

٣ — فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ . إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . .

١٧ ـ ١٩

٤ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ . وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ . . .

٢٠ ـ ٢٨

٥ — إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ . لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي

جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ . قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ . وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَـٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ . وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ...

٣٦ ـ ٤٤

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ . وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

غرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . . . »

٤٥ ـ ٤٩

٧ — مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ...

٦٧ ـ ٧٢

وهذه الفصول قد نزلت بعد الوقعة ، والمتبادر المستلهم من أسلوبها ومضامينها أنها نزلت بقصد تنبيه المسلمين إلى ما كان من تأييد الله لهم وعدم إمكان انتصارهم لولا ذلك وإيجاب الرضاء عليهم بقسمة الغنائم ، أو بتعبير أدق بفرز الخمس منها ، وإطاعة الله ورسوله وعدم التنازع والشقاق ، والتذكير بموقف المنافقين ، وتأييد ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في الأسرى ، مع العتاب عليه لأنه خلاف الأولى ؛ ومع ذلك فإن من الممكن أن تقتبس منها صورة كاملة إلى حد ما لأسباب الوقعة وسيرها ونتائجها ، نرسمها كما يلي :

١ ـ إن الله قد ألهم نبيه الخروج إلى العدو فندب المسلمين إلى ذلك ، ممنيا إياهم بأن تكون لهم الغلبة على الطائفة غير ذات القوة التي أجمع المفسرون والرواة على أنها قافلة تجارية لقريش قادمة من الشام .

٢ ـ لقد لبى الدعوة المهاجرون والأنصار معا .

٣ ـ لم يتحقق الأمل بلقاء القافلة ، ووجد المسلمون أنفسهم أمام الحملة المستعدة للحرب والتي جاءت لإنقاذ القافلة بناء على استصراخ قائدها ، والمجهزة بالعدة والعدد ، والتي تفوقهم كثيرا في هذا وذاك .

٤ ـ لقد كان رأي النبي صلى الله عليه وسلم وقد خرج ملهما إلى العدو أن يناجز الحملة ، فكان هذا موضع أخذ ورد ؛ وقدجادل بعض المسلمين النبي في هذا الرأي معتبرين أنفسهم كأنما يساقون إل الموت من جراء لقاء عدو أكثر عددا وأقوى عدة ؛ غير أنه لم يكن للجدل محل لأن الحرب أصبحت واجبا لا محيص عنه بعد أن علم كل فريق بالآخر.

٥ ـ إن كلا من الفريقين نزل في منطقة واحدة على غير ميعاد ، إذ كان المسلمون في طرف الوادي الأدنى والمشركون في طرفه الأبعد ، حتى أصبح تجنب الحرب غير ممكن بحال .

٦ ـ إن المشركين قبل أن يلقوا المسلمين كانوا يستشعرون القوة والبطر ، وقد أنفقوا لتجهيز الحملة طائل الأموال ، وذهبوا قبل السفر إلى آلهتهم واستفتحوها ، أي طلبوا منها النصر والفتح على النبي وصحبه .

٧ ـ إن المسلمين والمشركين معا قد قدر كل منهم خصمه أقل عددا مما هو ، كما أن النبي صلى الله عايه وسلم رأى المشركين في منامه كذلك أقل مما هم ، فكان هذا من أسباب إقدام كل من الفريقين على المناجزة .

٨ ـ إن النبي صلى الله عليه وسلم حينما احتدمت المعركة أخذ يستغيث الله فألهم أنه ممده بألف من الملائكة بقصد البشرى والتثبيت .

٩ ـ لقد كان في ظروف المعركة بعض مظاهر تأييدية للمسلمين طمأنتهم بأن الله معهم ؛ فقد كانوا تعبين قلقين فلم يقدروا أن يناموا مع شدة حاجتهم إلى النوم ، فألقى الله في قلوبهم الطمأنينة وغشاهم النعاس فناموا واستراحوا ؛ وكانت حاجتهم ماسة إلى المطر فأمطروا وقضوا بذلك حاجاتهم .

١٠ ـ إنه كان ثمة خلاف ونزاع بين المسلمين في صدد قسمة غنائم الوقعة ، وإنه بدا من بعضهم شيء من التردد في قبول وتنفيذ واستماع أقوال ومقترحات النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن هذا أوشك أن يجر إلى الفتنة .

١١ ـ إن النبي صلى الله عليه وسلم أوعز بعدم الإثخان الشديد في العدو وأسر من يمكن أسره دون قتله منهم ، وإنه رأى بعد المعركة أن يطلق سراح الأسرى مقابل الفدية على أن يأخذ منهم عهداً بعدم خيانته أو حربه أو الكيد له مرة أخرى ، وإن الآيات بحق الأسرى قد نزلت قبل إطلاق سراحهم معاتبة على هذا الرأي الذي هو خلاف الأولى ، ومجيزة له مع ذلك ، وآمرة النبي بوعظ الأسرى وترغيبهم وإنذارهم . وطبيعي أنه نفذ أمر الله ووحيه .

الصورة الرابعة

والروايات [1] المعتبرة تتسق إجمالا مع الصورة التي أمكن اقتباسها من الآيات مع بعض تفصيل نلخصه كما يلي :

علم النبي صلى الله عليه وسلم أن قافلة تجارية لقريش آتية من الشام ، وليس معها حامية كافية ؛ فندب المسلمين للخروج لعل الله يهبها لهم ؛ فخرجوا خليطاً من المهاجرين والأنصار ؛ وفي الطريق عرفوا أن القافلة نجت ، وأن حملة قوية آتية من مكة ، فاقترح بعضهم العودة وعدم الاشتباك لأنهم إنما خرجوا للقافلة ، غير أن فريقاً آخر من المسلمين أبدوا استعدادهم للاشتباك ؛ وبعد التشاور تم الرأي على ذلك ؛ ومما ذكرته الروايات أن النبي لم يعزم على الدخول في المعركة إلا بعد أن أعلن زعماء الأنصار رضاءهم واستعدادهم للدخول فيها ، إذ طلب أن يشير عليه الناس حتى فهم الأنصار أنه يعنيهم ، فقال له زعماؤهم : امض يا رسول الله لما أمرك الله ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت البحر بنا لخضناه . وذلك لأنه لم ير له حقا عليهم في الحرب خارج المدينة ، لأنهم إنما وعدوه

---

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ٥٠ ـ ٦٩ وابن هشام ج ٢ ص ٢٤٣ ـ ٤٢١ .

بالحماية والدفاع عنه في دارهم ، وقد اطمأن بعض المشركين بنجاة القافلة فاقترحوا العودة ، فأبى بعض صناديدهم إلا البقاء على ماء بدر يشربون ويطربون ، ابتهاجاً من جهة وإظهاراً لقوتهم من جهة أخرى ؛ وقد اشتبك المسلمون مع المشركين وكانوا يبلغون ثلاثة أمثالهم ، فثبت الله المسلمين وشملتهم عنايته وروحانيته ، واستغرقوا حتى رأوا الملائكة تقاتل معهم ، وأخذوا يتحدثون بذلك ، وصبروا واستماتوا حتى تم لهم النصر ، وقتل في المعركة نحو سبعين من المشركين فيهم عدد غير يسير من الصناديد الذين قادوا حملة المشاقة والمعارضة في مكة ، كما أسر نحو هذا العدد : فيهم عم النبي العباس وبعض أقاربه ، وقد نصب للنبي عريش لمشاهدة سير المعركة ، فكان يضرع فيه إلى الله ليؤتيه النصر بشدة واهتياج ، هاتفاً لربه بقوله : « اللهم إذا غلبت هذه الفئة فلن تعبد في هذه الأرض » ؛ وقد اختلف المسلمون بعد المعركة في شأن توزيع الغنائم ، فمنهم من رأى أن توزع على الذين حاربوا ، ومنهم من رأى أن توزع على من حضر المعركة حارب أو لم يحارب ، كما كان اختلاف بشأن أسلاب القتلى ونسبة التوزيع بين الركبان والمشاة ـ ومما ذكرته الروايات أيضاً أن زعماء مكة تخوفوا من بني كنانة أن يأتوهم من خلفهم إذا هم خرجوا ، فتمثل إبليس لهم بصورة زعيم بني كنانة وقال لهم إني جار لكم فلا تخشوا من قومي بأساً ؛ وأن النبي شاور أصحابه في شأن الأسرى فمنهم من ارتأى قتلهم لإرهاب أهل مكة ـ وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من هؤلاء ـ ومنهم من جنح إلى الرفق وأخذ الفداء ـ وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه من هؤلاء ـ فأخذ النبي برأيه ؛ ثم نزل القرآن بالعتاب حتى بدا الخوف على النبي وصاحبه وبكوا لما كان منهم من خلاف الأولى الذي في علم الله المغيب عنهم .

وإذا كان ثمة شيء من التعليق على الروايات التي قلنا أنها تتسق إجمالا مع الآيات فهو أن الصورة القرآنية أقوى وضوحاً وحيوية من الروايات ؛ وأن الآيات تلهم أن الخلاف في صدد الغنائم إنما كان على فرز الخمس أكثر منه على طريقة التوزيع ومقداره ،

لأن الكلام فيها مصبوب على ذلك ، وأكثر ما جاء في صدد نصر الله وتأييده قد استهدف تشريع الخمس ، وإيجاب قبوله والرضاء به .

ويلمح من الفصول ومن الآيات ٥٥ ـ ٦٣ التي نقلناها في مبحث التنكيل باليهود والآيات ٦٥ ـ ٦٩ التي نقلناها في مبحث الدعوة إلى الجهاد ، ما كان للانتصار من أثر في استعلاء الإسلام ، وشعور المسلمين بالعزة والقوة والتأييد الرباني الذي غلبت به فئة قليلة فئة كبيرة ، والرغبة في اعتبار الفرصة سانحة لدعوة الكفار الذين كانت الضربة عليهم قاصمة إلى الانتهاء من موقفهم الجحودي والعدائي ، وللتنكيل بالناكثين والخائنين ، وهم يهود بني قينقاع ، على ما ذكرناه في مبحث التنكيل .

الصُّورة الخامسَة

ونريد أن ننبه إلى بعض نقاط تلهمها الآيات والروايات التي تتسق معها ؛ فالذي يتبادر لنا أن تردد بعض المسلمين في الاشتباك مع القرشيين ، ورغبة النبي صلى الله عليه وسلم في الاستماع إلى رأي الأنصار في ذلك ـ ينطوي على ما كان مقدراً للنضال بين مشركي مكة والمسلمين في المدينة ـ وخاصّة أهلها الذين لم يكن قد قام بينهم وبين أهل مكة عداء صريح ـ أن ينتهي إليه من مظهر عنيف بهذا الاشتباك أخذت تبدو آثاره الخطيرة فيما كان من اشتداد أحقاد المكيين وتحفزهم للانتقام لدمهم وهيبتهم ، وفيما كان بعد ذلك من غزوهم المدينة أولا وثانياً بحشود عظيمة أزعجت المسلمين أيما إزعاج وأوشكت أن تكون كارثة على الإسلام ،

ومما لا نرتاب فيه من الناحية الثانية أن النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه المخلصين وخاصة كبار المهاجرين منهم قد رأوا في احتمال انتصارهم على المكيين فوائد عظيمة بعيدة المدى ، سواء فيما يكون من إزعاجهم بتهديد طريق تجارتهم وهي من دعائم كيانهم القوية ؛ أو فيما يكون لهزيمتهم من أثر عظيم من ناحية إضعاف هيبة مكة ونفوذها على العرب ، ومن ناحية تعالى قوة الإسلام ، وانفساح المجال لانتشار الدعوة الإسلامية

بالتبعية ، فكان هذا مما جعلهم يقدمون ، لا سيما أن وعد الله قد تكرر لهم بلسان القرآن بالنصر والتأييد ، وكانوا يؤمنون أعمق الإيمان بتحقيق الله وعده لهم ، ولعل في الآيات ٧ ـ ٨ و ١٣ ـ ١٦ ما يقوي هذا التقرير .

ولقد أحدث اشتراك أهل المدينة في المعركة تطوراً عظيماً وحاسما في موقف كل من المدينتين الكبيرتين تجاه الأخرى ، وكان بدءا لعهد عداء صريح وقوي بين الأوس والخزرج من ناحية ، والمكيين من ناحية أخرى لم يكن له سابقة ؛ وهو ماحسب هؤلاء حسابه وعواقبه حينما أزمعوا اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم وعدم تمكينه من الإفلات من أيديهم والهجرة إلى يثرب على مانبهنا إليه في مناسبة سابقة ؛ كما أنه أحدث تطوراً بارزاً في التضامن القوي الدموي ـ بعد الديني ـ بين المهاجرين والأنصار ؛ وهو مااستهدفت الآية (٧٢) تقريره على ماهو المتبادر ، بحيث اعتبرت الولاء بينهم أمراً راهناً وموطداً دون المؤمنين الذين لم يهاجروا .

وكذلك كان تشريع خمس الغنائم ذا خطورة عظيمة ، من ناحية أنه أول تشريع قرآني مالي رسمي غير الزكاة توطد به بيت المال في الإسلام ؛ وتيسر به تحقيق مادعا إليه القرآن من مساعدة الطبقات المحتاجة والإنفاق في سبيل مصالح المسلمين العامة بأسلوب رسمي غير قائم على التبرع ولا ريب في أن توطيد بيت المال في العهد المدني ، وتعيين حق ثابت له يتسلمه وينفق منه أمر عظيم المدى .

الصّورة السّادسة

ولأجل الترتيب التاريخي في ذكر الوقائع الجهادية نذكر بما مر في فصل اليهود مما استدللنا عليه من بعض آيات سورة الأنفال وغيرها من ظروف ونتائج وقعة بني قينقاع ، ومن أنها قد وقعت بعد مدة قليلة من وقعة بدر ، وكان لهذه الوقعة أثر مافي ظروف وقوعها أيضا .

الصورة السابعة

(٦) وسورة آل عمران التي يجيء ترتيبها في النزول بعد سورة الأنفال احتوت فصولا عدة أشير فيها إلى حوادث وقعة حربية بين المسلمين والمشركين دارت فيها الدائرة إلى حد ما على الأولين ؛ وهذه الوقعة لم يرد اسمها في القرآن ، ولكن الروايات أجمعت على أنها وقعة أحد ، حتى ليعدهذا يقينا . وأحد : جبل مشرف على المدينة ؛ وقد كان المشركون أهل مكة قد جاؤوا ينتقمون لهزيمتهم ودمهم وكرامتهم فى وقعة بدر .

وإليك أولا الفصول القرآنية :

١ — وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ . وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ . بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ . وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ . لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ . لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ... ١٢١ — ١٢٨

٢ — قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ . هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ . وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ . أَمْ

حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ . وَلَقَدْ
كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ . وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا
رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ
عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ .وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ
إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ نُؤْتِهِۦ
مِنْهَا وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ . وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟
لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ . وَمَا كَانَ
قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا
عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ . فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ
فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ . بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ . سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ
مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ . وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا
وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ
ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ . إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ
أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ
وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ . ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً
مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل
لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ
يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ

ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ . وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ . فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ . إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ . وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ...

١٣٧ – ١٦١

٣ — لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ . أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ . ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . وَلَا تَحْسَبَنَّ

ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ . ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ . فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ . إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ... ١٦٤ ـ ١٧٩

الصورة الثامنة

ويصدق ماقلناه في صدد فصول سورة الأنفال على هذه الفصول من حيث أنها نزلت بعد انتهاء المعركة ؛ وقد استهدفت في الدرجة الأولى طمأنة المسلمين وتسليتهم عما حل بهم من أثرها ، وعتابا على ما كان من بعضهم في ظروفها ، وتقريع المنافقين على مواقفهم فيها ، والتنويه بالمخلصين لما بدا منهم من حسن الاستجابة ، وتوجيهات للنبي صلى الله عليه وسلم في مداراة المسلمين الخ . . . ومع ذلك فإن من الممكن أن

يقتبس منها كذلك صورة كاملة إلى حد ما لسير المعركة ونتائجها نرسمها كما يلي :

١ ـ إن المعركة وقعت قرب المدينة ، إذ غدا النبي صلى الله عليه وسلم من أهله لاختيار مكان صالح للقتال ؛ وقد كانت في طرف الجبل الثاني ، إذ أن المسلمين حينما انهزموا أخذوا يصعدون حتى يبلغوا الذروة لينحدروا منها إلى المدينة .

٢ ـ إن المهاجرين والأنصار قد اشتركوا في المعركة .

٣ ـ إن فريقا من المنافقين أيضا قد خرج مع من خرج من المؤمنين ، كما أن فريقا آخر ظل قاعداً ولم يخرج وحاول تثبيط من يتصل به من المسلمين .

٤ ـ لقد دار جدل ووقع خلاف على الخطة التي يجب السير عليها . وكان زعماء المنافقين في جانب الذين رأوا غير ما تم تنفيذه برأي النبي وموافقة أكثر المسلمين ، أو بالأحرى ذوي الرأي منهم .

٥ ـ إن فريقاً من المسلمين كانوا تحمسوا للقاء العدو حينما علموا بقدومه ، وأخذوا يتحدون الموت ، ويبدون استعدادهم للقائه .

٦ ـ إن المنافقين الذين خرجوا مع المسلمين انسحبوا قبل نشوب المعركة بحجة أنهم لا يعتقدون بنشوبها .

٧ ـ إن فريقين من المخلصين ـ والمقصود على الراجح بطنان أو طائفتان من بطنين ـ داخلهم شيء من الوهن وكادوا ينسحبون ولكن الله ثبتهم .

٨ ـ لما دارت المعركة كان النصر في بدئها للمسلمين ، إذ أخذوا يثخنون في أعدائهم ويرون ما يحبون من النصر والغلبة ، وكادوا يكسبون المعركة ؛ وقد كان فريق من المسلمين قد أمروا أن يكونوا في موقف خاص فلما رأوا النصر يكاد يتم للمسلمين اقترح بعضهم ترك المكان واللحاق بالمسلمين لمشاركتهم في الغنائم خشية أن تؤخذ من دونهم ، وألا ينالوا من النبي حقهم فيها ؛ وخالف ذلك البعض الآخر مفضلين التمسك بطاعة النبي فيما أمر ورضاء الله حتى انشقوا وتنازعوا ، ثم فارق الذين اقترحوا ترك المكان مكانهم

فاختل التدبير الحربي ، ولم يلبث أن تغير الموقف وانقلبت الحرب على المسلمين بسبب ذلك ، ودب الذعر فيهم وانهزموا صاعدين في الجبل لا يلوون على شيء .

٩ ـ إنه شاع أثناء المعركة ـ أو بالأحرى في أثناء بلبلة الهزيمة ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل فكانت الشائعة سببا في اشتداد الذعر والهزيمة .

١٠ ـ إن النبي صلى الله عليه وسلم ظل ثابتا في الميدان يدعو الناس إليه ؛ وقد استجاب له فريق من المخلصين وأمكن بذلك تغطية الموقف وتلافي الهزيمة التامة .

١١ ـ لقد استشهد من المسلمين فريق وأصيب بجراح فريق .

١٢ ـ إنه كان للمنافقين بعد المعركة موقف كيد شديد استهدفوا به فيما استهدفوا إثارة غيظ المسلمين على النبي صلى الله عليه وسلم والذين تضامنوا معه من المخلصين ، وتحقق شيء مما استهدفوه إذ اندمج بعض هؤلاء معهم في العتب واللوم والقول بأنه ليس لنا من الأمر من شيء ولو أخذ برأينا لما وقع علينا ماوقع وقتلنا في الميدان؛ وقد حاول بعض المنافقين تثبيط بني قومهم في بدء الأمر ؛ ثم أخذوا يهتفون قائلين إن إخوانهم لوأطاعوهم ماقتلوا حيث قتلوا .

١٣ ـ لقد داخل المسلمين شيء كثير من الحزن والجزع والألم على ماوقع لهم ، وعلى من استشهد منهم ، حتى لقد اندمج بعضهم في تهويش المنافقين ودسهم ، وكاد بعضهم يستجيب إلى دعوة دعا إليها الكافرون كما يستلهم من الآية ١٤٩ وإن لم تعين ماهية الدعوة ؛ وأكثر الفصول تدور على هذا المظهر ، بل إنه ليصح أن يقال إنها نزلت في صدده لتسلي المسلمين ، وتبث فيهم الطمأنينة والسكينة ، وتبشرهم وتعظهم وتقرر أن ما كان إنما كان بأيديهم فقد نصرهم الله وأراهم مايحبون ، ولكنهم فشلوا وتنازعوا وعصوا فابتلاهم بما بُلوا به ليعتبروا وليتعظوا ، وإن ماوقع عليهم هو نصف ما أصابوا به عدوهم ؛ ولتنوه بالثابتين المخلصين ، ولتندد بالمنافقين وتفضحهم ، وتبشر المسلمين بحسن العاقبة ، وخسران الكفار في النهاية مهما ظهر عكس ذلك الخ . . والآية ١٥٨

تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قابل هذه الأزمات النفسية بصدر رحب ، وجأش رابط ، وأن هذا أدّى إلى تخفيف هذه الأزمات شيئاً ما .

١٤ ـ إنه نمي للنبي أن المشركين يهمون بالكرة عليهم ثانية فندب الناس فاستجاب إليه المخلصون بالرغم مما أصابهم من آلام وتعب وجراح ، وإن بعض الناس حاولوا تخويفهم الأعداء فجاءت محاولتهم بعكس ماأرادوا إذ ازدادوا إيماناً واعتماداً على الله وساروا مع النبي صلى الله عليه وسلم أو لبثوا ينتظرون كرة العدو ، ولكنه لم يفعل فعادوا دون أن يمسهم سوء .

الصورة التاسعة

والروايات[1] متسقة إجمالا كذلك مع الآيات إلا بعض تفصيل نلخصه فيما يلي :

حينما بلغ النبي خبر عزم المكيين على غزو المدينة استشار المسلمين المخلصين وغير المخلصين ـ المنافقين ـ في الموقف ، فأشار الأكثر بالتحصن في المدينة ، والاستعداد لقتال العدو إذا هاجمهم في عقر بيوتهم ، فإما أن يحجم فيرتد وإما أن يفعل والنصر لصاحب الدار على ماتعودوا ؛ وقد جنح النبي إلى هذا الرأى في بادئ الأمر ؛ غير أن فريقا من المسلمين ـ وتذكر الروايات أنه من الشباب الذين لم يشتركوا في بدر وسمعوا من أخبارها ما ألهب حماستهم لنيل نصر مماثل ينالون به ثناء الله ورضاءه ، والفخر والاستعلاء ـ أخذوا يتحمسون ويبدون استعدادهم للموت ، واستعظامهم وقوف المسلمين هذا الموقف الدفاعي البحت الذي يكشف عن خوف ووهن ، ويلحون بالخروج ومقابلة العدو خارج الجدران ، إلى أن مال النبي إلى ذلك ، فدخل بيته ولبس عدة قتاله وندب الناس إلى الخروج وفي وجهه شيء من الاستكراه ؛ وقد ندم الملحون على إلحاحهم وأعادوا الأمر إلى النبي فآذنهم أنه لا يصح لنبي لبس عدة حربه أن يخلعها قبل أن يقاتل ، وأكد نداءه للخروج ، فخرجوا في نحو ألف ، وكان عدد الغزاة نحو ثلاثة آلاف ؛ وقد أعلن عبد الله بن أبي أنه قرر

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ٧٨ ـ ٩٠ وابن هشام ج ٣ ص ٣ ـ ١٦٠ .

الانسحاب فانسحب معه نحو الثلث ؛ وقد أثر هذا ببطنين من بطون الخزرج حتى هما أن ينسحبا ثم عادا وثبتا ؛ وقد أمر النبي فريق الرماة باحتلال مكان عال من وراء الميدان ، ورشق العدو بالنبل وحماية ظهر إخوانهم ، وشدد عليهم بعدم مزايلة مكانهم في أي حال ، ثم دارت رحى القتال فوقع الرعب في قلوب المشركين ، ولاحت أمارات الهزيمة عليهم ؛ ورأى الرماة ذلك فوسوس الشيطان لهم بالنزول للغنيمة ، والخوف من احتجازها دونهم ففعلوا ؛ ولما رأى قائد فرسان المشركين خلو مكان الرماة اغتنم الفرصة فدار بخيله من وراء المسلمين وفاجأهم فاضطربوا وذعروا ثم انهزموا لا يلوون على شيء ونال النبي عدة جروح وسقط في حفرة وظن الناس أنه قتل فازداد المسلمون ذعرا وبلبلة وذهب عدد غير يسير من المسلمين شهداء ، وقد ثبت النبي صلى الله عليه وسلم في الميدان وحوله بعض المخلصين ، وأرسل يهتف بالمنهزمين ليطمئنوا ويعودوا ، وأخذ بعض الثابتين والعائدين يستميتون في الدفاع عنه ، وألقى الله الأمن في قلوبهم والخوف في قلوب أعدائهم الذين اكتفوا بما كان وقفلوا راجعين دون التحام آخر ، هاتفين : إن هذا اليوم بيوم بدر ، متواعدين بالهتاف المتبادل على موعد آخر . ومما روي أن المكيين ندموا على ترك المسلمين وقد أثخنوا فيهم ، وهموا بالكرة ، ودرى بذلك النبي فندب الناس إلى الخروج ثانية ، فاستجاب المخلصون مع ماهم فيه من جراح وبلاء ومع مانقل إليهم من قبل بعض القادمين المتواطئين مع العدو من أخبار التجمع ؛ وقد وصل المسلمون إلى مكان يقال له حمراء الأسد فلم يجدوا عدواً لأن المكيين لم ينفذوا عزيمتهم وظلوا في طريقهم إلى مكة ؛ ومما روي أن بعض المنافقين طلبوا من عبد الله بن أبيّ زعيمهم أن يتصل بأبي سفيان ويأخذ للمدينة منها أمانا ، وأن الذين تذمروا التذمر الذي حكته الآية ١٥٤ كانوا من المنافقين فقط ؛ ولقد عاتب النبي النبالة على مزايلتهم مكانهم وقال لهم : بل ظننتم أننا نستأثر بالغنائم فلا نقسم لكم فيها .

الصورة العاشرة

وإذا كان لنا تعليق على الروايات فهو أن الصورة القرآنية أقوى حيوية ووضوحاً منها ، وأن الآيات ١٥٤ ـ ١٦١ تلهم أن الذين حكي تذمرهم في الآية ١٥٤ ليسوا منافقين أو على الأقل ليسوا منافقين فقط ، وأن بعض المسلمين من الطبقة الثانية قد اشتركوا في هذا التذمر متأثرين بشدة الضربة النازلة ؛ وأن هذا التذمر من فريق قليل يلهم أن الخروج إلى مقابلة العدو لم يكن من رأي أقلية وبتأثير حماسة الشبان ، والذي نرجحه إن لم نقل نجزم به أن النبي استشار مختلف الزعماء من الأنصار والمهاجرين والمنافقين، وأن الخروج قد تم بموافقة أكثر المخلصين من الأنصار والمهاجرين ولا يمنع هذا أن يكون فريق من الشبان بل وغير الشبان قد تحمسوا وتحدوا الموت حينما دروا بقدوم المكيين لغزو المدينة ، لا سيما أن نصر بدر وتأييدات الله التي شهدوها ما تزال ماثلة لأعينهم ومالئة لقلوبهم وأسماعهم ، فكان هذا مما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يعتزم الخروج ، وليس من الممتنع أن يكون بعض الزعماء من الطبقة الثانية قد ارتأوا مع المنافقين البقاء وراء الجدران فلم ير النبي أن يأخذ برأيهم؛ فكان هذا مما غاظهم وغاظ المنافقين خاصة فجعل بعضهم لا ينضم إلى الحملة وبعضهم ينسحب منها ، ثم جعلهم يثيرون وساوس المسلمين الذين آلمتهم عواقب المعركة شديد الألم .

وأسلوب الآيات المطمئنة المبشرة واللائمة والمسكنة والواعظة رائع قوي ، من شأنه أن يكون معالجة شافية لكل الحالات التي نشأت من ظروف الوقعة وسيرها ونتائجها ، كما أنه يدل على شدة ما كان من وقع النتائج على مختلف فئات المسلمين أيضا . وفي استنكار ما كان من هزيمة أو زيادة فوضى بسبب شائعة قتل النبي ، مدى باهر جدا في بث القوة والعزيمة والإقدام في نفوس المسلمين ، وفي تلقينهم أن واجب الاستمرار في الدفاع عن الإسلام ونشره ورفع شأنه واجب عام لا يجوز أن يقعدهم عنه أو يجعلهم يقصرون فيه أي حادث حتى قتل النبي صلى الله عليه وسلم أو موته فهما أمران طبيعيان ومنتظران ،

لأن النبي ليس إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل .

وفكرة غزو المكيين للمدينة تدل على أن المسلمين كانوا ما يزالون في حالة ضعف وقلة ، وعلى أن هذا مما كان يعرفه المكيون حق المعرفة ، فضلا عن دلالتها على تفوق مكة على المدينة في القوة والبأس بصورة عامة . وإذا صحت رواية أن عدد الغزاة كان ثلاثة آلاف ظهر هذا الضعف واضحاً أكثر ، كما أن تفكير بعض الزعماء بعدم الخروج للقاء الغزاة ، والدفاع من وراء الجدر والبيوت يؤيد هذا على ماهو المتبادر .

وموقف المنافقين في ظرف الوقعة تمرداً وتخلفاً وانسحاباً وتأثيراً وتهويشاً وتظاهراً على غير مايليق ، يدل على أنهم كانوا أقوياء إلى حد ما ، وكانوا مستشعرين بقوتهم كما كان المسلمون مستشعرين بذلك أيضاً . والآيات ١٥٤ ـ ١٦١ على ترجيح أن المتذمرين مزيج من مخلصين ومنافقين تلهم أن الحكمة اقتضت مسايرة الموقف ومداراة المنافقين ، ولا ريب في أنه ينطوي في هذا ما يدعم ما قررناه آنفا .

الصورة الحادية عشرة

(٧) وفي ترتيب النزول تأتي سورة الأحزاب بعد آل عمران ، وفيها إشارات إلى وقعة الخندق ، مشاهدها ونتائجها . غير أن المجمع عليه أن وقعة بني النضير التي أشير إليها في سورة الحشر قد وقعت قبل وقعة الخندق ووقعة بني قريظة التي كانت عقبها ، في حين أن هذه السورة تتأخر في ترتيب النزول المروي كثيراً عن الأحزاب ؛ وعلى هذا فإما أن يكون مطالع سورة الأحزاب وبعض فصولها قد نزل بعد سورة آل عمران لجعل ترتيبها بعدها من أجل ذلك ، وإما ألا يكون ترتيبها المروي صحيحاً ؛ ولما كان التنكيل ببني قريظة الذي أشير إليه في سورة الأحزاب شديدا ، ويلهم أنه كان كذلك لأسباب منها عدم اتعاظ اليهود بما كان من عاقبة جماعتهم الأولى ؛ ولما كان هذا التنكيل قدوقع متأخراً ، وكان المجمع عليه أن إجلاء بني النضير قد وقع قبله ، وأن اليهود ذهبوا بعده إلى

مكة ليعقدوا حلفاً مع زعمائها ضد النبي والمسلمين ، وظاهروا جيوش الأحزاب حينما زحفت على المدينة بقضها وقضيضها ـ فإن من المعقول أن تكون آيات الحشر التي أشارت إلى وقعة بني النضير قد نزلت قبل سورة الأحزاب ، أو على الأقل قبل آيات وقعتي الخندق وبني قريظة .

ولقد بسطنا أسباب وقعة بني النضير وظروفها ونتائجها في فصل اليهود فلا نعود إليها ثانية ، ونكتفي بالإشارة إليها ليتم التسلسل في حلقات الوقائع الجهادية القرآنية على حسب وقوعها .

الصورة الثانية عشرة

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً . إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا . هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً . وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُوراً . وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلا يَسِيراً . وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولاً . قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلا قَلِيلاً . قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً . قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلا قَلِيلاً . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ

كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَـٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً . يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً . لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً . وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً . مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً . لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً . وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً . وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً . . .

٩ – ٢٧

وليس في الآيات ذكر للخندق الذي أجمعت الروايات على أن النبي والمسلمين قد حفروه حول المدينة ، والذي سميت الوقعة به أيضاً . وقد سميت كذلك بوقعة الأحزاب بسبب ذكر القرآن هذه الكلمة ، ولأن الغزاة مجموعة قبائل متحالفة متحزبة ؛ والآيات بسبيل ذكر ما كان من حالة الجزع التي استولت على عامة المسلمين ، ومواقف الدس والتثبيط التي بدت من المنافقين ، والخيانة التي كانت من اليهود ، والتنويه بموقف النبي صلى الله عليه وسلم والمخلصين ، والتنبيه على ما كان من تثبيت الله ونصره ورد الغزاة بغيظهم خائبين ، وتمكين المسلمين من اليهود الخائنين لهم بسبيل سرد مشاهد الوقعة ؛ ومع ذلك فإن من الممكن اقتباس صورة لهذه المشاهد كما يلي :

١ – إن المشركين قد تجمعوا بجموع كثيرة ، مؤلفة من مختلف القبائل المتحالفة وزحفوا على المدينة حتى أحدقوا بها من فوقها ومن أسفل منها .

٢ – إن اليهود في المدينة قد ظاهروا الغزاة على المسلمين .

٣ – إن جمهور المسلمين قد كربوا كرباً عظيما حتى زاغت أبصارهم، وبلغت قلوبهم الحناجر وزلزلوا زلزالا شديداً من الجزع والخوف ، حتى لقد داخل بعضهم الريب في تأييد الله ونصره .

٤ – إن المؤمنين المخلصين قد سلموا أمرهم لله وازدادوا إيماناً به واعتماداً عليه ، وقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصبروا وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ولم يبدلوا موقفهم من الإيمان بالنصر والتأييد ، والتضامن مع النبي والالتفاف حوله .

٥ – إن المنافقين ومرضى القلوب أظهروا جزعاً شديداً ، واستغلوا الفرصة لإطالة ألسنتهم بالدس والتثبيط وسوء الأدب ، فقالوا إن الله ورسوله لم يعداهم إلا غروراً ، وهتف بعضهم بأهل المدينة ليرجعوا إلى بيوتهم بحجة أنها مكشوفة للعدو مع كذب ذلك ، وكان قصدهم الفرار في حين أنهم عاهدوا الله ورسوله على عدم الفرار ، وأخذوا يترقبون الحالة ، ويتوقعون الشر بالمسلمين ، حتى أنهم لم يصدقوا حينما قيل لهم إن الغزاة قد ارتدوا عن المدينة خائبين .

٦ – إن إهابة المنافقين بأهل المدينة للرجوع إلى بيوتهم وعدم البقاء في المقام الذي اتخذوه تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عسكر بالمسلمين بعيداً بعداً ما عن البيوت .

٧ – إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أظهر في هذه الوقعة ما أظهره في غيرها من رباطة الجأش وقوة الأعصاب والنشاط مما كان العامل الأكبر في العاقبة المحمودة التي تمثلت في ارتداد الغزوة دون أن ينالوا خيرا ، ومما كان أسوة للمؤمنين المخلصين ، وباعث طمأنينة لعامة المسلمين .

٨ ـ إن الله قد أرسل عاصفة من الريح أزعجت الغزاة أشد إزعاج ، وأوقع في قلوبهم الرعب فيئسوا من نيل وطرهم ، وارتدوا خائبين ، ولم يقع اشتباك بينهم وبين المسلمين .

الصورة الثالثة عشرة

وفي الروايات[1] المروية عن هذه الوقعة بعض تفصيل نلخصه كما يلي :

كان زحف الأحزاب نتيجة لتحريض وفد يهودي لزعماء مكة وقبائل غطفان وقيس وغيلان ، وتحالفهم معهم ، وكان عدد الغزاة نحو عشرة آلاف ، وكان زحفهم في السنة الهجرية الخامسة . ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم بخبر استعداد الأحزاب للغزو تشاور مع المسلمين ، فاتفق الرأي على المرابطة حول المدينة وعدم الابتعاد عنها كما كان في وقعة أحد ، وتقرر بإشارة من سلمان الفارسي رضي الله عنه حفر خندق حول القسم المكشوف من المدينة ، وتم حفره قبل وصول الغزاة ، وعسكر المسلمون من ورائه ، وكان عددهم ثلاثة آلاف ؛ وقد كان الخندق حائلا دون التشابك ؛ وظل الغزاة عشرين يوماً يحاصرون المدينة ، ولم يقع إلا حوادث قتال وبراز فردية ، وإلا تراشق بالنبال حينا بعد آخر ، ولم يصب إلا أفراد من الطرفين ؛ ثم أتى شخص من غطفان اسمه نعيم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه أنه مسلم يكتم إيمانه واستأمره فيما يقوم به من خدمة ، فأمره بالتخذيل والتثبيط ، فسعى بين اليهود وقريش حتى أوجد الشك والفتور في كل فريق نحو الآخر ، ففترت العزيمة عن المناجزة والاستمرار ، وثارت فى هذه الأثناء زوبعة شديدة أزعجت الغزاة أيما إزعاج فاشتد فيهم السأم والفتور ، ولم يلبث أبو سفيان قائد قريش أن أعلن أنه مرتحل فتبعه الناس وارتحلوا .

والروايات غير متناقضة مع الآيات إجمالا ، والمتبادر أن ما جرى في وقعة أحد هو

---

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ١٠٨ ـ ١١٦ وابن هشام ج ٣ ص ٢٢٩ ـ ٢٥٤ .

الذي حمل النبي والمسلمين على البقاء قرب المدينة ، ويبدو أن الحملة على المنافقين عقب وقعة أحد جعلتهم يعتذرون ويعاهدون النبي صلى الله عليه وسلم على التضامن معه ومع المسلمين في موقف آخر ، فخرجوا وعسكروا معهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتفلتوا من نحيزتهم وخبثهم ، ومع أن من المحتمل جداً أن يكون لتحريض الوفد اليهودي أثر في حركة الأحزاب فالذي يتبادر لنا أن المكيين اعتقدوا أن ضربة أحد أثرت في المسلمين تأثيراً كبيراً ، ورأوا أن في الإمكان استئصال شأفة النبي وحركته بزحف كبير يتضامنون فيه مع أحزابهم ومع من بقي من اليهود في المدينة ، فأقدموا على تدبير الأمر حتى جاء على هذا الشكل الرهيب .

ووصف الآيات ما كان من اضطراب المسلمين الشديد يدل على أن اعتقاد المكيين بتحقيق هدفهم المذكور لم يكن واهيا ؛ لا سيما أن المسلمين كانوا ما يزالون قليلين وضعفاء ، وقوة أعدائهم المحيطين بهم تفوقهم كثيراً ، وبينهم مخامرون ، وبين ظهرانيهم خائنون . ولعل الحملة الشديدة اللاذعة التي حملتها الآيات على المنافقين ، وما كان من عدم الهوادة في التنكيل ببني قريظة ، متصلان بهذا الموقف العصيب الذي واجهه المسلمون وواجهته الحركة الإسلامية ؛ ولذلك نرى من الحق أن يعتبر ارتداد الأحزاب عن المدينة نصراً ربانيا عظيما ، بل من أعظم ما تم للنبي ودعوته من نصر وتوفيق ؛ ومما لا نرتاب فيه أنه كان ذا أثر كبير فيما تم من تعالى الإسلام ، وانتشار قوته ودعوته فيما بعد ، وأنه كان لهذا الارتداد أثر سلبي وإيجابي في آن واحد ؛ إذ جعل العرب المتربصين والأعداء والمنافقين في المدينة يرون في هذه النتيجة دلالة النصر الرباني والقوة المعنوية العظيمة ؛ فيقف الأعداء عند حدهم ، ويكف المنافقون عن موقفهم أو علوائهم ، ويبدل المتربصون موقفهم من التربص إلى الإقبال . ومن حقائق وقائع السيرة النبوية أن الدعوة الإسلامية والقوة الإسلامية قد أخذتا بعد هذه الوقعة وبعد التنكيل ببني قريظة ، وخضد شوكة اليهود في المدينة نهائياً بالازدياد ، وأن قوة المنافقين قد أخذت بالضعف والتضاؤل ،

وأن المسكيين لم يفكروا في متابعة عدوانهم وزحفهم ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى في نفسه القوة وفي الميدان مجالا في السنة التالية من هذه الوقعة على اعتزام زيارة الكعبة ، وأن المكيين قد رأوا فيه هذه القوة ، فجنحوا إلى مسالمته وعقدوا معه صلح الحديبية على ما سوف نذكره بعد ؛ وكل هذا مما يدعم ما قلناه من أثر هذا النصر العظيم السلبي والإيجابي .

ولقد بسطنا الكلام على وقعة بني قريظة وتنكيلهم في فصل اليهود ، وهي الوقعة التي أشير إليها في آيات الأحزاب ٢٥ ــ ٢٧ ، والتي تأتي في حلقة الوقائع الجهادية القرآنية بعد وقعة الخندق ، فنكتفي بالإشارة إلى ذلك .

الصورة الرابعة عشرة

٨ ــ وفي سورة الفتح آيات احتوت إشارات إلى حدث عظيم من أحداث العهد المدني يسلكه كتاب السيرة في سلك الأحداث الجهادية بسبب ما كان فيه من مشاهد تمت إلى هذه الأحداث ، وهو صلح الحديبية .

وهذه هي آيات سورة الفتح :

١ ــ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً . لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً . وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً . هُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً . لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَالِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً . وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً ... ١ ــ ٦

٢ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً . سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً . بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُورًا . وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيراً . . .

١٠ — ١٣

٣ — لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيباً . وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً . وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيماً ...

١٨ — ٢٠

٤ — وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً . هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيماً . إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً . لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ

ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا . هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا . . . ٢٤ ـ ٢٨

وسورة الفتح أو معظم آياتها على الأقل نزل بعد الصلح ، كما هو شأن الفصول القرآنية في الوقائع الجهادية ، واستهدفت على ما تلهم مضامينها وأسلوبها التسكين والتنوية ، والتنديد والتذكير برحمة الله وعنايته بالمسلمين ، تعقيبا على ما كان من توتر بين المسلمين بسبب نتائجها ؛ ومن الممكن اقتباس الصورة الآتية عنها :

الصّورة الخامسة عشرة

١ ـ إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أنه دخل مع المسلمين المسجد الحرام آمنين ، وأدوا الزيارة ، وتحللوا من الإحرام بحلق الشعر أو تقصيره على حسب تقاليد الزيارة والحج ؛ فاعتبرها إلهاما من الله ، وأعلن للمسلمين عزمه على الخروج إلى الزيارة ، وندب المسلمين من أهل المدينة والأعراب للخروج معه .

٢ ـ وقد استجاب كثيرون إلى الدعوة ، وتخلف فريق من الأعراب عنها ظنا أن النبي صلى الله عليه وسلم سيلقى مقاومة وحربا وأنه لا قبل له بأهل مكة وقد لا يرجع هو ومن معه إلى أهلهم أبداً .

٣ ـ ولما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى قرب مكة (بطن مكة) تصدى له المكيون ، وأنذروه بالتوقف ، وصدوه عن الزيارة ، وصدوا الهدي الذي ساقه المسلمون ليقربوه إلى الله عن الوصول إلى المكان الذي تقرب فيه الأضاحي .

٤ ـ ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما كان من المكيين اعتزم هو أيضا أن يقف موقفاً قويا ، فدعا من معه من المسلمين إلى مبايعته على الثبات والتضامن ، فأقبلوا على البيعة تحت شجرة كان يأوي إلى ظلها ، وبدت أمارات ما في قلوبهم من الإيمان والعزيمة على نصرة النبي على وجوههم .

٥ ـ ولقد كانت جولة حربية ما ظفر فيها المسلمون ، ثم شاءت حكمة الله أن يكف أيدي الفريقين بعضهما عن بعض .

٦ ـ وقد تمسك المكيون ببعض الأمور التي رأوها من مقتضيات الكرامة والحمية ، فقابل النبي ذلك ـ بإلهام الله ـ بالتساهل والسكينة لما رآه في الموقف من الفتح العظيم .

٧ ـ إن روح الآيات وبعض نصوصها تلهم أن بعض المسلمين قد استعظموا ما كان من تساهل النبي مع الكفار ورضائه بعدم الزيارة التي ألهمها في منامه فورا ؛ إذ احتوت كما أشرنا طمأنة وتسكينا ؛ فكررت وصف ما تم بالفتح العظيم والفتح المبين والفتح القريب ، وكررت ذكر ما كان من إنزال الله السكينة على رسوله والمؤمنين للفوز بهذا الفتح ، وأكدت أن الله مصدق الرؤيا التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن المسلمين سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين ، وأنه أعلم منهم بما يكون ، وأن الذي كان إنما كان بأمره وتدبيره وحكمته ، ولصالح المسلمين العاجل والآجل ، وأنه قد كبت به المنافقين والمشركين الذين ظنوا بالله ظن السوء ، وأن المؤمنين المصدّقين بالله ورسوله سيكون لهم من عفو الله ونعيمه ما فيه الفوز العظيم .

٨ ـ وسين الاستقبال فيما كان متوقعا من اعتذار المتخلفين يدل على أن هذه الآيات ـ أو بالأحرى جل آيات السورة إن لم يكن كلها ـ قد نزلت عقب الوقعة ، وفي طريق العودة إلى المدينة ، بقصد الطمأنه والتسكين ، كما هو المتبادر . وهو ما ذكرته الروايات .

الصورة السادسة عشرة

ولقد احتوت الروايات[1] بعض تفصيل نلخصه فيما يلي :

إن خروج النبي والمسلمين إلى هذه الزيارة كان في أواخر السنة السادسة من الهجرة

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٣٩ ـ ١٥٠ وابن هشام ج ٣ ص ٣٥٥ ـ ٣٧٧ .

وفي أشهر حجها ، وإن عدد الذين خرجوا كان نحو ألف وأربعمائة ، وإن النبي حينما وصل إلى مكان اسمه «ذو الحليفة» أحرم وأمر المسلمين بالإحرام ، وأشعر الهدي وقلده[1] وقد كانت أخبار سيره وصلت إلى مكة ، فهاج زعماؤها وتعاهدوا على منعه على أي حال؛ وجاء الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستشار أصحابه فأشاروا بالمضي فيما ألهم الله ، فإذا صدتهم قريش قاتلوهم ؛ وتقدم الركب حتى إذا وصل الحديبية ـ وهي قرية أو بئر على نحو مرحلة من مكة ـ بركت ناقة النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستلهم من هذا وجوب التوقف وقال : والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة فيها تعظيم حرمات الله وفيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها ؛ وجاءه رئيس بني خزاعة وكان مناصحاً للنبي مع قومه ، فأخبره أن قريشاً وأحلافهم قد اعتزموا صده على كل حال ، فأرسله يخبرهم أنه إنما جاء للزيارة ولم يجئ للقتال ، وأنه يدعوهم إلى التهادن والسماح له بالزيارة ، والتخلية بينه وبين العرب ، فإن هلك كفوا مؤونته ، وإن أظهره الله كانوا في الخيار ، وينذرهم إذا هم أمعنوا في العناد وإرادة البغي بالقتال حتى تتفرد سالفته[2] ولينفذن الله أمره ؛ فذهب الرجل وأبلغ الرسالة ، وكان زعيم ثقفي حاضراً ، فنصحهم بقبول ما يقترحه النبي صلى الله عليه وسلم ، وتكرر النصح من زعماء آخرين تحققوا أن النبي إنما جاء زائراً ومعه هديه ، ورأوا في صده وقتاله بغياً ، وخاصة في الأشهر الحرم ومنطقة المسجد الحرام ؛ وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم من جانبه عثمان بن عفان رضي الله عنه ليخبر الناس برغبته عن القتال، ورغبته في الزيارة وحسب ؛ فأبطأ في العودة وشاع أن قريشا حبسته أو قتلته ؛ فدعا المسلمين إلى البيعة على الثبات والاستماتة إذا ما أصرت قريش على موقفها الباغي ، وتمت البيعة تحت شجرة ، وسميت بيعة الشجرة ، ولم يلبث عثمان أن رجع ؛ ورأت قريش أن ترسل سهيل بن عمرو إلى النبي صلى الله عليه وسلم للتفاوض على عقد هدنة ، مزوداً بشروط عسيرة ، مثل تأجيل الزيارة إلى العام القابل ، وإعادة من يأتي النبي صلى الله

---

(١) أشعره : جرحه وأسال دمه . وقلده : وضع في عنقه القلادة ، وهذا وذاك تعظيم لقربان الله .

(٢) حتى يقتل .

عليه وسلم مسلما من مكة على رغم أهله ، وعدم إعادة من يلتحق بمكة من المسلمين مرتدا. وقبل النبي صلى الله عليه وسلم الشروط بعد مفاوضات وجذب ودفع ، واتفق على أن تكون مدة الهدنة عشر سنين ؛ وكتب بذلك عهد ختمه النبي بخاتمه ووقعه سهيل عن قريش ، وحينئذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذبح الهدي وحلق الشعر أو تقصيره والتحلل من الإحرام ، ثم نادى بالعودة . وقد روي فيما روي أن بعض فرسان قريش حاولوا أخذ المسلمين على غرة قبل التراضي على الهدنة ، فدرى النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل من كمن في طريقهم ، وأمكن أسر بعضهم ثم منّ عليهم وأطلقهم . كذلك روي أن أبا جندل ابن سهيل بن عمرو ـ وكان مسلماً وكان أبوه يعذبه ليفتنه ويمنعه عن الهجرة ـ جاء فاراً يرسف بأغلاله حينما درى أن النبي والمسلمين في الحديبية ، وكان التراضي قد تم على الشروط ، فاحترم النبي صلى الله عليه وسلم عهده ، وردّ أبا جندل إلى أبيه حينما أصر هذا على استرداده . ولقد ثقلت شروط الهدنة على فريق من المسلمين ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وصعب عليهم خاصة الرجوع بدون زيارة ، حتى إن منهم من كاد يزيغ ، لأن رؤيا النبي حق ، وقد دعوا إلى الخروج بإلهامها الذي اعتبره النبي إلهاماً من الله ، وراجعوه وحاوروه ، ومنهم من تباطأ في تنفيذ أمره في نحر الهدي والتحلل من الإحرام ؛ ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أعلمهم أنه إنما يسير بإلهام الله ، وثبت قلوبهم حتى عاودتهم الطمأنينة ؛ ولم تلبث أن نزلت سورة الفتح مؤيدة لما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، ومسكنة لنفوس المسلمين ؛ ومما رواه البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد ما كان منه من تألم وتحمس سار إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه فلم يجبه ، ثم كلمه فلم يجبه ، فقال لنفسه : ثكلت أم عمر ! نزرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فلا يجيبك ؛ ثم تقدم أمام الناس وخشي أن ينزل فيه قرآن ، وأنه مالبث أن سمع منادياً يدعوه ، فقال في نفسه : لقد وقع ماخشيت ، فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال له : لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ سورة الفتح . وكذلك مما روي أن بعض المسلمين قال : ماهذا بفتح ، فبلغ ذلك النبي صلى

الله عليه وسلم ، فقال : بئس الكلام هذا ، بل إنه أعظم الفتوح ، رضي المشركون أن أن يدفعوكم بالراح ، ويسألوكم القضية[1] ، ويرغبوا إليكم بالأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا .

وليس في هذا الملخص مالا يتسق مع الآيات كما هو المتبادر . ولا ريب في أن هذا الصلح الذي سماه القرآن بالفتح العظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق ، بل إنه ليصح أن يعد من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده أو بالأحرى من أعظمها : فقد اعترفت قريش بالنبي والإسلام وقوتهما وكيانهما ، واعتبرت النبي والمسلمين أنداداً لها ، بل دفعتهم عنها بالتي هي أحسن في حين أنها غزت المدينة في سنتين مرتين وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم . وبعثت هذه الغزوة في نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلع لضعفهم وقلتهم إزاء الغزاة ؛ ولهذا شأن عظيم في نفوس العرب الذين كانوا يرون في قريش الإمام والقدوة ، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودي كل التأثر . وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرون أن النبي والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة ، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون ، بدت لنا ناحية من نواحي خطورة هذا الفتح وبعد مداه .

ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبي صلى الله عليه وسلم فيما فعل ، وأيده فيه القرآن ، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التي عادت على المسلمين منه ؛ إذ قووا في عيون القبائل ، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار ، وازداد صوت المنافقين في المدينة خفوتاً وشأنهم ضآلة ، وإذ صار العرب يفدون على النبي صلى الله عليه وسلم من أنحاء قاصية ، وإذ تمكن من خضد شوكة اليهود في خيبر وغيرها من قراهم المنتشرة على طريق الشام ، وإذ فرغ باله فأرسل رسله إلى ملوك الأرض في مختلف أطراف الجزيرة وخارجها يحملون كتبه المبشرة بالإسلام والداعية إليه .

(١) التقاضي والتفاوض بدلا من الصد والبغي السابقين .

وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها . وكان في ذلك النهاية الحاسمة إذ جاء نصر الله وفتحه ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

وهذا التطور في حالة مكة والمكيين من القوة والهجوم والتفوق والإيغال في البغي والرغبة في الاستئصال تجاه النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين والمدينة ، إلى شيء من الضعف ، وجنوح إلى المسالمة معه ، والاعتراف به نداً ـ لافت للنظر من دون ريب ؛ ومما يخطر على البال أنه قد طرأ طارئ ما مادي أو معنوي ، سياسي أو حربي ، أو شقاق فيما بينهم لسبب من الأسباب أوهن من تضامنهم وصلابتهم فكان هذا الموقف الذي عاد منه على الإسلام فتح عظيم كان له تلك الآثار الخطيرة المتنوعة . ولقد روي أن أحد بني بكر الذين دخلوا في عهد مكة حينما عقد صلح الحديبية وخير أعراب مكة في الالتحاق بعهد أحد الفريقين اعتدى على أحد بني خزاعة الذين دخلوا في عهد المسلمين فقتله ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم اعتبر هذا نقضاً للصلح ، وأن قريشاً أوفدت أبا سفيان إلى المدينة لتوثيق عقد الصلح القائم فأبى النبي صلى الله عليه وسلم عليه ذلك ؛ فهذه الرواية إذا صحت ـ ونحن نميل إلى صحتها لأن غزو مكة الذي وقع بعد سنتين من الصلح من جانب النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يكون وقع إلا بسبب نقض من الجانب الآخر ـ تدعم ماقررناه من أسباب تبدل حال مكة والمكيين المحتملة كما هو ظاهر .

على أن هذا لا يعني فيما يتبادر لنا أن يكون لارتداد الأحزاب عن المدينة ـ ذلك الارتداد الخاسر الذي زلزل ثقتهم في قدرتهم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولخضد شوكة يهود المدينة نهائيا ، ولضآلة شأن منافقيها ، ولازدياد إقبال الناس على الإسلام وتعاليه بعد هذا وذاك ـ آثار إيجابية في هذا التطور أيضا .

الصّورة السّابعة عشرة

هذا ؛ ولقد جاء في سورتي الممتحنة والمائدة بعض آيات لها صلة بصلح الحديبية رأينا إيرادها والتعليق عليها لأن فيها بعض مشاهد من السيرة متصلة بهذا الحادث العظيم . وإليك أولا آية الممتحنة :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . . . »

١٠

والآية تلهم مع الاستئناس بالروايات المتسقة إجمالا معها أن بعض المؤمنات اللاتي لم يستطعن أن يهاجرن إلى المدينة قبل الصلح اغتنمن فرصته فهاجرن خلسة ، وأن ذويهن جاؤوا يطالبون بإعادتهن وفقاً لشروط الصلح ، فنزلت الآية تنهى عن إعادتهن ، وتأمر بالتعويض على أزواجهن ؛ ولقد تعددت الأقوال في حقيقة نص وثيقة الصلح ، ومنها أنه كان مطلقا وبصيغة التذكير ، فرأى المكيون أنه شامل للرجال والنساء معا فجاءوا يطالبون بالإعادة ، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يشمل النساء فنزلت الآية حاسمة للأمر ؛ وهذا هو المعقول ، لأنه لو كان هناك مفهوم صريح لكان للأمر حكم أو موقف آخر ، إذ يكون في عدم الإعادة نقض للعهد ، وهذا غير ممكن الصدور من النبي صلى الله عليه وسلم وغير متسق مع المبادئ القرآنية ؛ بل لقد حض القرآن على احترام عقد الحديبية بالذات في آيات المائدة التي سنوردها بعد ؛ وآيات سورة التوبة ١ ــ ١٦ التي منها ما نزل قبل فتح مكة ومنها ما نزل بعد قد شددت على الوفاء بالعهد ما دام المعاهدون أوفياء له ،

كما أن منها ما يلهم أن النقض إنما وقع من الجانب الآخر فكان ما كان من اعتزام النبي غزو مكة ؛ هـذا من جهة ؛ ومن جهـة أخرى إن المشركين ما كانوا يقبلون ذلك ، ولو كان لاعتبروا الهدنة منقوضة ، وحملوا تبعة النقض على النبي ، والمعروف أن نقض الهدنة كان من الجانب الآخر ، وأن النبي هو الذي اعتبرها منقوضة من جانبهم ؛ ولعل حـكم الآية بالتعويض على أزواج المسلمات المهاجرات مما اقتضته الحـكمة لإرضاء معاهد يرى له شبهة من الحق ، وللتدليل على حسن النية في احترام الصلح من جانب النبي أيضا؛ ولم يرد في الروايات أن أزواج المهاجرات وذويهن قد رفضوا هذا الحل ؛ ولعل من السائغ أن يقال بالإضافة إلى ما قلناه أن التطور الذي نبهنا عليه في حالة مكة والمـكيين قد جعل المـكيين لا يتشددون في أمر ليس فيه مخالفة لنص صريح أيضا .

ومما يلفت النظر أن الآية جعلت الحقوق متبادلة بين المسلمين والمشركين في مطالبة الأزواج المسلمين تعويضا عن نسائهم الـلاتي تخلفن عنهم ولو كن كوافر ، وفي مطالبـة الأزواج المشركين تعويضا عن نسائهم اللاتي أسلمن والتحقن بالمسلمين ؛ ففي هذا صور عما صار بين المسلمين والمشركين من ظروف عهـدية وسلمية مستمرة ومحترمة من الطرفين .

أما آيات المائدة فهي هذه :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ . . . »

١ — ٢

وقد روى المفسرون في صدد الآية الثانية أن زعيما من بني بكر جاء مستطلعا فلقي النبي صلى الله عليه وسلم وسمع منه ، ثم قفل لاستثارة قومه ، وصادف خارج المدينة مواشي فنهبها ، وأنه خرج بعد مدة ما مع بعض قومه إلى الحج وكانت طريقهم قريبة من المدينة ، فأراد بعض المسلمين أن يثأروا منهم فنزلت الآية بالنهي ؛ كذلك رووا أن بعض المسلمين ظلوا ناقمين على المكيين صدهم إياهم عن زيارة الكعبة حينما خرجوا إليها ، وكانوا يهمون باغتنام ما يسنح لهم من الفرص لإلحاق الأذى بهم ، ومن جملة ذلك صد الحجاج عن مكة .

ومهما يكن من أمر الروايات فإن مضمون الآية الثانية يلهم حدوث بعض تصرفات أو همّ ببعض تصرفات من جانب بعض المسلمين فيها إخلال بحرمة الحج وتقاليده ، ومنع للحجاج بقصد إلحاق الضرر بأناس بينهم وبينهم عداء أو بغضاء ، حتى إن الآية عدت ذلك تعاونا على الإثم والعدوان ، وأنذرت الذين يتضامنون فيه بعقاب الله الشديد ؛ وجملة « يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا » تلهم أن الحجاج الذين نهى المسلمون عن التعرض لهم مسلمون أيضا ، وفي ذلك نقض للرواية التي أوردها المفسرون ؛ وهذا يسوغ القول إن بعض المسلمين عطلوا آخرين منهم عن الحج بقصد إلحاق الأذى بأهل مكة الذين كان الحج والحجاج من أعظم مواردهم ودعامات حياتهم الاقتصادية .

ولما كانت سورة المائدة تأتي في ترتيب النزول بعد سورة الفتح ، ولما كان الراجح أن هذا الترتيب بسبب مطلع السورة في الدرجة الأولى ، لأن في السورة مجموعات يرجح أنها نزلت قبل سورة الفتح ـ فإن من غير المستبعد أن تكون كلمة « العقود » الواردة في الآية الأولى قد عنت عقد صلح الحديبية ، إذ اعتبرت تعرض المسلمين لصد الحجاج عن الحج وإخلال حرمة الأشهر الحرم وتقاليد الحج الأخرى نقضاً له ، لأن فيه أذى بالمعاهدين فوق ما فيه من إخلال بحرمات وتقاليد مقدسة أقرها القرآن من حيث المبدأ ؛ وكأن الآية أرادت أن تقول إن سفك دم الصيد في الأشهر الحرم هو محرم فكيف بغيره ؟ وكيف بنقض العقود ؟

نقول هذا مع علمنا أن بعض المفسرين قالوا إن كلمة « العقود » قد عنت ما دخل المسلمون فيه من عهود مع الله في احترام حرماته وتعظيم شعائره باعتناقهم الإسلام ديناً ؛ وقد رأينا في هذا القول شيئاً من التكلف يظهر حينما ننعم النظر في الآيتين معاً وهما مرتبطتان موضوعا ونزولا أيضاً ؛ على أننا لو سلمنا بما قالوه فالآية الثانية على الأقل صريحة الدلالة على همّ بعض المسلمين بالتعاون على الإخلال بتلك الحرمات والشعائر اندفاعا بفكرة إلحاق الأذى بمن يحقدون عليهم ويضمرون لهم العداء ، وهم أهل مكة على الأغلب ، لأن الحجاج إنما يؤمون البيت الذي فيها ؛ وفي هذا صورة من صور العهد المدني تدل على تأصل العداء ، وعلى ما حفز هذا العداء المسلمين إليه من الوقوف هذا الموقف الذي اقتضت الحكمة النهي عنه بهذا الأسلوب الزجري الشديد توطيداً لحرمات الله وشعائره ، وللحرية الدينية مهما كان الباعث والحافز ؛ وفي هذا من الروعة وبعد المدى ما هو ظاهر ؛ وقد كان من دون ريب ناظماً لتصرفات المسلمين في العهد النبوي ، كما أنه مستمر التلقين والإيحاء فيما بعده من عهود .

الصورة الثامنة عشرة

٩ ــ وللتسلسل التاريخي نذكر أن من الأحداث الجهادية المهمة التي ورد ذكرها في القرآن فتح خيبر وغيرها من القرى اليهودية ، إذ احتوت آيات من سورة الفتح إشارات إلى ذلك ، وقد وقع هذا بعد صلح الحديبية بمدة قصيرة . ولقد بسطنا الكلام عن هذه الوقعة وظروفها ونتائجها في فصل اليهود ، فنكتفي بالإشارة إليها .

الصورة التاسعة عشرة

١٠ ــ ويذكر رواة السيرة زيارة النبي صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمون للكعبة في السنة السابعة في سلسلة الوقائع الجهادية من حيث أنها كانت على ما هو المتبادر نتيجة لصلح الحديبية ووفاقا له . ويذكرون أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج في هذه السنة على على رأس أصحابه الذين كانوا معه في الرحلة الأولى من الأحياء مع بعض مسلمين انضموا

إليه . وأنه ساق ستين بدنة (إبلاً) وأن قريشاً أخلت مكة لهم وخرجت إلى رؤوس الجبال وأن المسلمين دخلوا مكة وهم متوشحون بالسيوف . وأن بعض المشركين اصطفوا عند دار الندوة لينظروا إليهم فاضطبع النبي بردائه وأخرج عضده اليمنى وقال : (رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوة) ثم استلم الركن وأخذ يطوف حول الكعبة مهرولاً وأصحابه وراءه يهرولون مثله . ثم طافوا كذلك بين الصفا والمروة . ثم نحروا هديهم . ودخل النبي إلى الكعبة فلبث فيها وقتاً ثم خرج وأمر المؤذن فأذن للظهر على ظهرها ثم صلى بالناس عندها . ومما يروى أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه كان يمسك بزمام ناقة النبي حينما دخل مكة فأخذ ينشد مرتجزاً :

خلوا بني الكفار عن سبيله — خلوا فكل الخير مع رسوله
نحن ضربناكم على تأويله — كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله — ويذهل الخليل عن خليله
يارب إني مؤمن بقيله

فهتف عمر بن الخطاب : أيهن يا ابن رواحة . فقال النبي : إني أسمع يا عمر ثم قال لابن رواحة بل قل (لا إله إلاّ الله وحده . نصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده) فقالها فرددها المسلمون معه . وأقام النبي والمسلمون في مكة ثلاثة أيام ثم جاءه سُهيل بن عمرو . وحويطب بن عبد العزى فقالا له لقد انقضى أجلك فاخرج عنا . فأمر منادياً فنادى (لا يمسين بها أحد من المسلمين) ثم خرج حتى نزل سرف فبات فيها حتى تنام الناس ثم أدلج عائدا إلى المدينة[1] .

وظاهر أن هذه الزيارة كانت مظهراً آخر من مظاهر ما وصل إليه شأن النبي من قوة وعزة أمام قريش وأمام سائر العرب .

---

(١) انظر ابن هشام ج٣ ص٤٢٤ — ٤٢٧ وابن سعد ج٣ ص١٦٧ — ١٦٩ .

الصورة العشرون

١١ ـ والمناسبة سانحة للتساؤل عن أمر متصل بالسيرة النبوية وهو ما إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون قبل الهجرة والمسلمون بعد الهجرة كانوا يؤدون طقوس الحج . فقد أوجب القرآن هذه الطقوس على المسلمين فى آيات نزلت على ما هو المتبادر قبل الرحلة النبوية . وكانت هذه الرحلة تنفيذاً لها . ومن الآيات في هذا الصدد آيات سورة البقرة هذه :

١ — إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ[1] فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ... ١٥٨

٢ — وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ... ١٩٦ ـ ١٩٧

وآيات سورة آل عمران هذه :

« قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوَّلَ

(١) العمرة هي زيارة الكعبة والطواف حولها ، ويصح أن يؤديها المسلم لوحدها في غير وقت الحج . وهذا ما فعله النبي والمسلمون في رحلتهم التي هي موضوع البحث . والعمرة في هذه الحالة ليست هي الحج المفروض على المسلم . فالحج المفروض على المسلم هو الوقوف في عرفة يوم التاسع من ذي الحجة والطواف حول الكعبة قبل هذا اليوم وبعده في أوقات الحج المعينة .

بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ... » ٩٥ – ٩٧

وجواباً عن السؤال نقول إنه بالنسبة إلى العهد المكي ليس في القرآن ولا في الروايات ما يثبت ذلك أو ينفيه بصراحة .

ولقد قال بعض المفسرين في سياق تفسير آية (فصل لربك وانحر) في سورة الكوثر المكية إن النحر هو نحر الأضحية عقب الطواف حول الكعبة . فإذا صح هذا ففيه إشارة إلى أن النبي وأصحابه كانوا يقومون ببعض مناسك الحج وهم في مكة . وفي سورة الحج آيات فيها بيانات وتعليمات في مناسك الحج وتقرير بأنه من تقاليد ملة إبراهيم عليه السلام كما ترى في هذه الآيات منها :

« وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ . وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَارَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ . ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ . ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ . حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ . ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ . لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ... » ٢٦ – ٣٣

وسورة الحج من المختلف في مكيتها ومدنيتها ، ونحن نرجح أن معظمها مكي ومن

جملة ذلك هذه الآيات . بحيث يمكن القول إن صح ترجيحنا أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يؤدون مناسك الحج في الحدود التي رسمها الله لهم قبل الهجرة . حتى لو لم يصح ترجيحنا فإننا نميل إلى ترجيح كونهم كانوا يقومون بكثير من المناسك مع تجنب مظاهر الشرك والوثنية . ولاسيما أن مكة في موسم الحج تكون آمنة مزدحمة بالوافدين . وهي فرصة لا يعقل أن النبي يفوتها بالإضافة إلى عبادة الله بأداء هذه المناسك له خاصة . ولقد كان بعض الزعماء الذين يرون دعوة النبي هدى لا يتابعونه ولا يشجعونه خوفاً من أنها قد تذهب بتقاليد الحج وامتيازات أهل مكة في ظلها على ما حكته عنهم آية سورة القصص هذه :

« وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ... » ٥٧

ولقد طمنتهم الآية . ولا بد من أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يفوته ما في مشاركته مع أصحابه في مناسك الحج من معنى التطمين أيضاً بالإضافة إلى ما فيها من عبادة الله ومن فرصة الدعوة إلى سبيله .

أما بالنسبة إلى ما بعد الهجرة وقبل الرحلة النبوية فإن آيات سورتي البقرة وآل عمران تسوغ القول إن من المسلمين من كان يتيسر له الذهاب إلى مكة فيذهب فيحج في وقت الحج أو يعتمر بدون حج في غير وقت الحج . وفي سورة البقرة آيات فيها حكاية لنوعين من دعاء الناس بعد قضاء مناسك الحج ، أحدهما دعاء المؤمنين بالله واليوم الآخر أي المسلمين ، وثانيهما دعاء غير المؤمنين على الأرجح ، وفيها تأييد آخر لذلك وهي هذه :

« فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ . وَمِنْهُم مَّن

يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ . أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ... ٢٠٠ ـ ٢٠٢

وفي آية من الآيات الأولى من سورة المائدة التي يرجح أنها نزلت عقب صلح الحديبية نهي للمسلمين عن صد آمين البيت الحرام نكاية بأعدائهم أهل مكة . وعبارة الآية تسوغ بقوة القول إن هؤلاء كانوا مسلمين . وهذا يعني أن من المسلمين من كان يذهب إلى الحج إذا وجد الفرصة سانحة ميسرة كما ترى فيها :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ... » ٢

الصّورة الواحدة والعشرون

١٢ ـ وبعد صلح الحديبية بسنتين تم الفتح المكي . وعلى خطورة هذا الفتح وجلالة شأنه فإنه لم يرد عنه في القرآن إلا إشارات خاطفة وغامضة أوضحتها الروايات إيضاحاً ما . ففي سورة التوبة هذه الآيات :

« كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ . ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ . فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ . أَلَا تُقَـٰتِلُونَ

قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ... » ٨ ـ ١٦

ومضمونها يلهم أنها نزلت قبيل فتح مكة وفي صدد الحث والاستنفار إلى غزوها كما يلهم أن ذلك قد كان بسبب نكث بدا من جانب أهل مكة المعاهدين .

وفي السورة نفسها هذه الآيات :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ... » ٢٣ ـ ٢٤

ومضمونها يلهم أنها نزلت كذلك قبيل الفتح حتى لا يتأثر المهاجرون بروابط الرحم والقربى والمصلحة المادية التي كانت تربط كثيراً منهم بأهل مكة .

وفي سورة الممتحنة هذه الآيات :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ

ٱلسَّبِيلِ . إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ . لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ...» ١ ـ ٣

وقد أجمع المفسرون ورواة السيرة على أنها نزلت قبيل فتح مكة وفي مناسبة إرسال أحد المسلمين رسالة إلى قريش يخبرهم بها بعزم النبي صلى الله عليه وسلم على غزوهم حماية لأهله وعشيرته في مكة . وقد احتوت حثاً وتحريضاً ونهياً عن موالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين . وتنبيهاً على أن الأرحام والأولاد لن تغني عن المسلمين شيئا مما ينطوي فيه التحريض والإعداد .

أما ملخص ما ذكرته الروايات عن هذا الفتح[1] فهو أنه قد تم في الثلث الأخير من شهر رمضان من السنة الهجرية الثامنة ، وأن السبب المباشر له نقض قبيلة بني بكر التي كانت داخلة في عهد قريش وقتل أحد أفرادها شخصا من بني خزاعة التي كانت داخلة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وتشجيع بعض القرشيين البكريين في موقفهم، وقد ذهب الخزاعيون إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه بما وقع عليهم من بغي واستنصروه ؛ وقد شعر أبو سفيان بخطورة الحادث فسارع إلى المدينة للاعتذار منه ، وتوثيق العهد القائم بين المسلمين المكيين ؛ ولقد أخفق أبو سفيان في مهمته ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يستفز المسلمين ، وتم له حشد عظيم بلغ عدده عشرة آلاف من مهاجرين وأنصار وأعراب ، وسار به نحو مكة ؛ ودرى المكيون فاستنفروا حلفاءهم ولكن معظم هؤلاء الحلفاء وخاصة هوازن وثقيف ، تأخر في مسيره ، ولم ينضم إلى القرشيين إلا بنو بكر من الأعراب وأحابيش مكة، وهم الغرباء النازلون في ضواحي مكة والمختلطون من شتى القبائل والأجناس ؛ وقد رأى القرشيون أن لا طاقة لهم بالمقاومة ، فاستسلموا للنبي صلى الله عليه وسلم وحكمه ، ولم يقع إلا اشتباك جزئي في ناحية من أنحاء

---

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ١٨١ ـ ١٩٨ وابن هشام ج ٤ ص ٣ ـ ٦٤

مكة ، ومع فريق من الجيش دخل منها وفقا لخطة سير الجيش ، وأسفر عنه بعض القتلى ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم أمراً بالكف عن القتال حالما بلغه الخبر . وقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم عقب دخول مكة فأعلن العفو عن أهلها ؛ وقد طهّر ساحة الكعبة وداخلها من الأصنام ، وأقبل الناس على مبايعته على الإسلام حتى عم وظهر فيها دين الله وكلمته ، ثم ولى فتى من أحد بيوتات مكة غير البارزة واليا عليها وقفل راجعا . ومما جاء في خطبته :

« لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أودم أو مال يدعى فهو تحت قدمَي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج . يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب . يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، يا معشر قريش ، ماترون أني فاعل بكم ؟ فأجابوا: خيراً ؛ أخ كريم وابن أخ كريم ! فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها رسوله والمؤمنين . ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد من بعدي ، وإنما حلت لي ساعة من نهار هي ساعتي هذه » .

ومما روي أن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم أخذ أبا سفيان إليه وهو معسكر على مرحلة من مكة يتهيأ للدخول مع جيشه فأسلم على يديه ، وكرمه النبي فآذن أن من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن ، كما أنه آذن أن من دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

كذلك مما روي أن الأنصار أخذوا يتساءلون عما إذا كان النبي وقد نصره الله على قريش ، ويسر له فتح مكة ، يعود ثانية إلى المدينة أو يبقى في مكة ويتخذها مقره ؟ فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فجمع زعماءهم وقال لهم : « معاذ الله ! المحيا محياكم والممات مماتكم » .

الصورة الثانية والعشرون

ونص سورة النصر الرائع يغني عن التعليق على ما كان من آثار الفتح الباهرة ، إذ انهدم السد الذي كان بين الإسلام وسائر العرب فتدفق سيل وفودهم ـ بعد انهدامه ـ على النبي صلى الله عليه وسلم من كل صوب ، حتى ليقال إن النبي لم يمت حتى دانت الجزيرة إجمالا للإسلام ، وكان في ذلك تحقيق البشرى القرآنية بإظهار الإسلام على الدين كله التي احتوتها آية سورة الفتح هذه (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ٢٧) ولم يمض على نزولها إلا سنتان . ولقد كان من آثار الفتح العظيم ، تلك الغزوة الكبرى التي سار النبي صلى الله عليه وسلم على رأسها إلى تبوك بنحو ثلاثين ألفاً ، والتي تكشفت عن رؤيته إمكانا لدفع الإسلام إلى الآفاق البعيدة وتوطيد حرية الدعوة إليه على ماذكرناه في فصل النصارى .

وغزو النبي صلى الله عليه وسلم لمكة بعشرة آلاف مقاتل هو في ذاته دليل على ما وصل إليه أمر الإسلام والمسلمين من قوة وتعال وشيوع ، كما أن نزول المكيين على حكم النبي صلى الله عليه وسلم دون محاولة دفاعية دليل على ما امتلأت نفوسهم به من هيبة المسلمين والرهبة منهم ، هذا إلى ما نبهنا إليه قبل قليل من احتمال طروء ما بدل حالهم من قوة إلى ضعف ، ومن تضامن إلى تخاذل ، ومن صلابة إلى جنوح للمسالمة والمسايرة . وقدوم أبي سفيان لتوثيق العهد إذا صح ـ وهو ما لا نستبعده بعد ما ارتضت قريش الاعتراف بالنبي نداً وعقد صلح معه ـ دليل على هذا وذاك . ومما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قد أدرك الموقف فاستغله أحسن استغلال .

الصورة الثالثة والعشرون

(١٣) وفي سورة التوبة آيات تشير إلى يوم حنين ، وهو أحد وقائع الجهاد النبوي . ومن الجدير بالذكر أنها الوقعة الوحيدة التي ذكر اسمها في الآيات الواردة عنها . وقد جعلنا الكلام عنها عقب الكلام على فتح مكة لأنها وقعت عقب الفتح . وهذه الآيات أولا :

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... » ٢٥ ـ ٢٧

والآيات وردت في معرض تذكير المسلمين بتأييد الله لهم ، وحثهم على الاعتماد عليه، والاستجابة للنبي في دعوته إلى الجهاد . والصورة التي يمكن اقتباسها منها هي هذه :

١ ـ إن عدد المسلمين في هذا اليوم الجهادي كان كثيراً حتى أنهم ازدهوا به .

٢ ـ إن المسلمين مع ذلك اضطربوا حين اشتباكهم بالعدو ولم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ، ولم يلبثوا أن انهزموا .

٣ ـ إن الله ثبت النبي صلى الله عليه وسلم والمخلصين من المؤمنين في الميدان وأيدهم بروحه ونصره ، فلم يلبث الموقف أن انقلب إلى مصلحة المسلمين وتمت الهزيمة على الكفار .

٤ ـ إن فريقا من المحاربين قد ترشح لعفو الله وتوبته أو قد نالها فعلا فاندمج في الإسلام والمسلمين .

أما ما جاء في الروايات[1] عن هذه الوقعة فيمكن تلخيصه كما يلي :

بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مكة أن قبائل هوازن قد احتشدت بوادي حنين ، فاعتزم أن يسير إليها ، فسار بجمع كبير يتراوح على حسب الروايات بين عشرة وستة عشر ألفاً فيهم كثير من قريش الذين أسلموا ؛ وكان عدد المحتشدين من هوازن أربعة آلاف ؛ ولما اشتبك الفريقان بدا من المسلمين شيء من الاستهتار بالعدو لقلته وكثرتهم ، غير أن نبّالة هوازن المهرة رشقوهم بمدرار من السهام فلم يلبثوا أن اضطربوا

---

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ٢٠٠ ـ ٢٠٨ وابن هشام ج ٤ ص ٦٥ ـ ١٢١

واختل توازنهم وولى أكثرهم الأدبار خلا النبي صلى الله عليه وسلم وبضع مئات من المخلصين ، وقدأخذ منادي النبي يهتف بالناس ويدعوهم إليه ، فلم يلبث المسلمون أن عادوا إلى رشدهم وكروا ثانية فانهزم مقاتلو هوازن تاركين نساءهم وذراريهم ومواشيهم غنيمة للمسلمين ؛ ثم أرسلوا وفداً يعرض على النبي صلى الله عليه وسلم إسلامهم ويطلب رد سبيهم وماشيتهم ، فاستشار النبي المسلمين من جهة ، وخير رجال هوازن بين السبي والماشية من جهة ؛ وقد تم الأمر على رد السبي وتوزيع الماشية ، ودينونة هوازن بالإسلام . وقد وزع النبي أكثر الماشية على المسلمين المستجدين من زعماء مكة والقبائل قبل أن يعود ، تألفاً لقلوبهم . وقد ذكرت الروايات فيما ذكرت موقفا رائعا بين النبي والأنصار في صدد هذا التوزيع ؛ فقد وجد بعض هؤلاء في أنفسهم حينما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم قد وزع الغنائم على المستجدين ولم يعط الأنصار منها شيئا ، وبلغ ذلك النبي فجمعهم وخطبهم قائلا : يا معشر الأنصار ! ما قالة بلغتني عنكم وجدة وجد تموها على في أنفسكم ! ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ فقالوا : بل الله ورسوله أمن وأفضل . فقال لهم : أما والله لو شئتم لقلتم ولصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك ؛ يا معشر الأنصار ! أوجدتم في نفوسكم بلعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم لإسلامكم ؟ ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . فبكى القوم حتى اخضلَّت لحاهم وهتفوا قائلين : رضينا برسول الله قسما وحظا .

والمتبادر أن سير النبي صلى الله عليه وسلم إلى هوازن إنما كان بسبب احتشادها في وادي حنين في طريقها إلى مكة انتصارا لها على المسلمين ؛ وبكلمة أخرى : إن موقف العداء المباشر قد بدأ منها فضلا عن موقفها العدائي السابق للمسلمين فيما كان من

تضامنها مع قريش في حملة الأحزاب . ومن روح الآيات وفحوى الروايات يبدو أنه كان لهذه القبائل حيز عظيم من حيث القوة والعدد ، وطبيعي أن يكون لانتصار المسلمين عليهم ، ودينونتهم بالإسلام بعد ذلك أثر في ازدياد قوة الإسلام وشيوعه وتعاليه في منطقة مكة .

الصورة الرابعة والعشرون

(٣) وفي روايات السيرة حادث مهم متصل بالحركات الجهادية وهو فتح مدينة الطائف وإسلام أهلها الذين كانت غالبيتهم العظمى من ثقيف . وعلى خطورة هذا الحادث لم تقتض حكمة التنزيل أن يشار إليه في القرآن . وقد رأينا أن نلم به حتى تتم سلسلة الوقائع الجهادية .

وملخص ما جاء في الروايات[1] أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن انتهى من حرب هوازن في يوم حنين زحف على الطائف وحاصرها لأن أهلها كانوا حلفاء قريش. وسارعوا إلى نصرتهم مثل هوازن حينما جاء النبي لغزو مكة . ولكنهم لم يتمكنوا من اللحاق فقفلوا راجعين وتحصنوا وراء أسوار مدينتهم . ومنهم من حارب المسلمين مع هوازن يوم حنين وقتل بعضهم فيه . وقد حاصرها النبي نحو عشرين يوماً . وجرى تراشق بالنبال وقتل من المسلمين جماعة . ثم رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يفك الحصار ويعود إلى المدينة .

ولقد كانت رحلة تبوك الكبرى بعد ذلك بقليل مما يسوغ القول إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير خطراً من ترك الطائف إلى فرصة أخرى ، ورأى العودة والتعجيل برحلة تبوك ففعل ذلك ، لاسيما أن الطائف وسكانها قد غدوا شبه منعزلين في وسط

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٢٠٠ — ٢٠٢ وج ٢ ص ٧٦ — ٧٨ وابن هشام ج ٤ ص ٧٩ — ٨٠ و ١٢٢ — ١٣٥ و ١٩٤ — ٢٠٠

دان أكثره بالإسلام بدينونة مكة وهوازن والقبائل الأخرى المحيطة بمكة بالإسلام ، وكان بين بعض الذين لم يدينوا به وبين النبي صلى الله عليه وسلم مواثيق صلح وسلام على ما ألهمته آيات سورة التوبة الأولى .

ولقد جاء في سورة التوبة الآية التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... » ٢٨

والآية في صدد تحديد علاقة المشركين التقليدية بالمسجد الحرام ومنطقته المحرمة في ظل الإسلام ، لأنها نزلت بعد فتح مكة كما يلهمه مضمونها ؛ وقد احتوت دلالة على توطد سلطان الإسلام وشموله في مكة ، وماصار إليه من قوة وعزة جانب، غير أنها إلى هذا انطوت على معنى من معاني إعلان المقاطعة وسد الأبواب في وجه من بقي على شركه بعد الفتح ؛ ولعل أهل الطائف هم المقصودون في الدرجة الأولى بهذا ، لأنهم أهم من بقي على شركه من سكان الحجاز . ولقد ذكرت الروايات أنهم بعد بضعة أشهر من فك الحصار عنهم أخذوا يفكرون في طريقة التفاهم مع النبي ، وجاء منهم من فاوضه فعلا ، ثم انتهى الأمر إلى دينونتهم بالإسلام على يد وفد منهم جاء إلى المدينة مبايعا النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ، وهذا مما قد يدعم ما قلناه من أنهم كانوا هم المقصودين بالدرجة الأولى من المقاطعة التي انطوت في الآية ؛ فلعلهم أسرعوا إلى الاتصال بالنبي حينما أعلن تحريم دخول المشركين للمسجد الحرام ومنطقة مكة يوم الحج الأكبر الذي أعلنت فيه البراءة من المشركين المعاهدين الذين بدا منهم الخلل أو النكث على ما ذكرناه في مناسبة سابقة ، أو حينما سمعوا العزم على إعلان ذلك ، لأنهم رأوا فيه ضربة قاضية عليهم ماديا ومعنويا فلم يروا مناصا من المسارعة إلى الخروج من المأزق الحرج ؛ وطبيعي أن ترجيحنا أن أهل الطائف هم المقصودون في الدرجة الأولى من المقاطعة لا يعني ألّا يكون قد قصد بها سائر من بقي على شركه .

وواضح أنه لا يرد أي معنى من معاني مصادرة الحرية الدينية في هذه المقاطعة والحظر ، لأن البيت الحرام قد أصبح طاهرا من مظاهر الشرك ، وأصبحت تقاليد الحج مثل ذلك ، وصار تحت السلطان الإسلامي ؛ وليس من المعقول أن يسمح للمشركين بممارسة تقاليد الوثنية فيه ، عدا ماله من الحق الطبيعي في سد بابه على أعدائه السياسيين والدينيين .

الصّورة الخامسَة والعشرُون

وفي صيف السنة التاسعة استنفر النبي المسلمين إلى غزوة تبوك التي بسطنا ظروفها ونتائجها في فصل النصارى ، والتي نزلت فصول عدة من سورة التوبة في صددها ؛ فنكتفي بهذه الإشارة إليها هنا لإتمام التسلسل التاريخي للوقائع الجهادية التي ذكرت في القرآن .

هذا ؛ ونريد أن نشير إلى آية مدنية في سورة الشعراء لما ينطوي فيها من صورة جهادية طريفة ؛ وهي الآية الأخيرة منها :

« إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱنتَصَرُواْ مِن بَعْدِ مَاظُلِمُواْ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ... » ٢٢٧

وقد جاءت بعد آيات مكية فيها حملة لاذعة على الشعراء ، وهي هذه :

« هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ . وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ ... » ٢٢٢ — ٢٢٦

وطابع الآية المدني لا يتحمل شكا ؛ فالمسلمون إنما استطاعوا أن ينتصروا لأنفسهم في العهد المدني ،وحكمة وضعها من السورة المكية واضحة ، والاستثناء هو للشعراء المسلمين كما يبدو واضحا كذلك حينما يقرأ ما قبل الآية .

أما الصورة التي تنطوي فيها فهي أن شعراء المسلمين المخلصين كانوا ينتصرون

للمسلمين بشعرهم ممن كان يبدؤهم بالظلم والبغي ، أي أن شعراء الكفار كانوا يحاربون النبي والمسلمين بسلاح الشعر ، وكان شعراء المسلمين يقابلونهم بالمثل ، وهذا مما أيدته الروايات المتواترة ، ومما هو طبيعي ؛ لأن الشعر كان جزءاً مهما من حياة المجتمع العربي وسلاحاً من أسلحته في ذلك العهد .

ويلفت النظر خاصة إلى روعة اتساق استعمال شعراء المسلمين لهذا السلاح مع المبدأ الجهادي العام وهو الدفاع والمقابلة .

فصـــل
في التشريع القرآني وصلته بالسيرة النبوية
تمهيد

صلة التشريع القرآني بالسيرة النبوية ومشاهدها ـ مدنية التشريع ومداها. تعليل مدنية التشريع . مباحث هذا الفصل .

الصورة الأولى

للتشريع القرآني صلة قوية بالسيرة النبوية لا تحتاج إلى بيان مسهب ؛ فإن جل الآيات والفصول التشريعية إن لم نقل كلها قد نزلت إجابة عن أسئلة واستفتاءات ، أو بمناسبة حوادث ووقائع وظروف متصلة بالسيرة النبوية ومواقف وتصرفات المسلمين وغير المسلمين في أثنائها ؛ فكانت من جهة حلا لمشاكل وشئون ومسائل واقعية ، ومن جهة تشريعا مستمر الحكم والتلقين والمدى ، وبعبارة أخرى : إن التشريع القرآني يشتمل على صور من السيرة النبوية والعهد النبوي ، والمجتمع الإسلامي فيه .

وفي التشريع القرآني بعض التطورات ؛ نعني أن هناك أحكاما أو أوامر ونواهي أبكر من أحكام وأوامر ونواهٍ ، وأن من المتأخر ما جاء ناسخاً أو معدِّلا للمتقدم على حسب ما اقتضته الحكمة من مراعاة الظروف أو التطابق معها سلبا وإيجابا ، وتخفيفا وتشديدا ، وضيقا وسعة ؛ وينطوي في هذا كذلك صور مثل تلك كما هو المتبادر .

الصورة الثانية

وإذا استثنينا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وركني الصلاة والزكاة ، استطعنا أن نقول : إن التشريع القرآني مدني ؛ مع التنبيه إلى نقطة هامة وهي

أننا لا نقصد بالتشريع المبادئ المتنوعة التعبدية وغير التعبدية التي تضمنتها الدعوة القرآنية ، وإنما نقصد ما فيه من قواعد وحدود للشئون السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعائلية ، بل الواجبات التعبدية أحيانا ؛ ذلك لأن جل المبادئ الإيمانية والتعبدية والأخلاقية والاجتماعية ، بل الاقتصادية والسياسية التي يصح أن يقال : إن التشريع القرآني بالمفهوم الذي نبهنا إليه ، وباستثناءات قليلة قد تناولها ـ قد وردت في القرآن المكي ، خلافا لما يتوهم بعض المسلمين ، ويحلو للمستشرقين والمغرضين أن يكرروه بسبيل غمز النبي صلى الله عليه وسلم بالتبدل من نبي إلى سلطان .

وهكذا يصح أن يقال: إن التشريع القرآني المدني صورة تطوّرية إلى حد ما للمبادئ القرآنية المكية في شكل قواعد وحدود . وفي هذا أيضاً دليل آخر على صلة التشريع بالسيرة النبوية كما هو واضح .

الصّورة الثالثة

وطبيعة كل من العهدين المكي والمدني توضح علة مدنية التشريع ومكية المبادئ العامة ؛ فالعهد المكي هو عهد دعوة كما كان عهد قلة وضعف ومحنة للمسلمين ، والمقتضى لهذا هو عرض المبادئ المتنوعة للدعوة عرضاً قويا ، وهو ما امتاز به الأسلوب المكي على ما ذكرناه في مناسبة سابقة ؛ كما أن حالة المسلمين لم تكن لتستدعي تشريعاً وتقعيداً لأن مثل هذا إنما يكون في حالة الاستقرار وقيام بنيان رسمي ، في حين صار العهد المدني عهد طمأنينة واستقرار وكثرة مؤلفة من مختلف الفئات ، وقد توطد فيه للإسلام كيان سياسي واجتماعي ، هذا إلى أنه لم يكن ثمة محل لتكرار ما جاء في القرآن المكي من المبادئ ـ لأن القرآن كل لا يتجزأ من حيث شموله ووجوب الإيمان والأخذ به ـ إلا بالقدر الذي اقتضته حكمة التنزيل .

ومن الجدير بالتنبيه أن مالا يوجد في القرآن المكي من شئون اختص بها العهد المدني كالجهاد ، قد جاء عنه الكلام في القرآن المدني بأسلوب قوي رائع من

جهـــة ومحتويا مبادئ عامة فيــه من جهــة أخرى ؛ كما يتضح من إنعام النظر في آياته التي استعرضناها في الفصل السابق . وبهذا تتسق حكمة التنزيل وأسلوبه اتساقا بديعاً .

الصورة الرابعة

والفصول التشريعية في القرآن المدني كثيرة ومتنوعة ، منها ما يتصل بالجهاد ، ومنها ما يتصل بالموقف الذي يجب أن يوقف من المنافقين وغير المسلمين في مختلف الحالات ، ومنها ما يتعلق بالواجبات التعبـدية ، ومنهـا ما يتصل بالشئون السياسيـة والاجتماعية والاقتصادية والعائلية والقضائية .

ولقد استعرضنا الآيات الواردة في الجهاد والمنافقين والـكتابيين في الفصول الخاصة بهم ، ونبهنا إلى ما فيهـا من مبـادئ وتشريعات ، ولهـذا فإننـا لا نعود إلى الـكلام عنها في هـذا الفصل إلا بالقـدر الذي تمس الحاجة إليـه ممـا يتصل بالشئون الأخرى تدعيما أو توضيحا .

وعلى هذا فإن مباحث هذا الفصل هي ما يلي :

١ ـ التشريع التعبدي .

٢ ـ التشريع السياسي .

٣ ـ التشريع الاجتماعي .

٤ ـ التشريع الاقتصادي .

٥ ـ التشريع العائلي والآداب السلوكية البيتية .

وسيكون الـكلام غير مسهب في هـذه المبـاحث ، لأن المقصـد الرئيسي من الفصل هو استعراض صور السيرة النبوية من هـذه النـاحيـة فحسب ، ولنـا كتاب مفصـل في تعاليم القرآن يصدر بعد هـذا إن شاء الله ، ضمنـاه بحوثا مستفيضة في هـذه الشئون [1] .

---

(١) هذا الـكتاب صدر في القاهرة بالتزام دار إحياء الـكتب العربية سنة ١٣٧٦ ـ ١٩٥٦ بعنوان « الدستور القرآني في شؤون الحياة » .

هـذا ؛ ونريد أن ننبه إلى أمر في صدد هـذا الفصل ؛ فإن كثيرا من الآيات التي استعرضناها قد أوردت في فصول سابقة ، وقد نبهنا في تلك الفصول إلى الصور التي انطوت عليها ، غير أننا لم نر هذا مغنيا عن هذا الفصل ، حيث أردنا أن نرسم فيه صورة متسلسلة للتشريع القرآني وتطوره بصورة خاصة ، ودون غيره من ملابسات ، مما رأينا فائدة كبيرة له لإتمام الصورة القرآنية للسيرة النبوية الشريفة .

المبحث الأول

التشريع التعبدي

تبكير فرض الصلاة وممارستها – ليس في القرآن تحديد لكيفيات وأوقات وإنما كان هذا بتشريع نبوي – آيات التطهر للصلاة ومداها – ترجيح ممارسة الوضوء مبكرا بتشريع نبوي – تطهير الثياب – آيات صلاة الخوف ومداها – قصر الصلاة في السفر مطلقا تشريع نبوي – آيات صلاة الجمعة ومداها وما فيها من صور – إقامة الجمعة قبلها بتشريع نبوي – الأذان تشريع نبوي – بدء القبلة تشريع نبوي – آيات الصوم وتبكير فرضه – تعليق على القول بالناسخ والمنسوخ فيها – بعض الصور والمناسبات التشريعية – الحج وترجيح مدنية تشريعه في القرآن – الآيات الواردة في الحج ومناسكه – إقرار مناسك الحج السابقة ومداه وحكمته – صور وتطورات تلهمها الآيات في صدد الحج – ممارسة المسلمين الحج في العهد المكي – وفي العهد المدني .

الصورة الأولى

الصلاة ومتعلقاتها:

إذا استثنينا صلاتي الجمعة والخوف ، والطهارة والقبلة المتصلتين بالصلاة : فإننا لا نجد في القرآن المدني تشريعاً للصلاة . والمتبادر أن هذا كذلك لأن الصلاة قد مورست منذ بدء النبوّة بدليل الآيات التي جاءت عقب الآيات الخمس الأولى من سورة العلق أولى آيات القرآن نزولاً على ما عليه الجمهور وهي :

« أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ . عَبْداً إِذَا صَلَّىٰٓ ... » ٩ – ١٠

حيث تفيد أن شخصاً طاغية حاول منع النبي صلى الله عليه وسلم من صلاته التي أخذ يصليها منذ بدء نبوته . ثم أصبحت واقعية مستمرة . وقد ذكرت بهذا المدى في آيات مكية عديدة مبكرة في النزول كما ترى في هذه الآيات مثلا :

١ – قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ... الأعلى ١٤ – ١٥

٢ — وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ... طه ١٣٢

٣ — أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ... الإسراء ٧٨

وفي مطلع سورة البقرة ـ وهو أول آيات العهد المدني أو من أولها ـ تنويه بالمسلمين الذين يقيمون الصلاة ، مما يدل على ما قلناه من أنها عملية قائمة مستمرة :

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ... » ٣

هذا مع التنبيه إلى أنه لم يرد في القرآن مكيه ومدنيه تحديد لكيفية الصلاة وعدد ركعاتها وأوقاتها ، وكل ما ذكر فيه حالات القيام والركوع والسجود . وقد حاول بعض المفسرين أن يستخرجوا أوقاتها من بعض الآيات مثل آية الإسراء التي نقلناها آنفاً ، ولكنهم على كل حال لم يقولوا إن القرآن احتواها بصراحة وضبط .

فالصلاة والحالة هذه قد فرضت أوقاتاً وكيفيات بالعمل والتعليم النبوي ، ومع أن هناك روايات تذكر أن أوقاتها الخمسة قد فرضت ليلة الإسراء ، أي حول منتصف العهد المكي على ما يرجح وقت هذا الحادث ، فإنه ليس مما يحتمل شكاً أن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين كانوا يمارسون الصلاة الإسلامية منذ فجر البعثة ؛ وكل ما يمكن أن يحتمل أن تكون السنة النبوية قد ثبّتت لها أوقاتاً وعدداً وكيفيات بعد هذا الفجر ، ولا نستبعد إن لم نقل نرجح أن يكون هذا قد جرى على مراحل وليس دفعة واحدة .

وهدف تعدد الصلاة الإسلامية هو ـ فوق أنه واجب المؤمن بعبادة الله وأدائه بعض حقه من الشكر على آلائه ـ موالاة إيقاظ ضمير المسلم بذكر الله وتهذيب نفسه وتنقية روحه ومنعه من مقارفة ما نهى الله عنه من الآثام والمنكرات . وفي القرآن آيات تتضمن هذا ، منها هذه الآية :

« اُتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ... » العنكبوت ٤٥

وعلى حاجة الإنسان الدائمة إلى ذلك ؛ فإننا لا نشك في أنه كان عظيم الأثر في تهذيب وتنقية المجتمع الإسلامي الناشئ الذي كان جل أفراده يدينون بالشرك ويرتكسون في أعمال وعادات وطقوس جاهلية .

الصورة الثانية

أما التطهر للصلاة فقد ورد تشريعه في موضعين من القرآن المدني كما ترى فيما يلي :

١ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ [1] صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا . . .

النساء ٤٣

٢ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... المائدة ٦

والآية الثانية أوضح من الناحية التشريعية كما هو ظاهر . وقد روى المفسرون

---

(١) أصل المعنى : اقصدوا أو اختاروا بقعة طاهرة من الأرض فامسحوا بغبارها وجوهكم وأيديكم ، ثم صارت كلمة التيمم التي هي بمعنى القصد والتوجه اصطلاحاً إسلاميا .

والرواة أن التيمم قد رخص به في طريق العودة من إحدى الغزوات حيث أدرك المسلمين وقت صلاة ولم يتيسر لهم ماء للوضوء ؛ وفي هذا صورة واقعية من صور السيرة ، وواضح أنه أريد بالرخصة تلقين أهمية الاستعداد للصلاة في أوقاتها بالتطهر ولو بما يقوم مقامه رمزيا .

ومع أن هناك روايات ذكرت أن النبي والمسلمين كانوا يتطهرون بالماء من الحدث الأصغر الناقض للوضوء ومن الحدث الأكبر وهو الجنابة قبل الدخول في الصلاة منذ العهد المكي ، فإن روح الآيات ومضمونها يلهمان أن هذا التطهر لم يكن مرعيا رعاية تامة ، فاقتضت الحكمة التنبيه والتشريع مرة بعد أخرى . والذي نرجحه أن هذا الإهمال أو عدم الرعاية إنما كان يقع من المستجدّين في الإسلام وخاصة من الأعراب .

على أن التشريع في آية المائدة لا يحتوي تفصيل الكيفيات الذي تكفلت به السنن المروية على اختلاف فيها ؛ وقد يكون هذا محل بحث ؛ فإن آية المائدة مما نزل متأخراً ، وعلى كل حال بعد آية النساء ، والتطهر للصلاة مما كان قديما ؛ فاكتفاء القرآن بما حددته آية المائدة ، وما في الروايات في السنن من خلاف ، ثم ما هناك من اجتهاد فقهي بأن الأركان الأربعة المذكورة في الآية مجزية ـ قد يدل على أن هذا هو الأصل الذي كان جاريا منذ البدء ، وأن السنن المروية لم تكن مستمرة دون انقطاع وتبديل ، وأن الاهتمام قد ظل منصباً على الأركان الأربعة . وفي الفقرة الأخيرة من آية المائدة قرينة على هذا فيما يبدو لنا .

الصّورة الثالثة

وتطهير الثياب ركن من أركان الدخول في الصلاة كما هو معلوم ؛ ولم يرد فيه تشريع مدني ، ولقد ورد في مطلع سورة المدّثر آية هي من أبكر ما نزل : وثيابك فطهرْ « ٤ » مما يسوّغ القول بأن هذا التطهير كان مثل التطهر من الحدثين منذ فجر البعثة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد علمه للمسلمين وجروا عليه ، أما كيفياته وحدوده

فقد تكفلت السنة ببيانها على اختلاف في الروايات . مما يسوّغ القول إنه كان يتساهل في ذلك بعض التساهل أيضاً ؛ ويلفت النظر خاصة إلى ما قرّرته الفقرة الأخيرة من آية المائدة من حكمة تشريعية سامية ، وإن أسلوبها ومضمونها ليلهمان أن من هدفهما إثارة الحافز في نفوس المسلمين إلى التطهر والنظافة في الدرجة الأولى ؛ وإذا لوحظ أن المجتمع الإسلامي الناشئ قد كان فيه جماعات كبيرة من البدو قلما يعنون بنظافة وطهارة ، وأنه كان يسكن منطقة شحيحة الماء تضطر ساكنيها إلى الاقتصاد بالماء وعدم التطهر والنظافة كما يجب ، بدت لنا الحكمة السامية الخاصة مضافة إلى الحكمة السامية الخالدة .

الصورة الرابعة

وآية النساء تحتوي فوق تشريع التطهر للصلاة كمبدأ ، تشريع عدم المرور من المسجد إلا على طهارة ما لم يكن هناك ضرورة ملزمة على ما أوله المفسرون لجملة « إلا عابري سبيل » وقد رجحنا في مناسبة سابقة أن هذا قد كان لأن حجرات النبي صلى الله عليه وسلم متصلة بمسجده الشريف . وفي هذا على كل حال صورة واقعية . أما النهي عن الصلاة في حالة السكر وما فيه من صورة واقعية فسيأتي الكلام عنه بعد .

الصورة الخامسة

وقد جاء في صدد صلاة الخوف الآيات التالية :

« وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا . وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ

فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا . فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا . . . »

النساء ١٠١ ـ ١٠٣

وفي الكيفية المذكورة لا يذكر الركوع ولا قعود التشهد ولا ماهية القصر من الصلاة ، مما تكفلت ببيانه السنة ، وفي هذه الرخصة صورة واقعية ، إذ تدل على أن المسلمين كانوا يرون حرجاً في اضطرارهم إلى الوقوف أمام العدو في ظروف الحرب أو الخوف ، وعدم تمكنهم من أداء الصلاة ، كما أن فيها تنبيهاً إلى خطر أداء الصلاة في أوقاتها مهما كان الأمر ، فحلت المشكلة على الوجه المذكور .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الحل إنما كان في حال الخوف ، في حين أن هناك سنة بقصر الصلاة في حالة السفر مطلقاً ، مما يسوغ القول أن هذه الرخصة تشريع نبوي ، وواضح أنه لا يتعارض مع تلك الرخصة لأنه ليس في الآية حصر ، وهذه واحدة من كثير من أمثالها جرت بتشريع نبوي ، منها مامر كالصلاة والتطهر لها وكيفياتهما ، ومنها ما ستأتي الإشارة إليه ؛ وفي هذا صورة من صور السيرة النبوية والتشريع في أثنائها .

الصورة السادسة

وقد جاء في صدد صلاة الجمعة الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَإِذَا رَأَوْا۟

تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ...» ٩ ـ ١١

وروح الآيات وأسلوبها يدلان على أن هـذه الصلاة لم تشرع حين نزول الآيات ، وإنما كانت أقدم من ذلك ، وأن الآيات إنما نزلت للتنبيه على خطورتها وإيجاب الاهتمام لها ، بسبب ما كان يبدو من المسلمين أو بعضهم من تقصير في ذلك ناشئ عن الانهماك في التجارة واللهو ، إذ احتوت أمراً تشريعيا بوجوب ترك البيع واللهو والمسارعة إلى صلاة الجمعة حينما يؤذن لها .

ولقد ذكرت الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أقام صلاة الجمعة في حي بني عوف حينما قدم مهاجراً من مكة ، وكان هذا طبعا قبل نزول الآيات ، مما يستأنس به على صحة الاستفهام ، ويؤيد أن النبي والمسلمين كانوا يجتمعون لصلاة الجمعة في مكة منـذ عهد قد يكون مبكراً ، ومما يسلك في سلك التشريع النبوي أيضا ؛ كما ذكرت الروايات أن الأنصار كانوا « يجمِّعون » أي يقيمون الجمعة بعد إسلامهم وقبل الهجرة ، مما يسوغ القول بأنهم قد تلقوا ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ويدعم ما قلناه آنفا .

وعلى هذا فالآيات ـ وهي تنبه على خطورة صلاة الجمعة ـ تنطوي على صور متنوعة ، منها اشتغال بعض المسلمين بالبيع عن هـذه الصلاة ، ومنها انفضاض بعضهم من المسجد والصلاة قائمة أو والنبي قائم لها حينما تعرض لهم عارضة من تجارة أو لهو ، ومنها الاهتمام لتجميع المسلمين يوم الجمعة للصلاة ، وما في هذا من قصد اجتماعي جليل فيه تعليم وتأديب ومصلحة عامّـة ، سواء بالنسبة للمجتمع الإسلامي النـاشئ الحاضر أو للمجتمع الإسلامي بصورة عامّة ودائمة .

الصُّورة السَّابعة

وليس في القرآن تشريع للأذان أيضـا ، وكل ما فيـه إشارة إلى أن المسلمين كانوا ينـادون للصلاة ، كما جاء في آيات سورة الجمعـة وكما جاء في إحـدى آيات سورة المـائدة هـذه :

« وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ... » ٥٨

وقد ذكرت الروايات أن الأذان للصلاة بالكيفية الجارية قد ابتدأ في المدينة ؛ وهذا معقول ، لأنه متصل بطبيعة العهد المدني دون المكي ، حيث لم يكن المسلمون في هذا كثرة وأحراراً يمكنهم أن ينادوا للصلاة جهرة وجماعة في حين كان هذا ممكنا وضروريا في العهد المدني ؛ وعلى كل فإن حال تشريع الأذان هو تشريع نبوي كما هو واضح .

الصورة الثامنة

والقبلة ركن من أركان الدخول في الصلاة كما لا يخفى ، وقد بسطنا الكلام عما تقلب عليه أمرها بما فيه الكفاية في فصل اليهود فنكتفي بهذه الإشارة ، مع التنبيه إلى أن استقبال المسجد الحرام (الكعبة) قبل المسجد الأقصى ثم التحول إلى هذا إنما كانا تشريعا نبويا ، وأن التحول عن هذا إلى الأول هو وحده التشريع القرآني ، مع ملاحظة ما قلناه في المناسبة السابقة من احتمال أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتحول بإلهام رباني قبل نزول آيات القبلة ونزول هذه الآيات بعد ذلك مثبتة مشرعة .

الصورة التاسعة

الصوم :

هناك روايات تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صام عاشوراء وحض على صيامه قبل نزول آيات فرض صيام رمضان ، وأن صيام هذا اليوم متصل بتقليد جاهلي يوم تجديد ستار الكعبة على ما ذكرناه في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » وعلى كل حال فإن صيام شهر رمضان لم يفرض إلا في العهد المدني بالآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ [1] فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . . . » البقرة ١٨٣ ـ ١٨٧

واستئناساً بأن سورة البقرة أولى سور العهد المدني يمكن أن يقال إن صيام رمضان قد فرض في السنين الأولى من هذا العهد ؛ والروايات تذكر أنه كان بعد تحويل القبلة إلى الكعبة بشهر ، أي في الثلث الثالث من السنة الهجرية الثانية .

ولقد قال بعض العلماء والمفسرين بوجود ناسخ ومنسوخ في آيات الصوم ، إذ استدلوا من الآية الثانية على أن الصيام فرض في أول الأمر بصورة عامة ، وبدون تحديد شهر كامل ، مع تخيير المسلمين القادرين عليه بين الصيام والفداء عنه بإطعام مسكين

---

(١) أي من كان مقيما وحاضرا أيام الشهر .

عن كل يوم ، ثم أكدت الفريضة بالآية الثالثة إذ جعلت كامل شهر رمضان ، وحتم صيامه على غير المريض والمسافر ، ونسخ التخيير بين الصوم والفداء بالنسبة للقادرين ؛ فإذا صح هذا كان الفرض الأول هو الخطوة الأولى التي اقتضت الحكمة أن تكون لعدم الإحراج ، حتى إذا تعود المسلمون الصيام كانت الخطوة الثانية . وفي هذا مظهر من مظاهر التطور يمكن أن يكون قد سار مع قوة رسوخ الدين في عامة المسلمين ورغبتهم في التطوع لله بالصيام . على أن أمر النسخ ليس مسلماً به عند علماء آخرين قالوا إن جملة « شهر رمضان » هي بدل من الأيام المعدودات ، وإن الآيات الثلاث الأولى قد نزلت دفعة واحدة . والحق أن صيغة هذه الآيات ومضامينها تتحمل صحة القولين وإن كانت صحة القول الثاني أوجه وأقوى بقرينة جملة (فمن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر) حيث يفيد هذا أن الأيام كانت محددة بأعيانها . وهذا إنما ينطبق على شهر أو بعض شهر بعينه . وإذا أردنا أن نقيس فرض الصيام على تشريعات تعبدية أخرى كالصلاة وكتحريم الخمر ساغ ترجيح القول الأول ، لأننا نرى في هذا وتلك تدرجا اقتضته الحكمة ، ويمكن أن يكون فرض صيام رمضان سار على مقتضى هذه الحكمة .

والآية الأخيرة تدل على أن المسلمين وقعوا في شيء من الحرج أو الإثم في صدد قرب نسائهم في ليالي الصوم ، وقد ذكرت الروايات أنهم كانوا يرون وجوب الامتناع عن الأكل والنكاح إذا ناموا بعد العشاء ثم استيقظوا قبل الفجر ، وأن بعضهم قد فعل ذلك فأهمه الأمر فلجأ إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعتذر فنزل الوحي بالآية . وطبيعي أن تكون الآية قد نزلت متأخرة عن الآيات الثلاث الأولى . ومضمونها يؤيد ذلك . وقد وضعت في مكانها للتناسب الموضوعي وإتمام السياق . وفي هذا صورة من التأليف القرآني . وبعض العلماء يقولون إنها ناسخة لأمر كان يعتبره المسلمون واجباً . وأسلوب الآية ومضمونها يؤيدان ذلك حيث وصف فيها عمل المسلمين خيانة للنفس ثم قرر فيها

أن الله قد عفا وخفف عنهم . والمتبادر أن ذلك كان بأمر النبي وبإلهام رباني . ثم اقتضت الحكمة التخفيف .

الصورة العاشرة

الحج :

إن سورة الحج احتوت فصلا طويلا في مناسك الحج . سوف نورده بعد . وهذه السورة من المختلف في مكيتها ومدنيتها . وقد رجحنا مكية أغلبية آياتها لدلالات عديدة ظهرت لنا وتظهر عند التمعن في آيات السورة . غير أن الفصل المذكور يحتمل أن يكون مدنيا كما يحتمل أن يكون مكياً . غير أن احتمال مدنيته أقوى لأنه يبدأ بآية فيها تنديد بالكفار الذين يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام . فإذا صح هذا فيمكن أن يقال إن الآيات التي فرضت الحج وذكرت مناسكه مدنيـة وبالتالي إن تشريع الحج هو تشريع مدني ؛ أما القرآن المكي فلم يحتو إلا إشارات إلى الحرم وأمنه وبيت الله المحرم وبركاته وعلاقة إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما وسلم به ... الخ .

وإليك أولاً الآيات الواردة في الحج وتشريعه :

١ — إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ . . .

البقرة ١٥٨

٢ — يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ...

البقرة ١٨٩

٣ — وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن

رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ[1] فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَٰٓأُولِي الْأَلْبَٰبِ . لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ . ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ . وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . . .

البقرة ١٩٦ ـ ٢٠٣

٤ — إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ .

---

(١) اعتمر بمعنى زار . والاعتمار في الاصطلاح الفقهي هو الزيارة في غير موسم الحج أو بغير نية الحج . فالحاج حينما يحرم إما أن ينوي العمرة فقط ، أو ينوي قرن العمرة والحج معا ، فإذا نوى العمرة فإنه حينما يصل إلى مكة يطوف بالكعبة زائرا ثم يتحلل من إحرامه ، وحينما يأتي وقت الذهاب إلى عرفات يحرم بنية الحج ؛ أما إذا نوى القران فإنه يظل محرما إلى أن ينزل من عرفات فيزور الكعبة حين دخوله مكة ويظل محرما إلى أن يقف في عرفات وينزل منها فيذهب إلى مكة ويطوف بالكعبة ثم يتحلل من إحرامه ؛ وكذلك إذا دخل زائر إلى منطقة الحرم في غير موسم الحج فعليه أن يحرم بنية العمرة ، وحينما يدخل إلى مكة يزور الكعبة ويطوف بها ثم يتحلل من إحرامه .

فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ . . .

آل عمران ٩٦ ـ ٩٧

٥ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . . .

المائدة ١ ـ ٢

٦ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ . أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ...

المائدة ٩٤ ـ ٩٧

٧ — إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ

لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ . وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ . ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ . ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ . حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ . ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ . لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ . وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ . ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ . وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ... الحج ٢٥ ـ ٣٧

الصورة الحادية عشرة

وجل المناسك والطقوس التي أشارت إليها الآيات وشرعتها ـ إن لم نقل كلها ـ قد أقر على ما كان عليه قبل البعثة بعد تهذيبه من المناظر القبيحة وتجريده من شوائب الشرك

والوثنية ؛ ممـا يسوغ القول بأنها كانت من التقاليد المقدسة الراسخة في الناس ، كما أنها كانت تنطوي على فوائد متصلة بما توخته الدعوة فيما توخته من مثل جمع القاصين والدانين على اختلاف أجناسهم وأهوائهم في مظهر متحد في وقت ما وشكل ما ؛ وتبدو لنا حكمة أخرى في هذا الإقرار وهي تأنيس الناس الذين كانت تلك التقاليد راسخة فيهم رسوخاً شديداً للدعوة الإسلامية وقد أخـذ أفقها يتسع بعد الهجرة وترشح ليشمل جميع العرب على اختلاف منازلهم فضلا عن غيرهم .

وفي الآيات صور واقعيـة وخطوات تطورية متصـلة بالسيرة النبوية ننبـه عليهـا فيما يلي :

(١) يفهم من آية البقرة (١٥٨) أن المسلمين قد تحرجوا من الطواف بالصفا والمروة جرياً على تقليد الجاهلية فأقر هذا الطواف وأعلن أنه من شعائر الله .

(٢) ويفهم من آية البقرة (١٨٩) أن العرب كانوا يتحرجون من التظلل بالسقوف وبالتبعية من دخول البيوت من أبوابها المظللة أثناء أشهر الحج فظلوا على هذا إلى أن أبطلته الآية .

(٣) ويفهم من آية البقرة (١٩٨) أن المسلمين تحرجوا من الاشتغال بالتجارة في أثناء أشهر الحج ـ وقد كان العرب يقيمون الأسواق التجارية في هذه الأثناء ـ وظنوا أن من الواجب أن يكرسوا جميع الوقت للعبادة وعدم مزج شيء من عمل الدنيا معها ، لاسيما أن الآية ١٩٧ قـد نبهت على وجوب اجتناب الجـدال والفسوق والرفث في أشهر الحج ، فأباحت الآية لهم ذلك .

(٤) ويفهم من آية البقرة (١٩٩) أن بعض طبقات من العرب أو من الزعماء كانوا يأنفون من الوقوف في موقف عامة الناس أثناء بعض المناسك ، وأن هذه العادة ظلت جارية وقتا ما بعد البعثة ، فأبطلت بها للتسوية بين الناس في هذا الموقف التعبدي الذي يتجه الناس جميعهم فيه إلى الله وحده دون تجبر أو استكبار .

(٥) ويفهم من آيات البقرة ١٩٦ ـ ٢٠٢ أنها توخت فيما توخته أن تستبدل

بما كان من عادة الحجاج في منى من عقد مجالس المفاخرة ، مجالس ذكر الله وعبادته وتكبيره .

(٦) ويفهم من آيات المائدة ١ ـ ٢ أن أحداً حاول أن يلحق الأذى بأهل مكة فيمنع عنها الحجاج ، فحظرت ذلك بشدة وأيدت بقوة وجوب احترام حرمة الحج والأشهر الحرم وتقاليدها ومناسكها .

(٧) ويفهم من آيات المائدة ٩٤ ـ ٩٧ أن العرب كانوا يحرمون صيد البر والبحر معا في أشهر الحج المحرمة ، فأباحت صيد البحر للتخفيف عن الناس وخاصة عن القوافل وتيسير الطعام لهم ، كما أنها جعلت حالة التحريم مقصورة على وقت الإحرام الذي حددته السنة النبوية بلبس الثياب غير المخيطة حين دخول المسلم منطقة الحرم إلى أن يقضي عمرته أو حجه بعد أن كانت شاملة لأشهر الحج كلها .

٨ ـ ويفهم من آيات سورة الحج أن العرب كانوا يتحرجون من أكل لحوم قرابينهم ، ومنهم من كان يمنعها عن الناس ويعتبرها محرمة لله ، فأباحت لأصحابها الأكل منها وإطعام غيرهم وخاصة الفقراء والمعوزين منها .

هذا ؛ ويلفت النظر خاصة إلى ما في إقرار جُلّ تقاليد الحج بعد تهذيبها من شوائب الشرك والوثنية من معان متصلة بالمجتمع الإسلامي الذي كان إذ ذاك هو المجتمع العربي بوجه عام ، فالعرب على مختلف منازلهم ونحلهم وثقافتهم كانوا متحدين في هذه التقاليد تقديساً وممارسة ، وكان لهم في ظروفها منافع عظيمة متنوعة وكانت راسخة فيهم رسوخاً شديدا من المتعذر التغلب عليه ، وكان أهل مكة وهم أئمة العرب متخوفين من انتشار الدعوة الإسلامية ظنا منهم أنها ستلغي هذه التقاليد ويفقدون بذلك مركزهم الممتاز ومنافعهم الكبيرة ، وهذه التقاليد في أصلها مما هو متصل بملة إبراهيم التي دعا إليها القرآن، وكان العرب يعرفون هذه الصلة ويبنون تقاليدهم عليها ؛ ولقد استهدف القرآن فيما استهدف توسيع أفق العرب وإخراجهم من نطاق القَبَلية الضيقة إلى كيان الأمة الموحدة ؛ فكل هذا مما يفسر حكمة ذلك الإقرار ، ويوضح المعاني التي أشرنا إليها كما هو المتبادر .

المبحث الثاني

التشريع السياسي

مدى التشريع السياسي ومتناوله ـ الآيات الواردة في توطيد مركز أولي الأمر وما يجب لهم وعليهم ومداها ودلالاتها ـ الآيات الواردة في توطيد العدل وحياطته ومداها ودلالاتها ـ الآيات الواردة في العقوبات والحدود ومداها ودلالاتها ـ تعليق على تطور عقوبة الزنا وتشريع حد السكر والتطور التشريعي في حظر الخمر ـ توطيد بيت المال ـ الزكاة ومدى ودلالة التبكير في فرضها ـ تطور الأسلوب القرآني فيها ـ صلة الزكاة ببيت المال ـ غنائم الحرب ـ تشريع الخمس من غنائم الحرب الفعلية ومغزاه ـ تشريع النبي ومداه ـ تعليق على الفرق الملحوظ بين مستحقي غنائم الحرب والزكاة ـ بعض الصور في صدد التشريعات المالية .

الصورة الأولى

نقصد بهذا ما يتصل بتوطيد كيان الدولة في الإسلام وواجباتها وصلاحيتها . والتشريع في هذا مدني، وكل ما كان من أمر بالنسبة للقرآن المكي أن خطوطه مما تضمنته آيات مكية كآيات الشورى ٣٧ ـ ٤٣ التي تنوه بالمسلمين الذين يجعلون أمرهم شورى بينهم ، وينتصرون من ظالميهم ، وآيات الإسراء ٣١ـ ٣٥ التي تنهى عن القتل وتجعل لولي الدم حقاً يؤخذ له ، وتأمر برعاية مال اليتيم والوفاء بالعهد ؛ وكآيات النحل ٩٠ ـ ٩٢ التي تأمر بالعدل والإحسان وتنهى عن نقض العهود ، وكآية الأنعام ٥٢ التي تأمر بالعدل بالقول دون أي محاباة وبالوفاء بالعهد ، وكالمحاورة المحكية في سورة النمل عن ملكة سبأ وما يحتمل أن يكون قد انطوى فيها من تلقين القدوة ، وكآيات ص عن داود عليه السلام وخطاب الله له في بيان ما يجب على الخليفة مراعاته وما يحتمل أن يكون انطوى فيها من تعليم وتلقين كذلك .

وننبه إلى نقطة مهمة، فمع قولنا إن التشريع السياسي مدني فإن القرآن المدني لم يحتو هو أيضا إلا القليل من التفصيل والتحديد ، وأكثر ما جاء في صدد هذا الموضوع قد

جاء مطلقاً وعاما كخطوط ومبادئ ؛ مما يمكن أن يكون قصد به ترك التفاصيل والجزئيات للنبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه في المسلمين ، يسيرون منه على حسب الظروف والإمكانيات في نطاق تلك الخطوط والمبادئ ، وهذا من معجزات الشريعة الإسلامية التي رشحتها للخلود .

والتشريع القرآني السياسي يتناول عدا الأمور المتصلة بالجهاد ، وصلات المسلمين بغير المسلمين في مختلف حالاتهم ـ مما ألممنا به في فصوله الخاصة ولا نرى العودة إليه هنا ـ الأمور الآتية :

١ ـ ماله صلة بتوطيد مركز أولي الأمر وما يجب لهم وعليهم .

٢ ـ ماله صلة بتوطيد العدل .

٣ ـ ماله صلة بالعقوبات والحدود .

٤ ـ ماله صلة بتأسيس بيت المال .

الصورة الثانية

ففي الأمر الأول نزلت آيات عدة نورد منها ما يلي :

١ — فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ... آل عمران ١٥٩

٢ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ... النساء ٥٩

٣ — وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلاً ... النساء ٨٣

٤ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . . .
الأنفال ٢٤ ـ ٢٥

٥ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ...
الأنفال ٢٧

٦ — وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ...
الأنفال ٤٦

٧ — لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ...
التوبة ١٢٨

٨ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ . . .
الممتحنة ١٢

فهذه الآيات رمت كما هو المتبادر :

١ ـ إلى توطيد السلطان الإسلامي في شخص النبي صلى الله عليه وسلم أولا وإلى توطيد إطاعة أولي الأمر ثانيا .

٢ ـ إلى جعل القرآن والسنة النبوية هما الناموس العام الذي يجب أن يهتدي ويستلهم منه في حل المشاكل وتصريف الأمور وخاصة عند اختلاف الآراء .

٣ ـ إلى تلقين جعل المصلحة العامة وحياة المجتمع العامة ضابطاً عاما في تأييد المسلمين للسلطان والاستجابة إلى ما يدعو إليه وإطاعته فيه .

٤ – إلى إيجاب رد الأمور من قبل العامة إلى أولياء الأمور وأهل الحل والعقد القادرين على تمحيصها والأخذ بما هو الأصلح منها .

٥ – إلى تقرير صفات ولي الأمر في الإسلام من لين الجانب وخفض الجناح ، والرأفة بالمسلمين ، والاستغراق في مصلحتهم وخيرهم ، وعدم أمرهم بغير المعروف ، وعدم دعوتهم إلى ما فيه المعصية .

٦ – إلى إيجاب إشارة أهل الحل والعقد على ولي أمر المسلمين .

٧ – إلى إيجاب الإخلاص والأمانة والطاعة على المسلمين لأولياء أمورهم في حالة تحقق الصفات المذكورة فيهم .

٨ – إلى إيجاب التضامن والاتحاد فيما بينهم في ذلك أيضا .

ويمكن أن يلخص هذا بأن التشريع السياسي قد رمى إلى جعل المجتمع الإسلامي من الوجهة السياسية كياناً محكما يجب فيه على أولياء الأمور والرعية أن يتضامنوا ويتبادلوا الحقوق والواجبات والتشاور ؛ ويهدفوا جميعا إلى خير هذا الكيان ، دون أن يكون لأولياء الأمر حق إلا مقابل واجب وصفات ، ودون أن يكون للرعية حق إلا مقابل واجب وصفات أيضاً .

ومن إنعام النظر في نصوص الآيات والاطلاع على تفسيرها ومناسبات نزولها ـ وهو مما ألممنا به بعض الإلمام في الفصول السابقة التي استعرضنا فيها أكثر هذه الآيات ـ [1] يبدو أولا أنها قد نزلت في مختلف أدوار التنزيل ، وهذا يعني أن التشريع السياسي القرآني إنما جرى على مراحل على اختلاف ظروف العهد المدني الذي نزلت فيه آياته ؛ وثانيا أن هذه الآيات قد نزلت في مناسبات وظروف معينة ، وهذا يعني أنها انطوت على صور ومواقف ومشاهد من صور العهد المدني ؛ فرمت إلى معالجة الموقف على الوجه الذي اقتضته الحكمة ، ثم كانت إلى ذلك تشريعا مستمر التلقين والمدى .

الصورة الثالثة

وفي الأمر الثاني نزلت كذلك آيات عدة نورد منها ما يلي :

(١) جل هذه الآيات نقل وشرح في فصلي الجهاد والمنافقين .

١ — إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا. يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا. أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ... النساء ٥٨ ـ ٦١

٢ — إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا. وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا. وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا. يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ... النساء ١٠٥ ـ ١٠٨

٣ — وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ... النساء ١١٢

٤ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ...

النساء ١٣٥

٥ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ

شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ... المائدة ٨

٦ — سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ... المائدة ٤٢

٧ — وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ . وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ . أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ... النور ٤٧ ـ ٥١

وفي سورتي البقرة والمائدة آيات في صدد الدين والعقود والشهادات والوصية، وقد استهدفت فيما استهدفته حياطة الحق والعدل والأمانة، مما يصح أن يسلك في سلك الآيات السابقة كما ترى فيها .

١ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً تُدِيرُونَهَا

بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ... ٢٨٢ ـ ٢٨٣

٢ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْأَثِمِينَ . فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ . ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ . . . ١٠٦ ـ ١٠٨

وتوطيد فكرة العدل والحق بين الناس بصورة مطلقة وشاملة وعدم المحاباة والتساهل مع المبطلين ، وعدم الضعف في ذلك بسبب ظروف القربى أو البغضاء ـ بارزة المرمى في الآيات كما ترى مثل ذلك في فكرة إيجاب تضامن المسلمين في تحقيق هذه الغاية ، ومساعدة القضاء الإسلامي على القيام بها على الوجه الأوفى ، وبجملة واحدة : قد رمت إلى جعل العدل والحق والأمانة بين الحاكم والرعية ، ثم بين الرعية فيما بينهم ، مسألة تضامنية من جهة وفوق كل اعتبار من جهة أخرى .

والآيات كما هو واضح قد نزلت في مختلف أدوار التنزيل كما نزلت في مناسبات وظروف خاصة ، وانطوت على صور ومواقف ومشاهد من صور العهد المدني في مختلف

أدواره ، مما نبهنا على أكثره في فصول سابقة ؛ وقد رمت إلى معالجة الموقف الحاضر على الوجه الذي اقتضته الحكمة ، ثم كانت إلى ذلك تشريعا مستمر التلقين والمدى .

الصورة الرابعة

وفي الأمر الثالث نزلت آيات عدة أيضاً نوردها فيما يلي :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ذَ ٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَ ٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ...

البقرة ١٧٨ ـ ١٧٩

٢ — وَٱلَّـٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا . وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ...

النساء ١٥ ـ ١٦

٣ — وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَ ٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَ ٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...

النساء ٢٥

٤ — وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ

رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . . .

النساء ٩٢

٥ — إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . . .

المائدة ٣٣ ـ ٣٤

٦ — وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . . .

المائدة ٣٨ ـ ٣٩

٧ — ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . .

النور ٢

٨ — وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ . إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . . .

النور ٤ ـ ٥

٩ — وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ . وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ . وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ . وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ . . .

النور ٦ ـ ٩

١٠ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ... النور ١٩

١١ — لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا . مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ... الأحزاب ٦٠ ـ ٦١

وقد حددت الآيات ـ كما هو واضح ـ عقوبات الجرائم الرئيسية كالقتل والزنا والسرقة وقذف الأعراض ، والإفساد في الأرض ، وإخلال الأمن ، وإثارة الاضطراب في المجتمع بإشاعات السوء والأذى والإرجاف مما له صلة بدماء الناس وأعراضهم وأموالهم وأمنهم وحرياتهم ؛ وهي أهم ما يهم المجتمع كما لا يخفى .

والآيات مما يمت إلى مختلف أدوار التنزيل ، وهذا يعني أن هذه التشريعات قد تمت على مراحل، حسبما اقتضته الظروف والأحوال ؛ ولذلك نزل جلها أو كلها في مناسبات ووقائع معينة ، وهذا يعني أنها انطوت على صور متنوعة من العهد المدني وطبقات المجتمع الإسلامي فيه أيضا ، مما هو متصل بالسيرة النبوية ومشاهدها .

وآية البقرة (١٧٨) نصت على القصاص في القتل ، وحددت قتل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، وقد يفهم منها أن الحر لا يقتل بالعبد ولا الذكر بالأنثى ؛ غير أن هناك تعديلا ثابتا لذلك في السنة النبوية مستلهما على ما يتبادر من المبدأ العام الذي احتوته الآية (١٧٩) وهو القصاص مطلقا . ولقد ذكرت الروايات أن الآيات نزلت في

قبيلتين كان بينهما دماء قبل الإسلام ، وكانت إحداهما أقوى من الأخرى ، فأقسمت القوية على الاقتصاص من عدوتها قصاصا مضاعفا ومهيناً ، فلما أسلمت جاءتا إلى النبي صلى الله عليه وسلم للاحتكام ، فنزلت الآيات في حل المشكل القائم على الوجه الحكيم الذي جاءت به . وفي هذا وذاك صور واقعية للتشريع وتطوره . وآيات قتل الخطأ انطوت على صورة لما كان الأمر عليه في العهد النبوي المدني ، إذ كان هناك مسلمون من فريق أو قبائل غير مسلمة ، منها من كان عدوا محاربا ومنها من كان معاهداً ؛ فاحتوت أحكاماً لكل من الحالتين بالإضافة إلى حالة قتل مسلم لمسلم آخر أهله مسلمون ، فكانت علاجا للحالة القائمة وتشريعا مستمر المدى في الوقت نفسه .

وآيات النساء ١٣ ـ ١٦ لا تنص على حد للزنا ، وكل ما أوجبته على المرأة الحبس في البيوت ، وعلى الرجل أذى ، أي ضربا غير محدد ؛ ثم جاءت آيات النور ٢ ـ ١٠ فعينت حد الزنا ، وأضافت إلى جريمته جريمة القذف ، وعينت حداً للقاذف ، كما حلت مشكلة تهمة الزوج لزوجته إذا لم تكن مستندة إلى شهود ؛ وفي هذا من الصور التطورية ماهو ظاهر ، وقد اقتضته ظروف وتطور الحالة الاجتماعية في العهد المدني على ماهو المتبادر ؛ ومما لا يحتمل شكا أن الآيات قد نزلت بمناسبة وقائع وحادثات ، إذ جاءت علاجا للحالة التي نزلت بمناسبتها ووفق ظروفها ، ثم صارت تشريعا مستمر المدى

وقد نصت آية النساء (٢٥) على أن عقوبة الزنا على الأمة المتزوجة هي نصف عقوبة الزنا على الحرة ، وهي خمسون جلدة . وهذا يمت فيما يتبادر لنا إلى ما كان في عصر النبي وبيئته من ارتكاس الإماء في البغاء وتعرضهن له أكثر من الحرائر ، مما تلهمه الآية نفسها على ما شرحناه في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته » .

وآيات الأحزاب ٦٠ ـ ٦١ والنور ١٩ تتضمن صوراً لما كان من المنافقين ومرضى القلوب من مواقف مؤذية ومثيرة للقلق والاضطراب في المجتمع الإسلامي اقتضت الحكمة أن يشرع لها عقوبات زاجرة صارت في الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمري المدى .

وآيات المائدة ٣٣ ـ ٣٤ أيضا تتضمن صورة لما كان من عيث بعض الناس في أمن

الأرض ومحاربة دعوة الله ورسوله ، فاقتضت الحكمة أن يشرع لمثل هذا عقوبات زاجرة تطبق على الذين يقبض عليهم قبل التوبة والارعواء ، وصارت في الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمرى المدى ؛ وقد طبقت في العهد النبوي على بدو أظهروا إسلامهم ثم ارتدوا ونهبوا مواشي بيت المال وقتلوا رعاتها .

وآية حد السرقة جاءت بعد هذه الآيات بقليل ، مما يلهم أنها نزلت بسبب تساؤل عن حد السرقة العادية ، أو بسبب حادث سرقة عادية اقتضت الحكمة تشريعا خاصا لها يعالج به الموقف ويكون تشريعا مستمر المدى أيضا .

ولقد اكتفت الآيات المكية بتقبيح الزنا والنهي عنه ، وفعلت مثل ذلك بالنسبة للقتل والفساد في الأرض ، ولم تذكر السرقة ألبتة ، فجاءت الآيات المعينة لتشرع القصاص في القتل ، والحد في الزنا والسرقة والقذف ، ولتضع أحكاما في القتل الخطأ على حسب حالة القاتل والمقتول وصلاته بالكيان الإسلامي ، وعقوبات زاجرة للمفسدين والمرجفين ، والمثيرين لقلق المجتمع وأمنه ، والمتعرضين لأعراض الناس وأموالهم ، وفي هذا كله صورة تطورية للعهدين مستمدة من طبيعتهما . وهناك سنن نبوية عديدة أتمت التشريعات القرآنية .

الصُّورَة الخَامِسَة

ونريد أن نستطرد إلى الحد الإسلامي على شارب الخمر لنقول إن هذا الحد ليس قرآنيا وإنما هو سنة نبوية وراشدية على اختلاف في الروايات عن كيفية إقامة الحد ومداه ، إذ روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بجلد الشارب أربعين جلدة مرة وثمانين مرة ، وبضربه بالنعال والأيدي مرة ، ونهى عن لعنه مرة ؛ وكل ما في القرآن هو نهي حاسم عن الخمر في أواخر العهد المدني . وبعد تدرج فيه انطوى على صور من العهدين المكي والمدني من جهة ، وعلى ما كان للخمر والسكر من شيوع ورسوخ فيهما ومنذ قبل البعثة من جهة أخرى ، فالوعد بمتعة خمر الجنة ومجالسها ورائحتها ولونها ومزاجها وطعمها ولذتها قد

تكرر ، وهذا يلهم ما قلناه من شيوعها ورسوخها في بيئة النبي التي خوطبت بالقرآن لأول مرة . ولقد احتوى وصف خمر الجنة نفيا لوجود ما تستكرهه النفس فى خمر الدنيا وما يسبب للشارب من الصداع[1] ، وهذا يمكن أن يكون نواة أولى لتقرير كراهة الخمر وإعلان تحريمها ؛ وفي أوائل العهد المدني سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الخمر والميسر فأوحي إليه بالآية التالية :

« يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ... » البقرة ٢١٩

وليس في الجواب منع أو تحريم كما هو ظـاهر ، ولـكنه قوي في تقرير إثمـه يصح أن يعد خطوة مهمة إلى النهـاية المحتومـة ، ثم كان أن صلى بعض المسلمين وهم سـكارى فخلطوا في الركعات وفي قراءة القرآن ، وراجع عمر بن الخطاب رضي الله عنـه ـ على ما روى ـ النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعا إلى الله أن ينزل حكما في الخمر ، فنزلت الآية التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَاتَقُولُونَ ... » النساء ٤٣

ثم نزلت آيات المائدة التالية بعد مدة ما :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ . وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ... » ٩٠ ـ ٩٢

وقد احتوت نهيا حاسما وقويا عن الخمر ، ووصفتها بالرجس ، وسلـكتها في سلك

---

(١) اقرأ آيات الصافات ٤٧ والواقعة ١٩ .

الشرك ؛ والآية الثانية تلهم أن الآيات نزلت بمناسبة وقوع شقاق ونزاع بين بعض المسلمين بسبب الخمر والميسر ، مماهو مألوف الحدوث في حالة السكر وتعاطي الخمر والميسر، وأن الحادث كان خطير الأثر والنتيجة استثار حنق الناس وأسفهم ، فكانت مناسبة ملائمة للخطوة النهائية إلى حظر الخمر لتعالج الحالة القائمة ولتكون تشريعا مستمر المدى أيضا . وذكر الأنصاب والأزلام في الآية الأولى قد يلهم أن هذه الآيات قد نزلت بعد الفتح المكي إذ كانت الأنصاب قائمة والعادات الجاهلية الوثنية في اللهو والاستخارة جارية .

ولقد جاء بعد هذه الآيات آية تنطوي على ما هو المتبادر منها على صورة لأثر النهي الحاسم في بعض المسلمين وهي هذه :

« لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ... » ٩٣

فالظاهر أن الذين كانوا يتعاطون الخمر من المسلمين هلعوا من أسلوب الآيات وسلكها الخمر في سلك عبادة الأنصاب ووصفها بالرجس ، فنزلت الآية لتسكن من هلعهم بالنسبة لما كان منهم قبل نزولها إذا اتقوا بعدها غضب الله وعذابه ، وصدقوا بما نزل ، وأحسنوا الأعمال .

الصورة السادسة

أما الأمر الرابع فمن متناوله الزكاة أولا ؛ ومعلوم أن هذا الركن الإسلامي ليس مدني التشريع في أصله إذ كان هو والصلاة من مواضيع الدعوة الإسلامية منذ فجر العهد المدني، صراحة حينا وكناية حينا كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ . . .

الذاريات ١٦ — ١٩

٢ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ... فاطر ٢٩

٣ — هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ... النمل ٢ ـ ٣

٤ — وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا . . .

الإسراء ٢٦

٥ — قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ . ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ... المؤمنون ١ ـ ٤

٦ — وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ . . .

المعارج ٢٤ ـ ٢٥

٧ — وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ . . .

الروم ٣٩

ومما يلفت النظر خاصة تعابير « حقه » و « حق للسائل والمحروم » و « حق معلوم » في الآيات ، إذ يمكن أن تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حدد مقادير معينة على أموال القادرين من المسلمين في العهد المكي زكاة عن أموالهم المتنوعة ؛ ومما يتبادر أنه بالإضافة إلى أن الزكاة ومقاصدها هدف أساسي من أهداف الدعوة الإسلامية ، فإن التبكير في الدعوة إليها ، والتنويه الذي احتواه القرآن بالمؤمنين الذين كانوا ينفقون أموالهم سراوعلانية ،ويؤدون الزكاة ،ويعرفون أن في أموالهم حقاًمعلوماً للسائل والمحروم ـ يدل على أن ظروف الدعوة كانت تدعو إلى فرض شيء من المال على الغني المسلم للفقير المسلم في ذلك الحين الذي كان الفقراء فيه أكثر عدداً من جهة ، ومعرضين للأذى والمطاردة أكثر من غيرهم من جهة أخرى ؛ ولعل مشروع الدعوة الإسلامية نفسه كان

في حاجة إلى نفقات لا بد منها كان النبي صلى الله عليه وسلم يتقاضاها من أغنياء المسلمين كزكاة واجبة الأداء عن أموالهم ؛ مما اقتضت الحكمة أن يبكر في فرض الزكاة والحث على أدائها والتنويه بمؤديها .

كذلك مما يلفت النظر ما في الآيات المكية من قوة التعبير التي تدل على أن إعطاء الغني زكاة ماله في الإسلام لم تكن الدعوة إليه حتى في أوائل العهد المكي على أنه صدقة تطوعية ، بل على أنه حق محتوم واجب الأداء للطبقات المحتاجة والمصلحة الإسلامية العامة ؛ هذا فضلا عما احتواه من حث على الإنفاق ومساعدة المحتاجين مما يمكن أن يكون قصد به التبرع التطوعي بالإضافة إلى الحق الواجب .

ومن السائغ أن يقال إن تشريع الزكاة في العهد المكي هو الوحيد بين التشريعات غير التعبدية إذ أن جل هذه التشريعات إنما كان في العهد المدني على ما أشرنا إلى ذلك قبل . والتعليل الذي يتبادر لهذا أن الزكاة إنما فرضت على المسلمين ليؤدوها بطيب أنفسهم وبدافع إيمانهم كالصلاة ؛ فلم تكن قلة المسلمين وضعفهم في العهد المكي مانعين لهذا التشريع منذ البدء ؛ فضلا عن مساس الحاجة إلى ذلك منذ ذلك الوقت .

ومع هذا كله فلعل من الحق أن يقال إن الأمر بالزكاة والإنفاق وإيتاء حق ذوي الحق في أموال الأغنياء ظل في العهد المكي دعوة وتشويقا وترغيباً وترهيباً كما يدل على ذلك أسلوب الآيات التي نقلنا أمثلة عنها ، في حين أن الآيات المدنية قد جاءت أو جاء كثير منها بأسلوب الأمر والإيجاب كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ... البقرة ١١٠

٢ — وَأَقِمْنَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ الزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . . الأحزاب ٣٣

٣ — ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . . .

المجادلة ١٣

٤ — وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا . . .

المزمل (١) ٢٠

٥ — وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ... البينة ٥

وفي حين أنها دخلت في العهد المدني في طور رسمي ، وأصبحت في جملة ما يدخل جبايته في صلاحية السلطان الإسلامي الذي كان يتمثل في شخص النبي صلى الله عليه وسلم وجعلت من حق بيت المال الرسمي ، وموردا من موارده ، وأوجب عليه صرفها في مصارف معينة ، وعبر عن الزكاة ومصارفها بتعبير « فريضة من الله » كما يستفاد من الآية التالية :

« إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... » (٢) التوبة ٦٠

وتعبير « الصدقات » في الآية هو كناية عن الزكاة كما هو المجمع عليه ؛ ويلفت النظر خاصة إلى جملة « والعاملين عليها » إذ تعني الموظفين الرسميين الذين كان يعينهم النبي صلى الله عليه وسلم لجباية الزكاة ، مما يدل دلالة حاسمة على رسمية هذا المورد المالي .

(١) هذه الآية مدنية وكان موضعها في السور المكية المناسبة .

(٢) الرقاب كناية عن تحرير الرقاب ، والغارمون هم الذين يحملون الغرامات ، أي الدية ولا يطيقون أداءها وحدهم ، والمدينون : المعسرون .

وآية التوبة هذه قد تكون متأخرة في النزول ، غير أن أسلوبها من جهة وسياق ورودها التنديدي بالمنافقين الذين كانوا يطمعون بحصة من الزكاة على غير استحقاق من جهة أخرى [1] يدلان على أن الأمر كان جارياً قبل نزولها على ما ذكرته بتشريع نبوي جاءت مؤيدة له .

والصورة التطورية في أمر الزكاة ورسمية جبايتها وصرفها واضحة بالنسبة للعهدين ؛ ولا ريب في أنهـا مستمدة من طبيعة العهـدين نفسيهما . وليس في القرآن تعيين لمقادير الزكاة ، وقد تكفلت بذلك السنة النبوية ، شأن كثير من الحدود والقواعد على ما نبهنا إليه في المناسبات السابقة .

وهناك نقطـة جـديرة بالبحث في صـدد صلة الزكاة ببيت المال ؛ إذ جرى التعامل على أن تكون زكاة الزروع والأشجار والمواشي فقطهي التي يجبيها بيت المال الرسمي، وإذ تواترت الروايات بأن النبي صلى الله عليـه وسلم إنمـا كان يرسل عمال الصـدقـة ليأخـذوا حصـة بيت المـال من هـذه الأعيـان ويوزعوها على الفقراء بتفويض منـه أو يرسلوها إلى خازن المـال ؛ ونقول: إن الآية لا تحتوي تخصيصا ، كما أن شمول الزكاة للأموال جميعهـا لا يحتمل شكا ؛ ولقـد ذكرت روايات معتبرة [2] أن النبي صلى الله عليـه وسلم قبض أكثر من مرة زكاة مال عمه العباس الذي كان تاجراً ولم يكن ماله زرعاً وماشية ، كما أن الخليفتين عمر وعثمان رضي الله عنهما كانا يحاسبان أصحاب المرتبات من المسلمين على زكاة أموالهم حين تأدية هذه المرتبات السنوية ، ويحجزان المستحق عليهم لبيت المـال منها ؛ هذا إلى ما هناك من أقوال منسوبة إلى كبار الصحابة بوجوب تأدية زكاة جميع أنواع الأموال إلى بيت المال، الأمر الذي نرجح أنه كان جاريا بصورة عامة ؛ ويستفاد من الروايات المعتبرة أنه كان لما قام من فتن سياسية أدت إلى نشوء الدولة

---

(١) أو آيات التوبة ٥٨ ـ ٥٩

(٢) في كتاب الأموال للامام القاسم بن سلام وهو من أقدم الكتب وأهمها ، أقوال وأحاديث وروايات عدة في هذا الموضوع .

الأموية أثر في إهمال استيفاء بيت المال زكاة النقد والعروض الأخرى ، أوفي حمل بعض المسلمين على عدم تأديتها إليه ، ثم سرى هذا إلى الجمهور ، وتساهلت الدولة في الأمر ؛ لتفادي الفتنة من جهة ؛ ولأن النقد والعروض الأخرى ليس مما يمكن الاطلاع عليه وأمرهما موكول إلى أصحابهما من جهة أخرى .

الصورة السابعة

ومن متناول الأمر الرابع غنائم الحرب ثانيا . وهذه الغنائم نوعان : نوع يشترك في اغتنامه المسلمون في حرب فعلية ، وآخر لا تقع في سبيله حرب فعلية ؛ والنوع الثاني يسمى « فيئاً » إذ تتضمن الكلمة معنى الهبة . وقد عبر عنها بجملة (ما أفاء الله) .

وقد قررت آية الأنفال (٤١) الخمس من النوع الأول كنصيب لبيت المال الرسمي كما ترى :

« وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ... »

ونصت الآية على مستحق هذا الخمس ، وتواترت الروايات حتى صار يقينا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبض الخمس ، ويتولى إنفاقه في مصارفه ، ومن أجل هذا قلنا إنه نصيب بيت المال الرسمي .

وقررت آية الحشر (٧) جميع النوع الثاني كنصيب لبيت المال كما ترى :

« مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ... »

ومستحقو الفيء هم مستحقوا خمس الغنائم أنفسهم ؛ وقد تواترت الروايات كذلك

حتى صار يقينا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبض الفيء ويتولى إنفاقه على مصارفه ؛ ومن أجل هذا قلنا إنه نصيب بيت المال أيضا .

وبين مستحقي الزكاة ومستحقي الفيء والغنائم بعض الفرق ، إذ دخل في عداد الأولين المؤلفة قلوبهم ، والعاملون عليها وتحرير الرقاب ، والغارمون ؛ وفي هذا الفرق صور واقعية للعهد المدني على ما يتبادر لنا ، إذ يمكن أن يلهم أنه كان من المسلمين فئة تمس الحاجة إلى تأليف قلوبها بالمال ، وفئة أخرى تمس الحاجة إلى مساعدتها على حمل مغارمها الناشئة عن طبيعة المجتمع ؛ كما كان هناك أرقاء مسلمون يجب شراؤهم وتحريرهم ، فاقتضت الحكمة النص على مساعدتهم ؛ ويلفت النظر خاصة إلى النص على مساعدتهم من مال الزكاة الذي هو دائم المورد دون الغنائم الحربية ، وفي هذا ما يلهم خطورة مساعدة هذه الفئات في العهد النبوي ، وما علمه الله من خطورة مساعدتها دائما أيضا ، إذ أن في الآية معالجة للموقف الحاضر ، وتشريعا مستمر المدى بطبيعة الحال .

أما الفقراء والمحتاجون فقد نص على مساعدتهم من النوعين مما يبدو حكيما وطبيعيا، لأنهم جزء من كل مجتمع في كل وقت ، ولا بد من مساعدتهم ومن تولي السلطان الإسلامي أمر هذه المساعدة حتى لا يكونوا تحت رحمة الصدقات التطوعية والمتصدقين وأذاهم . ومما لا ريب فيه أن هذا كان هو الواقع ؛ وقد أشارت آيات البقرة (٢٦٢ ـ ٢٦٤) التي نقلناها في فصل الجهاد إلى ذلك .

أما (ذي القربى) الذي ذكر في آيات الغنائم والفيء فهناك أقوال وروايات متعددة ومختلفة فيه . حيث يذكر بعضها أنه يعني أقارب النبي صلى الله عليه وسلم وحيث يذكر بعضها أنه يعني صاحب الخدمة والنفع للإسلام وأهله[١] . ولقد نزلت هذه الآيات وأكثر أقارب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في صف المشركين . وخرجوا معهم إلى حرب النبي والمسلمين في يوم بدر . ومن جملتهم العباس عم النبي وعقيل بن أبي طالب ونوفل

---

(١) انظر تفسير الطبري والبغوي للآيات، والرأي الثاني مما اختاره وصوبه الطبري.

ابن الحارث بن عبد المطلب، وولدان لشقيق للعباس لم يذكر الرواة اسميهما . وكان العباس وعقيل ونوفل من جملة الأسرى . فطرف نزول الآيات يجعل المعنى الأول غير وارد ويجعل المعنى الثاني هو الوارد الأوجه . وفي آية في سورة التوبة قرينة على ذلك حيث جاء فيها :

« وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ... »

وهناك روايات معتبرة تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يختص أقاربه بنصيب خاص من الغنائم والفيء وكان ينفق مايدخل إلى بيت المال من ذلك على المحتاجين ومصالح المسلمين وسبيل الله . وأن هذا ما كان يفعله الخلفاء الراشدون بما فيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم . وكان أقارب رسول الله في زمنهم ينالون من بيت المال مخصصات أسوة بسائر المسلمين . والمعنى الأول وجه ونفذ في ظرف خاص في زمن الدولة العباسية فقط .

هذا ؛ ولقد نبهنا في فصل الجهاد على أن آيات الخمس والفيء قد نزلت بالأمر الحاسم الذي تضمنته في صدد نصيب بيت المال بمناسبة ما بدا من بعض المسلمين من اعتراض على ذلك أو تذمر منه ؛ وفي هذا صورة واقعية حدثت في سياق توطيد بيت المال الرسمي كما هو واضح تتمثل في عدم رضاء بعض المسلمين عن احتجاز قسم من مال أو تخصيص مال ظنوه من حقهم ليقبضه النبي صلى الله عليه وسلم ويتولى إنفاقه ، ومما لا ريب فيه أن هذا الموقف إنما كان من طبقة المسلمين الثانية ، كما أنه مما يمت إلى طبيعة البشر بوجه عام .

وفي سورة المجادلة آيتان فيهما صورة مماثلة لذلك وهما هاتان :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . ءَأَشْفَقْتُمْ

أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ . . »

١٢ - ١٣

حيث يستفاد من الآيتين أن حكمة الله اقتضت فرض رسم على الميسورين من المسلمين الذين يرغبون في الاجتماع بالنبي صلى الله عليه وسلم اجتماعاً شخصياً وخاصاً لاستفتائه في بعض الشئون الخاصة فكبر ذلك على بعضهم واعترضوا عليه قائلين إنما يدفعونه من الزكاة كاف فاقتضت حكمة الله رفعه .

والمتبادر أن ذلك يمت إلى قصد تنمية موارد بيت المال حتى يمكن أن يسد الحاجة. وأن العدول عن الرسم متصل بطبيعة الحياة والمجتمع . وهو ظاهر الحكمة . والمتبادر كذلك أن الآية الأولى نزلت لحدتها ثم نزلت الثانية بعد مدة ما فوضعت بعدها للتناسب الموضوعي والتشريعي . وفي هذا صورة من التنزيل والتأليف القرآني ومن الناسخ والمنسوخ من الأحكام القرآنية وأسباب ذلك .

وواضح من الآيات الواردة في ما له صلة ببيت المال أن توطيد ذلك قد تم على مراحل واقتضى أن يكون الأسلوب القرآني في توطيده شديداً حازما إلى حد ما لما في ذلك من أثر عظيم في تدعيم بنيان الدولة التي أخذت تنشأ في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكفالة مصالح المسلمين العامة التي أخذت تتسع وتزداد تشعباً .

المبحث الثالث

في التشريع الاجتماعى

متناول هذا التشريع ـ الفرق الأسلوبي بين الآيات المكية والمدنية فيه ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وملهمات الآيات فيه ـ توطيد الأخوة الإسلامية والكيان الإسلامي بالنسبة للخارج وملهمات الآيات فيه ـ توطيد الأمن والصلح في داخل الكيان الإسلامي وملهمات الآيات فيه ـ وقاية المجتمع الإسلامي من أسباب الفتنة والأحقاد وملهمات الآيات فيها ـ بحث في الرق والتشريع فيه ـ الآيات القرآنية في صدد ذلك وملهماتها .

الصورة الأولى

نقصد بهذا التشريع ما له علاقة بما يجب على المسلمين في كل ما يتصل بالمصالح العامة المشتركة بين الجماعات الإسلامية من تضامن وتعاون على البر والخير ، ودفع الشر والضرر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبناء مجتمع إسلامي يقوم على تولى المسلمين بعضهم بعضا ، لا خصام بين أفراده وهيئاته مهما اختلفوا أجناسا وأرومات ، ولا نزاع ولا انتقاص ، ولا تمايز ولا تنابز ولا سخرية ، تربط بعضهم ببعض رابطة الأخوة الإسلامية الشاملة التي تحل محل العصبية العائلية والقبلية والعنصرية الضيقة .

ومن الحق أن نقول إنه يوجد في القرآن المكي آيات كثيرة احتوت مبادئ وسننا اجتماعية جليلة جاء أكثرها في مساق الأمثال والتذكير ، والحملة على البغي والظلم والفساد والزعماء الماكرين وتبعاتهم الاجتماعية وتقرير ما أحله الله وما حرمه من أعمال الناس الاجتماعية ، والحض على التضامن في الدعوة إلى الرحمة والصبر والحق كما ترى في الآيات التالية :

١ — ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ . . .
الأنعام ١٣١

٢ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ... الأنعام ١٢٣

٣ — وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ... الأنعام ١٥٣

٤ — قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ... الأعراف ٣٣

٥ — فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَالَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ... هود ١١٢ ـ ١١٣

٦ — فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ . . .

هود ١١٦ ـ ١١٧

٧ — إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ... الرعد ١١

٨ — أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَايَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ... الرعد ١٧

٩ — إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ

ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ...

النحل ٩٠ ـ ٩٢

١٠ — وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ..

النحل ١١٢

١١ — وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ...

الإسراء ١٦

١٢ — ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ...

الروم ٤١

١٣ — ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ...

البلد ١٧

١٤ — وَٱلْعَصْرِ . إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ . . .

العصر

غير أن الآيات المدنية قد اتجهت للقصد مباشرة في صدد الكيان الإسلامي الاجتماعي ، وواجبات الجماعة الإسلامية ، وتوثيق الأخوة بين المسلمين ؛ وهي أكثر وضوحا وأشد لصوقا بالموضوع ، وأحمل لطابع التشريع الاجتماعي من الآيات المكية .

الصورة الثانية

ونستعرض فيما يلي الآيات المدنية مصنفة على حسب مرماها الاجتماعي .

فأولا ما يتصل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتضامن في البر والخير والتقوى :

١ — وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ... آل عمران ١٠٤

٢ — كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ . . . آل عمران ١١٠

٣ — لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ...

النساء ١١٤

٤ — وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ... المائدة ٢

٥ — وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . . .

التوبة ٧١

٦ — ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . .

التوبة ١١٢

٧ — ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ... الحج ٤١

٨ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . . .

المجادلة ٩

وأسلوب آية آل عمران ١٠٤ قوي حاسم في إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير على الجماعات الإسلامية ، وفي إيجاب أخذ طائفة منهم ذلك على عاتقها بصورة دائمة بحيث يصح أن يعتبر تشريعاً ؛ ويدعم هذا ما قاله بعض العلماء من أن هذه الآية قد فرضت على المسلمين واجبا إذا لم تقم به طائفة منهم أثموا جميعهم ؛ ومثل هذا يصح أن يقال في آية المائدة (٢) في أمرها ونهيها . على أن الآيات الأخرى قوية التلقين أيضا في إيجاب هذا على المسلمين لما فيه من تمكين لهم في الأرض ، وفي تعليل اصطفاء الله لهم وجعلهم خير أمة أخرجت للناس .

والآيات من سور نزلت في مختلف أدوار التنزيل المدني ؛ وهذا يعني أن هذا الواجب العظيم قد وطد بالتكرار لخطورة شأنه ؛ ولقد نزلت كل آية أو مجموعة منها في مناسبة كما يلهم سياقها ومضمونها وأسلوب الخطاب فيها ؛ ويدل هذا على أنها قد انطوت على صور واقعية كانت وسيلة لتوطيد هذا الواجب ، مما نبهنا إلى أكثره في الفصول السابقة التي أوردنا فيها كثيرا منها ؛ بحيث عولجت بها الحالات التي اقتضت الحكمة نزول الآيات بمناسباتها ، ثم كانت تشريعا وتلقيناً وإيجاباً مستمر المدى ؛ وصلة هذا بالسيرة النبوية وأحداثها واضحة ، ويمت إلى التشريع القرآني وتطوره وظروفه على ما نبهنا إليه في تمهيد الفصل .

الصّورة الثالثة

وثانيا : — ما يتصل بالحث على الأخوة الإسلامية وتبادل الولاء بين المسلمين دون غيرهم :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . . .

آل عمران ١١٨

٢ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا . . .

النساء ١٤٤

٣ — إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . . .

المائدة ٥٥ — ٥٧

٤ — إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ . . .

الأنفال ٧٢

٥ — وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ . . .

الأنفال ٧٣

٦ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ . . .

التوبة ٢٣

٧ — وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ . . .

التوبة ٧١

٨ — لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . . . المجادلة ٢٢

٩ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ . . . الممتحنة ١

١٠ — لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ . . .

الممتحنة ٨ ـ ٩

والآيات قوية حاسمة في الصدد الذي نزلت فيه ، وهو توثيق الأخوة والولاء بين المسلمين ، وبناء المجتمع الإسلامي على هذا الأساس بدلا من أساس العصبية الضيقة الذي كان يقوم عليه المجتمع العربي ، وعدم الإخلال بالتضامن الإسلامي بتولى أعداء الإسلام والمسلمين بأي شكل .

والآيات من سور عدة نزلت في مختلف أدوار التنزيل ، وبمناسبة أحداث واقعية ؛ وهذا يعني أن هذا الأمر الخطير قد توطد أو استهدف توطيده بالتكرار ، وفي كل

مناسبة سانحة ، كما يعني أن الآيات انطوت على صور ومشاهد من صور ومشاهد السيرة في العهد المدني مما نبهنا إليه وشرحناه في الفصول السابقة ، وخاصة فصول اليهود والمنافقين والجهاد التي أوردنا فيها جل الآيات إن لم يكن كلها . وقوة الآيات وحسمها وتكرارها مع وحدة الموضوع والهدف ، أدلة على ما كان من رسوخ للعصبية الضيقة في المجتمع العربي أولا ، وعلى ما كان من تغلغل اليهود – لأن كثيراً من الآيات في في شأنهم – في حياة هذا المجتمع ثانيا، وعلى ما كان يعتلج في نفوس المسلمين من أزمات إزاء ذوي أرحامهم وبني قومهم من الكفار الذين انقلبت الصلات بينهم من عصبية الولاء القوية الراسخة إلى العداء والقطيعة ثالثا ؛ وفي هذا بوجه عام صورة للعهد النبوي كما هو واضح ؛ وقد جاءت الآيات لتعالج الموقف وتحسمه بهذا الأسلوب الشديد ، دفعا للخطر عن الكيان الإسلامي الناشئ ، وتوطيداً للأخوّة الجديدة التي تقوم على أساس جديد ؛ ولتكون في الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمري المدى أيضا .

الصّورة الرابعة

وثالثا ما يتصل بالحث على الاتحاد والصلح بين المسلمين وعدم التنازع والتفرقة :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا . . .

آل عمران ١٠٢ – ١٣٠

٢ — وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . . . آل عمران ١٠٥

٣ — وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ . . . الأنفال ٤٦

٤ — وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . . .

الحجرات ٩ ـ ١٠

والآيات ـ وإن كانت مما يمت إلى هدف آيات الموضوع السابق شيئا ما ـ بينها شيء من الفرق من حيث استهدفت هذه توثيق الإخاء والتضامن والوحدة بين المسلمين من الداخل ، في حين استهدفت تلك تكوين جبهة إسلامية تجاه الخارج .

وهذه الآيات كتلك نزلت في مختلف أدوار التنزيل ، وفي مناسبات معينة انطوت فيها صور ومشاهد للعهد النبوي ، وقد ألممنا بها في الفصول السابقة التي أوردنا فيها هذه الآيات ؛ وقد جاءت لتعالج الموقف بأسلوبها القوي الحكيم ، ولتوطد بنيان الكيان الإسلامي الجديد وتوثق الإخاء والوحدة بين أفراده ، ولتكون في الوقت نفسه تشريعاً وتلقيناً مستمرى المدى أيضا .

ورابعاً ما يتصل بتنقية المجتمع الإسلامى من عوامل الأحقاد والضغائن وأسباب الفتنة .

١ — وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا . . . النساء ١١٢

٢ — وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . . . الأنفال ٢٥

٣ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . . .

النور ١٩

٤ ـ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ...

الأحزاب ٥٨

٥ ـ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا . مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ...

الأحزاب ٦٠ ـ ٦١

٦ ـ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ . وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ . فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . . .

الحجرات ٦ ـ ٨

٧ ـ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ...

الحجرات ١١ ـ ١٣

والآيات مما نزل في مختلف أدوار التنزيل ، ومضامينها وسياقها يلهمان أنها نزلت في مناسبات معينة ، لمعالجة مشاكل وأحداث متصلة بمشاهد السيرة وأحوال المجتمع الإسلامي فيها .

فآية النساء نزلت في مناسبة حادث سرقة الدرع واتهام السارق غيره بالسرقة وتآمر أهل السارق لتبرئة قريبهم وتضليل النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وآية الأنفال نزلت في ظروف وقعة بدر وما كان فيها من نزاع كاد يؤدى إلى فتنة ، وآية النور نزلت في مناسبة حديث الإفك ، وآيات الأحزاب نزلت بسبب مواقف المنافقين الخبيثة على ما شرحناه في أمكنة سابقة ، وروح آيات الحجرات ٦ ـ ٨ تلهم أنها نزلت في مناسبة هياج أحدثته بعض الأنباء الكاذبة ، وأن من المسلمين من كان يهيج لأقل شيء ويطلب من النبي صلى الله عليه وسلم تصرفا غير حكيم ؛ وآيات الحجرات ١١ ـ ١٣ أيضا نزلت على ما شرحناه في مكان سابق بسبب تصرفات بعض المسلمين إزاء بعضهم بما فيه إثارة غيظهم وأذى نفوسهم . وهكذا تكون الآيات قد نزلت لمعالجة هذه المشاكل والأحداث بما فيه توطيد حسن الألفة والانسجام بين المسلمين ، والقضاء على عوامل الفتنة والحقد والضغينة بينهم ولتكون تشريعا وتلقينا مستمرى المدى في الوقت ذاته .

الصُّورة الخامسة

والرق من مظاهر المجتمع ، وهذا يجعل المناسبة تتحمل البحث في التشريع القرآني في صدده .

ونبادر إلى القول بأنه لم يرد في الآيات المكية شيء يحتمل معنى التشريع في هذا الصدد ، وكل ما ورد فيها هو إشارات إلى الرق باعتباره نظاما قائما ومألوفا أولا ، ودعوة إلى عتق الأرقاء واعتبار ذلك من أحسن القربات إلى الله ثانيا ؛ كما ترى في الآيات التالية :

١ — ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً عَبْـداً مَّمْلُوكاً لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ ... النحل ٧٥

٢ — ضَرَبَ لَـكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّـكُم مِّن مَّامَلَـكَتْ أَيْمَـٰنُـكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَارَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِـكُمْ أَنفُسَـكُمْ . . .

الروم ٢٨

٣ — وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ. إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَامَلَـكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ... المعارج ٢٩ — ٣٠

٤ — فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ... البلد ١١ — ١٤

أما الآيات المدنية فقد ورد فيها تشريعات عديدة في صدده من معاملة وعتق وتحرير. والقرآن لا يذكر بصراحة جواز استرقاق الأسرى ، والأسرى هم مادة الرقيق في الدرجة الأولى في العصور القديمة عند العرب وغيرهم . وكل ما جاء فيهم هذه الآيات في سورة الأنفال :

« مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَـكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَـكِيمٌ . لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّـكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَـكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلاً طَيِّباً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... » ٦٧ — ٦٩

وقد نبهت على ما ينبغي على النبي أن يسير عليه من سياسة مع العدو فلا يحرص على أخذ أسرى منه بدلا من القتل حتى يقوى وتـكون هيبته موطدة في الأرض . ثم هذه الآية في سورة محمد :

« فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ

فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ...» ٤

وقد نبهت هي الأخرى على ما ينبغي على المسلمين أن يفعلوه مع العدو عند لقائه حيث يجب عليهم أن يوغلوا فيه قتلاً حتى يستنفدوا قوته ويخضدوا شوكته ثم يأسروا من بقي حيًّا منه . ويكون لهم الخيار بعد أن تنتهي أسباب الحرب في إطلاق سراح الأسرى بفداء أو بمن من دون فداء .

وسورة الأنفال نزلت قبل سورة محمد . وليس بين آيات السورتين مع ذلك تعارض بل بينها توافق حيث نبهت الأولى على عدم أخذ الأسرى ما دام المسلمون لم يثخنوا في الأرض أي لم يوطدوا هيبتهم وقوتهم . وأمرت الثانية بأخذ أسرى بعد الإثخان . على أن آية سورة محمد قررت كما يبدو القاعدة الدائمة وهي إباحة أخذ الأسرى بعد الإثخان . وفي هذا مغزى عظيم في صدد هدف الجهاد الإسلامي وهو عدم الإبادة وقصد إرهاب العدو وإرغامه وتوطيد هيبة الإسلام وكلمته وسلطانه وحسب بحيث إذا أمكن ذلك بدون إبادة العدو صار من الواجب وقف القتل وعدم الإبادة .

ويبدو من خلال ذلك صورة تطورية لحالة المسلمين وقوتهم حيث صاروا أقوى وأشد هيبة وسلطاناً في ظروف نزول سورة محمد الذي يخمن أنه في أواخر النصف الأول من العهد المدني استلهاماً من ترتيب نزولها فاقتضت الحكمة تقرير تلك القاعدة الدائمة .

والقاعدة تذكر طريقة التصرف بالأسرى على وجهين :

وهما (١) إطلاق سراحهم بعد أن تنتهي الحرب وأسبابها بدون فداء وهو الذي عبر عنه بالمنّ و (٢) إطلاق سراحهم بالفداء . وقد تركت الخيار كما هو المتبادر للسلطان الإسلامي يستلهم فيه مصلحة الإسلام والمسلمين وظروفهم .

وليس في القاعدة مبدأ استرقاق الأسرى على كل حال . وإن كان هذا ظل مسكوتاً

عنه . ولقد تواترت الروايات المعتبرة بأن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعــده كانوا يسترقون أسرى الـكفار حيث يبدو أن ذلك تشريع نبوي لحالة ثالثة وهي حالة عدم رؤية السلطان الإسلامي مصلحة في إطلاق سراح الأسرى بدون من وعدم دفع الأسرى فدية عن أنفسهم .

ومع التسليم بوجوب الأخذ بالتشريع النبوي الثابت فيما سكت عنه القرآن أو لم يوضحه بصراحة وقطعية فإن آية سورة محمد تظل تحتوي مبدأ إطلاق الأسرى وتظل توجب إطلاقهم على كل حال إذا دفعوا فدية . وفي هذا نواة إلغاء استرقاق أسرى الحرب كما هو المتبادر .

ولقد قال المفسرون إن جملة (حتى تضع الحرب أوزارها) تعني حتى يعتنق العدو الإسلام وتزول أسباب قتاله وأسره . وهــذا القول يتحمل التوقف استلهاماً من صيغــة الآية من جهة ولأن الحرب من جهة أخرى بين المسلمين والـكفار قد تنتهي بصلح وميثاق . والعدو إذا أسلم لم يعــد محلا للاسترقاق إلا في حالة واحدة وهي حالة أسره قبل إسلامه وعدم إطلاقه بدون فداء وعدم أدائه فدية . وتقرير السلطان استرقاقه قبل إسلامه والتصرف فيه بيعاً وهبة وتوزيعاً وإسلامه بعد ذلك . وعلى كل حال فليس هناك إلزام قرآني ولا نبوي باسترقاق الأسرى كما هو واضح .

وآية سورة محمد تلهم أن الأسر إنما يتم ويوقع على العدو المحارب . هذا في حين أن الروايات المعتبرة تذكر أن النبي صلى الله عليــه وسلم والخلفاء الراشدين من بعــده كانوا يأسرون نساء العدو وأطفاله ويسترقونهم وهو ما كان يسمى سبياً . وهذه الحالة مما سكت عنها القرآن فصارت تشريعاً نبوياً وسار عليها المسلمون بعد النبي .

وفي كل ما تقدم صور من صور الجهاد والسياسة الإسلامية فيه في العهد المــدني من السيرة النبوية .

والمناسبة تتحمل توضيحاً هاماً . فغير المسلم الذي يصح قتاله وأسره وسبي نسائه وأولاده واسترقاقهم هو العدو المحارب للمسلمين . ولما كان ليس كل غــير مسلم عدواً

محارباً . ولما كان القرآن أوجب على المسلمين مسالمة المسالمين الحياديين الموادين من غير المسلمين والبر بهم مما يتضمن إقراراً بوجود طوائف منهم بهذه الصفة على مامر شرحه في فصل الجهاد فإن ماجرى عليه في العصور المتأخرة من جلب وخطف وشراء رجال ونساء وأطفال غير مسلمين من السود وغير السود وبيعهم واعتبارهم أرقاء واستفراش النساء منهم على هذا الاعتبار في حين يكون غير أعداء محاربين للإسلام والمسلمين ليس من النظام الإسلامي الشرعي ؛ لأن الرقيق في هذا النظام هو من كان رقيقاً قبل الإسلام ومن تولد منهم في حالة استمرار رقهم ومن استرق في الإسلام استرقاقاً شرعياً من أعداء المسلمين المحاربين على الوجه الذي مر شرحه ومن تولد منهم في حالة استمرار رقهم .

وإليك الآن الآيات المدنية التي احتوت تشريعات متنوعة في معاملة الرقيق وعتقه وتحريره :

٢ — وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ ... البقرة ١٧٧

٢ — وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا . . .

النساء ٣٦

٣ — وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ... النساء ٩٢

٤ — لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ

ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ... المائدة ٨٩

٥ — إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ ... التوبة ٦٠

٦ — وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... النور ٣٢ ـ ٣٣

٧ — وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ... المجادلة ٣

والآيات استهدفت كما هو واضح منها تلقين إحسان معاملة الرقيق والارتفاع بالنظر إليه والاهتمام بتحريره والتشجيع عليه بمختلف الوسائل . وفي مقدمة ذلك تخصيص جزء من الزكاة لهذا الأمر مما هو ذو مغزى عظيم من حيث أن الدولة هي التي تتولى جباية الزكاة وتشرف على إنفاقها . ولقد كان من العادة أن يتقدم بعض الأرقاء لمالكيهم فيشتروا أنفسهم منهم بمال يدفعونه على أقساط مما كان يسمى (المكاتبة) فشجعت آية النور هذه الطريقة وحضت المسلمين على مساعدة المكاتبين على دفع هذه الأقساط وتحررهم .

والمتبادر أن الآيات نزلت في مناسبات . وإنها انطوت على صور مما كان جارياً في العهد النبوي ، من مثل كثرة الأرقاء المسلمين ، ومن عدم معاملتهم معاملة حسنة ، وحرمانهم حقوقهم ومتعهم الطبيعية ؛ فنزلت الآيات لمعالجة الموقف الذي اقتضاه نزولها ، ولتكون في الوقت نفسه تشريعاً وتلقيناً مستمري المدى أيضاً .

المبحث الرابع

في التشريع الاقتصادي

يتناول هذا المبحث ـ أسلوب ومدى الآيات المكية والمدنية في موضوعه ـ الوصية وملهمات الآيات الواردة فيها ـ الإرث وملهمات آياته ـ عناية القرآن باليتامى وأموالهم ومدى الآيات الواردة في ذلك ـ تشريع سن الرشد وما تلهمه الآية الواردة فيه ـ التشريع بشأن تصرف السفهاء ـ النهي عن الربا وما في الآيات الواردة في ذلك من ملهمات ـ تنظيم العقود والديون وصيانة الحقوق وما في الآيات الواردة في ذلك من ملهمات .

الصورة الأولى

يتنـاول الـكلام في هـذا المبحث مسائل الوصايا والإرث والبيع والشراء والربا والديون والعقود والرهن والشهادات والشهود ... أما ماله صلة بموارد الدولة والزكاة ومصارفها وتوطيد التعامل الاقتصادي الحقوقي بين الناس فقد تـكلمنا عنه في التشريع السياسي فلا نعود إليه هنا بطبيعة الحال .

وننبه إلى أن القرآن المـكي احتوى آيات عدة فيها مبادئ متصلة بهذه الأمور من قريب أو بعيـد جاءت بأسلوبه الخـاص من الوعظ والحض والتنويه والتنـديد كما تراه في الآيات التالية :

١ ـ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ...
الإسراء ٢٦

٢ ـ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ...
الإسراء ٢٩

٣ ـ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا . . .
الإسراء ٣٥

٣ — وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ...
الأنعام ١٥٢

هذا في حين أن القرآن المدني احتوى آيات أكثر عدداً وتنوعاً وسعة من جهة ، وطابع التشريع عليها أشد بروزاً من جهة أخرى ، مما هو متصل كذلك بطبيعة العهدين .

وسنستعرض الآيات ونشرح مداها على حسب المواضيع كما فعلنا في المباحث السابقة :

الصورة الثانية

فأولا : الوصية .

(١) جاء في سورة البقرة الآيات التالية :

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ . فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... » ١٨٠ — ١٨٢

والآيات مما نزل مبكرا كما يستلهم من مضمونها ؛ إذ تأمر بالوصية للوالدين مع أن آيات المواريث خصصت لهم أنصبة في ميراث أبنائهم . ويستلهم من الآيات أن الأنصبة في الميراث للوالدين والأقربين لم تكن صريحة ومحددة ؛ ولما كانت آيات المواريث قد احتوت كما قلنا تحديدا للأنصبة فقد ساغ أن يقال والحالة هذه إن هذه الآيات جاءت كخطوة أولى في سبيل تقرير أمر التركات ؛ كذلك يمكن أن يستلهم من الآيات أن الوصية كانت من الأمور المألوفة ، ولكنها كانت عرضة للتحريف والتبديل ، وكانت

تنطوي أحياناً على قصد الإضرار والحيف بأناس دون آخرين ، إذ أنذرت المحرفين ، وحضت على إصلاح البين حتى لا يكون العداء أو الجفاء سبباً من أسباب الحيف والإجحاف في الوصية .

(٢) وجاء في سورة المائدة الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ . فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ . ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ... ١٠٦ ــ ١٠٨

وقد روي أن الآيات نزلت بمناسبة تلاعب بعض الناس بتركة مسلم مات غريباً . على أنها احتوت كما هو واضح من نصها توكيدا بإيجاب الوصية والإشهاد عليها . وجاءت بأسلوب عام ليكون فيها تلقين وتشريع وتنظيم مستمر المدى .

وقد روي في صدد بيان جملة (تحبسونهما من بعد الصلاة) أن النبي « ﷺ » كان يعقد مجالسه العامة بعد صلاة العصر لأنه الوقت الأنسب من حيث الفراغ وحالة الجو فأمرته الآية بحجز الشهود إلى ما بعد صلاة العصر لأداء شهادتهم أمام الناس . وفي هذا صورة من صور القضاء النبوي ومجالسه .

ولقد روي حديث نبوي صحيح جاء فيه (لا وصية لوارث) حيث يحتمل أن يكون بعض الناس أرادوا أن يختصوا بعض ورثتهم بأكثر مما خصصهم به القرآن عن طريق الوصية فوضع الحديث الشريف حداً للتلاعب بأنصبة الإرث التي خصصها القرآن لكل

مستحق . بوسيلة الوصية . وينطوي في هذا صورة من صور المجتمع وطبيعة الحياة .

(٣) وقد تكرر في آيات المواريث ذكر الوصية كما ترى فيها :

١ — ... مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ... النساء ١١

٢ — ... « « « يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ... « ١٢

٣ — ... « « « تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ... « «

٤ — ... « « « يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ... « «

وهذا يدل على أن الوصية مما كان مألوفاً ، وظل الأمر كذلك بعد تعيين أنصبة الوارثين في التركات أيضاً ، كما أن تكرار التأكيد بوجوب تنفيذ الوصية يلهم أن الوارثين كانوا يجنحون أحياناً إلى إهمال تنفيذ الوصية على وجهها ، فاقتضت الحكمة هذا التكرار لمعالجة الموقف وإحقاق الحق لأهله ، وليكون الأمر تشريعاً مستمر المدى أيضاً . والآيات لا تحدّد الوصية بحد بحيث أنها توجب تنفيذ الوصية قبل توزيع الميراث مع سداد الدين ؛ ومما هو ثابت أن الشرع الإسلامي قد حدد الوصية بثلث التركة التي تبقى بعد الدين على الأكثر ؛ وهو تشريع نبوي .

الصّورة الثالثة

وثانيا : الإرث .

جاء في سورة النساء في صدد الإرث الآيات التالية :

١ — لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا . وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ... ٧ — ٨

٢ — يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا

ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً(١) أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ . تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ... النساء ١١ ـ ١٤

٣ — وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا . وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ... النساء ٣٢ ـ ٣٣

٤ — وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ... ١٢٧

---

(١) الميت الذي ليس له أولاد ولا أبوان يرثونه يسمى ميت الكلالة .

٥ — يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً[1] فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ... ١٧٦

والآيات ١١ ـ ١٢ و ١٣٧ و ١٧٦ تشريع واف في الصدد الذي نزلت فيه يتمم بعضه بعضا ، كما أن السنة النبوية قد أكملت ما يبدو من فراغ فيه كأنصبة الأجداد والعصبات الأخرى .

والآيات ٧ ـ ٨ و ١٣٧ تلهم مع الاستئناس بالروايات أن نصيب المرأة في الميراث لم يكن مسلما به ، سواء من حيث الأصل أو المقدار ؛ كما أن الآية ١٣٧ تلهم أن إرث اليتامى كان عرضة للأكل ؛ والآيات جميعها تلهم أن أنصبة الإرث كانت تتموج على حسب الوارثين قوة وضعفا وذكورة وأنوثة وكبراً وصغرا ودرجة قرابة[2] ؛ فاقتضت الحكمة نزولها لمعالجة الموقف بتعيين حق كل مستحق وتأكيد إيجاب السير على ذلك ، وإنهاء عهد فوضى الإرث والتحكم فيه وفقا لتقاليد العصبية الجاهلية الأولى ، ولتكون في الوقت نفسه أساسا قويما تشريعيا مستمر المدى ؛ وفقرة إرث الكلالة فى الآية ١٢ وآية الكلالة الثانية (١٧٦) تلهمان أن هذا الإرث كان كذلك من المشاكل التي تحتاج إلى حل وتركيز ؛ وقد جاءت فقرة الآية (١٢) بسبيل حل مشكلة الإخوة لأمهات متعددة ، ثم جاءت الآية ١٧٦ بسبيل حل مشكلة الإخوة الأشقاء؛ والظاهر أن المشكلة الأولى كانت هي الأكثر غموضا وتعقيدا ، أوهي التي عرضت مناسبتها أولا ، ثم كان بعد ذلك بمدة ما سؤال واستفتاء بشأن المشكلة الثانية لمناسبة عرضت أيضا . وفي هذا صورة من صور التشريع والعهد وظروفهما .

---

(١) المقصود هنا الإخوة الأشقاء .

(٢) مما روي أن امرأة شكت للنبي أن زوجها توفي عنها وعن ثلاثة أيتام ، وأن عمهم أبى عليهم إرثهم قائلا : إنه هو الذي يتحمل المغارم وحده ، وإن التركة من نصيبه وحده والحالة هذه .

ولقد اختلفت الأقوال في مدى فقرة « والذين عقدت أيمانكم » في الآية (٣٣) فقيل : إنها عنت الزوجات ، وقيل إنها عنت الأبناء بالتبني الذين كان لهم حق الإرث ، لأن التبني كان بمثابة عقد ؛ وقيل إنها عنت الحلفاء أو العتقاء ، كما قيل إنها عنت المهاجرين والأنصار الذين آخى النبي بينهم ، وكان من مفهوم المؤاخاة أن يرث بعضهم بعضا ؛ وروح الآية مع الآية التي قبلها تلهم أنهما نزلتا أبكر من آيات المواريث ، واحتوتا تمهيدا لإيجاب احترام كل مستحق في الإرث لحق كل مستحق آخر ، وعدم بغي بعضهم على بعض ؛ ثم نزلت آيات المواريث محددة معينة وحاكمة . ولا يمنع هذا أن يكون قبل نزولها تعامل متعارف عليه أو أمر النبي صلى الله عليه وسلم باتباعه في شأن أو أكثر من تلك الشئون المذكورة في الآية (٣٣) ؛ وهكذا تكون آيات المواريث قد نسخت كل ما خالفها ، كما نسخت الوصية للوالدين ؛ وبعض ما قلناه يصح أن يقال بالنسبة للآيات ٧ – ٨ من حيث أنها تمهيد لتوطيد حقوق كل مستحق في الإرث .

وفي هذا وذاك صور تطورية للتشريع القرآني كما هو واضح .

ونلفت النظر إلى الآيتين ١٣ و ١٤ من سورة النساء اللتين تعد أولاهما الطائعين لله ورسوله والواقفين عند حدوده بالخلود في الجنات . وتنذر العاصين المعتدين على حدود الله بالخلود في النار . فالمتبادر أن ذلك بالإضافة إلى ما فيه من حكمة سامية وتلقين متسق مع أهداف القرآن بصورة عامة يمكن أن يكون بسبب ما كان من بعض الناس من هضم حقوق الضعفاء والنساء والأيتام في الإرث والتلاعب فيها مما يكون فيه صورة وتوكيد لحالات واقعة .

الصّورة الرابعة

وثالثا : أموال اليتامى .

وهذا الموضوع من المواضيع التي نالت عناية قرآنية كبيرة ؛ في القرآن المكي

آيات عدة فيه ، وقد نقلنا جملة منها سابقا ، وأسلوبها أسلوب وعظ وتحذير ؛ وقد احتوى القرآن المدني آيات عدة فيه كذلك ، غير أن طابع التشريع عليها أكثر بروزاً ؛ وهذه العناية تدل ـ فوق اعتبار حماية الضعيف أساساً من أسس الدعوة الإسلامية ـ على أن اليتامى كانوا عرضة للاضطهاد والبغي ، وأن أموالهم كانت عرضة للنهب والتلاعب ؛ ولعل من أول الآيات المدنية في هذا الأمر آية سورة البقرة هذه :

« ... وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... » ٢٢٠

إذ تلهم أن بعض المسلمين في العهد المدني تحرجوا من خلط أموال اليتامى بأموالهم بسبب ما كان من تشديد في القرآن المكي ، فنزلت الآية تبيح هذا على أساس الإصلاح ونية الخير الذي هو مقصود الأوامر القرآنية ، ولتكون تلقينا مستمر المدى في الوقت نفسه .

ثم نزلت آيات عدة في سورة النساء في صدد توكيد حق اليتيم وصيانة ماله كما ترى فيها :

١ — وَءَاتُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيراً . وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ... ٢ ـ ٣

٢ — وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيباً ... ٦

٣ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ... ١٠

٤ ــ الآية ١٢٧ التي نقلناها في الفقرة السابقة .

وتحريج الآيات وتحذيرها قويان استهدفا دون ريب حماية اليتامى وحقوقهم وأموالهم مما كان تتعرض له من تلاعب وبغي على ما ذكرناه من قبل . ولقد روي أن أوصياء اليتيمات الغنيات كانوا يمنعون تزويجهن بالغريب خشية مطالبته بمالهن ، وكانوا يتزوجونهن ولو لم يكن جميلات للاستيلاء على مالهن ، فيتعرضن بذلك للأذى في أنفسهن وفي أموالهن ، وأن الأوصياء كانوا يسرعون في تبديد أموال اليتيم قبل أن يبلغ ، أو يبدلونها بأموالهم الرديئة ؛ فنزلت الآيات ٢ و ٦ و ١٣٧ لتعالج الموقف بما فيه الحق والصيانة ، ولتكون تلقينا مستمر المدى ؛ وهكذا تكون الآيات قد انطوت على صور لما كان عليه الأمر كما أنها نزلت لمناسبته أيضا .

ويلفت النظر خاصة إلى ما في الآية (٦) من أسلوب تشريعي في تعيين سن الرشد ، إذ لم تكتف ببلوغ اليتيم سن النكاح بل شرطت التثبيت من رشده العقلي والتصرفي أيضا ؛ ولعل الأمر كان جاريا على الاكتفاء بالبلوغ لسن النكاح والقدرة الجنسية ، ولعل مشكلة ما قد قامت واستفتي النبي صلى الله عليه وسلم فيها فنزلت الآية تحتوي تعديلا أو علاجا شافيا ، وتكون في الوقت نفسه تشريعا مستمر المدى .

الصورة الخامسة

ورابعا : وقاية المال من تبديد السفهاء :

جاء في سورة النساء الآية التالية :

« وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ... » ٥

وكلمة « السفهاء » تعني ضعفاء العقل ، وهذا يحتمل أن يكون بالنسبة لكبار السن وصغارهم . وقد جاءت آية تعيين سن الرشد للأيتام عقب هذه الآية ، مما قد يلهم أن يكون النهي فيها منصبا على تسليم الأموال للأولاد بعد بلوغهم سن الرشد ؛ ومهما يكن من أمر فالآية قد احتوت حكما مستقلا بالنسبة للسفهاء ، إذ تحظر تسليمهم أموالا أو أموالهم تفاديا من تبذيرها بسبب ضعف عقولهم أو عدم رشدهم ، وإذ توجب في الوقت نفسه الإنفاق عليهم وتطييب نفوسهم . والمرجح أن الآية نزلت لمناسبة معينة فكانت معالجة حكيمة للموقف وتشريعا مستمر المدى أيضاً .

الصورة السادسة

وخامسا : النهي عن الربا :

يصح أن يقال: إن إحدى الآيات المكية قد احتوت ما يلهم أن يكون نواة لكراهة الربا كما ترى فيها :

« وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ . . . » الروم ٣٩

أما الآيات المدنية فقد احتوت نهيا صريحا عنه وحملة شديدة على المتعاملين به كما ترى فيما يلي :

١ — ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ . يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ... البقرة ٢٧٥ ـ ٢٧٦

٢ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ . وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ... البقرة ٢٧٨ ـ ٢٨٠

٣ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ . وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ... آل عمران ١٣٠ ـ ١٣٢

والآيات صريحة الدلالة على أن بعض المسلمين كانوا يتعاطون الربا ويأكلونه أضعافاً مضاعفة ، وأنه كان عند العرب عملا تجاريا حلالا كالبيع ، فظل هذا المفهوم مستقراً بعد الإسلام في أذهان المسلمين الذين تعودوه . وقد تلهم آية البقرة (٢٨٠) خاصة أن المرابين كانوا يستغلون إعسار المدينين فيضاعفون رباهم ، وأنه كان لذلك عواقب شديدة الضرر في هؤلاء ؛ ولا يبعد أن يكون بعضهم قد شكا أمره للنبي صلى الله عليه وسلم فكان هذا سببا لنزول الآيات لمعالجة المواقف بهذا الأسلوب القوي للتناسب مع شدة ضرره ، ولتكون في الوقت نفسه تشريعاً قوياً مستمر المدى في المجتمع الإسلامي يحول دون هذا الضرر وتلك العواقب .

ولقد احتوت آية البقرة ٢٧٩ حلا للمشكلة التي وقعت نتيجة للحملة على الربا وشدة النهي عنه ، إذ أمرت أصحاب الأموال المرابين بأسلوب قوي شديد بإسقاط الربا عن مدينيهم ، واستيفاء رءوس أموالهم فحسب ، وحثتهم على إمهال المعسرين والتصدق عليهم بإسقاط ديونهم جملة . وفي هذا مشهد من مشاهد السيرة النبوية ، وتلقين جليل مستمر المدى .

ومما يروى أن آيات البقرة في الربا من أواخر ما نزل من القرآن ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أعلن بعدها إسقاط ربا عمه العباس رضي الله عنه في حجة الوداع ، مما يستأنس به على صحة تأخر الآيات ؛ والذي نرجحه أن الربا كان جارياً في مكة وفي المدينة السواء

بسبب ما كان في مكة من حركة تجارية ، وبسبب وجود اليهود الذين كان الربا من أعمالهم الرئيسية في المدينة ، وأن الزراعة فيها هي العمل الرئيسي للأوس والخزرج ، والزراع يحتاجون دائماً إلى الاستسلاف . وقد كان اليهود يتعاطون الربا كما جاء ذلك في معرض التنديد بهم في آية النساء ١٦٠ على ماشرحناه في فصلهم الخاص .

وبناء على رواية كون آيات البقرة من أواخر مانزل من القرآن وهي رواية وثيقة السند تكون آيات آل عمران ١٣٠ ــ ١٣٢ هي التي نزلت أولا كخطوة تشريعية أولى لمنع الضرر الفادح الذي يحل بالمدين من تحميله الربا أضعافاً مضاعفة . ويظهر أن بعض المسلمين الذين كانوا يشتغلون بالربا لم يتعظوا بها أو ظلوا يتعاملون بالربا . وكان السلطان الإسلامي قد بلغ ذروته في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم فجاءت آيات البقرة لتكون حاسمة في هذا الموضوع الخطير بالنسبة للحالة القائمة ثم بالنسبة للمستقبل الدائم .

وفي هذا صور من صور التطور التشريعي وحياة المجتمع .

الصورة السابعة

وسادساً تنظيم العقود والديون والحقوق المتصلة بها .

إن أهم ماورد في هذا الباب آيتان في سورة البقرة أوردناهما في مبحث التشريع السياسي ، وهما الآيتان ٢٨٢ ــ ٢٨٣ . ولقداحتوتا قواعد وأحكاما وتلقينات قويمة ورائعة في صدد حياطة حقوق المسلمين بين بعضهم وبعض ، وتنظيم العقود والديون وتسجيلها وتسجيل أعمال التجارة عامة بقدر مايتسع له الإمكان ، تفاديا من الخطأ والنزاع ، وكذلك في صدد إيجاب الشهادة على الشهود وعدم كتمانهم شهادتهم ، وإيجاب الأمانة على الكتاب ، وفي صدد حماية هؤلاء وأولئك من الأذى والضرر بسبب عملهم .

وقد يمكن أن تلهم الآيات أن هذه الأمور لم تكن تراعى رعاية وافية ، وأنه كان يحدث بسبب ذلك خلاف ونزاع ، وأن مناسبة شديدة الأثر كانت سببا لنزول الآيات لمعالجة الموقف معالجة حكيمة قويمة ، ولتكون تلقينا مستمر المدى في الوقت نفسه .

ونذكر بهذه المناسبة ما احتوته آيات المواريث في سورة النساء من توكيد متوال لضرورة تسديد ديون المورثين قبل توزيع التركات على الورثة ، مما يمكن أن يكون له صلة بالحالة التي كانت حين نزولها ؛ إذ أرادت تلقين المسلمين وجوب احترام بعضهم حقوق بعض ، ووفاء ديون الميت من ماله ، لأن هذا المال ، مماقد يكون تكوّن من هذه الديون أو بعضها ، وهي من حق صاحبها وليست حق الميت وورثته ، وفي هذا تلقين جليل الشأن مستمر المدى في هذا الصدد ، ومعالجة لما كان عليه الأمر من شذوذ لا يتفق مع الحق .

ونذكر كذلك ما احتوته آية البقرة ١٨٨ التي نقلناها في مبحث التشريع السياسي لأن لها صلة بهذا المبحث أيضا ، إذ تنهى المسلمين عن أكل أموال بعضهم بالباطل والتحايل لدى الحكام لتحقيق أطماعهم فيها . ومن هذا القبيل آية سورة النساء هذه :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ... ٢٩

فالمرجح أن الآيات قد نزلت بمناسبة وقائع بدا فيها من بعض المسلمين بعض تصرفات مغايرة للحق بالنسبة لأموال غيرهم وحقوقهم ، واستهدفت التنديد بذلك وحظره بهذا الأسلوب لمعالجة الموقف الحاضر ؛ وصارت في الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمر المدى .

المبحث الخامس

في التشريع العائلي

متناول هذا المبحث ـ مدى الآيات المكية في موضوعه ـ الزواج وآيات النساء وملهماتها ـ التشريع في صدد التزاوج بين المسلمين وغيرهم ومداه وما في آياته من ملهمات ـ زواج الزناة ـ الحث على التزاوج وما في آياته من ملهمات ـ تشريعات وتلقينات في الحياة الزوجية من سورة البقرة والنساء والمجادلة وما في الآيات من ملهمات ـ تشريعات وتلقينات في الطلاق من سور البقرة والأحزاب والطلاق وما في الآيات من ملهمات ـ التشريع في الترمل وما في آياته من ملهمات ـ تشريعات وتلقينات في الآداب البيتية ومافي الآيات من ملهمات .

الصورة الأولى

يتناول هذا المبحث مسائل الزواج والطلاق ومركز المرأة من الرجل في العائلة والمجتمع والتصرف الشخصي ، وواجباتهما وآدابهما المتقابلة ، كما يتناول قواعد السلوك في دخول الناس بعضهم على بعض وزيارة بعضهم لبعض أيضاً .

وآيات هذا الموضوع مدنية في الأعم الأغلب ؛ وكل ما ورد في القرآن المكي مما يمت إليه ، وآيات وعد فيها الذكر والأنثى على السواء بالأجر وحسن الجزاء ، أو ذكر فيها ما كان من نعمة الله في جعله المودة والرحمة بين الزوجين ، أو ذكر فيها واجب الولد نحو والديه كما ترى فيما يلي :

١ — وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ... النحل ٧٢

٢ — مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ... النحل ٩٧

٣ — وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا . . .

الإسراء ٢٣ ـ ٢٤

٤ — وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . . .

الروم ٢١

في حين أن الآيات المدنية قد تناولت الشؤون التي تناولها هذا المبحث بعناية وسعة وبأسلوب مطبوع بطابع التشريع ؛ والفرق في الأسلوبين متصل بطبيعة العهدين بالنسبة للمسلمين وظروفهم على مانبهنا إليه في تمهيد هذا الفصل .

والكلام في متناول هذا المبحث سيكون مصنفاً على حسب المواضيع كما فعلنا في المباحث السابقة :

الصورة الثانية

فأولا : الزواج

(١) جاء في سورة البقرة الآية التالية :

« وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . . . » ٢٢١

وقد حظرت على المسلمين التزوج بالمشركات وعلى المسلمات التزوج بالمشركين ؛ مما يلهم أن هـذا مما كان جاريا قبل نزولها فنزلت لتمنع استمرار الجاري ولتكون تشريعا

مستمر المدى أيضا ؛ ويستلهم من فقرة في سورة الممتحنة وهي « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » ـ إذ تنهى المسلمين عن الاحتفاظ بزوجاتهم الكافرات في عصمتهم ـ أن النهي في آية البقرة انصب على إنشاء المصاهرة بين المسلمين والمشركين ، وأنها نزلت مبكرة ، أو قبل نزول آية الممتحنة على الأقل ، وهي التي نزلت بعد صلح الحديبية على ما شرحناه في مناسبة سابقة ، بدليل أن المسلمين المتزوجين بزوجات كافرات من قبل ظلوا محتفظين بعصمهن إلى أن نهت آية المجادلة عن ذلك . وآية البقرة جاءت بعد قليل من آيات فرض القتال ٢١٦ ـ ٢١٨ التي نقلناها سابقا ؛ وإنه لمن السائغ أن يقال إن العداء الذي تحول إلى حالة حرب بين المهاجرين ومشركي مكة حين وقع الاشتباك الحربي الأول ، قد اقتضى النهي عن صلات المصاهرة بين أولئك وهؤلاء ، وإن هذا النهي قد كان بمناسبة جنوح من بعض المسلمين المهاجرين إلى الاستمرار فيها ، إذ كانت وشائج القربى تربطهم بالمشركين في مكة ، وفي هذا ماهو واضح من صور مما كان جاريا ومن المناسبات التشريعية في هذا الصدد ؛ ولعل آية البقرة بناء على هذا أولى الآيات المدنية التي نزلت في صدد النكاح .

(٢) وجاء في سورة النساء الآيات التالية :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا[1] . وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا . » ٣ ـ ٤

والفقرة الأولى من الآية الأولى بسبيل ما ذكرنا روايته من قبل ، مما كان الأوصياء يفعلونه من ممانعة تزويج اليتيمات الغنيات للغريب والتزوج بهن ، وما كن يتعرضن له بسبب ذلك من أذى ، إذ نبهت على وجوب العدول عن ذلك في حالة غلبة احتمال عدم

(١) ذلك أضمن لعدم الجور .

العـــدل ، ثم استطردت فأشارت إلى مافي النساء من بديلات يستطيع الرجل أن ينـكح ما طاب له منهن واحدة واثنتين وثلاثا وأربعا . وقد تلهم روح الآيتين أن ما احتوتاه من التنبيه إلى أن هذا العدد هو في حالة إمكان العـدل بحيث يكتفى بواحدة أو بما يملك الرجل من إماء إذا غلب ظن الجور ، وإلى وجوب أداء المهر للزوجات كاملا وعـدم التصرف بشيء منه إلا إذا طابت الزوجة به نفسا، وقد جاء هذا التنبيه استطرادا.

ومع أن عبارة (مثنى وثلاث ورباع) قد هدفت إلى التنبيه على ما للرجال من مجال في النساء الأخرى يمتنعون به عن التزوج باليتيمات الذي قد يؤدي إلى ظلمهن؛ فإنها اعتبرت تشريعا في صـدد عـدم جواز جمع الرجل في عصمتـه أكثر من أربع زوجات في وقت واحد .

ولقد روي أن الرجال كانوا يجمعون في عصمهم زوجات بدون تحديد ؛ ومن الثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد جمع في عصمته في وقت واحد تسعا ؛ فلما نزلت الآيتان طلق الذين زاد عدد زوجاتهم على الأربع الزوائد ، ونزل في أمر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم تشريع خاص في آيات في سورة الأحزاب يتفق روحا مع التحديد على ماشرحناه في مبحث حياة النبي الزوجية ؛ وهكذا يكون هذا التشريع قد عدل حالة جارية من قبل البعثة إلى ما بعد الهجرة بمدة غير قصيرة ـ أي إلى السنة الهجرية السابعة أو بعدها ، إذ نزل تشريع زوجات النبي في ظرف نزول هذا التشريع ـ تعديلا حكيما استهدف توطيد الحق والعدل والهناء العائلي بالنسبة للحاضر والمستقبل ، وفي هذا صورة من صور السير التشريعي كما هو واضح ؛ والذي نرجحه أن الآيتين قد نزلتا بمنـاسبة وقعـة أو مشكلة ما رفع أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صدد اليتيمات أو في صدد تعدد الزوجات أو مهورهن أو في كل ذلك .

ولم تحدد الآية الإماء كما لم تشترط لهن مهرا ، لأنهن ملك يمين صاحبهن ؛ وهذا ما كان جاريا من قبل كما تلهمه آيات مكية ومدنية، منها آيات سورة المؤمنين المـكية هذه :

« وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . . . »

٥ ـ ٧

وآيات سورة الأحزاب المدنية هذه :

« لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا . . . »

٥٢

وقد أقر الأمر على ما كان .

(٢) وفي سورة النساء أيضا الآيات التالية :

« وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا . حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ

بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...»

٢٢ – ٢٥

وقد احتوت الآيات تشريعاً وافياً في محرمات النكاح ، ومتمما لما احتوته الآيات من تشريعات في الزواج ؛ ومن أهم ما احتوته شرطها نية إنشاء كيان عائلي في الزواج والإحصان فيه لا السفاح به .

وقد أباحت التزوج بالإماء لمن لا يقدر على الحرائر ماليا ولا يطيق الصبر ، على شرط أن يكون ذلك بإذن مالكيهن وبمقابل مهر وبموجب عقد ، وأن يكون في التزوج بهن قصد الإحصان العائلي لا السفاح ولا المخادنة وحسب ، وواضح أن هذا هو غير ما أبيح لمالك الإماء من التسري بهن من دون مهر وعقد وتحديد عدد إقراراً لما كان الأمر عليه من قبل على ما شرحناه سابقاً . وعلى ما أكدته جملة (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) في الآية (٢٣) . ولعل هذا كان تشريعاً جديداً . إذ يستلهم من الآية أن التزوج بالإماء لم يكن سائغاً لغلبة ارتكاسهن في البغاء والسفاح . ولعل حكمة جعل حد الزنا عليهن نصف ما على الحرائر هي هذه . والآية (٢٥) صريحة الدلالة على أن هذا التشريع بسبيل تيسير الزواج وتخفيف كلفته على الذين لا يطيقون التزوج بالحرائر مالياً . والمتبادر من ذلك أن التزوج بالإماء كان خفيف الكلفة . وأن التشريع جاء لمعالجة حالة قائمة ثم لمعالجة الحالات المماثلة دائماً . ويستلهم من محتويات الآيات أنه كان هناك بعض الشذوذ في الأنكحة كنكاح الرجل زوجة أبيه المتوفي ، وجمعه في عصمته أختين ، وتحريمه على نفسه أرملة أو مطلقة ابنه بالتبني ، ونية المسافحة والمخادنة في الزواج بالحرائر والإماء أكثر من نية الإحصان والكيان العائلي الخ ... كما لا يستبعد أن يكون هناك شذوذ آخر ، أو ألا يكون هناك تقيد وثيق في أمر الأنكحة المحرمة الأخرى ،

فنزلت الآيات لمعالجة الأمر وإقراره في النطاق الحكيم الذي يجب أن يكون فيه بالنسبة للحالة الحاضرة وللأجيال المقبلة معاً . ونرجح أن تكون الآيات قد نزلت بمناسبة مشكلة من مثل هذه المشاكل نقلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم واستفتي في شأنها .

وليس من الممكن الجزم بالوقت الذي نزلت فيه الآيات ؛ ولكن النص على تحريم حلائل الأبناء من الأصلاب فقط ، قد يدل على أن ما كان جاريا من تحريم حلائل الأبناء بالتبني قد ألغي قبل نزولها ؛ ولما كان هذا الإلغاء قد تم بتزوج النبي صلى الله عليه وسلم بمطلقة متبناه في أواسط العهد المدني على ماشرحناه في مبحث حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية ، فمن السائغ أن يقال إن ما أشرنا إليه من شذوذ في الأنكحة ومحرماتها قد ظل جاريا إلى أواسط هذا العهد ، إذ اقتضت حكمة التنزيل تنزيل الآيات في تنظيم وتحديد الأمر في هذا الظرف .

الصورة الثالثة

(٤) وجاء في سورة المائدة الآيات التالية :

« ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ . . . » ٥

وقد أباحت للمسلمين التزوج بالكتابيات . وقد فسر بعضهم « المحصنات » بالحرائر ، وبعضهم بالعفيفات ؛ ولعل الفقرة الثانية من الآية تدعم القول الثاني ، إذ شرط في التزوج بالكتابيات نية الإحصان لا السفاح والتخادن ؛ ولقد يدل هذا أيضا على ما كان من غلبة ارتكاس الكتابيات في هذا العهد في البغاء ، وقد كن من حيث الواقع يهوديات

كما لايخفى ، فكأنما نبهت الآية - وهي تبيح التزوج بهن - إلى وجوب حسن الاختيار، وعدم التزوج بمن لاتكون مشهورة الصيانة والعفاف ؛ وهكذا تكون الآية قد عالجت حالة قائمة ، واحتوت تلقينا مستمر المدى في الوقت نفسه .

وقد أوضحت الآية أو قيدت آية البقرة (٢٢١) التي نقلناها قبل قليل ، إذ كان حكم آية البقرة مقصوراً على المشركين أوغير الكتابيين، ومن المحتمل أن يكون المسلمون بعدها كفوا عن المصاهرة مع غير المسلمين عموماً إلى أن نزلت آية المائدة التي احتوت تعديلا لهذا المفهوم ؛ والمرجح أن الآية نزلت في سلسلتها بعد صلح الحديبية ، لأن مطلع السورة قداحتوى إشارة ماإلى هذا الصلح على مانبهنا إليه في مبحث الوقائع الجهادية ؛ ولعلها نزلت بعد خضد شوكة اليهود في خيبر والقرى الأخرى الذي وقع بعد قليل من هذا الصلح على ماذكرناه سابقا أيضا ، وإذا صح هذا كانت الإباحة بعد خضد تلك الشوكة، وعدم بقاء حظر التزوج بالكتابيات ، ولتدعيم ما ظل القرآن يشير إليه من وحدة المصدر والأسس بين المسلمين والكتابيين في المصاهرة والمؤاكلة ؛ وفي هذا صورة من صور السير التشريعي والحكمة السياسية التشريعية لمعالجة الموقف الحاضر ، ولتوطيد خطة مستمرة تقوم على المدى والأسس والظروف التي تلهم الآية وظرف نزولها .

وواضح أن الآية إنما أباحت التزوج بالكتابيات دون تزويج الكتابيين ، وهكذا تظل المسلمة محظورة على غير المسلم ؛ وحكمة ذلك غير خفية ، فالرجل قوام الأسرة وإليه ينسب النسل ، فليس في تزوجه بكتابية محظور من وجهة النظر الإسلامية ، بل إنه مفيد من وجهة نظر الدعوة الإسلامية ، وعكس هذا وذاك تزويج المسلمات بغير المسلمين .

ويمكن أن يضاف إلى هذا أن المسلمين يعترفون بكتب وأنبياء أهل الكتاب ويحترمونهم . فوجود الكتابية عند المسلم لن يعرضها لسماع انتقاص وازدراء لما تقدسه

من كتب وأنبياء . وهذا غير متوافر للمسلمة عند الكتابي لأنه لا يعترف بالقرآن والنبي محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن الثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تزوج بصفية الخيبرية عقب فتح خيبر ، ومع أن الروايات ذكرت أنها أسلمت فليس يستطاع الجزم بأن إسلامها كان قبل الزواج أو بعده ، وبالتالي لا يستطاع الجزم بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد تزوجها ممارسة لإباحة آية المائدة أولا ، ومما يقف في سبيل الجزم أن الروايات ذكرت أن النبي دخل بها في طريق عودته من خيبر ، في حين يرجح أن تكون الآية مع سلسلتها السابقة قد نزلت بعد مدة ما من فتح خيبر .

ولم نطلع على خبر يذكر أن المسلمين قد مارسوا هذه الإباحة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أي أن يكونوا تزوجوا بكتابيات بقين على دينهن . ومن المحتمل أن يكونوا فعلوا . لأن المعروف أنه كان بقي بعض اليهود . والنصارى في المدينة وبعض اليهود في خيبر والقرى اليهودية الأخرى دون ما حول ولا طول . والآية وإن كانت جاءت بأسلوب تشريعي عام فإن ضمير الجمع المخاطب فيها وسبقها بآية بدأت بجملة (يسألونك ماذا أحل لهم) قد يفيدان أن بعض المسلمين سألوا عن هذا الأمر أيضاً . ولا بد من أن يكون ذلك بسبب رغبة أو حاجة . وهذا قد يجعل ذلك الاحتمال قوياً .

الصُّورة الرابعة

(٥) وجاء في سورة النور الآية التالية :

« ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ... » ٣

وقد تعددت الأقوال في مدى الآية ، إذ قيل إنها للتنديد والتشنيع ، وإن التحريم منصب على الزنا نفسه ؛ كما قيل إنها بسبيل تحريم الزانية ؛ وقد روي أن بعض المسلمين استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في نكاح بغي يشتهيها أو يحبها فنزلت الآية جواباً .

ومهما يكن من أمر فالآية تنطوي على كل حال على كراهيــة التزوج بالزانية وتزويج الزاني ، وخاصة إذا ما ثبتت عليهما جريمة الزنا وأقيم عليهما الحد ؛ لأن الآية جاءت بعد تعيين الحد وإيجاب إقامته ، والاتصال في المفهوم بينها وبين ما سبقها واضح الوثاقة ؛ وسواء أصحت الرواية أو لم تصح ـ لأن هذا الاتصال يدعم كون الآية تتمة لما قبلها ـ فمن المحتمل أن يكون التزوج بالزانية أو تزويج الزاني مما لم يكن عليه غبار في نظر البعض في ذلك العهد ، وكان مما يمارس ، فنزلت الآية بالتحريم ، أو على الأقل بالتشنيع ليكون فيها زجر للزناة وتهديد لمقاطعتهم ؛ وهكذا تكون الآية قد تضمنت علاجاً حكيماً للحالة الحاضرة متسمراً مداه الحكيم بعدها .

(٦) وجاء في السورة نفسها الآيات التالية :

« وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... »

٣٢ — ٣٣

والآية الأولى تحث المسلمين على تزويج الذين لا أزواج ولا زوجات لهم ، وعلى تزويج رقيقهم رجالا ونساء ، وهذا الحث يتسق مع قواعد العمران وطبيعة الإنسان ، وينطوي فيه مقصد جليل من هذه الوجهة ، كما فيه تدعيم لما استهدفه القرآن في آيات النساء من توطيد الحياة العائلية في الإسلام .. ويبدو أن الفقر كان كثيراً ما يمنع التزاوج ، فنبهت الآية إلى وجوب التساهل في الأمر حتى لا يتعطل ذلك المقصد

الجليل ، وفي هـذا معالجة لحالة قائمة ، وتلقين مستمر المدى لقاعدة اجتماعية جليلة في الوقت نفسه .

أما الآية الثانية فإنها تحث من ناحية الذين لا يقدرون ماليا على النكاح على العفة ، وهي من أسس المكارم الأخلاقية الإسلامية ؛ ومن ناحية على عدم إكراه الفتيات على البغاء في سبيل أعراض الدنيا ؛ ولقد روي في صدد النقطة الأخيرة أن زعيم المنافقين كان يجبر بعض إمائه على البغاء والتكسب به لحسابه ، وأن هذه العادة مما كان جاريا قبل البعثة . ولسنا مطمئنين إلى هذا لما فيه من مسبة اجتماعية كبرى لا يعقل أن يقدم عليها زعيم ، ولأن في الآية وفيما قبلها ما يجعل هذا القول غير وارد ، فالآية الأولى تحث على تزويج غير المتزوجين أحرارا وأرقاء ، رجالا ونساء ؛ فالمعقول أن تكون الفقرة الأخيرة من الآية الثانية بمعنى نهي المسلمين عن عدم تزويج فتياتهم إذا ما تيسر لهن الزواج تفادياً من الإنفاق أو تغاليا في المهور ؛ لأنه قد يكون في ذلك دفع لهن إلى البغاء .

ولقد روى أن عبداً طلب من مالكه المسلم أن يسمح له بشراء نفسه بثمن يدفعه مقسطا ـ وهذا معنى الكتاب أو المكاتبة ـ فأبى ، فاشتكى للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأمرت الآية بذلك . وورود الأمر بالمكاتبة في آيتين تشريعيتين فى الزواج ، مما يلهم أن يكون العبد قد رغب في التزوج أيضا فرغب في المكاتبة ليتحرر وليتزوج كما يشاء ، فلما أبى مالكه عليه ذلك رفع أمره لله والنبي .

وظاهر من هذا كله أن الآيتين قد احتوتا صوراً واقعية ، ونزلتا في مناسبات لتحل ما كان من مشاكل حلا قويما متسقا مع الحق والعدل وطبيعة الإنسان واجتماعه ، ولتكون في الوقت نفسه تشريعا مستمر الحكم والتلقين .

الصّورة الخامسة

وثانيا : في الحياة الزوجية :

(١) جاء في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ . نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ . وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ . لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . . . »

٢٢٢ — ٢٢٧

وهي توجب اعتزال النساء في المحيض ، وتأمر بتقوى الله فيهن ، وتحل مشكلة الإيلاء بالمعاشرة أو الطلاق . وقد روى أنّ أهل المدينة كانوا ينحون نحو اليهود في عزل نسائهم وعدم الاكتفاء بعدم قربهنّ جنسيا حيث يعتبر اليهود نساءهم الحائضات نجسات فلا يخالطونهن ولا يمسونهن ولا يؤاكلونهن إلى أن يطهرن . فسأل بعض المسلمين عن ذلك فنزلت الآيتان الأوليان .

وكان من عادة الأزواج في الجاهلية إذا كرهوا زوجاتهم أو غضبوا منهن لأمر ما أن يحلفوا بعدم قربهنّ فتصبح الزوجة معلقة لا هي زوجة ولا مطلقة ، مما عرف بالإيلاء وهو الحلف ، فشكا بعض النساء أمرهنّ للنبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآيات الأربع الأخيرة ؛ وليس في الروايات ما لا يتسق مع الآيات ، وكل ما يمكن أن يكون

هو أن السلسلة قد نزلت وحدة بناء على شكاوي واستفتاءات سابقة . وعلى كل حال فالآيات قد انطوت على صور واقعية لما كان عليه الأمر في الجاهلية ثم استمر إلى ما بعد الهجرة النبوية بمدة ما ونزلت لمناسباتها جواباً على استفتاءات وشكاوي لحل المشاكل ومعالجة الحالة حلا وعلاجا قويمين حكيمين مستهدفين لتوطيد الحق والبر والإصلاح ومنع الأذى ، ولتكون تشريعاً وتلقيناً مستمر المدى أيضا .

وقد أكملت السنة هذا التشريع فأوجبت اعتبار الزوجة التي لا يرجع زوجها عن يمينه قبل انتهاء المدة طالقة منه طلقة بائنة وبذلك تسترد حريتها ولا تظل مقيدة معلقة .

ويظهر من بعض الآيات أن بعض الأزواج قد احتجوا باليمين وتقيدهم بها ، فأجابت عن هذا الاحتجاج بما فيه الحكمة الجليلة ، وهو أن المهم هو المقصد المبيت في النفس وليس الكلام الذي يمكن أن يكون قد صدر بسائق الغضب والتسرع أو الهوى ؛ فإذا كان القصد الفراق وجب أن يكون الفراق ، وإلا فلا يجوز أن تكون اليمين وسيلة للأذى والضرر ومانعة عن البر والتقوى والإصلاح ، وفي هذا صورة من السير التشريعي والمساجلة فيه للإقناع وإقامة الحجة .

الصُّورَةُ السَّادِسَة

(٢) وجاء في سورة النساء الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهاً وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً . وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَـٰناً وَإِثْماً مُّبِيناً . وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقاً غَلِيظاً ... » ١٩ ـ ٢١

والآيات قوية التلقين في صدد حسن معاشرة الزوجات وعدم إزعاجهن لابتزاز أموالهن بدون حق ، والتنويه برابطة الزوجية ووجوب رعايتها رعاية تامة من جانب الرجل . ومضمونها وأسلوبها يلهمان أن بعض الزوجات كن يلقين عنتا من أزواجهن في الحياة الزوجية ، لابتزاز أموالهن . كما أن الآية الثانية تلهم أن بعض الأزواج بعد أن قيدتهم الآية بأربع نساء كانوا حينما يريدون أن يتزوجوا بزوجة جديدة يعمدون إلى تطليق إحدى القديمات ، وأنهم كانوا بسبيل ذلك يعمدون إلى مساومة زوجاتهم لاسترداد بعض ما دفعوه من المهور لهن ، وفي هذا وذاك صور لما كان عليه الحال إلى وقت متأخر من العهد المدني ، وقد استهدفت الآيات توطيد الحق والعدل والهناء العائلي ، وتلقين الصبر وسعة الصدر نحو الزوجات ، فكانت علاجا قويا وحكيما للحالات والتصرفات الشاذة ، وتشريعا جليلا مستمر المدى والتلقين أيضا .

(٣) وقد جاء في السورة نفسها الآيات التالية أيضا :

« ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا . وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ... » ٣٤ ـ ٣٥

وقد استهدفت الآيات توطيد الانسجام في الحياة العائلية ، وبيان مركز كل من الرجل والمرأة فيها ، وقررت قوامة الرجل معللة إياها بما وهبه الله للرجال من مزايا وبما أخذوه على عاتقهم من مسئولية النفقة ، كما قررت على المرأة وجوب الطاعة للرجل والأمانة والصيانة ، وحثت على توسيط وسطاء الخير في الحالات التي يخشى فيها تفاقم الشقاق توطيداً للهناء والانسجام العائلي . والراجح أن التأديب

والتوسيط هما من أجل تلافي النشوز والشقاق والطلاق ، إبقاء على الرابطة الزوجية . ومن الراجح أن الآيات قد نزلت بمناسبة مشكلة زوجية رفع أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكانت حلا حكيما للمشكلة ، وتلقينا مستمر المدى أيضا . كذلك من الراجح أن قوامة الرجل على المرأة وحق تأديبه لها مما كان جاريا ومعترفا به قبل نزولها ، كما يستلهم من أسلوب أول الآيات التقريري ، فأقرت الآيات للرجل بعض ما كان جاريا وعللته وجعلت حق تأديبه لزوجته مقيدا بقيود وحدود ؛ وهكذا ينطوي في الآيات كما هو المتبادر صور مما كان عليه الحال ، ومشاهد من مشاهد الحياة الزوجية في العهد المدني .

ولقد ظلت الأحكام القرآنية التي تجعل المرأة متساوية مع الرجل في مختلف التكاليف الدنيوية والدينية ونتائجها الدنيوية والأخروية . والتي تجعلها كذلك صاحبة أهلية تامة في قبض مهرها واستيفاء إرثها والتصرف فيما يدخل في يدها من مال وحقها في الاحتفاظ به بدون رقابة الرجل ومراقبته وإذنه محكمة بحيث يتأيد بهذا كون القوامة الممنوحة للزوج هي في نطاق الحياة الزوجية وحسب فضلا عن أن الآية الثانية تحتوي قرينة حاسمة على ذلك .

(٤) وجاء في السورة نفسها كذلك الآيات التالية :

« وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً . وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً . وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً . . . »

١٢٨ ــ ١٣٠

وقد استهدفت الآيات أيضا توطيد الحياة الزوجية ووجوب رعايتها إلى أبعد حد ممكن ، بحيث لا يكون الفراق إلا في الحالة التي لا مندوحة عنها .

وقد يلهم مضمونها أنها في صدد مشكلة متصلة بالمعاشرة الزوجية وتعدد الزوجات ، ومن الراجح أنها نزلت بمناسبة معينة رفع أمرها إلى النبي ، وتكررت أمثالها مما هو طبيعي الوقوع في الحياة الزوجية ، وخاصة في حالات التعدد ، فكانت حلا حكيما وقويما للمشاكل القائمة ، وتلقينا مستمر المدى في الوقت نفسه أيضا . وإذا لوحظ أن آية النساء (٣) قد نبهت على وجوب الاقتصار على واحدة في حالة غلبة عدم العدل ، وأن هذه الآيات قررت تعذر هذا العدل ، وأن تعدد الزوجات مما كان مألوفا في ذلك العهد والبيئة ـ أمكن أن يلمح في هذه الآيات وفي الآية المشار إليها معا تلقين بالكف عن التعدد أو الاقتصاد فيه ، وبالتالى قصد لتعديل ما أبيح للرجال من عدد محدد كانت إباحته نفسها تعديلا لما كان مألوفا من عدم التحديد . وفي خلال ذلك تنطوي صورة من صور السير التشريعي كما هو المتبادر .

الصورة السابعة

(٥) وجاء في سورة المجادلة الآيات التالية :

« قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ . ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ . وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... » ١ ـ ٤

وقد احتوت الآيات كما هو واضح منها حكاية موقف جدال بين النبي صلى الله عليه

وسلم وإحدى زوجات المسلمين في صدد شكواها من زوج ظاهرها ، وفي هذا صورة لما كان الأمر جاريا عليه في ظروف الحياة الزوجية ومشاكلها ، وما كان يرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم منها فتنزل الآيات بمناسباته . والمظاهرة تعني قول الرجل لزوجته: أنت على كظهر أمي ! فيحرم عليه قربها ، وتصبح معلقة لا زوجة ولا مطلقة ، وقد كان الأزواج يعمدون إلى هذا إذا ما أرادوا أن يضاروا زوجاتهم أو يبتزوا أموالهن ، أو في حالة غضب وغيظ منهن لأمر ما . ومضمون الآيات يلهم أن المرأة لم تجد في النبي صلى الله عليه وسلم في بادئ الأمر أذناً سامعة ومسارعة إلى إقرار حقها في الشكوى ، ولعله اكتفى بالنصح والوعظ لها ولزوجها ، ولم يكن في ذلك تشريع واف وإلزامي ، فهتفت شاكية إلى الله ، فنزلت الآيات تقر حقها في الشكوى ، وتندد بالمظاهرة والمظاهرين وتسفههم ، وتحل المشكلة حلا إلزاميا .

ولقد جاء في سورة الأحزاب فقرة فيها تسفيه للظهار والمظاهرة دون أن تحتوي حلا ، وهي هذه :

« وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ... » ٤

فلم تكن حاسمة ، فلما كانت مشكلة الزوجة المجادلة المشتكية إلى الله جاءت آيات المجادلة حاسمة ؛ والكفارة تدل على أن الظهار كان أشد أثرا في التحريم من الإيلاء العادى في المجتمع ، فاقتضت الحكمة التشديد فيها لتسويغ إبطاله على ما هو المتبادر . وفي كل ما تقدم صور لسير التشريع القرآني كما هو واضح :

هذا ؛ وموقف الزوجة المجادلة عن حقها المشتكية إلى الله موقف قوي رائع ؛ قد يدل على أن الإسلام والسيرة النبوية قد أوجدا في المرأة شيئا من الطمأنينة بالإنصاف ، وجرأة على الدفاع عن حقها ، وحافزاً إلى المطالبة بإبطال ما كن يتعرضن له من الأذى والحيف بسبب من عادات وتقاليد جاهلية . وفي هذا مافيه من مشهد تطوري في المجتمع الإسلامي الناشئ كما هو واضح .

الصورة الثامنة

وثالثاً : في الطلاق وعواقبه .

(١) في سورة البقرة الآيات التالية :

« لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُواً وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ

وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . . » .

٢٢٦ ـ ٢٣٣

ويبرز في الآيات قصد حماية الزوجة وحقها في مختلف الحالات ، كما يبرز قصد حماية الكيان الزوجي أو العائلي من الهدم بسبب الحقد والتعنت ، أو الرعونة والطيش ، بروزاً قويا جليل المدى .

ومن المرجح أن الآيات قد نزلت بمناسبة مشكلات حدثت وتكررت وشكاوى رفعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم طلبا للحل والإنصاف ؛ ويلهم مضمونها ومقاصدها البارزة أن المرأة كانت إلى حين نزولها عرضة للضرر والإزعاج والأذى والابتزاز في ظروف الطلاق والمعاشرة الزوجية ، من زوجها أحياناً ومن أهلها أحياناً وبسبب عادات جاهلية أحياناً ، وأن الشكاوى المرفوعة كانت من جانب الزوجات على الأغلب ، وإن كان هذا لا يمنع أنها كانت أحياناً من جانب الأزواج ، وهكذا تكون الآيات قد انطوت على تصور لما كان الأمر جاريا عليه من قبل البعثة إلى حين نزولها ومعالجة حكيمة للحالة الحاضرة استهدفت توطيد الحق وحماية الكيان العائلي ، وإنصاف المرأة ، وتشريعا مستمرا في هذه الشؤون الخطيرة .

(٢) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

١ — لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ . وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ...

٢٣٦ – ٢٣٧

٢ — وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ . كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ... ٢٤١ – ٢٤٢

وقد احتوت تشريعات أخرى في صدد الطلاق متممة لما سبقها ، ويبرز فيها كتلك قصد حماية الزوجة ورعاية حقها . والآيات متصلة السياق بالسلسلة السابقة ؛ وقد تخللتها آيات تتعلق بحالة الترمل سنوردها بعد . وروح الآيات ومضمونها يلهمان أن ماحتوته من أحكام هو جديد لم يكن مألوفاً أو جاريا من قبل ، بحيث يسوغ أن يقال إن حق المرأة في الحالات المذكورة فيها لم يكن معترفا به ، أو كان رهناً بالظروف ، مع أن هذه الحالات مما يتكرر وقوعه في الحياة الزوجية ؛ فاقتضت الحكمة إكمال التشريع بهذه الأحكام ؛ ولا يبعد إن لم نقل نرجح أن مشكلات حدثت وشكاوى رفعت إلى النبي حول هذه الشؤون ، فجاءت السلسلة محتوية لحل ما كان من مشكلات والإجابة على مارفع من شكاوى فيها أيضا ، عليها في الوقت نفسه طابع التشريع المستمر المدى .

الصورة التاسعة

(٣) وجاء في سورة الأحزاب الآية التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا .. »

٤٩

وقد احتوت حكما متمما لما جاء في سلسلة آيات البقرة السابقة . ويبدو أن بعض المسلمين ظنوا أن العدة لابد منها في كل حال ، أو أن بعضهم استفتى النبي صلى الله عليه وسلم في الحالة التي ذكرتها الآية ، أو حصلت مشكلة ما في صددها ، أو أن هذا هو

ما كان جارياً قبل نزولها ؛ فنزلت مشرعة للأمر بما هو متسق مع المنطق ، إذ أن العدة إنما شرعت لاستبراء الرحم ، ومتصل بقصد حماية المرأة ؛ إذ أن اعتدادها بسبب هذه الحالة مما يضر بمصلحتها . وفي الآية من بعد صورة لسير التشريع القرآني كما هو ظاهر .

(٤) وجاء في سورة الطلاق الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا . فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا . ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا . أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ . لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا . . . »

وقد احتوت الآيات تشريعات متممة للطلاق وظروفه ، يبرز فيها كتلك قصد حماية المرأة وصيانة حقوقها بروزاً قويا كذلك ، بل إن هذا القصد بارز هنا بروزاً أكثر ؛ بدليل ماتكرر خلال الآيات من الأمر بتقوى الله والإنذار به ، وما في الآيات من تكرار لبعض الأحكام السابقة ؛ وهذا يلهم أن بعض المسلمين اقترفوا بعض المخالفات لروح أو نصوص الآيات السابقة متأثرين بعوامل متنوعة ، فحدثت بسبب ذلك مشكلات ، ورفعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم شكاوى ، فنزلت الآيات لإيضاح ماقد ظل غامضا من أحكام بعض الحالات ؛ وللتنبيه إلى وجوب التزام أوامر الله وتقواه في هذه الشؤون الخطيرة ؛ وقد جاء الأمر مطبوعاً بطابع التشريع العام ليكون تشريعا حكيما مستمر المدى . والآيات كما هو واضح تحتوي مشهدا من مشاهد المجتمع الإسلامي في العهد المدني ، وصورة من صور التشريع القرآني أيضا .

الصورة العاشرة

ورابعا : في الترمل :

(١) جاء في سورة البقرة الآيات التالية :

١ ـ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ...

٢٣٤ ـ ٢٣٥

٢ ـ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ

غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... ٢٤٠

والآيات كما قلنا جاءت في سلسلة آيات البقرة ، وقد قال المفسرون والرواة : إن عدة المترملة الحدادية كانت قبل نزولها حولا كاملا ، لاتخرج فيه من بيتها ولا تتزين ولاتتطيب ولا تتعرض لنكاح أو خطبة نكاح ، وإن الآية (٢٤٠) نزلت قبل الآيتين (٢٣٤ – ٢٣٥) تقر هذه العادة مع إعطاء المرأة حرية الخروج قبل تمام الحول والتصرف بنفسها بما ليس فيه منكر ، وإلزام ورثة الزوج بنفقتها ، ثم نزلت الآيتان لتقرير القاعدة الدائمة ، وقالوا بناء على ذلك : إن الآيتين قد نسختا الآية (٢٤٠) وإن كان في ترتيبها تقديم للناسخ وتأخير للمنسوخ .

والآية (٢٤٠) تلهم فعلا أن عدة حداد الأرملة كانت حولا كاملا ، وأنها قد أقرتها بشكل ما ، وأن الآية (٢٣٤) قد حددت هذه العدة بأربعة أشهر وعشر ليال ، وأن في هذا شيئا من النسخ التشريعي للعادة القديمة . غير أن في الآية (٢٤٠) شيئا من الموضوع المستقل أيضا بحيث لايقال إنها نسخت جملة ؛ لأنها تقرر حق الأرملة في السكنى والنفقة طيلة السنة إذا رأت أن تبقى في بيت الزوجية هذه المدة وتمنحها حق الخروج من بيت الزوجية قبل انتهاء هذه المدة . وعلى كل حال ففي الآيات صور لما كان عليه الأمر في العهد النبوي إلى حين نزولها ، كما فيها صورة لسير التشريع القرآني أيضا . وقصد الرعاية لحق المرأة وحمايتها في الآيات الثلاث بارز شأن الآيات التي نقلناها جميعا ، مما يدعم ما استدللنا عليه من هذا الأسلوب من سوء حالة المرأة ومعاملتها . والمرجح أنه حدثت مشاكل في هذا الصدد ورفعت شكاوى للنبي ، وربما تضمنت هذه الشكاوى التماس التخفيف من وطأة العادات الجاهلية وقد كرم الله المسلمين بالإسلام ، فنزلت الآيات لتحل المشكلة وتعالج الموقف بما يقتضيه الحق والرحمة بالمرأة ، ولتكون تشريعا مستمر المدى في الوقت نفسه .

ولقد نصت آيات سورتي البقرة والطلاق التي نقلناها في موضوع الطلاق على

أن عدة براءة الرحم للحائضات ثلاث حيضات ، ولغير الحائضات ثلاثة أشهر ؛ فتكون عدة الأرملة المذكورة في الآية (٢٣٤) والحالة هذه ليست عدة براءة رحم ، وإنما هي عدة حداد تدخل فيها عدة براءة الرحم ، ويكون القرآن والحالة هذه قد أقر فكرة حداد المرأة على زوجها التي كانت قبل نزول التشريع ، بعد أن أدخل عليها التخفيف والتنظيم ، كما أقر أشياء كثيرة بعد تخفيفها أو تهذيبها أو تنظيمها مما مرت بنا صور عدة منه .

وآية سورة الطلاق (٤) قد جعلت عدة المطلقة الحامل وضع حملها دون نظر إلى عدد الحيضات وعدد الأشهر ؛ لأن الأصل في العدة كما قلنا براءة الرحم ؛ ولقد رويت سنة نبوية بأن هذا أيضاً هو عدة الأرملة ، بحيث لو وضعت الأرملة الحامل عقب وفاة زوجها وقبل مرور الأشهر الأربعة والليالي العشر اعتبرت عدتها منقضية ؛ فإذا صحت السنة المذكورة كان فيها تعديل استهدف التخفيف عن المرأة وصورة من صور التشريع النبوي في شكل تخفيف أو توضيح للتشريع القرآني .

الصورة الحادية عشرة

وخامساً : في الآداب البيتية .

(١) جاء في سورة النور الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ . قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا

مَاظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَايُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . . . » ٢٧ ـ ٣١

وقد احتوت تشريعات تأديبية للمسلمين في إيجاب الاستئذان والإذن قبل دخولهم بيوت غيرهم ، وغض الرجال والنساء أبصارهم عن بعضهم بعضا تفاديا من الفتنة ، واحتشام المرأة في اللباس بحيث لا تظهر من زينتها على غير محارمها إلا ما لا إمكان لإخفائه ، تفاديا من الفتنة أيضا . وروح الآيتين الأخيرتين ، ثم وحدة الآيات والسياق ، تلهم أن التأديب في الآيتين هو في صدد دخول غير المحارم إلى البيوت بعد الاستئذان والإذن ، وإن كان محتمل الشمول لداخل البيوت وخارجها ، والأمر الوارد بالتوبة في الفقرة الأخيرة من الآية الأخيرة قد يلهم أنه وقع شذوذ أو تصرف غير مستحب في سياق دخول بعض الناس على بعض رفع أمره إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أن المقصد التأدبي والتنظيمي في الآيات يلهم أن الأمر لم يكن جاريا على ما احتوته ، وأن حكمة التنزيل اقتضت تحقيق هذا المقصد بعد ماتم نشوء المجتمع الإسلامي ، فنزلت الآيات تنظم ذلك هذا التنظيم القويم الحكيم ، وتؤدب المسلمين بهذا الأدب الرفيع ؛ لمعالجة الحالة الحاضرة ، وليكون تلقينا مستمر المدى أيضا ؛ والآيات ٣٢ ـ ٣٣ التي نقلناها قبل قليل والتي تأمر بتزويج الأيامى والصالحين من الأحرار والعبيد رجالا ونساء ، وتحث على العفة ـ قد تكون قرينة قوية للمناسبة التي ذكرناها لنزول الآيات .

(٢) وجاء في السورة نفسها الآيات التالية أيضا :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ

يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ[(١)] ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ...» ٥٨ ـ ٦١

والآيات كسابقاتها بسبيل التعليم والتأديب ، كما تناولت أمورا أخرى ؛ وقد تلهم أن النساء اللاتي لا يرجون نكاحا قد اشتكين من التشديد في التخمر الذي أوصت به الآيات السابقة ، وأن بعض المسلمين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم بمناسبتها عما هو جار من دخول الخدم المماليك والأطفال على مخادع الزوج والزوجة في كل وقت دون استئذان وإذن ، أو تمنوا أن ينزل الله تعليما بذلك ، وأن بعضهم تحرج من الاجتماع على الطعام مع العمي والعرج والمرضى ، أو بصورة مختلطة ، أو تمنى كذلك أن ينزل الله تعليما بالأمر ،

---

(١) بمعنى يخلعن ثيابهن أي يتخففن ولا يتشددن بالتخمر .

كما أن المقصد التأديبي والتنظيمي في الآيات كما في تلك ، يلهم أن الأمر لم يكن جاريا على ما احتوته ، وأن حكمة التنزيل اقتضت تحقيق هذا المقصد ، فنزلت الآيات تتمة لما نزل سابقا وبعده بمدة ما .

وفي هذا تنطوي صورة لسير التشريع القرآني كما هو واضح .

(٣) وجاء في سورة الأحزاب الآية التالية ؛

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً . . . »

٥٩

وقد ذكر المفسرون والرواة أن النساء الحرائر والإماء كن يتزيين بزي واحد ، فيتعرض الحرائر لأذى الفساق كالإماء ، فنزلت الآية بجعل زي خاص للمسلمات الحرائر حتى يميز الناس بينهن وبين الإماء وينجون من الأذى . وعلى كل حال ففي الآية حل لتفادي تعرض نساء المسلمين للأذى ، مما فيه صورة لما كان يحدث في العهد المدني اتخذت وسيلة لمعالجة الحالة الحاضرة ، وليكون تشريعا وتلقينا مستمرى المدى في الوقت نفسه أيضا .

فهـــرس
الجزء الثاني

صفحة